فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

تفسير سورة النور

هى مدنية ، وآياتها أربع وستون آية . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : أنزلت سورة النور بالمدينة. وأخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عائشة مرفوعا: لا تنزلوهنّ الغرف ولا تعلموهنّ الكتابة، يعنى النساء، وعلموهنّ الغزل وسورة النور (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ: « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » (٢) وهو مرسل . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن حارثة بن مضرب قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ③ ﴾ .

السورة فى اللغة اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، ومنه قول(٣) النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة ، قرأ الجمهور : ﴿ سورة ﴾ بالرفع وفيه وجهان : أحدهما : أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أى هذه سورة، ورجحه الزجاج والفراء والمبرد ، قالوا : لأنها نكرة ، ولا يبتدأ بالنكرة فى كل موضع . والوجه الثانى : أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها

---

(١) صححه الحاكم ٢/٣٩٦ وقال الذهبى : « بل هو موضوع وآفته عبد الوهاب . قال أبو حاتم : كذاب » والبيهقى فى الشعب (٢٢٢٧) وفى سنده عبد الوهاب بن الضحاك بن أبان كذبه أبو حاتم ، وقال البخارى : «عنده عجائب » وقال النسائى وغيره :« متروك ». وقال الدارقطنى :« منكر الحديث » . الجرح والتعديل ٦/ ٧٤ والميزان ٢/ ٦٧٩ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٠٥) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٣٧٣١) .

(٣) فى المطبوعة : « قوله زهير » ، والصحيح ما أثبتناه ، كما فى ديوان النابغة ص ٥٧ .

موصوفة بقوله : ﴿ أنزلناها ﴾ والخبر : ﴿ الزانية والزانى﴾ ويكون المعنى : السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا ، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختم ، وهذا معنى صحيح ، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة فهى نكرة مخصصة بالصفة، وهو مجمع على جواز الابتداء بها . وقيل: هى مبتدأ محذوف الخبر على تقدير : فيما أوحينا إليك سورة ، وردّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة، لا بيان أن فى جملة ما أوحى إلى النبىّ ﷺ سورة شأنها كذا وكذا . وقرأ الحسن بن عبد العزيز وعيسى الثقفى وعيسى الكوفى ومجاهد وأبو حيوة وطلحة بن مصرف بالنصب ، وفيه أوجه : الأوّل : أنها منصوبة بفعل مقدّر غير مفسر بما بعده، تقديره : اتل سورة ، أو اقرأ سورة . الثانى : أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره ما بعده على ما قيل فى باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره ، أى أنزلنا سورة أنزلناها ، فلا محل لـ ﴿ أنزلناها ﴾ هاهنا لأنها جملة مفسرة ، بخلاف الوجه الذى قبله فإنها فى محل نصب على أنها صفة لسورة . الوجه الثالث : أنها منصوبة على الإغراء ، أى دونك سورة، قاله صاحب الكشاف. ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء . الرابع : أنها منصوبة على الحال من ضمير﴿ أنزلناها﴾، قال الفراء : هى حال من الهاء والألف والحال من المكنى يجوز أن تتقدّم عليه ، وعلى هذا فالضمير فى ﴿أنزلناها﴾ ليس عائدا على ﴿ سورة ﴾ ، بل على الأحكام ، كأنه قيل : أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: « وفرّضناها » بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف . قال أبو عمرو : فرّضناها بالتشديد ، أى قطعناها فى الإنزال نجما نجما . والفرض : القطع ، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير أو للمبالغة ، ومعنى التخفيف : أوجبناها وجعلناها مقطوعا بها . وقيل : ألزمناكم العمل بها . وقيل : قدّرنا ما فيها من الحدود، والفرض : التقدير ، ومنه : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن ﴾ [القصص : ٨٥] .

﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أى أنزلنا فى غضونها وتضاعيفها ، ومعنى كونها بينات : أنها واضحة الدلالة على مدلولها ، وتكرير ﴿ أنزلنا ﴾ لكمال العناية بإنزال هذه السورة ، لما اشتملت عليه من الأحكام .

﴿ الزانية والزانى ﴾ : هذا شروع فى تفصيل ما أجمل من الآيات البينات ، والارتفاع على الابتداء ، والخبر: ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما ﴾ أو على الخبرية لسورة كما تقدّم ، والزنا هو : وطء الرجل للمرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح . وقيل : هو إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم شرعا ، والزانية هى : المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكرهة ، وكذلك الزانى ، ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، وأما على مذهب سيبويه فالخبر محذوف ، والتقدير : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله: ﴿فاجلدوا ﴾ والجلد : الضرب ، يقال : جلده إذا ضرب جلده ، مثل بطنه إذا ضرب بَطنه ، ورَأَسَه إذا ضرب رأسه . وقوله : ﴿ مائة جلدة ﴾ هو حدّ الزانى

الحر البالغ البكر ، وكذلك الزانية ، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد ، وهى تغريب عام ، وأما المملوك والمملوكة فجلد كلّ واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه : ﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ [النساء : ٢٥] . وهذا نص فى الإماء، وألحق بهن العبيد لعدم الفارق ، وأما من كان محصنا من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة وبإجماع أهل العلم ، بل وبالقرآن المنسوخ لفظه الباقى حكمه وهو : «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة . وقد أوضحنا ما هو الحق فى ذلك فى شرحنا للمنتقى ، وقد مضى الكلام فى حدّ الزنا مستوفى . وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة النساء . وقرأ عيسى بن عمر الثقفى ويحيى ابن يعمر وأبو جعفر وأبو شيبة: «الزانية والزانى » بالنصب . وقيل: وهو القياس عند سيبويه لأنه عنده كقولك : زيدا اضرب . وأما الفراء والمبرد والزجاج فالرفع عندهم أوجه وبه قرأ الجمهور . ووجه تقديم الزانية على الزانى ها هنا ؛ أن الزنا فى ذلك الزمان كان فى النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة منهنّ . وقيل: وجه التقديم أن المرأة هى الأصل فى الفعل . وقيل : لأن الشهوة فيها أكثر وعليها أغلب . وقيل : لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجبة والصيانة ، فقدّم ذكر الزانية تغليظا واهتماما . والخطاب فى هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم ، وقيل: للمسلمين أجمعين؛ لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعا، والإمام ينوب عنهم ، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** ﴾ يقال : رأف يرأف رأفة على وزن فعلة ، ورآفة على وزن فعالة ، مثل النشأة والنشاءة وكلاهما بمعنى الرقة والرحمة. وقيل: هى أرق الرحمة . وقرأ الجمهور : ﴿ **رأفة** ﴾ بسكون الهمزة . وقرأ ابن كثير بفتحها . وقرأ ابن جريج : « رآفة » بالمد كفعالة ، ومعنى ﴿ **فى دين الله** ﴾ : فى طاعته وحكمه ، كما فى قوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ [يوسف : ٧٦] . ثم قال مثبتا للمأمورين ومهيجًا لهم : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ كما تقول للرجل تحضه على أمر : إن كنت رجلا فافعل كذا ، أى إن كنتم تصدّقون بالتوحيد والبعث الذى فيه جزاء الأعمال فلا تعطلوا الحدود ﴿ **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ أى ليحضره زيادة فى التنكيل بهما وشيوع العار عليهما وإشهار فضيحتهما ، والطائفة : الفرقة التى تكون حافة حول الشىء ، من الطوف، وأقلّ الطائفة ثلاثة. وقيل: اثنان . وقيل : واحد . وقيل : أربعة . وقيل : عشرة .

ثم ذكر سبحانه شيئا يختص بالزانى والزانية ، فقال : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة** ﴾ . قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الآية على أقوال : الأوّل : أن المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله وأنه محرّم على المؤمنين ، ويكون معنى الزانى لا ينكح : الوطء لا العقد ، أى الزانى لا يزنى إلا بزانية ، والزانية لا تزنى إلا بزان ، وزاد ذكر المشركة والمشرك

لكون الشرك أعمّ فى المعاصى من الزنا . وردّ هذا الزجاج وقال : لا يعرف النكاح فى كتاب الله إلا بمعنى التزويج ، ويردّ هذا الردّ بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت فى كتاب الله سبحانه ، ومنه قوله : ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ [البقرة : ٢٣٠] فقد بينه النبىّ ﷺ، بأن المراد به : الوطء ، ومن جملة القائلين بأن معنى الزانى لا ينكح إلا زانية : الزانى لا يزنى إلا بزانية سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة ، كما حكاه ابن جرير عنهم ، وحكاه الخطابى عن ابن عباس . القول الثانى : أن الآية هذه نزلت فى امرأة خاصة كما سيأتى بيانه ، فتكون خاصة بها كما قاله الخطابى . القول الثالث : أنها نزلت فى رجل من المسلمين ، فتكون خاصة به قاله مجاهد . الرابع : أنها نزلت فى أهل الصفة ، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح . الخامس : أن المراد بالزانى والزانية : المحدودان حكاه الزجاج وغيره عن الحسن قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة . وروى نحوه عن إبراهيم النخعى ، وبه قال بعض أصحاب الشافعى . قال ابن العربى : وهذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا . السادس : أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه :﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾ قال النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء . القول السابع : أن هذا الحكم مؤسس على الغالب ، والمعنى : أن غالب الزناة لا يرغب إلا فى الزواج بزانية مثله ، وغالب الزوانى لا يرغبن إلا فى الزواج بزان مثلهن ، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد زجرهم عن الزنا ، وهذا أرجح الأقوال ، وسبب النزول يشهد له كما سيأتى .

وقد اختلف فى جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها ، فقال الشافعى وأبو حنيفة بجواز ذلك . وروى عن ابن عباس ، وروى عن عمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز . قال ابن مسعود : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا ، وبه قال مالك ، ومعنى ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ أى نكاح الزوانى ، لما فيه من التشبه بالفسقة والتعرّض للتهمة والطعن فى النسب . وقيل : هو مكروه فقط ، وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة فى الزجر .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها** ﴾ قال : بيناها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر ؛ أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها وظهرها ، فقلت : ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** ﴾ قال : يا بنىّ ورأيتنى أخذتنى بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ولا أن أجلد رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿**وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾ قال : الطائفة الرجل فما فوقه . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وأبوداود فى ناسخه ، وابن المنذر وابن أبى

(١) ابن جرير ١٨/ ٥٢ .

حاتم ، والبيهقى فى سننه ، والضياء المقدسى فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الزانى لا ينكح** ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، ولكن الجماع ، لا يزنى بها حين يزنى إلا زان أو مشرك ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ يعنى : الزنا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ قال : كنّ نساء فى الجاهلية بغيات ، فكانت منهنّ امرأة جميلة تدعى أمّ جميل ، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهنّ لتنفق عليه من كسبها ، فنهى الله سبحانه أن يتزوّجهنّ أحد من المسلمين (١) ، وهو مرسل . وأخرج عبد بن حميد عن سليمان بن يسار نحوه مختصرا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال : كانت بغايا آل فلان ، وبغايا آل فلان ، فقال الله : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ الآية ، فأحكم الله ذلك فى أمر الجاهلية (٢) . وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن الضحاك فى الآية قال : إنما عنى بذلك الزنا ولم يعن به التزويج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية قال : الزانى من أهل القبلة لا يزنى إلا بزانية مثله من أهل القبلة أو مشركة من غير أهل القبلة ، والزانية من أهل القبلة لا تزنى إلا بزان مثلها من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة ، وحرّم الزنا على المؤمنين . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة يقال لها أمّ مهزول ، وكانت تسافح وتشترط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوّجها ، فأنزل الله : ﴿ **الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك** ﴾ (٣) .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان رجل يقال له: مرثد ، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، وكانت امرأة بغىّ بمكة يقال لها عناق ، وكانت صديقة له ، وذكر قصة وفيها: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ، أنكح عناقا ؟ فلم يرد علىّ شيئا حتى نزلت : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية**﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة**

---

(١) ابن أبى شيبة ٤/ ٢٧٣ .

(٢) ابن جرير ١٨/ ٥٧ .

(٣) أحمد ٢/ ١٥٩ ، ٢٢٥ ، والنسائى فى التفسير (٣٧٩) ، وابن جرير ١٨/ ٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٣ ، ١٩٤، ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ١٥٣ .

والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ فلا تنكحها » [١] . وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو فى الآية قال : كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه ، فنهاهم الله عن ذلك . وأخرج أبوداود فى ناسخه، وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس ؛ أنها نزلت فى بغايا معلنات كنّ فى الجاهلية وكن زوانى مشركات، فحرّم الله نكاحهن على المؤمنين .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال : كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال : إنى كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرّم الله علىّ ، وقد رزقنى الله منها توبة فأردت أن أتزوّجها ، فقال الناس : الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال ابن عباس : ليس هذا موضع هذه الآية ، إنما كنّ نساء بغايا متعالنات يجعلن على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفن بذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعلىّ . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدىّ وابن مردويه والحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » [٢] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب ؛ أن رجلا تزوّج امرأة ، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدّ ، فجاؤوا به إلى علىّ ففرق بينه وبين امرأته ، وقال : لا تتزوّج إلا مجلودة مثلك .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **والذين يرمون** ﴾ : استعار الرمى للشتم بفاحشة الزنا ؛ لكونه جناية بالقول ، كما قال النابغة :

وجرح اللسان كجرح اليد

---

(١) أبو داود فى النكاح (٢٠٥١) والترمذى فى التفسير (٣١٧٧) وقال : « حسن غريب » والنسائى ٦/ ٦٦ وابن جرير ١٨/ ٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٦٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ١٥٣ .

(٢) أبو داود فى النكاح (٢٠٥٢) وابن عدى ٢/ ٤١٠ وصححه الحاكم ٢/ ١٦٦ ووافقه الذهبى .

وقال آخر :

رماني بأمر كنت عنه ووالدى بريا ومن أجل الطوى رمانى

ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفا ، والمراد بالمحصنات : النساء ، وخصهنّ بالذكر لأن قذفهنّ أشنع والعار فيهنّ أعظم ، ويلحق الرجال بالنساء فى هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة ، وقد جمعنا فى ذلك رسالة رددنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادى عشر لما نازع فى ذلك. وقيل : إن الآية تعمّ الرجال والنساء ، والتقدير : والأنفس المحصنات ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ [النساء : ٢٤] فإن البيان بكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء وإلا لم يكن للبيان كثير معنى . وقيل : أراد بالمحصنات: الفروج كما قال : ﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ [الأنبياء : ٩١] . فتتناول الآية الرجال والنساء . وقيل : إن لفظ المحصنات وإن كان للنساء لكنه ها هنا يشمل النساء والرجال تغليبا ، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف فى لغة العرب ، والمراد بالمحصنات هنا : العفائف ، وقد مضى فى سورة النساء ذكر الإحصان وما يحتمله من المعانى(١). وللعلماء فى الشروط المعتبرة فى المقذوف والقاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة فى كتب الفقه ، منها ما هو مأخوذ من دليل ، ومنها ما هو مجرّد رأى بحت . قرأ الجمهور ﴿ **المحصنات** ﴾ بفتح الصاد ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها . وذهب الجمهور من العلماء أنه لا حدّ على من قذف كافرا أو كافرة . وقال الزهرى وسعيد بن المسيب وابن أبى ليلى : إنه يجب عليه الحدّ . وذهب الجمهور أيضا أن العبد يجلد أربعين جلدة . وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة : يجلد ثمانين . قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما ، وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال(٢).

ثم ذكر سبحانه شرطا لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال : ﴿ **ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ﴾ أى يشهدون عليهنّ بوقوع الزنا منهنّ ، ولفظ ثم يدلّ على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود فى غير مجلس القذف ، وبه قال الجمهور، وخالف فى ذلك مالك ، وظاهر الآية أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين ، وخالف فى ذلك الحسن ومالك ، وإذا لم تكمل الشهود أربعة ، كانوا قذفة يحدون حد القذف . وقال الحسن والشعبى : إنه لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه ، وبه قال أحمد وأبوحنيفة ومحمد بن الحسن . ويردّ ذلك ما وقع فى خلافة عمر رضى الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا ، ولم يخالف فى

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **والمحصنات من النساء** ﴾ [النساء : ٢٤] .

(٢) أحمد ٢/٤٣١ ، ٥٠٠ والبخارى فى الحدود (٦٨٥٨) ومسلم فى الأيمان (١٦٦٠/٣٧) والترمذى فى البر (١٩٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وكلهم عن أبى هريرة .

ذلك أحد من الصحابة [رضى الله عنهم] (١) قرأ الجمهور: ﴿ **بأربعة شهداء** ﴾ بإضافة أربعة إلى شهداء ، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بتنوين أربعة . وقد اختلف فى إعراب شهداء على هذه القراءة ، فقيل : هو تمييز . وردّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرّر فى علم النحو . وقيل : إنه فى محل نصب على الحال . وردّ بأن الحال لا يجيء من النكرة التى لم تخصص. وقيل : إن شهداء فى محل جرّ نعتا لأربعة ، ولما كان فيه ألف التأنيث لم ينصرف . وقال النحاس : يجوز أن يكون شهداء فى موضع نصب على المفعولية ، أى ثم لم يحضروا أربعة شهداء ، وقد قوّى ابن جنى هذه القراءة ، ويدفع ذلك قول سيبويه إن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز فى الشعر .

ثم بين سبحانه ما يجب على القاذف فقال :﴿ **فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ الجلد : الضرب كما تقدّم ، والمجالدة المضاربة فى الجلود أو بالجلود ، ثم استعير للضرب بالعصى والسيف وغيرهما ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

وقد تقدّم بيان الجلد قريبا ، وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ، وجلدة منتصبة على التمييز ، وجملة : ﴿ **ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا** ﴾ معطوفة على « اجلدوا » أى فاجمعوا لهم بين الأمرين : الجلد ، وترك قبول الشهادة ، لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم الله به عليهم فى آخر هذه الآية . واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة ولو تأخرت عليها لكانت صفة لها ، ومعنى ﴿ **أبدا** ﴾ : ما داموا فى الحياة . ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم وإصرارهم عليه وعدم رجوعهم إلى التوبة فقال : ﴿ **وأولئك هم الفاسقون** ﴾ وهذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها . والفسق : هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة الحدّ بالمعصية ، وجوّز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال .

ثم بين سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ وهذه الجملة فى محل نصب على الاستثناء ، لأنه من موجب . وقيل : يجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل ، ومعنى التوبة قد تقدّم تحقيقه ، ومعنى ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ من بعد اقترافهم لذنب القذف. ومعنى ﴿ **وأصلحوا** ﴾ : إصلاح أعمالهم التى من جملتها ذنب القذف ومداركة ذلك بالتوبة والانقياد للحدّ .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله ؟ وهى جملة عدم قبول الشهادة ، وجملة الحكم عليهم بالفسق ، أم إلى الجملة الأخيرة ؟ وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصرّ ، وبعد إجماعهم أيضا على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق فمحل الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول

(١) فى المطبوعة : « عنه » والصحيح ما أثبتناه و« رضى الله عنهم » ليست فى المخطوطة ولعلها إضافة مستحدثة .

الشهادة أم لا ؟ فقال الجمهور : إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته وزال عنه الفسق، لأن سبب ردّها هو ما كان متصفا به من الفسق بسبب القذف ، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة . وقال القاضى شريح وإبراهيم النخعى والحسن البصرى وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد وسفيان الثورى وأبوحنيفة : إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق ، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق ولا تقبل شهادته أبدا . وذهب الشعبى والضحاك إلى التفصيل فقالا : لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته . وقول الجمهور هو الحق ، لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدا فى واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب ، وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيدا لها لا تنفى كونه قيدا لما قبلها ، غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به ، ولهذا كان مجمعا عليه ، وكونه أظهر لا ينافى قوله فيما قبلها ظاهرا . وقد أطال أهل الأصول الكلام فى القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفنّ ، والحق هو هذا ، والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائدا إلى جميع الجمل التى قبله ، وتارة إلى بعضها لا تقوم به حجة ولا يصلح للاستدلال ، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد . ومما يؤيد ما قررناه ويقوّيه أن المانع من قبول الشهادة ، وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال ، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة .

واختلف العلماء فى صورة توبة القاذف ، فقال عمر بن الخطاب والشعبى والضحاك وأهل المدينة : إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى وقع منه وأقيم عليه الحدّ بسببه . وقالت فرقة منهم مالك وغيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله ، ويصلح عمله ، ويندم على ما فرط منه ، ويستغفر اللّه من ذلك ، ويعزم على ترك العود إلى مثله ، وإن لم يكذب نفسه ولا رجع عن قوله . ويؤيده هذا الآيات والأحاديث الواردة فى التوبة فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد .

وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب ، ولو كان كفرا فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى هكذا حكى الإجماع القرطبى(١). قال أبو عبيدة : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ، وليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرما من مرتكب الزنا، والزانى إذا تاب قبلت شهادته ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل اللّه التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن منها قوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ﴾ إلى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ [المائدة : ٣٣، ٣٤] . ولا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع . قال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، فحقه إذا تاب

---

(١) القرطبى ٥/ ٤٥٧١ .

وأصلح أن تقبل شهادته ، قال : وقوله : ﴿أبدا﴾ أى ما دام قاذفا ، كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ، فإن معناه : مادام كافرًا . انتهى . وجملة : ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة وصيرورته مغفوراً له ، مرحوما من الرحمن الرحيم ، غير فاسق ولا مردود الشهادة ، ولا مرفوع العدالة .

ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف ، وهو قذف الزوج للمرأة التى تحته بعقد النكاح فقال : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴾ أى لم يكن لهم شهداء يشهدون بما رموهنّ به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البدل من شهداء . قيل : ويجوز النصب على خبر يكن . قال الزجاج : أو على الاستثناء على الوجه المرجوح ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات ﴾ قرأ الكوفيون برفع أربع على أنها خبر لقوله: ﴿ فشهادة أحدهم ﴾ أى فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو : « أربع » بالنصب على المصدر ، ويكون ﴿ فشهادة أحدهم ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى فالواجب شهادة أحدهم ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى فشهادة أحدهم واجبة . وقيل : إن أربع منصوب بتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات . وقوله : ﴿ بالله ﴾ متعلق بشهادة أو بشهادات ، وجملة : ﴿ إنه لمن الصادقين ﴾ هى المشهود به ، وأصله : على أنه ، فحذف الجار وكسرت إن ، وعلق العامل عنها .

﴿ والخامسة ﴾ قرأ السبعة وغيرهم الخامسة بالرفع على الابتداء ، وخبرها : ﴿ أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة وعاصم فى رواية حفص : «والخامسة » بالنصب على معنى وتشهد الشهادة الخامسة ، ومعنى ﴿ إن كان من الكاذبين ﴾ : أى فيما رماها به من الزنا . قرأ الجمهور بتشديد ﴿ أن ﴾ من قوله : ﴿ أن لعنة الله ﴾ وقرأ نافع بتخفيفها ، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن ، و ﴿ لعنة الله ﴾ مبتدأ ، و﴿عليه﴾ خبره، والجملة خبر أن ، وعلى قراءة الجمهور تكون ﴿ لعنة الله ﴾ اسم أن ، قال سيبويه : لا تخفف أنّ فى الكلام وبعدها الأسماء إلا وأنت تريد الثقيلة . وقال الأخفش : لا أعلم الثقيلة إلا أجود فى العربية.

﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ أى عن المرأة ، والمراد بالعذاب : الدنيوى ، وهو الحدّ ، وفاعل يدرأ قوله : ﴿ أن تشهد أربع شهادات بالله ﴾ والمعنى : أنه يدفع عن المرأة الحدّ شهادتها أربع شهادات باللّه : أن الزوج لمن الكاذبين ﴿والخامسة ﴾ بالنصب عطفا على أربع ، أى وتشهد الخامسة كذلك قرأ حفص والحسن والسلمى وطلحة والأعمش ،وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء، وخبره : ﴿ أن غضب الله عليها إن كان ﴾ الزوج ﴿ من الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا ، وتخصيص الغضب بالمرأةللتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادّته ، ولأن النساء يكثرن اللعن فى العادة ، ومع استكثارهنّ منه لا يكون له فى قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ جواب لولا محذوف . قال الزجاج : المعنى : ولولا فضل اللّه لنال الكاذب منهما عذاب عظيم . ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب وعظيم حكمته البالغة فقال :﴿ وأن الله تواب حكيم ﴾ أى يعود على من تاب إليه ، ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه والمغفرة له ،حكيم فيما شرع لعباده من اللعان وفرض عليهم من الحدود .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ قال : تاب اللّه عليهم من الفسوق ، وأما الشهادة فلا تجوز . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبى بكرة : إن تبت قبلت شهادتك . وأخرج ابن مردويه عنه قال : توبتهم إكذابهم أنفسهم ، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : من تاب وأصلح فشهادته فى كتاب اللّه تقبل . وفى الباب روايات عن التابعين . وقصة قذف المغيرة فى خلافة عمر مروية من طرق معروفة .

وأخرج البخارى والترمذى وابن ماجة عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة ، وإلا حدّ فى ظهرك » ، فقال : يا رسول اللّه ،إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول اللّه ﷺ يقول: « البينة وإلا حدّ فى ظهرك » ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلنّ اللّه ما يبرئ ظهرى من الحدّ ، ونزل جبريل فأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿إن كان من الصادقين ﴾ فانصرف النبى ﷺ فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول: اللّه يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة ، فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت ، فقال النبىّ ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » ، فجاءت به كذلك ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب اللّه لكان لى ولها شأن » (١) . وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسى وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد (٢) وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مطوّلة (٣) . وأخرجها البخارى ومسلم وغيرهما ، ولم يسموا الرجل ولا المرأة . وفى آخر القصة : أن النبىّ ﷺ قال له : « اذهب فلا سبيل لك عليها»، فقال : يارسول اللّه مالى ، قال : « لا مال لك ، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من

---

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧١) وفى التفسير (٤٧٤٧) وفى الطلاق (٥٣٠٧) والترمذى فى التفسير (٣١٧٩) وابن ماجه فى الطلاق (٢٠٦٧).

(٢) فى المطبوعة : « عبد حميد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) أبو داود الطيالسى (٢٦٦٧) وأحمد ١/ ٢٧٣ ، ٣/ ١٤٢ ، وأبو داود فى الطلاق (٢٢٥٤) ، وابن جرير ١٨/ ٦٥ ، ٦٦ .

فرجها ، وإن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها » [١] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدى، فقال: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول اللّه ﷺ ، فعاب رسول اللّه ﷺ السائل ، فقال عويمر : واللّه لآتينّ رسول اللّه ﷺ لأسأله ، فأتاه فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما فلاعن بينهما ، قال عويمر : إن انطلقت بها يا رسول اللّه لقد كذبت عليها ، ففارقها قبل أن يأمره رسول اللّه ﷺ فصارت سنة للمتلاعنين، فقال رسول اللّه ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم ، أدعج العينين ، عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أراه إلا كاذبا » ، فجاءت به مثل النعت المكروه [٢] . وفى الباب أحاديث كثيرة وفيما ذكرنا كفاية . وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعلىّ وابن مسعود ، قالوا : لا يجتمع المتلاعنان أبدا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ .

---

(١) أحمد ٢/ ٤ والبخارى فى الطلاق (٥٣١١ ـ ٥٣١٤) ومسلم فى اللعان (١٤٩٣/ ٥) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٥٧) كلهم عن ابن عمر .

(٢) أحمد ٥/ ٣٣٤ والبخارى فى الطلاق (٥٣٠٨) ومسلم فى اللعان (١٤٩٢/ ١) وأبو داود فى اللعان (٢٢٤٥) وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٦) والدارمى فى النكاح ٢/ ١٥٠ .

خبر « إن » من قوله : ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك** ﴾ هو ﴿ **عصبة** ﴾ و ﴿ **منكم** ﴾ صفة لعصبة ، وقيل : هو ﴿ **لا تحسبوه شرا لكم** ﴾ ويكون عصبة بدلا من فاعل جاؤوا . قال ابن عطية : وهذا أنسق فى المعنى وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبة . وجملة : ﴿ **لا تحسبوه** ﴾ وإن كانت طلبية ، فجعلها خبرا يصح بتقدير كما فى نظائر ذلك . والإفك : أسوأ الكذب وأقبحه ، وهو مأخوذ من أفك الشىء إذا قلبه عن وجهه . فالإفك :هو الحديث المقلوب . وقيل : هو البهتان . وأجمع المسلمون على أن المراد بما فى الآية : ما وقع من الإفك على عائشة أمّ المؤمنين ، وإنما وصفه اللّه بأنه إفك ؛ لأن المعروف من حالها رضى اللّه عنها خلاف ذلك . قال الواحدى : ومعنى القلب فى هذا الحديث الذى جاء به أولئك النفر أن عائشة رضى اللّه عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة وشرف النسب والسبب لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه ، فهو إفك قبيح وكذب ظاهر ، والعصبة : هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، والمراد بهم : هنا عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين ، وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم . وقيل : العصبة من الثلاثة إلى العشرة . وقيل : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها فى اللغة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض. وجملة : ﴿ **لا تحسبوه شرا لكم** ﴾ إن كانت خبرا لإنّ فظاهر ، وإن كان الخبر عصبة كما تقدّم فهى مستأنفة ، خوطب بها النبى ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل الذى قذف مع أمّ المؤمنين وتسلية لهم، والشرّ مازاد ضره على نفعه ، والخير مازاد نفعه على ضره وأما الخير الذى لا شرّ فيه فهو الجنة ، والشرّ الذى لا خير فيه فهو النار ، ووجه كونه خيرا لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أمّ المؤمنين وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاما ﴿ **لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم** ﴾ أى بسبب تكلمه بالإفك ﴿ **والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ قرأ الحسن والزهرى وأبو رجاء وحميد الأعرج ويعقوب وابن أبى علية ومجاهد وعمرة بنت عبد الرحمن بضمّ الكاف . قال الفرّاء : وهو وجه جيد؛ لأن العرب تقول : فلان تولى عظيم كذا وكذا ، أى أكبره ، وقرأ الباقون بكسرها . قيل : هما لغتان . وقيل : هو بالضم معظم الإفك ، وبالكسر البداءة به . وقيل : هو بالكسر : الإثم . فالمعنى: إن الذى تولى معظم الإفك من العصبة له عذاب عظيم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما .

واختلف فى هذا الذى تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم ؟ فقيل : هو عبد اللّه بن أبىّ . وقيل : هو حسان ، والأوّل هو الصحيح . وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبى ﷺ جلد فى الإفك رجلين وامرأة ، وهم مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش[(١)] . وقيل : جلد عبد اللّه بن أبىّ وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ولم يجلد مسطحا ، لأنه لم يصرح بالقذف ، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح . وقيل : لم يجلد أحدا منهم . قال القرطبى : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذين حدّوا :

---

(١) ابن هشام فى السيرة ٣/٢٤٨ .

حسان ومسطح وحمنة . ولم يسمع بحدّ لعبد اللّه بن أبى [١] ، ويؤيد هذا ما فى سنن أبى داود عن عائشة ، قالت : لما نزل عذرى ، قام النبى ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم ، وسماهم : حسان ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش [٢] .

واختلفوا فى وجه تركه ﷺ لجلد عبد اللّه بن أبىّ ، فقيل : لتوفير العذاب العظيم له فى الآخرة ، وحدّ من عداه ليكون ذلك تكفيرا لذنبهم كما ثبت عنه ﷺ فى الحدود أنه قال : «إنها كفارة لمن أقيمت عليه » [٣] وقيل : ترك حدّه تألفا لقومه واحتراما لابنه ، فإنه كان من صالحى المؤمنين وإطفاء لنائرة الفتنة ، فقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه كما فى صحيح مسلم [٤].

ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول اللّه ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال: ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا** ﴾ « لولا » هذه هى التحضيضية تأكيدا للتوبيخ والتقريع ومبالغة فى معاتبتهم ، أى كان ينبغى للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم ، فهو فى أمّ المؤمنين أبعد . قال الحسن : معنى ﴿ **بأنفسهم** ﴾ : بأهل دينهم ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : ٢٩] . قال الزجاج : ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا : إنهم يقتلون أنفسهم . قال المبرّد: ومثله قوله سبحانه : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ [البقرة : ٥٤] . قال النحاس : ﴿ **بأنفسهم** ﴾ : بإخوانهم ، فأوجب اللّه سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه . قال العلماء: إن فى الآية دليلا على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع ﴿**وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ أى قال المؤمنون عند سماع الإفك : هذا إفك ظاهر مكشوف .

وجملة : ﴿ **لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء** ﴾ من تمام ما يقوله المؤمنون ، أى وقالوا : هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا ﴿ **فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك** ﴾ أى الخائضون فى الإفك ﴿ **عند الله هم الكاذبون**﴾ أى فى حكم اللّه تعالى هم الكاذبون الكاملون فى الكذب ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة** ﴾ هذا خطاب للسامعين ، وفيه زجر عظيم ﴿ **ولولا** ﴾ هذه هى لامتناع الشىء لوجود غيره ﴿ **لمسكم فيما أفضتم فيه** ﴾ أى بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ، يقال : أفاض فى الحديث ، واندفع وخاض .

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٥٩٣ . (٢) أبو داود فى الحدود (٤٤٧٤) .

(٣) البخارى فى الحدود (٦٧٨٤) ومسلم فى الحدود (١٧٠٩/ ٤١) والترمذى فى الحدود (١٤٣٩) وقال : « حسن صحيح » ، وقال الشافعى : «وأحب لمن أصاب ذنبًا فستره اللّه عليه أن يستر على نفسه ويتوب فيما بينه وبين ربه » . كلهم عن عبادة بن الصامت بلفظ يختلف عما أورده الشوكانى .

(٤) مسلم فى التوبة (٢٧٧٠/ ٥٦) .

والمعنى: لولا أنى قضيت عليكم بالفضل فى الدنيا بالنعم التى من جملتها الإمهال ، والرحمة فى الآخرة بالعفو ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك . وقيل : المعنى: لولا فضل اللّه عليكم لمسكم العذاب فى الدنيا والآخرة معا ، ولكن برحمته ستر عليكم فى الدنيا ، ويرحم فى الآخرة من أتاه تائبا .

﴿ **إذ تلقونه بألسنتكم** ﴾ الظرف منصوب بمسكم أو بأفضتم ، قرأ الجمهور: ﴿ **إذ تلقونه** ﴾ من التلقى ، والأصل: تتلقونه فحذف إحدى التاءين . قال مقاتل ومجاهد : المعنى يرويه بعضكم عن بعض . قال الكلبى : وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول : بلغنى كذا وكذا ويتلقونه تلقيا . قال الزجاج : معناه : يلقيه بعضكم إلى بعض . وقرأ محمد السميفع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ، من الإلقاء ، ومعنى هذه القراءة واضح . وقرأ أبىّ وابن مسعود : « تتلقونه » من التلقى ، وهى كقراءة الجمهور . وقرأ ابن عباس وعائشة وعيسى ابن عمر ويحيى بن يعمر وزيد بن علىّ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب ولق يلق ولقا : إذا كذب . قال ابن سيده : جاؤوا بالمعتدى شاهدا على غير المعتدى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد يلقون فيه فحذف حرف الجر فاتصل الضمير . قال الخليل وأبو عمرو : أصل الولق : الإسراع ، يقال : جاءت الإبل تلق ، أى تسرع ، ومنه قول الشاعر:

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق ... جاؤوا بأسراب من الشام ولق

وقال الآخر :

جاءت به عيس من الشام تلق

قال أبو البقاء : أى يسرعون فيه . قال ابن جرير : وهذه اللفظة أى « تلقونه » على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق، وهو الإسراع بالشىء بعد الشىء كعدد فى إثر عدد ، وكلام فى إثر كلام ، وقرأ زيد بن أسلم وأبو جعفر : «تألقونه » بفتح التاء وهمزة ساكنة ولام مكسورة وقاف مضمومة من الألق وهو الكذب ، وقرأ يعقوب : « تيلقونه » بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية ساكنة ولام مفتوحة وقاف مضمومة ، وهو مضارع ولق بكسر اللام ، ومعنى ﴿**وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم** ﴾ أن قولهم هذا مختصّ بالأفواه من غير أن يكون واقعا فى الخارج معتقدا فى القلوب. وقيل : إن ذكر الأفواه للتأكيد كما فى قوله : ﴿ يطير بجناحيه﴾ [الأنعام : ٣٨] ونحوه ، والضمير فى ﴿**تحسبونه** ﴾ راجع إلى الحديث الذى وقع الخوض فيه والإذاعة له ﴿ **وتحسبونه هينا** ﴾ أى شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم ، وجملة ﴿ **وهو عند الله عظيم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى عظيم ذنبه وعقابه .

﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا** ﴾ هذا عتاب لجميع المؤمنين ، أى هلا إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيبا للخائضين فيه المفترين له ما ينبغى لنا ولا يمكننا أن نتكلم

بهذا الحديث ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ، ومعنى قوله : ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم**﴾ التعجب من أولئك الذين جاؤوا بالإفك ، وأصله التنزيه للّه سبحانه ، ثم كثر حتى استعمل فى كلّ متعجب منه . والبهتان هو : أن يقال فى الإنسان ما ليس فيه ، أى هذا كذب عظيم لكونه قيل فى أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها ، وصدوره مستحيل شرعا من مثلها . ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا فى الإفك فقال: ﴿ **يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا** ﴾ أى ينصحكم اللّه ، أو يحرّم عليكم ، أو ينهاكم كراهة أن تعودوا ، أو من أن تعودوا ، أو فى أن تعودوا لمثل هذا القذف مدّة حياتكم ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ فإن الإيمان يقتضى عدم الوقوع فى مثله ما دمتم ، وفيه تهييج عظيم وتقريع بالغ . ﴿ **ويبين الله لكم الآيات** ﴾ فى الأمر والنهى لتعملوا بذلك وتتأدبوا بآداب اللّه وتنزجروا عن الوقوع فى محارمه ﴿ **والله عليم** ﴾ بما تبدونه وتخفونه ﴿ **حكيم** ﴾ فى تدبيراته لخلقه .

ثم هدّد سبحانه القاذفين ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين وذنوبهم فقال : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا** ﴾ أى يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر ، من قولهم : شاع الشىء يشيع شيوعا وشيعا وشيعانا : إذا ظهر وانتشر ، والمراد بالذين آمنوا : المحصنون العفيفون ، أو كلّ من اتصف بصفة الإيمان ، والفاحشة هى فاحشة الزنا أو القول السيئ ﴿ **لهم عذاب أليم فى الدنيا** ﴾ بإقامة الحدّ عليهم ﴿ **والآخرة** ﴾ بعذاب النار واللّه يعلم جميع المعلومات ﴿ **وأنتم لا تعلمون** ﴾ إلا ما علمكم به وكشفه لكم ، ومن جملة ما يعلمه اللّه عظم ذنب القذف ، وعقوبة فاعله ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ هو تكرير لما تقدّم تذكيرا للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم ﴿ **وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ ومن رأفته بعباده ألا يعاجلهم بذنوبهم ، ومن رحمته لهم أن يتقدّم إليهم بمثل هذا الإعذار والإنذار . وجملة : ﴿**وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ معطوفة على فضل اللّه ، وجواب « لولا » محذوف لدلالة ما قبله عليه، أى لعاجلكم بالعقوبة.

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ الخطوات جمع خطوة ، وهى ما بين القدمين ، والخطوة بالفتح المصدر ، أى لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه ولا تسلكوا طرائقه التى يدعوكم إليها . قرأ الجمهور : ﴿ **خطوات** ﴾ بضم الخاء والطاء ، وقرأ عاصم والأعمش بضم الخاء وإسكان الطاء ﴿ **ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر** ﴾ قيل : جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له ، كأنه قيل : فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأن دأبه أن يستمر آمرًا لغيره بهما . والفحشاء : ما أفرط قبحه . والمنكر : ما ينكره الشرع ، وضمير إنه للشيطان. وقيل: للشأن ، والأولى أن يكون عائدا إلى من يتبع خطوات الشيطان ، لأن من اتبع الشيطان صار مقتديا به فى الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ قد تقدّم بيانه وجواب « لولا » هو قوله : ﴿ **ما زكى منكم من أحد أبدا** ﴾ أى لولا التفضل والرحمة من اللّه ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها ما دام حيا. قرأ الجمهور : ﴿**زكى**﴾

بالتخفيف ، وقرأ الأعمش وابن محيصن وأبو جعفر بالتشديد ، أى ما طهره الله . وقال مقاتل: أى ما صلح . والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير ، وهو الذى ذكره ابن قتيبة . قال الكسائى إن قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ معترض ، وقوله : ﴿ **ما زكى منكم من أحد أبدا** ﴾ جواب لقوله أولا وثانيا ولولا فضل الله . وقراءة التخفيف أرجح لقوله : ﴿ **ولكن الله يزكى من يشاء** ﴾ أى من عباده بالتفضل عليهم والرحمة لهم ﴿ **والله سميع** ﴾ لما يقولونه ﴿ **عليم** ﴾ بجميع المعلومات وفيه حثّ بالغ على الإخلاص ، وتهييج عظيم لعباده التائبين ، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحبّ أن تشيع الفاحشة فى عباد الله المؤمنين، ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل فى سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعدّدة وطرق مختلفة . حاصله : أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم ذكرهم فى شأن عائشة رضى الله عنها ، وذلك أنها خرجت من هودجها تلتمس عقدا لها انقطع من جزع ، فرحلوا وهم يظنون أنها فى هودجها ، فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم ، فأقامت فى ذلك المكان ومرّ بها صفوان بن المعطل،وكان متأخرا عن الجيش ، فأناخ راحلته وحملها عليها ؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوه . هذا حاصل القصة مع طولها وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك (١) . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن الأربع وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن عائشة قالت : لما نزل عذرى قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم . قال الترمذى : هذا حديث حسن (٢) . ووقع عند أبى داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبىّ بن سلول ومسطح وحسان وحمنة بنت جحش (٤) .

وأخرج البخارى وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن الزهرى قال : كنت عند الوليد بن عبد الملك ، فقال الذى تولى كبره منهم علىّ ، فقلت : لا ، حدثنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن

---

(١) أحمد ٦/ ١٩٤ـ١٩٧ والبخارى فى الشهادات (٢٦٦١) وفى التفسير (٤٧٥٠) وفى الأيمان (٦٦٦٢، ٦٦٧٩) وفى الاعتصام (٧٣٦٩) وفى التوحيد (٧٥٠٠ـ ٧٥٤٥) ومسلم فى التوبة (٥٦/٢٧٧٠) وأبو داود فى الحدود (٤٤٧٤، ٤٤٧٥) والترمذى فى التفسير (٣١٨٠) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى التفسير (٢٧١، ٣٨٠) وابن ماجة فى الحدود (٢٥٦٧) .

(٢) أحمد ٦/ ٣٥ وأبو داود فى الحدود (٤٤٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٨١) وقال : « هذا حديث حسن غريب»، والنسائى فى الكبرى فى الرجم (٧٣٥١) وابن ماجة فى الحدود (٢٥٦٧) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٧٤.

(٣) أبو داود فى الحدود (٤٤٧٥) .

(٤) ابن جرير ١٨/ ٦٩ .

مسعود كلهم سمع عائشة تقول : الذى تولى كبره منهم عبد اللّه بن أبىّ ، قال : فقال لى: فما كان جرمه ؟ قلت :حدّثنى شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول : كان مسيئا فى أمرى [١] . وقال يعقوب بن شيبة فى مسنده : حدّثنا الحسن بن علىّ الحلوانى ، حدّثنا الشافعى ، حدّثنا عمى قال : دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له : ياسليمان الذى تولى كبره من هو ؟ قال : عبد اللّه بن أبىّ . قال : كذبت هو علىّ . قال : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ، فدخل الزهرى فقال: يا ابن شهاب من الذى تولى كبره ؟ فقال : ابن أبىّ . قال : كذبت هو علىّ . قال : أنا أكذب ؟ لا أبا لك ، واللّه لو نادى مناد من السماء أن اللّه قد أحلّ الكذب ما كذبت ،حدثنى عروة وسعيد وعبد اللّه وعلقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد اللّه بن أبىّ. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبب وقال:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت : لكنك لست كذلك ، قلت : تدعين مثل هذا يدخل عليك ، وقد أنزل اللّه: ﴿**والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم**﴾ فقالت : وأىّ عذاب أشدّ من العمى ؟[٢] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن بعض الأنصار؛ أن امرأة أبى أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا : ألا تسمع مايقول الناس فى عائشة ؟ قال: بلى وذلك الكذب ، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أمّ أيوب ؟ قالت : لا واللّه ، قال : فعائشة واللّه خير منك وأطيب ، إنما هذا كذب وإفك باطل [٣] ؛ فلما نزل القرآن ذكر اللّه من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك . ثم قال : ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ أى كما قال أبو أيوب وصاحبته . وأخرج الواقدى والحاكم وابن عساكر عن أفلح مولى أبى أيوب أن أمّ أيوب . . . فذكر نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا** ﴾ قال : يحرّج اللّه عليكم . وأخرج البخارى فى الأدب ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن علىّ بن أبى طالب قال : القائل الفاحشة والذى شيع بها ، فى الإثم سواء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما زكى منكم من أحد أبدا** ﴾ قال : ما اهتدى أحد من الخلائق لشىء من الخير .

---

(١) البخارى فى المغازى (٤١٤٢) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٧٢ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٥٦) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٨/ ١٥٥) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٧٣ .
وحصان : عفيفة ، رزان : كاملة العقل ، ما تزن : ما تتهم ، غرثى : جائعة ، والغوافل : الغافلات عن الشر . يريد مدحها بالعفة والرزانة وتبرئتها من أكل لحوم الناس بالغيبة .

(٣) ابن هشام فى السيرة ٣/ ٢٤٨ وابن جرير ١٨/ ٧٧ .

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾.

قوله : ﴿ **ولا يأتل** ﴾ أى يحلف وزنه : يفتعل من الألية ، وهى اليمين ، ومنه قول الشاعر :

تألّى ابن أوس حلفـة ليردّنى إلى نسوة كأنهن مفايد

وقول الآخر :

قـليل الألايا حافـظ ليمينه وإن بدرت منه الألية برّت

يقال : ائتـلى يأتـلى إذا حلف . ومـنه قـوله سـبحانه : ﴿ للذين يؤلون من نسـائهم ﴾ [البقرة : ٢٢٦] وقالت فرقة: هـو من ألـوت فى كذا إذا قصرت ، ومنه : لم آل جـهدا : أى لم أقصر، وكذا منه قـوله : ﴿ لا يألـونكم خبالا ﴾ [آل عمران:١١٨] ، ومنه قول الشاعر :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

والأوّل أولى بدليل سبب النزول ، وهو ما سيأتى ، والمراد بالفضل : الغنى والسعة فى المال ﴿ **أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله** ﴾ أى : على ألا يؤتوا . قال الزجاج : ألا يؤتوا فحذف لا ، ومنه قول الشاعر:

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وقال أبو عبيدة : لا حاجة إلى إضمار لا ، والمعنى : لا يحلفوا على ألا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلك الأوصاف ، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى : لا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه، وقرأ أبو حيوة : « إن تؤتوا » بتاء الخطاب على الالتفات . ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال : ﴿ **وليعـفوا** ﴾ عن ذنبهم الذى أذنبوه عليهم وجناياتهم التى اقترفوها ، من عفا الربع ، أى درس ، والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع ﴿ **وليصفحوا** ﴾ بالإغضاء عن الجانى والإغماض عن جنايته ، وقرئ بالفوقية فى الفعلين جميعا . ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقال : ﴿ **ألا تحبون**

أن يغفر الله لكم ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم ، فكيف لا يقتدى العباد بربهم فى العفو والصفح عن المسيئين إليهم ؟

﴿ **إن الذين يرمون المحصنات** ﴾ قد مرّ تفسير المحصنات وذكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء فى حدّ القذف . وقد اختلف فى هذه الآية هل هى خاصة أو عامة ؟ فقال سعيد بن جبير : هى خاصة فيمن رمى عائشة رضى اللّه عنها . وقال مقاتل : هى خاصة بعبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين . وقال الضحاك والكلبى : هذه الآية هى فى عائشة وسائر أزواج النبىّ ﷺ دون سائر المؤمنين والمؤمنات ، فمن قذف إحدى أزواج النبىّ ﷺ فهو من أهل هذه الآية . قال الضحاك : ومن أحكام هذه الآية أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ ، ومن قذف غيرهنّ فقد جعل اللّه له التوبة كما تقدّم فى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ [النور : ٥] . وقيل : إن هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف ولم يتب. وقيل : إنها تعم كلّ قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين ، واختاره النحاس ، وهو الموافق لما قرّره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقيل : إنها خاصة بمشركى مكة ؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة : إنما خرجت لتفجر . قال أهل العلم : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القذفة ، فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحدّ وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين ، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور فى جانب عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين، وإن كانت فى مشركى مكة فإنهم ملعونون ﴿ **فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ والمراد بالغافلات اللاتى غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهنّ ولا يفطنّ لها ، وفى ذلك من الدلالة على كمال النزاهة وطهارة الجيب ما لم يكن فى المحصنات . وقيل : هنّ السليمات الصدور ، النقيات القلوب .

﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذى لا يحيط به وصف . وقرأ الجمهور : ﴿ **يوم تشهد** ﴾ بالفوقية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لأن الجارّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل . والمعنى : تشهد ألسنة بعضهم على بعض فى ذلك اليوم . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم فى ذلك اليوم بما تكلموا به ﴿ **وأيديهم وأرجلهم** ﴾ بما عملوا بها فى الدنيا ، وأن اللّه سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم ، والمشهود محذوف وهو ذنوبهم التى اقترفوها ، أى تشهد هذه عليهم بذنوبهم التى اقترفوها ومعاصيهم التى عملوها .

﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ أى يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم اللّه جزاءهم عليها موفرا ، فالمراد بالدّين هاهنا : الجزاء ، وبالحق : الثابت الذى

لا شك فى ثبوته . قرأ زيد بن علىّ : « يوفيهم » مخففا من أوفى ، وقرأ من عداه بالتشديد من وفى .وقرأ أبو حيوة ومجاهد : « الحق » بالرفع على أنه نعت للّه ، وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ الباقون بالنصب على أنه نعت لدينهم . قال أبو عبيدة : لولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ليكون نعتا للّه عزّ وجلّ ولتكون موافقة لقراءة أبىّ ، وذلك أن جرير ابن حازم قال : رأيت فى مصحف أبىّ : «يوفيهم اللّه الحق دينهم». قال النحاس : وهذا الكلام من أبى عبيدة غير مرضىّ ، لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم ، ولا حجة أيضا فيه ؛ لأنه لو صحّ أنه فى مصحف أبىّ كذلك جاز أن يكون دينهم بدلا من الحقّ ﴿ **ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ أى ويعلمون عند معاينتهم لذلك ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز أن اللّه هو الحقّ الثابت فى ذاته وصفاته وأفعاله . المبين : المظهر للأشياء كما هى فى أنفسها ، وإنما سمى سبحانه الحقّ لأن عبادته هى الحقّ دون عبادة غيره . وقيل : سمى بالحقّ ، أى الموجود ، لأن نقيضه الباطل وهو المعدوم .

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة فى أهل الإفك بكلمة جامعة فقال :﴿ **الخبيثات للخبيثين** ﴾ أى : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، أى مختصة بهم لا تتجاوزهم ، وكذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن ، وهكذا قوله : ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات ، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات . قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل . قال الزجاج : ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء ، وهذا ذمّ للذين قذفوا عائشة بالخبث ومدح للذين برؤوها . وقيل إن هذه الآية مبنية على قوله : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ فالخبيثات : الزوانى ، والطيبات :العفائف ، وكذا الخبيثون والطيبون ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك مبرؤون مما يقولون** ﴾ إلى الطيبين والطيبات ، أى : هم مبرؤون مما يقوله الخبيثون والخبيثات ، وقيل : الإشارة إلى أزواج النبىّ ﷺ ، وقيل : إلى رسول اللّه ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل ، وقيل عائشة وصفوان فقط . قال الفراء : وجمع كما قال : ﴿ فإن كان له إخوة ﴾ [النساء : ١١] والمراد أخوان ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ أى هؤلاء المبرؤون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب ﴿ **ورزق كريم** ﴾ وهو رزق الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يأتل** ﴾ الآية ، يقول : لايقسموا ألا ينفعوا أحدا . وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : كان مسطح بن أثاثة ممن تولى كبره من أهل الإفك، وكان قريبا لأبى بكر وكان فى عياله ، فحلف أبو بكر ألا ينيله خيرا أبدا ، فأنزل اللّه ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة** ﴾ الآية، قالت: فأعاده أبوبكر إلى عياله وقال : لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا تحللتها وأتيت الذى هو

خير. وقد روى هذا من طرق عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها ، فأقسم ناس من أصحاب النبىّ ﷺ منهم أبو بكر ألا يتصدّقوا على رجل تكلم بشىء من هذا ولا يصلوه ، فقال : لا يقسم أولو الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم وأن يعطوهم من أموالهم كالذى كانوا يفعلون قبل ذلك ، فأمر الله أن يغفر لهم وأن يعفى عنهم (١).

وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **إنّ الذين يرمون المحصنات** ﴾ الآية ، قال: نزلت فى عائشة خاصة(٢) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : هذه فى عائشة وأزواج النبى ﷺ ، ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة ،وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى ﷺ التوبة ، ثم قرأ : ﴿ **والذين يرمون المحصنات** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾(٣). وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى سعيد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرّف الكافر بعمله فجحد وخاصم ، فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، ثم يدخلهم النار » (٤) . وقد روى عن النبىّ ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه: ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ قال : حسابهم وكل شىء فى القرآن الدين فهو الحساب. وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه ؛ أن النبىّ ﷺ قرأ : « يومئذ يوفيهم الله الحقّ دينهم » .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الخبيثات** ﴾ قال : من الكلام ﴿**للخبيثين**﴾ قال: من الرجال ﴿ **والخبيثون** ﴾ من الرجال ﴿ **للخبيثات** ﴾ من الكلام ﴿ **والطيبات** ﴾ من الكلام ﴿ **للطيبين** ﴾ من الناس ﴿**والطيبون** ﴾ من الناس ﴿ **للطيبات** ﴾ من الكلام ، نزلت فى الذين قالوا فى زوجة النبىّ ﷺ ما قالوا من البهتان. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير والطبرانى عن قتادة نحوه أيضا ، وكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن زيد فى الآية قال : نزلت فى عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك ، وكان عبد الله بن أبى هو الخبيث ، فكان

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٨٢ .　　(٢) صححه الحاكم ٤/ ١٠ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٨٣ والطبرانى (٢٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٣ : « وفى إسناده راوٍ لم يسم وبقية رجاله ثقات » .

(٤) أبو يعلى (١٣٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٥٤ : « رواه أبو يعلى بإسناد حسن على ضعف فيه » .

هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها ، وكان رسول الله ﷺ طيبا ، فكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة الطيبة ، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب ، وفى قوله : ﴿ **أولئك مبرؤون مما يقولون** ﴾ قال : ها هنا برئت عائشة(١) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : لقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وعدت مغفرة وأجرا عظيما .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف ،شرع فى ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما فى ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدّى إلى أحد الأمرين المذكورين ، وأيضا : إن الإنسان يكون فى بيته ومكان خلوته على حالة قد لا يحبّ أن يراه عليها غيره ، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية ، هى قوله : ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ والاستئناس : الاستعلام والاستخبار ، أى حتى تستعلموا من فى البيت ، والمعنى : حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم ، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم ، فإذا علمتم ذلك دخلتم، ومنه قوله : ﴿ فإن آنستم منهم رشدا ﴾ [النساء : ٦] أى علمتم . قال الخليل : الاستئناس : الاستكشاف ، من أنس الشىء إذا أبصره كقوله : ﴿ إنى آنست نارا ﴾ [طه : ١٠] أى أبصرت . وقال ابن جرير : إنه بمعنى : وتؤنسوا أنفسكم . قال ابن عطية : وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس . ومعنى كلام ابن جرير هذا أنه من الاستئناس الذى هو خلاف الاستيحاش ، لأن الذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ، فهو كالمستوحش حتى يؤذن له ، فإذا أذن له استأنس ، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل. وقيل : هو من الإنس ، وهو يتعرّف هل ثم إنسان أم لا . وقيل: معنى الاستئناس : الاستئذان ، أى لا تدخلوها حتى تستأذنوا . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : حتى تستأذنوا ، ويؤيده ما حكاه القرطبى عن ابن عباس وأبىّ وسعيد بن جبير أنهم قرؤوا : « حتى تستأذنوا» قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب : الاستئناس فيما يرى والله أعلم : الاستئذان ، وقوله: ﴿ **وتسلموا على أهلها** ﴾ قد بينه النبى ﷺ كما سيأتى بأن يقول : السلام عليكم أدخل؟ مرّة أو ثلاثا كما سيأتى .

واختلفوا هل يقدّم الاستئذان على السلام أو العكس ؟ فقيل : يقدّم الاستئذان ، فيقول :

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٨٦ والطبرانى (٢٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٤ : « ورجاله ثقات إلا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم » .

أدخل ؟ سلام عليكم ، لتقديم الاستئناس فى الآية على السلام . وقال الأكثرون : إنه يقدّم السلام على الاستئذان فيقول : السلام عليكم، أدخل ؟، وهو الحقّ، لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا . وقيل : إن وقع بصره على إنسان قدّم السلام ، وإلا قدّم الاستئذان ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ الإشارة إلى الاستئناس والتسليم ، أى دخولكم مع الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أن الاستئذان خير لكم ، وهذه الجملة متعلقة بمقدّر ، أى أمرتم بالاستئذان ، والمراد بالتذكر الاتعاظ ، والعمل بما أمروا به ﴿ **فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم** ﴾ أى فإن لم تجدوا فى البيوت التى لغيركم أحدا ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : معنى فإن لم تجدوا فيها أحدا ، أى لم يكن لكم فيها متاع ، وضعفه وهو حقيق بالضعف ؛ فإن المراد بالأحد المذكور: أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها ، لا متاع الداخلين إليها ﴿ **وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا** ﴾ أى إن قال لكم أهل البيت: ارجعوا فارجعوا، ولا تعاودوهم بالاستئذان مرّة أخرى ، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع . ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح وتكرار الاستئذان والقعود على الباب فقال :﴿ **هو أزكى لكم** ﴾ أى أفضل ﴿**وأطهر** ﴾ من التدنس بالمشاحة على الدخول لما فى ذلك من سلامة الصدر ، والبعد من الريبة ، والفرار من الدناءة ﴿ **والله بما تعملون عليم** ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿ **ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم** ﴾ أي : لا جناح عليكم فى الدخول بغير استئذان إلى البيوت التى ليست بمسكونة .

وقد اختلف الناس فى المراد بهذه البيوت ، فقال محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد : هى الفنادق التى فى الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوى إليها . وقال ابن زيد والشعبى : هى حوانيت القيساريات ، قال الشعبى: لأنهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس هلمّ . وقال عطاء : المراد بها الخرب التى يدخلها الناس للبول والغائط ، ففى هذا أيضا متاع . وقيل : هى بيوت مكة . روى ذلك عن محمد بن الحنفية أيضا ، وهو موافق لقول من قال : إن الناس شركاء فيها ، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة . والمتاع : المنفعة عند أهل اللغة ، فيكون معنى الآية : فيها منفعة لكم ، ومنه قوله : ﴿ومتعوهن ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقولهم : أمتع الله بك ، وقد فسر الشعبى المتاع فى كلامه المتقدّم بالأعيان التى تباع . قال جابر بن زيد : وليس المراد بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة . قال النحاس؛ وهو حسن موافق للغة ﴿ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ أى : ما تظهرون وما تخفون ، وفيه وعيد لمن لم يتأدّب بآداب الله فى دخول بيوت الغير .

وقد أخرج الفريابى وابن جرير من طريق عدىّ بن ثابت عن رجل من الأنصار قال : قالت امرأة : يارسول الله ، إنى أكون فى بيتى على الحالة التى لا أحبّ أن يرانى عليها أحد : ولد ولا والد ، فيأتينى الأب فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ ولفظ ابن جرير : وإنه لا يزال يدخل

علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحالة ، فنزلت ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم** ﴾ الآية (١) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن منده فى غرائب شعبه ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، والضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ قال : أخطأ الكاتب « حتى تستأذنوا » ﴿ **وتسلموا على أهلها** ﴾(٢) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى عن إبراهيم النخعى قال فى مصحف عبد اللّه : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : الاستئناس : الاستئذان .

وأخرج ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه وابن أبى حاتم عن أبى أيوب قال : قلت : يارسول اللّه، أرأيت قول (٤) اللّه تعالى : ﴿ **حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » . قال ابن كثير : هذا حديث غريب (٥) . وأخرج الطبرانى عن أبى أيوب أن النبى ﷺ قال : « الاستئناس أن يدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين يسلم عليهم» (٦) . وأخرج ابن سعد وأحمد ، والبخارى فى الأدب ، وأبو داود والترمذى والنسائى ، والبيهقى فى الشعب من طريق كلدة ؛ أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بلبأ وضغابيس والنبى ﷺ بأعلى الوادى ، قال : فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبى ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم أأدخل ؟ » قال الترمذى : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه (٧) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى الأدب وأبو داود ، والبيهقى فى السنن

---

(١) ابن جرير ١٨/ ٨٨ .

(٢) ابن جرير ١٨/ ٨٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٦ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٨٨٠٤) وقال : « وهذا الذى رواه شعبة ، واختلف عليه فى إسناده ، ورواه أبو بشر واختلف عليه فى إسناده من أخبار الآحاد . ورواية إبراهيم عن ابن مسعود منقطعة . والقراءة العامة ثبت نقلها بالتواتر ؛ فهى أولى ، ويحتمل أن تكون تلك القراءة الأولى ، ثم صارت القراءة إلى ما عليه العامة ، ونحن لانزعم أن شيئًا مما وقع عليه الإجماع أو نقل متواترًا خطأ ، وكيف يجوز أن يقال ذلك ، وله وجه يصح وإليه ذهبت العامة ».

(٣) ابن جرير ١٨/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٨٨٠٠) ، وقد سبق ذكر تعليقه عليه .

(٤) فى المطبوعة : « قبول » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٧٢٦) والطبرانى (٤٠٦٥) وفى سنده واصل بن السائب . قال البخارى وغيره : «منكر الحديث » ، وقال النسائى : «متروك » ، وقال أبو زرعة : « ضعيف » . ميزان الاعتدال ٤/ ٣٢٨ (٩٣٢٣) .

(٦) الطبرانى (٤٠٦٤) وإسناده كإسناد سابقه .

(٧) ابن سعد ٥/ ٤٥٨ وأحمد ٣/ ٤١٤ وأبو داود فى الأدب (٥١٧٦) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٠) وقال : «هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى الأطعمة (٦٧٣٥) .

من طريق ربعيّ ، قال : حدثنا رجل من بنى عامر استأذن على النبى ﷺ وهو فى بيت ، فقال: أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان . فقل له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ » (١) . وأخرج ابن جرير عن عمر بن سعيد الثقفى نحوه مرفوعا ، ولكنه قال : إن النبيّ ﷺ قال لأمة له يقال لها روضة : « قومى إلى هذا فعلميه » (٢).

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدريّ قال : كنت جالسا فى مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى فزعا ، فقلنا له : ما أفزعك قال : أمرنى عمر أن آتيه فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، فقال: ما منعك أن تأتينى ؟ فقلت : قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع »: قال : لتأتينى على هذا بالبينة . فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه ليشهد له ، فقال عمر لأبى موسى : إنى لم أتهمك ، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ شديد (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد قال : اطلع رجل من جحر فى حجرة النبيّ ﷺ ومعه مدرى يحكّ بها رأسه ، قال : « لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها فى عينك ، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » . وفى لفظ : « إنما جعل الإذن من أجل البصر»(٤) وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه عن أنس قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله فى هذه الآية، فما أدركتها ، أن أستأذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : ارجع ، فأرجع وأنا مغتبط لقوله : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا (٥) فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ . وأخرج البخارى فى الأدب، وأبو داود فى الناسخ والمنسوخ ، وابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال: ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٧٢٤) وأحمد ٥/ ٣٦٩ وأبو داود فى الأدب (٥١٧٧) ، والبيهقى ٨/ ٣٤٠ .

(٢) ابن جرير ١٨/ ٨٧ .

(٣) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٥) ومسلم فى الآداب (٢١٥٣/ ٣٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٨٠) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٩٠) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الأدب (٣٧٠٦) .

(٤) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤١) ومسلم فى الآداب (٢١٥٦/ ٤٠) والترمذى فى الاستئذان (٢٧٠٩) وقال : «هذا حديث حسن صحيح ».

(٥) فى المطبوعة : « راجعوا » .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ .

لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان ، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم ، فيندرج تحته غضّ البصر من المستأذن، كما قال ﷺ : « إنما جعل الإذن من أجل البصر »(١) وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم ، لكون قطع ذرائع الزنا التى منها النظر هم أحق من غيرهم بها وأولى بذلك ممن سواهم . وقيل : إن فى الآية دليلا على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم . وفى الكلام حذف ، والتقدير : قل للمؤمنين غضوا ، يغضوا . ومعنى غضّ البصر : إطباق الجفن على العين بحيث تمتنع الرؤية ، ومنه قول جرير :

فغـضّ الطـرف إنـك مـن نمـير ... فلا كعبا بـلغـت ولا كـلابا

وقول عنترة :

وأغضّ طرفى ما بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتـى مـأواها

و« من » فى قوله : ﴿ **من أبصارهم** ﴾ هى التبعيضية ، وإليه ذهب الأكثرون ، وبينوه بأن المعنى غضّ البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل . وقيل : وجه التبعيض أنه يعفى للناظر أوّل نظرة تقع من غير قصد . وقال الأخفش : إنها زائدة وأنكر ذلك سيبويه . وقيل : إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء . واعترض عليه بأنه لم يتقدم مبهم يكون مفسرا بمن. وقيل : إنها لابتداء الغاية، قاله ابن عطية. وقيل : الغضّ : النقصان ، يقال : غضّ فلان من فلان ، أى وضع منه ، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه ومنقوص فتكون « من » صلة للغضّ ، وليست لمعنى من تلك المعانى الأربعة . وفى هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحلّ النظر إليه ، ومعنى ﴿ **ويحفظوا فروجهم** ﴾ : أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم . وقيل : المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها ، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج . قيل : ووجه المجىء بمن فى الأبصار دون الفروج أنه موسع فى النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى ، بخلاف حفظ الفرج فإنه مضيق فيه ، فإنه لا يحلّ منه إلا ما استثنى . وقيل : الوجه أن غضّ البصر كله كالمتعذر ، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من الغضّ والحفظ ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **أزكى لهم** ﴾ أى أظهر لهم من دنس الريبة وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة ﴿ **إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ لا يخفى عليه شىء من صنعهم ، وفى ذلك وعيد لمن لم يغضّ بصره ويحفظ فرجه .

(١) جزء من حديث سبق تخريجه .

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ خصّ سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما فى سائر الخطابات القرآنية ، وظهر التضعيف فى يغضضن ولم يظهر فى يغضوا ؛ لأن لام الفعل من الأوّل متحركة ومن الثانى ساكنة ، وهما فى موضع جزم جوابا للأمر ، وبدأ سبحانه بالغضّ فى الموضعين قبل حفظ الفرج ؛ لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج ، والوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه، ومعنى ﴿ **يغضضن من أبصارهن** ﴾ : كمعنى ﴿ **يغضوا من أبصارهم** ﴾ ، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ ، وكذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهن على الوجه الذى تقدّم فى حفظ الرجال لفروجهم ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ أى ما يتزينّ به من الحلية وغيرها ، وفى النهى عن إبداء الزينة نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهى ، فقال : ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ .

واختلف الناس فى ظاهر الزينة ما هو ؟ فقال ابن مسعود وسعيد بن جبير : ظاهر الزينة هو الثياب وزاد سعيد بن جبير الوجه . وقال عطاء والأوزاعى : الوجه والكفان . وقال ابن عباس وقتادة والمسور بن مخرمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسواك والخضاب إلى نصف الساق ونحو ذلك ، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه . وقال ابن عطية : إن المرأة لا تبدى شيئا من الزينة وتخفى كل شيء من زينتها ، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة . ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآنى النهى عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب والخمار ونحوهما مما على الكف والقدمين من الحلية ونحوها ، وإن كان المراد بالزينة : مواضعها كان الاستثناء راجعا إلى مايشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين ونحو ذلك . وهكذا إذا كان النهى عن إظهار الزينة يستلزم النهى عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب ، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه فى الموضعين ، وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة وما تتزين به النساء فالأمر واضح ، والاستثناء يكون من الجميع . قال القرطبى فى تفسيره : الزينة على قسمين : خلقية ومكتسبة ؛ فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة ، والزينة المكتسبة : ما تحاوله المرأة فى تحسين خلقها كالثياب والحلى والكحل والخضاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقول الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى وإذا عطلن فهنّ خير عواطل (١)

﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام التى للأمر . وقرأ أبوعمرو بكسرها على الأصل لأن أصل لام الأمر الكسر ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . والخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، ومنه اختمرت المرأة وتخمرت . والجيوب : جمع جيب ، وهو موضع القطع من الدرع والقميص ، مأخوذ من الجوب وهو القطع. قال المفسرون : إن نساء الجاهلية كنّ يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ ، وكانت جيوبهنّ من

(١) القرطبى ٧ / ٤٦٢١ .

قدّام واسعة ، فكان تنكشف نحورهنّ وقلائدهنّ ، فأمرن أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو ، وفى لفظ الضرب مبالغة فى الإلقاء الذى هو الإلصاق . قرأ الجمهور :﴿ **بخمُرهنّ** ﴾ بتحريك الميم ، وقرأ طلحة بن مصرف بسكونها . وقرأ الجمهور : ﴿**جُيوبهنّ** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ ابن كثير وبعض الكوفيين بكسرها ، وكثير من متقدمى النحويين لا يجوّزون هذه القراءة . وقال الزجاج : يجوز أن يبدل من الضمة كسرة ، فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء ، وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدّمنا وهو المعنى الحقيقى . وقال مقاتل : إن معنى على جيوبهنّ : على صدورهنّ ، فيكون فى الآية مضاف محذوف ، أى على مواضع جيوبهنّ .

ثم كرر سبحانه النهى عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء فقال : ﴿ **ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ** ﴾ : البعل : هو الزوج والسيد فى كلام العرب ، وقدّم البعولة لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم، ومثله قوله سبحانه : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ [المؤمنون: ٥ ، ٦]. ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوى المحارم فقال : ﴿ **أو آبائهنّ أو آباء بعولتهن** ﴾ إلى قوله :﴿ **أو بنى أخواتهنّ** ﴾ فجوّز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة وعدم خشية الفتنة لما فى الطباع من النفرة عن القرائب . وقد روى عن الحسن والحسين رضى اللّه عنهما أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهابا منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبى ﷺ وهى قوله : ﴿ لا جناح عليهنّ فى آبائهن ﴾ [الأحزاب:٥٥] . والمراد بأبناء بعولتهنّ ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فى قوله : ﴿ **أو أبنائهنّ**﴾ أولاد الأولاد وإن سفلوا وأولاد بناتهنّ وإن سفلوا، وكذا آباء البعولة وآباء الآباء وآباء الأمهات وإن علوا ، وكذلك أبناء البعولة وإن سفلوا ، وكذلك أبناء الإخوة والأخوات . وذهب الجمهور إلى أن العمّ والخال كسائر المحارم فى جواز النظر إلى ما يجوز لهم ،وليس فى الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب . وقال الشعبى وعكرمة : ليس العمّ والخال من المحارم ، ومعنى ﴿ **أو نسائهنّ** ﴾ : هنّ المختصات بهنّ الملابسات لهنّ بالخدمة أو الصحبة ، ويدخل فى ذلك الإماء ، ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لهنّ أن يبدين زينتهنّ لهنّ لأنهن لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال . وفى هذه المسألة خلاف بين أهل العلم ، وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات ﴿ **أو ما ملكت أيمانهنّ** ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين ، وبه قال جماعة من أهل العلم ، وإليه ذهبت عائشة وأمّ سلمة وابن عباس ومالك . وقال سعيد بن المسيب : لا تغرّنكم هذه الآية : ﴿ **أو ما ملكت أيمانهنّ** ﴾ إنما عنى بها الإماء ولم يعن بها العبيد . وكان الشعبى يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وهو قول عطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين، وروى عن ابن مسعود ، وبه قال أبوحنيفة وابن جريج ﴿ **أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال** ﴾ قرأ

الجمهور : ﴿ **غير** ﴾ بالجر . وقرأ أبو بكر وابن عامر بالنصب على الاستثناء . وقيل : على القطع ، والمراد بالتابعين هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم فى النساء قاله مجاهد وعكرمة والشعبى ، ومن الرجال فى محل نصب على الحال . وأصل الإربة والأرب والمأربة الحاجة والجمع مآرب ، أى حوائج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ولى فيها مآرب أخرى ﴾ [طه : ١٨] ، ومنه قول طرفة :

إذا المرء قال الجهل والحوب والخنا تقدّم يوما ثم ضاعت مآربه

وقيل : المراد بغير أولى الإربة من الرجال: الحمقى الذين لا حاجة لهم فى النساء. وقيل: البله . وقيل : العنين . وقيل : الخصى . وقيل : المخنث . وقيل : الشيخ الكبير ، ولا وجه لهذا التخصيص ، بل المراد بالآية ظاهرها وهم من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له فى النساء ولا يحصل منه ذلك فى حال من الأحوال ، فيدخل فى(١) هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾ الطفل : يطلق على المفرد والمثنى ، أو المراد به هنا: الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع ،وفى مصحف أبىّ: « أو الأطفال » على الجمع ، يقال للإنسان طفل ما لم يراهق الحلم ، ومعنى ﴿ **لم يظهروا** ﴾ لم يطلعوا ، من الظهور بمعنى الاطلاع ، قاله ابن قتيبة. وقيل: معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة ، قاله الفراء والزجاج ، يقال : ظهرت على كذا : إذا غلبته وقهرته . والمعنى : لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع ، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع . قراءة الجمهور : ﴿**عوْراتِ** ﴾ بسكون الواو تخفيفا ، وهى لغة جمهور العرب. وقرأ ابن عامر فى رواية بفتحها . وقرأ بذلك ابن أبى إسحاق والأعمش . ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، وهى لغة هذيل ابن مدركة ، ومنه قول الشاعر الذى أنشده الفراء :

أخو بَيَضَاتٍ رائحٌ متأوبٌ رفيقٌ لمسحِ المنكبينِ سبوحُ

واختلف العلماء فى وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال ، فقيل : لا يلزم لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح. وقيل : يلزم لأنها قد تشتهى المرأة . وهكذا اختلف فى عورة الشيخ الكبير الذى قد سقطت شهوته ، والأولى بقاء الحرمة كما كانت ، فلا يحلّ النظر إلى عورته ولا يحلّ له أن يكشفها .

وقد اختلف العلماء فى حدّ العورة . قال القرطبى : أجمع المسلمون على أن السوأتين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها ويديها على خلاف فى ذلك (٢) . وقال الأكثر : إن عورة الرجل من سرّته إلى ركبته ﴿**ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم** (٣) **ما يخفين من**

---

(١) فى المطبوعة : « من » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) القرطبى ٧/ ٤٦٢٩ .

(٣) فى المطبوعة : « ليعم » .

زينتهن ﴾ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال . قال الزجاج : وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها . ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصى فقال سبحانه: ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون** ﴾ فيه الأمر بالتوبة ، ولا خلاف بين المسلمين فى وجوبها وأنها فرض من فرائض الدين . وقد تقدّم الكلام على التوبة فى سورة النساء (١) . ثم ذكر ما يرغبهم فى التوبة ، فقال : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى تفوزون بسعادة الدنيا والآخرة . وقيل : إن المراد بالتوبة هنا: هى عما كانوا يعملونه فى الجاهلية ، والأوّل أولى لما تقرر فى السنة أن الإسلام يجب ما قبله .

وقد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال : مرّ رجل على عهد رسول اللّه ﷺ فى طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : واللّه لا أغسل الدمّ حتى آتى رسول اللّه ﷺ فأعلمه أمرى، فأتاه فقص عليه قصته ، فقال النبىّ ﷺ : « هذا عقوبة بذنبك » ، وأنزل اللّه : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ قال : يعنى من شهواتهم مما يكره اللّه . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى ، والبيهقى فى سننه عن بريدة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإن الأولى لك ، وليست لك الأخرى » (٢) . وفى مسلم وأبى داود والترمذى والنسائى عن جرير البجلى قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أَصرف بصرى (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » ، قالوا : يا رسول اللّه ، مالنا بدّ من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا : وما حقه يا رسول اللّه ؟ قال : «غضّ البصر ، وكف الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » (٤) .

وأخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال : قلت : يا رسول اللّه ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما

---

(١) عند تفسير الآيات : ١٦ـ ١٨ .

(٢) أبو داود فى النكاح (٢١٤٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٧٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والبيهقى ٧/ ٩٠ .

(٣) مسلم فى الآداب (٢١٥٩/ ٤٥) وأبو داود فى النكاح (٢١٤٨) والترمذى فى الأدب (٢٧٧٦) وقال : « هذا حديث حسنٌ صحيح » والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٢٣٣) .

(٤) أحمد ٣/ ٣٦ ، ٤٧ والبخارى فى المظالم (٢٤٦٥) وفى الاستئذان (٦٢٢٩) ومسلم فى اللباس (٢١٢١/ ١١٤) وأبو داود فى الأدب (٤٨١٥).

ملكت يمينك » . قلت : يا نبيّ الله ، إذا كان القوم بعضهم فى بعض ، قال : « إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها » ، قلت : إذا كان أحدنا خاليا ، قال : « فالله أحقّ أن يستحيا منه من الناس » (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين السماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطو ، والنفس تتمنى ، والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه » (٢) . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ : « النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » (٣) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال : بلغنا والله أعلم أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدّث أن أسماء بنت يزيد كانت فى نخل لها لبنى حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن ، يعنى الخلاخل ، وتبدو صدورهنّ وذوائبهنّ ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا ، فأنزل الله ذلك : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية ، وفيه ـ مع كونه مرسلا ـ مقاتل .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ولا يبدين زينتهنّ ﴾ قال : الزينة: السوار والدملج والخلخال والقرط والقلادة ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ قال : الثياب والجلباب . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال : الزينة: زينتان زينة ظاهرة وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج ، فأما الزينة الظاهرة فالثياب ، وأما الزينة الباطنة فالكحل والسوار والخاتم . ولفظ ابن جرير : فالظاهرة منها: الثياب ، وما خفى: الخلخالان والقرطان والسواران . وأخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله : ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ قال : الكحل والخاتم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : ﴿ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها ﴾ قال : الكحل والخاتم والقرط والقلادة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه قال : هو خضاب الكفّ والخاتم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : الزينة الظاهرة : الوجه والكفان . وأخرجا عن ابن عباس قال : إلا ما ظهر منها : وجهها وكفاها والخاتم . وأخرجا أيضا عنه قال : رقعة الوجه وباطن الكفّ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ؛ إنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت: القلب والفتخ وضمت طرف كمها. وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى عن عائشة : أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى

(١) أحمد ٥/ ٣ ، ٤ وعلقه البخارى ١/ ٣٨٥ وأبو داود فى اللباس (٤٠١٧) والترمذى فى الأدب (٢٧٦٩) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى النكاح (١٩٢٠) .

(٢) أحمد ٢/ ٣١٧ ، ٣٢٩ والبخارى فى الاستئذان (٦٣٤٣) وفى القدر (٦٦١٢) ومسلم فى القدر (٢٦٥٧/ ٢٠ ، ٢١) وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢) .

(٣) صححه الحاكم ٤/ ٣١٤ وقال الذهبى : « فيه إسحاق واهٍ ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » .

ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا » ، وأشار إلى وجهه وكفه (١) . قال أبو داود وأبو حاتم الرازى : هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة ولم يسمع منها . وأخرج البخارى وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة : قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله : ﴿ **وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ** ﴾ شققن أكثف مروطهنّ فاختمرن به (٢) . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنها بلفظ : أخذ النساء أزرهنّ فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها**﴾ والزينة الظاهرة : الوجه وكحل العينين وخضاب الكفّ والخاتم ، فهذا تظهره فى بيتها لمن دخل عليها . ثم قال : ﴿ **ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ** ﴾ الآية ، والزينة التى تبديها لهؤلاء : قرطها وقلادتها وسوارها ، فأما خلخالها ومعضدها ونحرها وشعرها، فإنها لا تبديه إلا لزوجها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : ﴿ **أو نسائهنّ** ﴾ قال : هنّ المسلمات، لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح ، وما يحرم أن يراه إلا محرم . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب ؛ أنه كتب إلى أبى عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فَانْهَ مَنْ قبلك عن ذلك ، فإنه لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : لا بأس أن يرى العبد شعر سيدته . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى عن أنس ؛ أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهب لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبىّ ﷺ ما تلقى قال: « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » (٥) . وإسناده فى سنن أبى داود هكذا : حدّثنا محمد بن عيسى حدّثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس فذكره . وأخرج عبد الرزاق وأحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكنّ مكاتب ، وكان له ما يؤدى فلتحتجب منه » (٦) . وإسناد أحمد هكذا : حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن نبهان أن أم سلمة. . . فذكره .

---

(١) أبو داود فى اللباس (٤١٠٤) والبيهقى ٧/ ٨٦ وفى سنده سعيد بن بشير قال ابن حجر : « ضعيف » تقريب التهذيب ١/ ٢٩٢ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٥٨) وأبو داود فى اللباس (٤١٠٢) والنسائى فى التفسير (٣٨٣) وابن جرير ١٨/ ٩٤ والبيهقى ٧/ ٨٨ .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٩٤ ، وصححه الحاكم ٤/ ١٩٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) البيهقى ٧/ ٩٥ .

(٥) أبو داود فى اللباس (٤١٠٦) والبيهقى ٧/ ٩٥ .

(٦) أحمد ٦/ ٣٠٨ .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال**﴾ قال : هذا الذى لا تستحيى منه النساء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل فى عقله ، لا يكترث للنساء ولا يشتهى النساء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية قال : كان الرجل يتبع الرجل فى الزمان الأوّل لا يغار عليه ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده ، وهو الأحمق الذى لا حاجة له فى النساء . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : هو المخنث الذى لا يقوم زبه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبىّ ﷺ مخنث ، فكانوا يدعونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبىّ ﷺ يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، قال النبىّ ﷺ : « ألا أرى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخلنّ عليكم » فحجبوه [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن**﴾ وهو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون فى رجلها خلاخل فتحركهن عند الرجال ، فنهى اللّه عن ذلك،لأنه من عمل الشيطان .

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴾.

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى ما يحلّ للعباد من النكاح الذى يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعى الزنا ويسهل بعده غضّ البصر عن المحرمات وحفظ الفرج عما لا يحل ، فقال : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾ الأيم : التى لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيبا ، والجمع أيامى والأصل أيايم ، والأيم بتشديد الياء، ويشمل الرجل والمرأة . قال أبو عمرو والكسائى : اتفق أهل اللغة على أن الأيم فى الأصل هى المرأة التى لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا. قال أبو عبيد : يقال : رجل أيم وامرأة أيم ، وأكثر ما يكون فى النساء ، وهو

(١) أحمد ٦/ ١٥٢ ومسلم فى السلام (٢١٨١/ ٣٣) وأبو داود فى اللباس (٤١٠٧) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٢٤٦) وابن جرير ١٨/ ٩٦ والبيهقى ٧/ ٩٦ .

كالمستعار فى الرجال ، ومنه قول أمية[1] بن أبى الصلت :

لله درّ بنى علىٍّ أيم منهم وناكح

ومنه أيضا قول الآخر :

لقد إمت حتى لامنى كلّ صاحب رجاء سليمى أن تأيم كما إمت

والخطاب فى الآية للأولياء . وقيل للأزواج ، والأوّل أرجح ، وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها ، وقد خالف فى ذلك أبوحنيفة .

واختلف أهل العلم فى النكاح : هل مباح ، أو مستحب ، أو واجب ؟ فذهب إلى الأوّل الشافعى وغيره ، وإلى الثانى مالك وأبوحنيفة ، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم فى ذلك ، فقالوا : إن خشى على نفسه الوقوع فى المعصية وجب عليه وإلا فلا . والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون فى الوجوب مع تلك الخشية ، وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح بعد ترغيبه فى النكاح : « ومن رغب عن سنتى فليس منى» [2] ، ولكن مع القدرة عليه ، وعلى مؤنه كما سيأتى قريبا . والمراد بالأيامى هنا : الأحرار والحرائر، وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله : ﴿ **والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **عبادكم** ﴾ وقرأ الحسن: « عبيدكم » قال الفراء : ويجوز : «وإماءكم » بالنصب بردّه على الصالحين . والصلاح هو الإيمان . وذكر سبحانه الصلاح فى المماليك دون الأحرار لأن الغالب فى الأحرار الصلاح بخلاف المماليك ، وفيه دليل على أن المملوك لايزوّج نفسه ، وإنما يزوّجه مالكه . وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح. وقال مالك : لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام فى الأحرار فقال: ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ أى لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو أحدهما ، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه سبحانه ويتفضل عليهم بذلك . قال الزجاج : حثّ اللّه على النكاح وأعلم أنه سبب لنفى الفقر ، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلا لكل فقير إذا تزوّج فإن ذلك مقيد بالمشيئة . وقد يوجد فى الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوّجوا . وقيل : المعنى : إنه يغنيه بغنى النفس . وقيل : المعنى : إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم اللّه من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا. والوجه الأوّل أولى ، ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ [التوبة : ٢٨]. فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك ،وجملة: ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ مؤكدة لما قبلها ومقرّرة لها ، والمراد أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده ، عليم بمصالح خلقه ، يغنى من يشاء ويفقر من يشاء .

---

(١) فى المطبوعة : « أمية بنت أبو الصلت » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ١٥٨/٢ والبخارى فى النكاح (٥٠٦٣) ومسلم فى النكاح (١٤٠٢/٥) والنسائى ٦/ ٦٠ والدارمى ١٣٣/٢.

ثم ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا** ﴾ استعفّ : طلب أن يكون عفيفا ، أى ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد نكاحا ، أى سبب نكاح ، وهو المال . وقيل : النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به ، واللباس اسم لما يلبس ، وقيد سبحانه هذا النهى بتلك الغاية ، وهى : ﴿ **حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ أى يرزقهم رزقا يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح ، وفى هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى ، وهى إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه بالمشيئة كما ذكرنا ، فإنه لو كان وعدا حتما لا محالة فى حصوله ؛ لكان الغنى والزواج متلازمين، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة ، فإنه سيغنى عند تزوجه لا محالة ، فيكون فى تزوّجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال : إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح ، ولا ينافى ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح ، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحا إذا كان غير واجد لأسبابه التى يتحصل بها ، وأعظمها المال .

ثم لما رغب سبحانه فى تزويج الصالحين من العبيد والإماء ، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم** ﴾ الموصول فى محل رفع على الابتداء ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده ، أى وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب . والكتاب: مصدر كاتب كالمكاتبة ، يقال : كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة ، كما يقال : قاتل يقاتل قتالا ومقاتلة . وقيل : الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذى يكتب فيه الشيء ، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا ، فيكون المعنى: الذين يطلبون كتاب المكاتبة . ومعنى المكاتبة فى الشرع : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما ، فإذا أدّاه فهو حرّ ، وظاهر قوله : ﴿ **فكاتبوهم** ﴾ أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده ، وهو : ﴿ **إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ والخير هو القدرة على أداء ماكوتب عليه وإن لم يكن له مال . وقيل : هو المال فقط ، كما ذهب إليه مجاهد والحسن وعطاء والضحاك وطاوس ومقاتل . وذهب إلى الأوّل ابن عمر وابن زيد ، واختاره مالك ، والشافعي والفراء والزجاج . قال الفراء : يقول إن رجوتم عندهم وفاء وتأدية للمال . وقال الزجاج : لما قال ﴿ **فيهم** ﴾ كان الأظهر الاكتساب ، والوفاء وأداء الأمانة . وقال النخعى: إن الخير : الدين والأمانة . وروى مثل هذا عن الحسن . وقال عبيدة السلمانى : إقامة الصلاة . قال الطحاوى : وقول من قال : إنه المال ، لا يصح عندنا ، لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال ؟ قال : والمعنى عندنا : إن علمتم فيهم الدين والصدق . قال أبو عمر بن عبد البرّ : من لم يقل: إن الخير هنا المال ، أنكر أن يقال : إن علمتم فيهم مالا ، وإنما يقال : علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ، ولا يقال : علمت فيه المال . هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم فى الخير المذكور فى هذه الآية . وإذا تقرّر لك هذا ، فاعلم أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور فى الآية من الوجوب عكرمة

وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك وأهل الظاهر ، فقالوا : يجب على السيد أن يكاتب مملوكه إذا طلب منه ذلك وعلم فيه خيرا . وقال الجمهور من أهل العلم : لا يجب ذلك ، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك ولم يجبر عليه ، فكذا الكتابة ؛ لأنها معاوضة . ولا يخفاك أن هذه حجة واهية وشبهة داحضة ، والحق ما قاله الأوّلون ، وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس واختاره ابن جرير .

ثم أمر سبحانه الموالى بالإحسان إلى المكاتبين ، فقال: ﴿ **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم**﴾ ففى هذه الآية الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة ، إما بأن يعطوهم شيئا من المال أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه ،وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار. وقيل : الثلث. وقيل: الربع . وقيل : العشر ، ولعل وجه تخصيص الموالى بهذا الأمر، هو كون الكلام فيهم ، وسياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة . وقال الحسن والنخعى وبريدة : إن الخطاب بقوله : ﴿**وآتوهم** ﴾ لجميع الناس . وقال زيد بن أسلم : إن الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما فى قوله سبحانه : ﴿ وفى الرقاب ﴾ [التوبة : ٦٠] . وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة . ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالى إلى نكاح الصالحين من المماليك ، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال : ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء** ﴾ والمراد بالفتيات هنا : الإماء ، وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار فى مواضع أخر . والبغاء : الزنا ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء : إذا زنت ، وهذا مختصّ بزنا النساء ، فلا يقال للرجل إذا زنا إنه بغىّ ، وشرط اللّه سبحانه هذا النهى بقوله : ﴿ **إن أردن تحصنا** ﴾ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهن للتحصن ، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها : مكرهة على الزنا . والمراد بالتحصن هنا : التعفف والتزوج . وقيل : إن هذا القيد راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسن بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصنا . وقيل : هذا الشرط ملغى . وقيل : إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه ، فإنهم كانوا يكرهونهنّ وهنّ يردن التعفف ، وليس لتخصص النهى بصورة إرادتهنّ التعفف . وقيل : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب ؛ لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن ، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن ، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه ، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها فى النكاح ، والصغيرة فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن ، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن ، إلا أن يقال : إن المراد بالتحصن هنا مجرّد التعفف ، وإنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن وهو بعيد ، فقد قال الحبر ابن عباس : إن المراد بالتحصن التعفف والتزوّج ، وتابعه على ذلك غيره .

ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله ﴿ **لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** ﴾ وهو ما تكسبه الأمة

بفرجها ، وهذا التعليل أيضا خارج مخرج الغالب ، والمعنى : أن هذا العرض هو الذى كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء فى الغالب ، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلا لا يصدر مثله عن العقلاء ، فلا يدلّ هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها ، إذا لم يكن مبتغيا بإكراهها عرض الحياة الدنيا . وقيل : إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت كذلك ، لا أنه مدار للنهى عن الإكراه لهنّ ،وهذا يلاقى المعنى الأوّل ولا يخالفه﴿ **ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم**﴾ هذا مقرّر لما قبله ومؤكد له ، والمعنى : أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات ، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود وجابر بن عبد اللّه وسعيد بن جبير : « فإن اللّه غفور رحيم لهنّ » . قيل : وفى هذا التفسير بعد ، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة . وأجيب بأنها وإن كانت مكرهة ، فربما لا تخلو فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجبلة البشرية ، أو يكون الإكراه قاصرا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار . وقيل : إن المعنى : فإن اللّه من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهم : إما مطلقا ، أو بشرط التوبة .

ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام ، شرع فى وصف القرآن بصفات ثلاث : الأولى: أنه آيات مبينات ، أى واضحات فى أنفسهن أو موضحات ، فتدخل الآيات المذكورة فى هذه الصورة دخولا أوّليا . والصفة الثانية : كونه مثلا من الذين خلوا من قبل هؤلاء ، أى مثلا كائنا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة ، والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة ، فإن العجب من قصة عائشة رضى اللّه عنها ، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتهما به، ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام اللّه عليهما . والصفة الثالثة : كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة ، فيقتدون بما فيه من الأوامر ، وينزجرون عما فيه من النواهى . وأما غير المتقين ، فإن اللّه قد ختم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ ، والاعتبار بقصص الذين خلوا ، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنكحوا الأيامى** ﴾ الآية قال : أمر اللّه سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه ، وأمرهم أن يزوّجوا أحرارهم وعبيدهم ، ووعدهم فى ذلك الغنى فقال : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصدّيق قال : أطيعوا اللّه فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، قال تعالى : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وعبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال : ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى فى الباءة، وقد وعد اللّه فيها ما وعد ، فقال : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج البزار ، والدارقطنى فى العلل ، والحاكم وابن مردويه والديلمى من طريق عروة عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ : «أنكحوا

النساء، فإنهنّ يأتينكم بالمال »[١] . وأخرجه ابن أبى شيبة ، وأبو داود فى مراسيله عن عروة مرفوعا إلى النبىّ ﷺ ولم يذكر عائشة وهو مرسل[٢] . وأخرج عبد الرزاق وأحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حقّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله »[٣] . وقد ورد فى الترغيب فى مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا**﴾ قال : ليتزوج من لا يجد فإن الله سيغنيه . وأخرج ابن السكن فى معرفة الصحابة عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكا لحويطب بن عبد العزى ، فسألته الكتابة فأبى ، فنزلت : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب** ﴾ الآية[٤]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أنس بن مالك قال : سألنى سيرين المكاتبة فأبيت عليه ، فأتى عمر بن الخطاب فأقبل على بالدرة وقال: كاتبه وتلا : ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ فكاتبته . قال ابن كثير : إن إسناده صحيح . وأخرج أبو داود فى المراسيل ، والبيهقى فى سننه عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ قال: « إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كلا على الناس »[٥] . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس :﴿ **إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ قال : المال . وأخرج ابن مردويه عن علىّ مثله . وأخرج البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : أمانة ووفاء . وأخرج عنه أيضا قال : إن علمت مكاتبك يقضيك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه فى الآية قال : إن علمتم لهم حيلة ، ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين ﴿**وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ﴾ يعنى ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن نافع قال: كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ويقول : يطعمنى من أوساخ الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس فى قوله: ﴿ **وآتوهم من مال الله** ﴾ الآية : أمر المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب . وقال علىّ بن أبى طالب : أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه . وهذا تعليم من الله ليس بفريضة ، ولكن فيه أجر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى

---

(١) كشف الأستار فى النكاح (١٤٠٢) وصححه الحاكم ٢/ ١٦١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن أبى شيبة ٤/ ١٢٧ ، وأبو داود فى المراسيل (٢٠٣) وقال المحقق : « رجاله ثقات ، رجال الشيخين » .

(٣) أحمد ٢/ ٢٥١ والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥٥) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى ٦/ ١٦ ، ٦١ ، وابن ماجة فى العتق (٢٥١٨) وابن حبان فى النكاح (٤٠١٩) وصححه الحاكم ٢/ ١٦٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى النكاح ٧/ ٧٨ .

(٤) الواحدى فى أسباب النزول : ١٨٦ .

(٥) أبو داود فى المراسيل (١٨٥) والبيهقى ١٠/ ٣١٧ .

حاتم ، والروياني في مسنده ، والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة في الآية قال : حثّ الناس عليه أن يعطوه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ومسلم والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي من طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله بن أبيّ يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئا ، وكانت كارهة ، فأنزل الله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ لهنّ غفور رحيم » هكذا كان يقرؤها [١] . وذكر مسلم في صحيحه عن جابر أن جارية لعبد الله ابن أبيّ: يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة ، فكان يريدهما على الزنا ، فشكتا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم** ﴾ الآية [٢] . وأخرج البزار وابن مردويه عن أنس نحو حديث جابر الأوّل . وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب في الآية قال : كان أهل الجاهلية يبغين إماءهم ، فنهوا عن ذلك في الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهنّ فنزلت الآية . وقد ورد النهي منه ﷺ عن مهر البغيّ وكسب الحجام وحلوان الكاهن [٣] .

﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)** ﴾.

لما بين سبحانه من الأحكام ما بين ، أردف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال فقال : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والاسم الشريف مبتدأ ، و﴿ **نور السموات والأرض** ﴾ خبره، إما على حذف مضاف ، أى ذو نور السموات والأرض ، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله وظهور عدله وبسطه أحكامه ،

---

(١) ابن أبي شيبة ٤/٣٧٦ ومسلم في التفسير (٣٠٢٩/٢٦) وابن جرير ١٨/١٠٣ والبيهقي ٨/٩ .

(٢) مسلم في التفسير (٣٠٢٩/٢٧) .

(٣) من ذلك ما أخرجه أحمد ٤/١١٨ والبخاري في البيوع (٢٢٣٧) ومسلم في المساقاة (١٥٦٧/٣٩) عن أبي مسعود الأنصاري ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن .

كما يقال : فلان نور البلد ، وقمر الزمن ، وشمس العصر ، ومنه قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ظهرت لم يبق فيهنّ كوكب

وقول الآخر :

هلا قصدت من البلاد لمفضل قمر القبائل خالد بن يزيد

ومن ذلك قول الشاعر :

إذا سار عبد اللّه من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

وقول الآخر :

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

ومعنى النور فى اللغة : الضياء ، وهو الذى يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقة ما تراه ، فيجوز إطلاق النور على اللّه سبحانه على طريقة المدح ، ولكونه أوجد الأشياء المنوّرة وأوجد أنوارها ونوّرها ، ويدلّ على هذا المعنى قراءة زيد بن على وأبى جعفر وعبد العزيز المكى : «اللّه نور السموات والأرض » على صيغة الفعل الماضى ، وفاعله ضمير يرجع إلى اللّه ، والسموات مفعوله ؛ فمعنى ﴿ **اللّه نور السموات والأرض** ﴾ : أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما وكمال تدبيره عزّ وجلّ لمن فيهما ، كما يقال : الملك نوّر البلد ، هكذا قال الحسن ومجاهد والأزهرى والضحاك والقرطبى وابن عرفة وابن جرير وغيرهم ، ومثله قول الشاعر :

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ونبت لمن يرجو نداك وريف

وقال هشام الجواليقى وطائفة من المجسمة : إنه سبحانه نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام ، وقوله : ﴿ **مثل نوره** ﴾ مبتدأ وخبره : ﴿ **كمشكاة** ﴾ أى صفة نوره الفائض عنه ، الظاهر على الأشياء كمشكاة ، والمشكاة الكوّة فى الحائط غير النافذة ، كذا حكاه الواحدى عن جميع المفسرين ، وحكاه القرطبى عن جمهورهم(١) . ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذى يكون فيه من مصباح أو غيره ،وأصل المشكاة: الوعاء يجعل فيه الشىء . وقيل : المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هى القنديل . والأوّل أولى ، ومنه قول الشاعر :

كأن عينيه مشكاتان فى جحر

ثم قال: ﴿ **فيها مصباح** ﴾ وهو السراج ﴿ **المصباح فى زجاجة** ﴾ قال الزجاج : النور فى الزجاج وضوء النار أبين منه فى كل شىء وضوؤه يزيد فى الزجاج ،

---

(١) القرطبى ٧ / ٣٦٤٩ .

ووجه ذلك : أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور . ثم وصف الزجاجة فقال : ﴿ **الزجاجة كأنها كوكب درىّ** ﴾ أى منسوب إلى الدّر لكون فيه من الصفاء والحسن مايشابه الدّر . وقال الضحاك : الكوكب الدّرى : الزهرة . قرأ أبو عمرو : «درىّ» بكسر الدال . قال أبو عمرو : لم أسمع أعرابيا يقول : إلا كأنه كوكب درّىّ بكسر الدال ، أخذوه من درأت النجوم تدرأ : إذا اندفعت . وقرأ حمزة بضم الدال مهموزا ، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد . وقال أبو عبيد : إن ضممت الدال وجب أن لا تهمز ، لأنه ليس فى كلام العرب . والدّرارى: هى المشهورة من الكواكب كالمشترى والزهرة والمريخ وما يضاهيها من الثوابت . ثم وصف المصباح بقوله : ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ و« من » هذه : هى الابتدائية ، أى ابتداء إيقاد المصباح منها . وقيل : هو على تقدير مضاف ، أى يوقد من زيت شجرة مباركة ، والمباركة الكثيرة المنافع . وقيل : المنماة ، والزيتون من أعظم الثمار نماء ، ومنه قول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس :

ليت شعرى مسافر بن أبى عمرو ... وليت يقولها المحزون

بورك الميت الغريب كما ... بورك نبع الرمان والزيتون

قيل : ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها ، وهى إدام ودهان ودباغ ووقود ، وليس فيها شىء إلا وفيه منفعة ، ثم وصفها بأنها ﴿ **لا شرقية ولا غربية** ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى معنى هذا الوصف ، فقال عكرمة وقتادة وغيرهم : إن الشرقية هى التى تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت . والغربية هى التى تصيبها إذا غربت ، ولا تصيبها إذا شرقت . وهذه الزيتونة هى فى صحراء بحيث لايسترها عن الشمس شىء لا فى حال شروقها ولا فى حال غروبها ، وما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود . وقيل : إن المعنى: إنها شجرة فى دوحة قد أحاطت بها ، فهى غير منكشفة من جهة الشرق ، ولا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس . قال ابن عطية : وهذا لا يصح عن ابن عباس ، لأن الثمرة التى بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد فى الوجود . ورجح القول الأوّل الفراء والزجاج . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه اللّه لنوره ولو كانت فى الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . قال الثعلبى : قد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ، لأن قوله : ﴿ **زيتونة** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **شجرة** ﴾ . قال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن الشام لا شرقىّ ولا غربىّ ، والشام هى الأرض المباركة . وقد قرئ : « توقد » بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح ، وبها قرأ الكوفيون . وقرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتحتية مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال . وقرأ الحسن والسلمى وأبو عمرو بن العلاء وأبو جعفر « توقد » بالفوقية مفتوحة وفتح الواو وتشديد القاف وفتح الدال على أنه فعل ماض من

توقد يتوقد ، والضمير فى هاتين القراءتين راجع إلى المصباح . قال النحاس : وهاتان القراءتان متقاربتان لأنهما جميعا للمصباح ، وهو أشبه بهذا الوصف ؛ لأنه الذى ينير ويضىء ، وإنما الزجاجة وعاء له . وقرأ نصر بن عاصم كقراءة أبى عمرو ومن معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع ، وأصله تتوقد .

ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال : ﴿ **يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **تمسسه** ﴾ بالفوقية ، لأن النار مؤنثة . قال أبو عبيد : إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم أن السدّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ : « يمسسه » بالتحتية لكون تأنيث النار غير حقيقى . والمعنى : أن هذا الزيت فى صفائه وإنارته يكاد يضىء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلا ، وارتفاع ﴿ **نور** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو نور، و﴿ **على نور** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لنور مؤكدة له ، والمعنى : هو نور كائن على نور. قال مجاهد : والمراد النار على الزيت . وقال الكلبى : المصباح نور ، والزجاجة نور . وقال السدّى : نور الإيمان ونور القرآن ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ من عباده، أى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ، وليس المراد بالهداية هنا مجرّد الدلالة ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾ أى يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها تقريبا لها إلى الأفهام وتسهيلا لإدراكها ؛ لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحا وبيانا ﴿ **والله بكل شىء عليم**﴾ لا يغيب عنه شىء من الأشياء معقولا كان أو محسوسا ، ظاهرا أو باطنا .

واختلف فى قوله: ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع** ﴾ بما هو متعلق ؛ فقيل: متعلق بما قبله ، أى كمشكاة فى بعض بيوت اللّه وهى المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما ترى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت . وقيل : متعلق بمصباح . وقال ابن الأنبارى : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ، كأنه قيل : وهى فى بيوت ، وقيل : متعلق بتوقد ؛ أى توقد فى بيوت ، وقد قيل : متعلق بما بعده ، وهو ﴿ **يسبح** ﴾ ، أى يسبح له رجال فى بيوت ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ **فيها** ﴾ تكريرا كقولك : زيد فى الدار جالس فيها . وقيل : إنه منفصل عما قبله ، كأنه قال اللّه: فى بيوت أذن اللّه أن ترفع . قال الحكيم الترمذى : وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه . وقد قيل : على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح أو بتوقد . ما الوجه فى توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت؟ ولا تكون المشكاة الواحدة ولا المصباح الواحد إلا فى بيت واحد . وأجيب بأن هذا من الخطاب الذى يفتح أوّله بالتوحيد ، ويختم بالجمع كقوله سبحانه : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : ١] ونحوه . وقيل : معنى ﴿ **فى بيوت** ﴾ : فى كلّ واحد من البيوت ، فكأنه قال : فى كلّ بيت . أو فى كلّ واحد من البيوت . واختلف الناس ، على أقوال : الأوّل: أنها المساجد ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما . الثانى : أن المراد بها بيوت بيت المقدس ، روى ذلك عن الحسن . الثالث : أنها بيوت النبىّ ﷺ ، روى عن مجاهد .

الرابع : هى البيوت كلها ، قاله عكرمة . الخامس : أنها المساجد الأربعة : الكعبة ، ومسجد قباء ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، قاله ابن زيد . والقول الأوّل أظهر لقوله: ﴿**يسبح له فيها بالغدوّ والآصال** ﴾ والباء من بيوت تضم وتكسر كلّ ذلك ثابت فى اللغة ، ومعنى ﴿ **أذن الله أن ترفع** ﴾ : أمر وقضى ، ومعنى ﴿ **ترفع** ﴾ : تبنى ، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ [البقرة : ١٢٧] . وقال الحسن البصرى وغيره : معنى ترفع تعظم ويرفع شأنها وتطهر من الأنجاس والأقذار ، ورجحه الزجاج . وقيل : المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين ، ومعنى ﴿ **يذكر فيها اسمه**﴾ : كل ذكر للّه عزّ وجلّ . وقيل : هو التوحيد ، وقيل : المراد تلاوة القرآن ، والأوّل أولى .

﴿ **يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر : « يسبح » بفتح الباء الموحدة مبنيا للمفعول ، وقرأ الباقون بكسرها مبنيا للفاعل إلا ابن وثاب وأبا حيوة فإنهما قرآ بالتاء الفوقية وكسر الموحدة ، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة ، ويكون رجال مرفوع على أحد وجهين : إما بفعل مقدّر ، وكأنه جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يسبحه رجال . الثانى : أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح ، وعلى القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضا رجال ، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث فى بعض الأحوال . واختلف فى هذا التسبيح ما هو ؟ فالأكثرون حملوه على الصلاة المفروضة ، قالوا : الغدو: صلاة الصبح ، والآصال : صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين ، لأن اسم الآصال يشملها ، ومعنى بالغدوّ والآصال : بالغداة والعشى . وقيل : صلاة الصبح والعصر . وقيل : المراد صلاة الضحى . وقيل : المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقى ، وهو تنزيه اللّه سبحانه عما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأفعاله ، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده ، وهذا أرجح مما قبله ، لكونه المعنى الحقيقى مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأوّلون ، وهو ما ذكرناه .

﴿ **لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ هذه الجملة صفة لرجال ، أى لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر ؛ وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر . وقال الفراء : التجارة لأهل الجلب ، والبيع ما باعه الرجل على بدنه ، وخصّ قوم التجارة ها هنا بالشراء لذكر البيع بعدها ، وبمثل قول الفراء قال الواقدى ، فقال : التجار :هم الجلاب المسافرون ، والباعة: هم المقيمون ، ومعنى ﴿ **عن ذكر الله** ﴾ : هو ما تقدّم فى قوله : ﴿**ويذكر فيها اسمه** ﴾ وقيل : المراد : الأذان . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى ، أى يوحدونه ويمجدونه . وقيل : المراد عن الصلاة ، ويردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا . والمراد بإقام الصلاة : إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وحذفت التاء ؛ لأن الإضافة تقوم مقامها فى ثلاث كلمات جمعها الشاعر فى قوله :

ثلاثة تحذف تاآتها مضافة عند جمع النحاة

وهى إذا شئت أبو عذرها وليت شعرى وإقام الصلاة

وأنشد الفراء فى الاستشهاد للحذف المذكور فى هذه الآية قول الشاعر :

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا

أى عدة الأمر ، وفى هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع . قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء لأنه يقال : أقمت الصلاة إقامة ، وكان الأصل : إقواما ، ولكن قلبت الواو ألفا فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فبقى أقمت الصلاة إقاما ، فأدخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الإضافة هاهنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة ، وهذا إجماع من النحويين . انتهى . وقد احتاج من حمل ذكر اللّه على الصلاة المفروضة أن يحمل إقامة الصلاة على تأديتها فى أوقاتها فرارا من التكرار ولا ملجئ إلى ذلك ، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقى كما قدّمنا . والمراد بالزكاة المذكورة هى : المفروضة ، وقيل: المراد بالزكاة : طاعة اللّه والإخلاص ، إذ ليس لكل مؤمن مال .

﴿ **يخافون يوما** ﴾ أى يوم القيامة ، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له ، ثم وصف هذا اليوم بقوله : ﴿ **تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ أى تضطرب وتتحوّل ، قيل : المراد بتقلب القلوب : انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها ولا تخرج ، والمراد بتقلب الأبصار هو : أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة . وقيل : المراد بتقلب القلوب : أنها تكون متقلبة بين الطمع فى النجاة والخوف من الهلاك ، وأما تقلب الأبصار فهو : نظرها من أىّ ناحية يؤخذون ، وإلى أىّ ناحية يصيرون . وقيل : المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين ، ومثله قوله : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : ٢٢] . فما كان يراه فى الدنيا غيا يراه فى الآخرة رشدا . وقيل : المراد : التقلب على جمر جهنم ، وقيل غير ذلك .

﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا ، أى أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله وإلى سبعمائة ضعف . وقيل : المراد بما فى هذه الآية : ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿**ويزيدهم من فضله** ﴾ فإن المراد به : التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أى من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ، أو أن عطاءه سبحانه لا نهاية له ، والجملة مقرّرة لما سبقها من الوعد بالزيادة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ قال : يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما . وأخرج الفريابى عنه فى قوله : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ مثل نوره الذى أعطاه المؤمن ﴿**كمشكاة** ﴾ وقال فى تفسير : ﴿ **زيتونة لا**

شرقية ولا غربية ﴾ إنها التى فى سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴿ **يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور** ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور . وأخرج عبد ابن حميد ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن الشعبىّ قال : فى قراءة أبىّ بن كعب : « مثل نور المؤمن كمشكاة » . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية قال: يقول : مثل نور من آمن بالله كمشكاة ، وهى الكوّة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **مثل نوره** ﴾ قال : هى خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة ، قال : مثل نور المؤمن كمشكاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ قال : هادى أهل السموات والأرض ﴿**مثل نوره** ﴾ : مثل هداه فى قلب المؤمن ﴿ **كمشكاة** ﴾ يقول : موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور، وفى إسناده علىّ بن أبى طلحة ، وفيه مقال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبىّ بن كعب : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره** ﴾ قال : هو المؤمن الذى قد جعل الإيمان والقرآن فى صدره فضرب الله مثله ، فقال : ﴿ **نور السموات والأرض مثل نوره** ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبىّ بن كعب يقرؤها : « مثل نور من آمن به » فهو المؤمن ، جعل الإيمان والقرآن فى صدره ﴿ **كمشكاة** ﴾ قال : فصدر المؤمن المشكاة ﴿ **فيها مصباح المصباح** ﴾ : النور ، وهو القرآن والإيمان الذى جعل فى صدره ﴿ **فى زجاجة** ﴾ و﴿ **الزجاجة** ﴾ قلبه ﴿ **كأنها كوكب درّى** ﴾ يقول : كوكب مضىء ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ والشجرة المباركة: أصل المبارك : الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ﴿ **زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ قال:فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر، فهى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أىّ حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يضله شىء من الفتن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة** ﴾ المشكاة كوّة البيت فيها مصباح ، وهو السراج يكون فى الزجاجة ، وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نورا ، ثم سماها أنواعا شتى [١]. ﴿ **لا شرقية ولا غربية** ﴾ قال : وهى وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ، وذلك أجود الزيت ﴿ **يكاد زيتها يضىء** ﴾ بغير نار ﴿ **نور على نور** ﴾ يعنى بذلك إيمان العبد وعلمه ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ وهو مثل المؤمن.

---

(١) ابن جرير ١٨ / ١٠٦ .

وأخرج الطبراني وابن عدى وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **كمشكاة فيها مصباح** ﴾ قال : المشكاة جوف محمد ﷺ ، والزجاجة قلبه ، والمصباح : النور الذى فى قلبه ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ الشجرة: إبراهيم ﴿ **زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ، ثم قرأ ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطية قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار ، فقال : حدّثنى عن قول الله: ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره** ﴾ قال: مثل نور محمد ﷺ كمشكاة قال: المشكاة : الكوّة ضربها الله مثلا لقمة فيها مصباح ، والمصباح قلبه ﴿ **المصباح فى زجاجة** ﴾ والزجاجة : صدره ﴿ **كأنها كوكب درى** ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدرّىّ ، ثم رجع المصباح إلى قلبه فقال : ﴿ **يوقد من شجرة مباركة . . . يكاد زيتها يضىء** ﴾ قال : يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبىّ ، كما يكاد الزيت أن يضىء ولو لم تمسسه نار .

وأقول : إن تفسير النظم القرآنى بهذا ونحوه مما تقدّم عن أبىّ بن كعب وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب ، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوز العدول عن المعنى العربى إلى هذه المعانى التى هى شبيهة بالألغاز والتعمية ، ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح فى المشكاة ، ولهذا قال ابن عباس : هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قدّمنا عنه ، ولا وجه لهذا الاستبعاد. فإنا قد قدّمنا فى أوّل البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه وأبلغ أسلوب ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ويفيده كلام الفصحاء ، فلا وجه للعدول عن الظاهر ، لا من كتاب ولا من سنة ولا من لغة . وأما ما حكى عن كعب الأحبار فى هذا كما قدّمنا ، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر فى تفسير الآية، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به فى مثل هذا . وقد نبهناك فيما سبق أن تفسير الصحابى إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا ، فلا تقوم به الحجة ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربى ، نعم إن صحت قراءة أبىّ بن كعب ، كانت هى المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر ، وتكون كالزيادة المبينة للمراد ، وإن لم تصح فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة وغيرهم ممن قبلهم وممن بعدهم هو المتعين .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع** ﴾ قال : هى المساجد تكرم وينهى عن اللغو فيها ، ويذكر فيها اسم الله ، يتلى فيها كتابه ﴿ **يسبح له فيها بالغدو والآصال** ﴾ صلاة الغداة وصلاة العصر ، وهما أوّل ما فرض الله من الصلاة فأحبّ أن يذكرهما ويذكر بهما عباده . وقد ورد فى تعظيم المساجد وتنزيهها عن القذر واللغو وتنظيفها وتطييبها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفى القرآن وما يغوص عليها إلا غوّاص فى قوله : ﴿ **فى بيوت**

أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ فى قوله : **﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾** قال : « هم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » . وأخرج ابن مردويه والديلمى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : **﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾** قال : «هم الذين يبتغون من فضل الله » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية ، قال : كانوا رجالا يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما فى أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم، والبيهقى فى الشعب عنه فى الآية ، قال : ضرب الله هذا المثل قوله : **﴿ كمشكاة ﴾** لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا أتجر الناس وأبيعهم ، ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا عن ذكر الله قال : عن شهود الصلاة .

وأخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر ، أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ، ثم دخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : **﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾**. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أنه رأى ناسا من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم، فقال : هؤلاء الذين قال الله فيهم : **﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾** . وأخرج هناد بن السرى فى الزهد وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، ومحمد ابن نصر فى الصلاة عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله يوم القيامة الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادى : أين الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادى : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ؛ ثم يعود فينادى : ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون » . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر مرفوعا نحوه (٢).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ

---

(١) الديلمى (٣٢٨٤) .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٩٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب عن الحسن مرسلا (٦٨٢) وفى إسناده جهالة .

يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾.

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلا للكافرين فقال : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾ المراد بالأعمال هنا : هى الأعمال التى من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفكّ العانى وعمارة البيت وسقاية الحاجّ . والسراب : ما يرى فى المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء فى ظنّ من يراه ،وسمى سرابا لأنه يسرب، أى يجرى كالماء ؛ يقال : سرب الفحل ، أى مضى وسار فى الأرض ، ويسمى : الآل أيضا. وقيل : الآل : هو الذى يكون ضحى كالماء ، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء والأرض ، قال امرؤ القيس :

ألـم أنـض المـطىّ بـكـلّ خـرق   أمَقِّ الطـول لمـاع السراب

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم   كلمع سراب بالفلا متألق

والقيعة : جمع قاع : وهو الموضع المنخفض الذى يستقرّ فيه الماء ، مثل جيرة وجار ، قاله الهروى . وقال أبو عبيد : قيعة وقاع واحد . قال الجوهرى : القاع : المستوى من الأرض ، والجمع : أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ، والقيعة مثل القاع . قال : وبعضهم يقول هو جمع ﴿ **يحسبه الظمآن ماء** ﴾ هذه صفة ثانية لسراب ،والظمآن : العطشان ، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك ، لتحقيق التشبيه المبنىّ على الطمع ﴿**حتى إذا جاءه لم يجده شيئا** ﴾ أى إذا جاء العطشان ذلك الذى حسبه ماء لم يجده شيئا مما قدّره وحسبه ولا من غيره، والمعنى : أن الكفار يعوّلون على أعمالهم التى يظنونها من الخير ويطمعون فى ثوابها ، فإذا قدموا على اللّه سبحانه لم يجدوا منها شيئا ، لأن الكفر أحبطها ومحا أثرها ، والمراد بقوله : ﴿ **حتى إذا جاءه** ﴾ مع أنه ليس بشىء ، أنه جاء الموضع الذى

كان يحسبه فيه . ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة ، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرّد الخيبة كصاحب السراب فقال : ﴿ **ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ أى وجد اللّه بالمرصاد فوفاه حسابه ، أى جزاء عمله ، كما قال امرؤ القيس :

فولى مدبرا يهوى حثيثا وأيقن أنه لاقى الحسابا

وقيل : وجد وعد اللّه بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر اللّه عند حشره . وقيل : وجد حكمه وقضاءه عند المجىء . وقيل : عند العمل ، والمعنى متقارب . وقرأ مسلمة بن محارب : « بقيعاه » بهاء مدورة كما يقال : رجل عزهاه. وروى عنه أنه قرأ : « بقيعات » بتاء مبسوطة . قيل : يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأوّل ، وجمع قيعة على الثانى . وروى عن نافع وأبى جعفر وشيبة أنهم قرؤوا : « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهم الهمز.

﴿ **أو كظلمات** ﴾ معطوف على كسراب ، ضرب اللّه مثلا آخر لأعمال الكفار ، كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات ، فهى أيضا تشبه الظلمات . قال الزجاج : أعلم اللّه سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى فهى كهذه الظلمات التى وصف . قال أيضا : إن شئت مثل بالسراب ، وإن شئت مثل بهذه الظلمات ، فأو: للإباحة حسبما تقدّم من القول فى ﴿ أو كصيب ﴾ [البقرة : ١٩] . قال الجرجانى : الآية الأولى فى ذكر أعمال الكفار ، والثانية فى ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضا من أعمالهم . قال القشيرى : فعند الزجاج، التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجانى، لكفر الكفار ﴿ **فى بحر لجى** ﴾ اللجة معظم الماء، والجمع : لجج وهو الذى لا يدرك لعمقه . ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال : ﴿ **يغشاه موج** ﴾ أى يعلو هذا البحر موج فيستره ويغطيه بالكلية ، ثم وصف هذا الموج بقوله : ﴿ **من فوقه موج** ﴾ أى من فوق هذا الموج موج ثم وصف الموج الثانى فقال : ﴿ **من فوقه سحاب** ﴾ أى من فوق ذلك الموج الثانى سحاب ، فيجتمع حينئذ عليهم خوف البحر وأمواجه والسحاب المرتفعة فوقه . وقيل : إن المعنى : يغشاه موج من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدّة ؛ لأنها تستر النجوم التى يهتدى بها من فى البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحاب وهبت الريح المعتادة فى الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم وترادفت الغموم ، وبلغ الأمر إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ،ولهذا قال سبحانه: ﴿ **ظلمات بعضها فوق بعض** ﴾ أى هى ظلمات ، متكاثفة مترادفة ، ففى هذه الجملة بيان لشدّة الأمر وتعاظمه وقرأ ابن محيصن والبزى : « سحاب ظلمات » بإضافة سحاب إلى ظلمات ، ووجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات ، فأضيف إليها لهذه الملابسة . وقرأ الباقون بالقطع والتنوين . ومن غرائب التفاسير: أنه سبحانه أراد بالظلمات : أعمال الكافر ، وبالبحر اللجىّ : قلبه ، وبالموج فوق

الموج : ما يغشى قلبه من الجهل والشكّ والحيرة . والسحاب : الرين والختم والطبع على قلبه، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد .

ثم بالغ سبحانه فى هذه الظلمات المذكورة بقوله : ﴿ **إذا أخرج يده لم يكد يراها** ﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام ، أى إذا أخرج الحاضر فى هذه الظلمات أو من ابتلى بها . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى : لم يرها ولم يكد . وقال الفرّاء : إن كاد زائدة. والمعنى : إذا أخرج يده لم يرها ، كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد . قال النحاس : أصح الأقوال فى هذا أن المعنى : لم يقارب رؤيتها ، فإذن لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة ، وجملة : ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة ، والمعنى : ومن لم يجعل اللّه له هداية فما له من هداية . قال الزجاج : ذلك فى الدنيا ، والمعنى : من لم يهده اللّه لم يهتد . وقيل : المعنى : من لم يجعل له نورا يمشى به يوم القيامة فما له من نور يهتدى به إلى الجنة .

﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض** ﴾ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان . والخطاب لكلّ من له أهلية النظر ، أو للرسول ﷺ ، وقد علمه من جهة الاستدلال ؛ ومعنى ﴿ **ألم تر** ﴾ : ألم تعلم ، والهمزة للتقرير ، أى قد علمت علما يقينا شبيها بالمشاهدة ، والتسبيح : التنزيه فى ذاته وأفعاله وصفاته عن كل ما لا يليق به، ومعنى ﴿**من فى السموات والأرض** ﴾ : من هو مستقرّ فيهما من العقلاء وغيرهم ، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها . وقيل : إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء والتنزيه من غيرهم . وقد قيل : إن هذه الآية تشمل الحيوانات والجمادات ، وأن آثار الصنعة الإلهية فى الجمادات ناطق ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزّهه عن صفات النقص ، وفى ذلك تقريع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التى من شأنها التسبيح للّه سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ وجلّ . وبالجملة فإنه ينبغى حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز . قرأ الجمهور ﴿ **والطير صافات** ﴾ بالرفع للطير والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من ، وصافات منتصب على الحال . وقرأ الأعرج : « والطير » بالنصب على المفعول معه ، وصافات حال أيضا . قال الزجاج : وهى أجود من الرفع . وقرأ الحسن وخارجة عن نافع : « والطير صافات » برفعهما على الابتداء والخبر، ومفعول صافات محذوف ، أى أجنحتها . وخصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من فى السموات والأرض لعدم استمرار استقرارها فى الأرض وكثرة لبثها فى الهواء وهو ليس من السماء ولا من الأرض ، ولما فيها من الصنعة البديعة التى تقدر بها تارة على الطيران ، وتارة على المشى بخلاف غيرها من الحيوانات ، وذكر حالة من حالات الطير ، وهى كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها ، لأن هذه الحالة هى أغرب أحوالها ، فإن استقرارها فى الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها ولا استقرار على الأرض من أعظم

صنع اللّه الذى أتقن كلّ شىء .

ثم زاد فى البيان فقال : ﴿ **كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ أى كلّ واحد مما ذكر ، والضمير فى علم يرجع إلى كل ، والمعنى : أن كل واحد من هذه المسبحات للّه قد علم صلاة المصلى وتسبيح المسبح. وقيل : المعنى: أن كلّ مصلّ ومسبح قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه. قيل : والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرّر للتأكيد ، والصلاة قد تسمى تسبيحا . وقيل: المراد بالصلاة هنا : الدعاء ، أى كل واحد قد علم دعاءه وتسبيحه . وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها اللّه ذلك وألهمها إليه ، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية ، وفى ذلك زيادة دلالة على بديع صنع اللّه سبحانه وعظيم شأنه ، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له ﴿ **والله عليم بما يفعلون** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها ، أى لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ، ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ **علم** ﴾ للّه سبحانه ، أى كلّ واحد من هذه المسبحة قد علم اللّه صلاته له وتسبيحه إياه والأوّل أرجح لاتفاق القرّاء على رفع كل ،ولو كان الضمير فى علم للّه لكان نصب كل أولى . وذكر بعض المفسرين أن قراءة طائفة من القراء : علم على البناء للمفعول .

ثم بين سبحانه أن المبدأ منه والمعاد إليه فقال : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ أى له لا لغيره ﴿ **وإليه المصير** ﴾ لا إلى غيره . والمصير : الرجوع بعد الموت . وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى غير موضع . ثم ذكر سبحانه دليلا آخر من الآثار العلوية ، فقال : ﴿ **ألم تر أن الله يزجى سحابا** ﴾ الإزجاء : السوق قليلا قليلا ، ومنه قول النابغة :

إنى أتيتك من أهلى ومن وطنى   أزجى حشاشة نفس ما بها رمق

وقوله أيضا :

أسرت عليه من الجوزاء سارية   يزجى السماك عليه جامد البرد

والمعنى : أنه سبحانه يسوق السحاب سوقا رقيقا إلى حيث يشاء ﴿ **ثم يؤلف بينه** ﴾ أى بين أجزائه ، فيضم بعضه إلى بعض ويجمعه بعد تفرّقه ليقوى ويتصل ويكثف ، والأصل فى التأليف الهمز .وقرأ ورش وقالون عن نافع : « يولف » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ، ولكن معناه جمع ، ولهذا دخلت « بين » عليه لأن أجزاءه فى حكم المفردات له . قال الفراء : إن الضمير فى ﴿ **بينه** ﴾ راجع إلى جملة السحاب ، كما تقول : الشجر قد جلست بينه ، لأنه جمع ، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ **ثم يجعله ركاما** ﴾ أى متراكما يركب بعضه بعضا . والركم : جمع الشىء ، يقال : ركم الشىء يركمه ركما ، أى جمعه وألقى بعضه على بعض وارتكم الشىء وتراكم إذا اجتمع . والركمة : الطين المجموع، والركام : الرمل المتراكب ﴿ **فترى الودق يخرج من خلاله** ﴾ الودق : المطر عند جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها   ولا أرض أبقل إبقالها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما ودق وسح وديمة وسكب وتوكاف وتنهملان

يقال : ودقت السحاب فهى وادقة وودق المطر يدق، أى قطر يقطر ، وقيل : إن الودق البرق ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجة وخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب

والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **من خلاله** ﴾ : من فتوقه التى هى مخارج القطر ، وجملة : ﴿**يخرج من خلاله** ﴾ ، فى محل نصب على الحال ، لأن الرؤية هنا هى البصرية . وقرأ ابن عباس وابن مسعود والضحاك وأبو العالية : « من خلله » على الإفراد . وقد وقع الخلاف فى خلال : هل هو مفرد كحجاب ؟ أو جمع كجبال ؟ ﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من برد**﴾ المراد بقوله من سماء: من عال ، لأن السماء قد تطلق على جهة العلوّ ، ومعنى ﴿ **من الجبال**﴾: من قطع عظام تشبه الجبال ، ولفظ « فيها » فى محل نصب على الحال ، و« من » فى : ﴿ **من برد** ﴾ للتبعيض ، وهو مفعول ينزل . وقيل: إن المفعول محذوف ، والتقدير : ينزل من جبال فيها من برد بردا . وقيل : إن من فى : ﴿ **من برد** ﴾ زائدة ، والتقدير: ينزل من السماء من جبال فيها برد . وقيل : إن فى الكلام مضافا محذوفا ، أى ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض . قال الأخفش : إن من فى: ﴿ **من الجبال** ﴾ وفى: ﴿ **من برد**﴾ زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب ، أى ينزل من السماء بردا يكون كالجبال. والحاصل أن « من » فى : ﴿ **من السماء** ﴾ لابتداء الغاية بلا خلاف و « من » فى : ﴿ **من جبال** ﴾ فيها ثلاثة أوجه : الأوّل : لابتداء الغاية فتكون هى ومجرورها بدلا من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال . الثانى : أنها للتبعيض فتكون على هذا هى ومجرورها فى محل نصب على أنها مفعول الإنزال ، كأنه قال : وينزل بعض جبال . الثالث : أنها زائدة ، أى ينزل من السماء جبالا . وأما « من » فى ﴿ **من برد** ﴾ ففيها أربعة أوجه : الثلاثة المتقدّمة . والرابع : أنها لبيان الجنس ، فيكون التقدير على هذا الوجه : وينزل من السماء بعض جبال التى هى البرد . قال الزجاج : معنى الآية : وينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول : هذا خاتم فى يدى من حديد ، أى خاتم حديد فى يدى ، لأنك إذا قلت : هذا خاتم من حديد وخاتم حديد كان المعنى واحدا، انتهى . وعلى هذا يكون ﴿ **من برد** ﴾ فى موضع جرّ صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم ، ويكون مفعول ينزل ﴿ **من جبال** ﴾ ، ويلزم من كون الجبال بردا أن يكون المنزل بردا . وذكر أبو البقاء التقدير : شيئا من جبال ، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة ﴿ **فيصيب به من يشاء** ﴾ أى : يصيب بما ينزل من البرد من يشاء أن يصيبه من عباده ﴿ **ويصرفه عمن يشاء** ﴾ منهم ، أو يصيب به مال من يشاء ويصرفه عن مال من يشاء ، وقد تقدّم الكلام عن مثل هذا فى البقرة . ﴿ **يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾ السنا : الضوء ، أى يكاد ضوء البرق الذى فى السحاب يذهب بالأبصار من شدّة بريقه وزيادة لمعانه ، وهو

كقوله : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها ... ليبصر ضوءها إلا البصير

وقال امرؤ القيس :

يضىء سناه، أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المفتل

فالسنا بالقصر : ضوء البرق ، وبالمدّ : الرفعة ، كذا قال المبرّد وغيره . وقرأ طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب : «سناء برقه » بالمدّ على المبالغة فى شدّة الضوء والصفاء ، فأطلق عليه اسم الرفعة والشرف . وقرأ طلحة ويحيى أيضا بضم الباء من برقه وفتح الراء . قال أحمد ابن يحيى ثعلب : وهى على هذه القراءة جمع برق . وقال النحاس : البرقة المقدار من البرق ، والبرقة الواحدة. وقرأ الجحدرى وابن القعقاع: « يذهب » بضم الياء وكسر الهاء من الإذهاب . وقرأ الباقون : ﴿ سنا ﴾ بالقصر و ﴿ برقه ﴾ بفتحْ الباء وسكون الراء و ﴿ يذهب ﴾ بفتح الياء والهاء من الذهاب ، وخطأ قراءة الجحدرى وابن القعقاع، الأخفش وأبو حاتم . ومعنى ذهاب البرق بالأبصار : خطفه إياها من شدّة الإضاءة وزيادة البريق. والباء فى: ﴿ بالأبصار ﴾ على قراءة الجمهور للإلصاق ، وعلى قراءة غيرهم زائدة .

﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أى يعاقب بينهما . وقيل : يزيد فى أحدهما وينقص الآخر. وقيل : يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشرّ ونفع وضرّ . وقيل : بالحرّ والبرد . وقيل : المراد بذلك : تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة وبضوء الشمس أخرى ، وتغيير الليل بظلمة السحاب تارة وبضوء القمر أخرى ، والإشارة بقوله: ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ إلى ما تقدّم ، ومعنى العبرة : الدلالة الواضحة التى يكون بها الاعتبار ، والمراد بأولى الأبصار: كل من له بصر يبصر به .

ثم ذكر سبحانه دليلا ثالثا من عجائب خلق الحيوان وبديع صنعته فقال : ﴿ والله خلق كلّ دابة من ماء ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « واللّه خالق كل دابة » وقرأ الباقون : ﴿ خلق ﴾ والمعنيان صحيحان. والدابة : كل ما دبّ على الأرض من الحيوان ، يقال: دبّ يدبّ فهو دابّ ، والهاء للمبالغة ، ومعنى ﴿ من ماء ﴾ من نطفة ، وهى المنىّ ، كذا قال الجمهور . وقال جماعة : إن المراد : الماء المعروف ، لأن آدم خلق من الماء والطين . وقيل : فى الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل، لأن فى الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة ، ويخرج من هذا العموم الملائكة فإنهم خلقوا من نور ، والجانّ فإنهم خلقوا من نار . ثم فصل سبحانه أحوال كلّ دابة فقال : ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ وهى الحيات والحوت والدود ونحو ذلك ﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ الإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ سائر الحيوانات . ولم يتعرّض لما يمشى على أكثر من أربع ؛ لقلته . وقيل : لأن المشى على أربع فقط وإن كانت القوائم كثيرة . وقيل : لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع ، ولا وجه

لهذا فإن المراد التنبيه على بديع الصنع وكمال القدرة ، فكيف يقال : لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع ؟ وقيل : ليس فى القرآن ما يدلّ على عدم المشى على أكثر من أربع ، لأنه لم ينف ذلك ولا جاء بما يقتضى الحصر ، وفى مصحف أبىّ : « ومنهم من يمشى على أكثر » فعمّ بهذه الزيادة جميع ما يمشى على أكثر من أربع كالسرطان والعناكب وكثير من خشاش الأرض ﴿ **يخلق الله ما يشاء** ﴾ مما ذكره ها هنا ومما لم يذكره كالجمادات مركبها وبسيطها ناميها وغير ناميها ﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء بل الكلّ من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه .

﴿ **ولقد أنزلنا آيات مبينات** ﴾ أى : القرآن ، فإنه قد اشتمل على بيان كلّ شىء وما فرّطنا فى الكتاب من شىء ، وقد تقدّم بيان مثل هذا فى غير موضع ﴿ **والله يهدى من يشاء** ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح وإرشاده إلى التأمل الصادق ﴿**إلى صراط مستقيم** ﴾ إلى طريق مستوٍ لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام وهو نعيم الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب** ﴾ قال : هو مثل ضربه الله ، كرجل عطش فاشتدّ عطشه فرأى سرابا فحسبه ماء ، فطلبه فظن أنه قدر عليه حتى أتى ، فلما أتاه لم يجده شيئا ، وقبض عند ذلك ، يقول : الكافر كذلك السراب ، إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغنى عنه شيئا ، ولا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجىّ** ﴾ قال : يعنى بالظلمات : الأعمال ، وبالبحر اللجىّ: قلب الإنسان ﴿ **يغشاه موج** ﴾ يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **بقيعة** ﴾ بأرض مستوية. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق السدّى عن أبيه عن أصحاب النبى ﷺ قال: « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا فيقولون : أين الماء ؟ فيتمثل لهم السراب فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه فيجدون الله عنده فيوفيهم حسابه والله سريع الحساب » وفى إسناده السدّى عن أبيه،وفيه مقال معروف . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة فى قوله : ﴿ **كلّ قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ قال: الصلاة للإنسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **والطير صافات** ﴾ قال : بسط أجنحتهن . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يكاد سنا برقه** ﴾ يقول : ضوء برقه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : كل شىء يمشى على أربع إلا الإنسان . وأقول : هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشى على رجلين ، وهكذا غيرها ، كالنعامة فإنها تمشى على رجلين ، وليست من الطير ، فهذه الكلية المروية عنه رضى الله عنه لا تصحّ .

﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ**

بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

شرع سبحانه فى بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فإنهم كما حكى الله عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح ، ولهذا قال: ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ أى من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿ من بعد ذلك﴾ أى من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة ، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان فقال: ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة ، فيشمل الحكم بنفى الإيمان جميع القائلين ، ويندرج تحتهم من تولى اندراجا أوّليا . وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ راجع إلى من تولى ، والأوّل أولى . والكلام مشتمل على حكمين : الحكم الأوّل : على بعضهم بالتولى ، والحكم الثانى : على جميعهم بعدم الإيمان . وقيل: أراد بمن تولى : من تولى عن قبول حكمه ﷺ . وقيل : أراد بذلك رؤساء المنافقين ، وقيل : أراد بتولى هذا الفريق: رجوعهم إلى الباقين ، ولا ينافى ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها وورودها على سبب خاص كما سيأتى بيانه.

ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقا منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله وإلى رسوله فى خصوماتهم ، فقال : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ أى ليحكم الرسول

بينهم ، فالضمير راجع إليه ؛ لأنه المباشر للحكم وإن كان الحكم فى الحقيقة للّه سبحانه ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة : ٦٢] . و « إذا» فى قوله : ﴿ **إذا فريق منهم معرضون** ﴾ هى الفجائية ، أى فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى اللّه والرسول . ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحقّ عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول اللّه ﷺ لا يحكم إلا بالحق فقال : ﴿ **وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين** ﴾ قال الزجاج : الإذعان: الإسراع مع الطاعة ، يقال : أذعن لى بحقى ، أى طاوعنى لما كنت ألتمس منه وصار يسرع إليه ، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش وابن الأعرابى: مذعنين : مقرّين . وقال النقاش : مذعنين : خاضعين .

ثم قسم الأمر فى إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم فقال: ﴿ **أفى قلوبهم مرض** ﴾ وهذه الهمزة للتوبيخ والتقريع لهم ، والمرض : النفاق ، أى أكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن فى قلوبهم ﴿ **أم ارتابوا** ﴾ وشكوا فى أمر نبوّته ﷺ وعدله فى الحكم ﴿ **أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله** ﴾ والحيف : الميل فى الحكم ، يقال : حاف فى قضيته ، أى جار فيما حكم به ، ثم أضرب عن هذه الأمور التى صدّرها بالاستفهام الإنكارى فقال : ﴿**بل أولئك هم الظالمون** ﴾ أى ليس ذلك لشىء مما ذكر ، بل لظلمهم وعنادهم ؛ فإنه لو كان الإعراض لشىء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم ، وفى هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضى العالم بحكم اللّه العادل فى حكمه ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم اللّه العارفين بالكتاب والسنة ، العادلين فى القضاء هو حكم بحكم اللّه وحكم رسوله ، فالداعى إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى اللّه وإلى رسوله ، أى إلى حكمهما . قال ابن خويز منداد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق .

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم ، لأن اللّه سبحانه ذمّ من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذّم ، فقال : ﴿ **أفى قلوبهم مرض** ﴾ الآية انتهى (١) ، فإن كان القاضى مقصرا لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ، ولا يعقل حجج اللّه ومعانى كلامه وكلام رسوله ، بل كان جاهلا جهلا بسيطا ، وهو من لا علم له بشىء من ذلك ، أو جهلا مركبا ، وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شىء من علم الرأى ، فهذا فى الحقيقة جاهل ، وإن اعتقد أنه يعلم بشىء من العلم فاعتقاده باطل ؛ فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه ؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم اللّه ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه ، بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل ، فإنّ ما عرفه من علم الرأى إنما رخص فى العمل به للمجتهد الذى هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتى بعده . وإذا

---

(١) القرطبى ٧ / ٤٦٨٦ .

تقرّر لديك هذا وفهمته حق فهمه علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره والتقيد بجميع ما جاء به من رواية ورأى ، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث فى هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فإنا للّه وإنا إليه راجعون . وقد أوضحنا هذا فى مؤلفنا الذى سميناه «القول المفيد فى حكم التقليد » وفى مؤلفنا الذى سميناه « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التى طبقت الأقطار الإسلامية فليرجع إليهما .

ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق ، أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم اللّه ورسوله فقال : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ قرأ الجمهور بنصب: ﴿ **قول** ﴾ على أنه خبر كان واسمها ﴿ **أن يقولوا**﴾. وقرأ علىّ والحسن وابن أبى إسحاق برفع : « قول » على أنه الاسم وأن المصدرية وما فى حيزها الخبر ، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من أنه إذا اجتمع معرفتان وكانت إحداهما أعرف جعلت التى هى أعرف اسما . وأما سيبويه فقد خير بين كلّ معرفتين ولم يفرق هذه التفرقة ، وقد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى اللّه ورسوله للحكم بين المتخاصمين وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة ومن لا تجب ﴿ **أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ أى أن يقولوا هذا القول لا قولا آخر ، وهذا وإن كان على طريقة الخبر فليس المراد به ذلك ، بل المراد به تعليم الأدب الشرعى عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر . والمعنى : أنه ينبغى للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة والإذعان . قال مقاتل وغيره : يقولون سمعنا قول النبى ﷺ وأطعنا أمره ، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرّهم ، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **وأولئك** ﴾ أى المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿ **هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بخير الدنيا والآخرة .

ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر فقال : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾ وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم إلى الدخول فى عدادهم والمتابعة لهم فى طاعة اللّه ورسوله والخشية من اللّه عزّ وجلّ والتقوى له . قرأ حفص : ﴿ **ويتقه** ﴾ بإسكان القاف على نية الجزم . وقرأ الباقون بكسرها ، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره ، وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر واختلس الكسرة يعقوب وقالون عن نافع والمثنى عن أبى عمرو وحفص وأشبع كسرة الهاء الباقون . قال ابن الأنبارى : وقراءة حفص هى على لغة من قال : لم أر زيدا ، ولم أشتر طعاما ، يسقطون الياء للجزم ثم يسكنون الحرف الذى قبلها ، ومنه قول الشاعر :

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا

وقول الآخر :

عجبت لمولود وليس له أب   وذى ولد لم يلده أبوان

وأصله يلد بكسر اللام وسكون الدال للجزم ، فلما سكن اللام التقى ساكنان ، فلو حرك الأوّل لرجع إلى ما وقع الفرار منه ، فحرك ثانيهما وهو الدال . ويمكن أن يقال : إنه حرك الأوّل على أصل التقاء الساكنين وبقى السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة ولا يضرّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه ، فهذه الحركة غير تلك الحركة . والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك هم الفائزون** ﴾ إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة والخشية والتقوى ، أى هم الفائزون بالنعيم الدنيوى والأخروى لا من عداهم .

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا فقال : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنّ** ﴾ أى لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن ، و﴿ **جهد أيمانهم** ﴾ منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له ، أى أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهدا . ومعنى ﴿ **جهد أيمانهم** ﴾ : طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم : جهد نفسه : إذا بلغ طاقتها وأقصى وسعها . وقيل : هو منتصب على الحال ، والتقدير : مجتهدين فى أيمانهم ، كقولهم : افعل ذلك جهدك وطاقتك ، وقد خلط الزمخشرى الوجهين فجعلهما واحدا . وجواب القسم قوله: ﴿**ليخرجنّ** ﴾ ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة وأيمانهم فاجرة ردّ الله عليهم ، فقال : ﴿ **قل لا تقسموا** ﴾ أى ردّ عليهم زاجراً لهم ، وقل لهم : لا تقسموا ، أى لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به ، وها هنا تمّ الكلام . ثم ابتدأ فقال : ﴿ **طاعة معروفة** ﴾ وارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ ، لأنها قد خصصت بالصفة ، ويكون الخبر مقدّرا ، أى طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم ، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف ، أى لتكن منكم طاعة أو لتوجد ، وفى هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدّم ما يشعر به . وقرأ زيد بن علىّ واليزيدى : «طاعة » بالنصب على المصدر لفعل محذوف ، أى أطيعوا طاعة ﴿ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ من الأعمال وما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق .

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله فقال : ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ طاعة ظاهرة وباطنة بخلوص اعتقاد وصحة نية ، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، فإن قوله : ﴿ **قل لا تقسموا طاعة معروفة** ﴾ فى حكم الأمر بالطاعة . وقيل : إنهما مختلفان ، فالأوّل : نهى بطريق الردّ والتوبيخ . والثانى: أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم ﴿ **فإن تولوا** ﴾ : خطاب للمأمورين ، وأصله : فإن تتولوا ، فحذف إحدى التاءين تخفيفا ، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم والمبالغة فى العناية بهدايتهم إلى الطاعة والانقياد ، وجواب الشرط قوله : ﴿ **فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم** ﴾ أى فاعلموا أنما على النبى ﷺ ﴿ **ما حمل** ﴾ مما أمر به

من التبليغ وقد فعل ، ﴿ **وعليكم ما حملتم** ﴾ أى ما أمرتم به من الطاعة ، وهو وعيد لهم كأنه قال لهم : فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿ **وإن تطيعوه** ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ **تهتدوا** ﴾ إلى الحق وترشدوا إلى الخير وتفوزوا بالأجر ، وجملة : ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ مقرّرة لما قبلها ، واللام إما للعهد فيراد بالرسول نبينا ﷺ ، وإما للجنس فيراد كل رسول. والبلاغ المبين : التبليغ الواضح أو الموضح. قيل: يجوز أن يكون قوله:﴿ **فإن تولوا** ﴾ ماضيا وتكون الواو لضمير الغائبين ، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول اللّه ﷺ أن يقوله لهم ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأوّل أرجح . ويؤيده الخطاب فى قوله : ﴿ **وعليكم ما حملتم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ ويؤيده أيضا قراءة البزى : « فإن تولوا » بتشديد التاء وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين .

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول اللّه ﷺ سبب لهدايتهم ، وهذا وعد من اللّه سبحانه لمن آمن باللّه وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم فى الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم ، وهو وعد يعم جميع الأمة . وقيل : هو خاص بالصحابة ، ولا وجه لذلك ، فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم ، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة ، ومن عمل بكتاب اللّه وسنة رسوله فقد أطاع اللّه ورسوله . واللام فى ﴿ **ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ جواب لقسم محذوف ،أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم ، لأنه ناجز لا محالة ، ومعنى ﴿**ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى مملوكاتهم ، وقد أبعد من قال : إنها مختصة بالخلفاء الأربعة ، أو بالمهاجرين ، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة ، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وظاهر قوله : ﴿ **كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ كل من استخلفه اللّه فى أرضه فلا يخصّ ذلك ببنى إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها . قرأ الجمهور : ﴿ **كما استخلف** ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول ، ومحل الكاف النصب على المصدرية ، أى استخلافا كما استخلف ، وجملة : ﴿ **وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم** ﴾ معطوفة على ﴿ **ليستخلفنهم** ﴾ داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب ، والمراد بالتمكين هنا : التثبيت والتقرير ، أى يجعله اللّه ثابتا مقرّرا ويوسع لهم فى البلاد ويظهر دينهم على جميع الأديان ، والمراد بالدين هنا : الإسلام ، كما فى قوله : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [المائدة : ٣] . ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أوّلا ، وهو جعلهم ملوكا ، وذكر التمكين ثانيا فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروّ ، بل على وجه الاستقرار والثبات ، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم .

وجملة : ﴿ **وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾ معطوفة على التى قبلها . قرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر : « ليبدلنهم » بالتخفيف من أبدل ، وهى قراءة الحسن واختارها

أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتشديد من بدّل واختارها أبو عبيد ، وهما لغتان ، وزيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى ، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقا ، وأنه يقال : بدّلته ، أى غيرته ، وأبدلته : أزلته وجعلت غيره. قال النحاس: وهذا القول صحيح . والمعنى : أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذى كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا اللّه سبحانه ولا يرجون غيره . وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل فى خوف شديد من المشركين ، لا يخرجون إلا فى السلاح ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرّة بهم من الكفار، ثم صاروا فى غاية الأمن والدعة وأذلّ اللّه لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ، ومهد لهم فى الأرض ومكنهم منها ، فللّه الحمد . وجملة ﴿ **يعبدوننى** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم ، وجملة : ﴿ **لا يشركون بى شيئا** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يعبدوننى ، أى يعبدوننى ، غير مشركين بى فى العبادة شيئا من الأشياء . وقيل : معناه : لا يراؤون بعبادتى أحدا . وقيل : معناه : لا يخافون غيرى ، وقيل: معناه : لا يحبون غيرى ﴿ **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أى من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح ، أو من استمرّ على الكفر ، أو من كفر بعد إيمان ، فأولئك الكافرون هم الفاسقون؛ أى الكاملون فى الفسق . وهو الخروج عن الطاعة والطغيان فى الكفر .

وجملة : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ معطوفة على مقدّر يدلّ عليه ما تقدّم ، كأنه قيل لهم : فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا الصلاة . وقيل : معطوف على ﴿ **وأطيعوا الله** ﴾ وقيل التقدير : فلا تكفروا وأقيموا الصلاة . وقد تقدّم الكلام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وخصه بالطاعة ، لأن طاعته طاعة للّه ، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرّر فى علم المعانى من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أى افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم اللّه سبحانه ﴿ **لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين فى الأرض** ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو حيوة ﴿ **لا يحسبنّ** ﴾ بالتحتية بمعنى : لا تحسبنّ الذين كفروا ، وقرأ الباقون بالفوقية ، أى لا تحسبنّ يا محمد ، والموصول المفعول الأوّل ، ومعجزين الثانى ، لأن الحسبان يتعدّى إلى مفعولين ، قاله الزجاج والفرّاء وأبو على . وأما على القراءة الأولى ، فيكون المفعول الأوّل محذوفا، أى لايحسبنّ الذين كفروا أنفسهم . قال النحاس : وما علمت أحدا بصريا ولا كوفيا إلا وهو يخطئ قراءة حمزة ، و﴿ **معجزين** ﴾ معناه :فائتين. وقد تقدّم تفسيره وتفسير ما بعده.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويقولون آمنا بالله وبالرسول** ﴾ الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة ، وهم فى ذلك يصدّون عن سبيل اللّه وطاعته وجهاد مع رسوله ﷺ . وأخرجوا أيضا عن الحسن قال : إن الرجل كان

يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول اللّه ﷺ ، فإذا دعى إلى النبى ﷺ وهو محقّ أذعن وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحقّ ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى ﷺ أعرض وقال: أنطلق إلى فلان ، فأنزل اللّه سبحانه: ﴿ **وإذا دعوا إلى الله ورسوله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **هم الظالمون** ﴾ فقال رسول اللّه ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب ، فهو ظالم لا حقّ له» قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه: وهذا حديث غريب وهو مرسل [(١)] . وقال ابن العربى : هذا حديث باطل ، فأما قوله: فهو ظالم ، فكلام صحيح . وأما قوله : فلا حق له ، فلا يصح . ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق. انتهى . وأقول : أما كون الحديث مرسلا فظاهر . وأما دعوى كونه باطلا فمحتاجة إلى برهان ، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم كما ذكرنا، ويبعد كل البعد أن ينفق عليهم ما هو باطل ، وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: قال ابن أبى حاتم : حدّثنا أبىّ ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدّثنا مبارك ، حدّثنا الحسن فذكره. وليس فى هؤلاء كذاب ولا وضاع . ويشهد له ما أخرجه الطبرانى عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من دعى إلى سلطان فلم يجب ، فهو ظالم لاحقّ له»[(٢)] انتهى . ولا يخفاك أن قضاة العدل وحكام الشرع الذين هم على الصفة التى قدّمنا لك قريبا هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب والسنة،المبينون للناس ما نزل إليهم.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى قوم النبى ﷺ فقالوا : يا رسول اللّه ، لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا ، فأنزل اللّه : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى الآية قال : ذلك فى شأن الجهاد ، قال : يأمرهم ألا يحلفوا على شيء ﴿ **طاعة معروفة** ﴾ قال : أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبى ﷺ من غير أن يقسموا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد : ﴿**طاعة معروفة** ﴾ يقول : قد عرفت طاعتهم، أى إنكم تكذبون به. وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه قال : قدم زيد بن أسلم على رسول اللّه ﷺ فقال : أرأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا ؟ قال : « فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ماحملتم » [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن قانع والطبرانى عن علقمة بن وائل الحضرمى عن سلمة بن يزيد الجعفى قال : قلت : يا رسول . . . فذكر نحوه[(٤)]. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن الزبير عن جابر أنه سئل : إن كان على إمام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال : قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم ، وعلى الإمام ما حمل وعليكم ما حملتم .

(١) ابن كثير ٥/ ١١٦ .

(٢) الطبرانى (٦٩٣٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٠١ : « فيه روح بن عطاء وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة » .

(٣) مسلم فى الإمارة (١٨٤٦/ ٤٩) والترمذى فى الفتن (٢١٩٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » فى رواية مسلم اسم الصحابى سلمة بن يزيد الجعفى ، والترمذى لم يسم أحدًا .

(٤) الطبرانى (٦٣٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٢٣ : « فيه عبيد بن عبيدة ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات » .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء فى قوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم** ﴾ الآية . قال : فينا نزلت ونحن فى خوف شديد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان النبىّ ﷺ وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وعبادته وحده لا شريك له سرّا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، وكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فغبروا بذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من أصحابه قال : يا رسول الله ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ مايأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : «لن تغبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة » ، فأنزل الله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض** ﴾ إلى آخر الآية ، فأظهر الله نبيه ﷺ على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة ، فأدخل الله عليهم الخوف الذى كان رفع عنهم ، واتخذوا الحجر والشرط ، وغيروا فغير ما بهم. وأخرج ابن المنذر والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب . قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد ، فكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ، فنزلت : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** ﴾ الآية [(١)]. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس: ﴿ **يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** ﴾ قال : لا يخافون أحدا غيرى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد مثله ، قال : ﴿ **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ : العاصون . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : كفر بهذه النعمة ، ليس الكفر بالله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **معجزين فى الأرض** ﴾ قال : سابقين فى الأرض .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٠١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٦، ٧، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٦ : «رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات ».

يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد، رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره هاهنا على وجه أخص فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ والخطاب للمؤمنين وتدخل المؤمنات فيه تغليبا كما فى غيره من الخطابات . قال العلماء : هذه الآية خاصة ببعض الأوقات . واختلفوا فى المراد بقوله : ﴿ ليستأذنكم ﴾ على أقوال : الأوّل أنها منسوخة ، قاله سعيد بن المسيب . وقال سعيد بن جبير : إن الأمر فيها للندب لا للوجوب . وقيل: كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاه المهدوى عن ابن عباس . وقيل : إن الأمر هاهنا للوجوب ، وإن الآية محكمة غير منسوخة ، وأن حكمها ثابت على الرجال والنساء. قال القرطبى: وهو قول أكثر أهل العلم (١). وقال أبو عبد الرحمن السلمى : إنها خاصة بالنساء . وقال ابن عمر : هى خاصة بالرجال دون النساء . والمراد بقوله : ﴿ ملكت أيمانكم ﴾ : العبيد والإماء . والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم : الصبيان ﴿ منكم ﴾، أى من الأحرار، ومعنى ﴿ ثلاث مرات ﴾: ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة. وعبر بالمرات عن الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات . وانتصاب ﴿ ثلاث مرات ﴾ على الظرفية الزمانية ، أى ثلاثة أوقات ، ثم فسر تلك الأوقات بقوله : ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ إلخ ، أو منصوب على المصدرية ، أى ثلاث استئذانات ؛ ورجح هذا أبو حيان فقال : والظاهر من قوله : ﴿ ثلاث مرات ﴾ ثلاث استئذانات ، لأنك إذا قلت : ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات . ويردّ بأن الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة ، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات . قرأ الحسن وأبو عمرو فى رواية الحلم بسكون اللام وقرأ الباقون بضمها . قال الأخفش : الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ، ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام .

ثم فسر سبحانه الثلاث المرات فقال : ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ وذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع ، وطرح ثياب النوم ، ولبس ثياب اليقظة ، وربما يبيت عريانا ، أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره فيها ، ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث ، ويجوز أن يكون فى محل

---

(١) القرطبى ٧ / ٤٦٩٥ .

رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى من قبل ، وقوله : ﴿ **وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة** ﴾ معطوف على محل ﴿ **من قبل صلاة الفجر** ﴾ و « من » فى : ﴿ **من الظهيرة** ﴾ للبيان ، أو بمعنى فى ، أو بمعنى اللام . والمعنى : حين تضعون ثيابكم التى تلبسونها فى النهار من شدة حرّ الظهيرة وذلك عند انتصاف النهار ، فإنهم قد يتجرّدون عن الثياب لأجل القيلولة . ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال : ﴿ **ومن بعد صلاة العشاء** ﴾ وذلك لأنه وقت التجرد عن الثياب والخلوة بالأهل ، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل فقال : ﴿**ثلاث عورات لكم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ثلاث عورات** ﴾ برفع ثلاث ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ثلاث مرات . قال ابن عطية : إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويحتمل أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة ؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلا من الأوقات المذكورة ، أى من قبل صلاة الفجر إلخ ؛ ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل ، أى أعنى ونحوه ، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هنّ ثلاث . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفراء : الرفع أحبّ إلىّ ، قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاث عورات . وقال الكسائى : إن ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء والخبر ما بعدها . قال : والعورات : الساعات التى تكون فيها العورة . قال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وعورات جمع عورة ، والعورة فى الأصل : الخلل ، ثم غلب فى الخلل الواقع فيما يهمّ حفظه ويتعين ستره ، أى هى ثلاث أوقات يختلّ فيها الستر . وقرأ الأعمش : « عورات » بفتح الواو ، وهى لغة هذيل وتميم فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واوا أو ياء ، ومنه :

أخو بيضات رايح متأوّب ... رفيق بمسح المنكبين سبوح

وقوله :

أبو بيضات رايح أو مغتد ... عجلان ذا زاد وغير مزوّد

و﴿ **لكم** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات ، أى كائنة لكم ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان ﴿ **ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ** ﴾ أى ليس على المماليك ولا على الصبيان جناح ، أى إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر والاطلاع على العورات . ومعنى ﴿ **بعدهنّ** ﴾: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث ، وهى الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها ، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان فى تلك الأحوال خاصة ، ويجوز أن تكون فى محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها . قال أبو البقاء : ﴿ **بعدهنّ** ﴾ أى بعد استئذانهم فيهنّ ، ثم حذف حرف الجرّ والمجرور فبقى بعد استئذانهم ، ثم حذف المصدر وهو الاستئذان ، والضمير المتصل به . وردّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذى ذكره ، بل المعنى: ليس عليكم جناح ولا عليهم، أى العبيد والإماء

والصبيان، جناح فى عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة ، وارتفاع ﴿ **طوّافون** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم طوّافون عليكم ، والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص فى ترك الاستئذان . قال الفراء : هذا كقولك فى الكلام : هـم خدمكم وطوّافون عليكم ، وأجاز أيضا نصب طوّافين لأنه نكرة ، والمضمر فى ﴿ **عليكم** ﴾ معرفة ولا يجيز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين فى عليكم وفى بعضكم لاختلاف العاملين . ومعنى ﴿ **طوّافون عليكم** ﴾ أى يطوفون عليكم ، ومنه الحديث فى الهرّة : « إنما هى من الطوّافين عليكم أو الطوّافات »(١) أى هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم فى غير هذه الأوقات بغير إذن ، ومعنى ﴿ **بعضكم على بعض** ﴾ : بعضكم يطوف أو طائف على بعض. وهذه الجملة بدل مما قبلها أو مؤكدة لها. والمعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالى والموالى على العبيد، ومنه قول الشاعر :

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

وقرأ ابن أبى عبلة : « طوّافين » بالنصب على الحال كما تقدّم عن الفراء ، وإنما أباح سبحانه الدخول فى غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان ، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم فى غيرها ، والإشارة بقوله : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات** ﴾ إلى مصدر الفعل الذى بعده ، كما فى سائر المواضع فى الكتاب العزيز ، أى مثل ذلك التبيين يبين اللّه لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ كثير العلم بالمعلومات وكثير الحكمة فى أفعاله .

﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم** ﴾ بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم فى أنه لا جناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال : ﴿ **فليستأذنوا** ﴾ يعنى الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم ﴿ **كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ والكاف نعت مصدر محذوف، أى استئذانا كما استأذن الذين من قبلهم ، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم : ﴿ **لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا** ﴾ الآية . والمعنى : أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون فى جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء ، ثم كرّر ما تقدّم للتأكيد فقال : ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم** ﴾ وقرأ الحسن : « الحلم » فحذف الضمة لثقلها . قال عطاء :واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال الزهرى : يستأذن الرجل على أمه ، وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية . والمراد بالقواعد من النساء : العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ، واحدتها : قاعد بلا هاء ليدل

---

(١) مالك ١/ ٢٣ وأحمد ٥/ ٢٩٦ وأبو داود فى الطهارة (٧٥) والترمذى فى الطهارة (٩٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ١/ ٥٥ وابن ماجة فى الطهارة (٣٦٧) والدارمى ١/ ١٨٨ ، كلهم عن كبشة بنت كعب ابن مالك .

حذفها على أنه قعود الكبر ، كما قالوا : امرأة حامل ليدل بحذف الهاء على أنه حمل حبل ، ويقال : قاعدة فى بيتها وحاملة على ظهرها . قال الزجاج : هن اللاتى قعدن عن التزويج ، وهو معنى قوله : ﴿ **اللاتى لا يرجون نكاحا** ﴾ أى لايطمعن فيه لكبرهن . وقال أبو عبيدة : اللاتى قعدن عن الولد ، وليس هذا بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع .

ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال :﴿ **فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهنّ** ﴾ أى الثياب التى تكون على ظاهر البدن كالجلباب ونحوه ، لا الثياب التى على العورة الخاصة ، وإنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الأنفس عنهنّ إذ لا رغبة للرجال فيهنّ ، فأباح اللّه سبحانه لهنّ ما لم يبحه لغيرهنّ ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ فقال : ﴿ **غير متبرّجات بزينة** ﴾ أى غير مظهرات للزينة التى أمرن بإخفائها فى قوله :﴿ **ولا يبدين زينتهنّ** ﴾ والمعنى : من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهنّ ولا متعرّضات بالتزين لينظر إليهنّ الرجال . والتبرّج : التكشف والظهور للعيون ، ومنه ﴿ بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] . وبروج السماء ، ومنه قولهم : سفينة بارجة ، أى لاغطاء عليها ﴿ **وأن يستعففن خير لهنّ** ﴾ أى وأنَ يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها . وقرأ عبد اللّه بن مسعود وأبىّ بن كعب وابن عباس : « أن يضعن من ثيابهن» بزيادة من ، وقرأ ابن مسعود : « وأن يعففن » بغير سين ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ كثير السماع والعلم أو بليغهما .

﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ قال بالأوّل جماعة من العلماء ، وبالثانى جماعة . قيل : إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا ، فكانوا يتحرّجون من ذلك وقالوا : لا ندخلها وهم غيب ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم ؛ فمعنى الآية : نفى الحرج عن الزمنى فى أكلهم من بيوت أقاربهم أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو . قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روى فى الآية لما فيه من الصحابة والتابعين من التوقيف . وقيل : إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذارا من استقذارهم إياهم وخوفا من تأذيهم بأفعالهم فنزلت . وقيل : إن اللّه رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به القدرة الكاملة على المشى على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه . وقيل : المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو: الحرج فى الغزو ، أى لا حرج على هؤلاء فى تأخرهم عن الغزو . وقيل : كان الرجل إذا أدخل أحدا من هؤلاء الزمنى إلى بيته فلم يجد فيه شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته ، فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت . ومعنى قوله : ﴿**ولا على أنفسكم** ﴾ : عليكم وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿ **أن تأكلوا** ﴾ أنتم ومن معكم ، وهذا ابتداء كلام ، أى ولا عليكم أيها الناس . والحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج

والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء ، أو دخول بيوتهم فيكون ﴿ **ولا على أنفسكم** ﴾ متصلا بما قبله ، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التى يشترط فيها وجود البصر وعدم العرج وعدم المرض ، فقوله : ﴿ **ولا على أنفسكم** ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله .

ومعنى ﴿ **من بيوتكم** ﴾ : البيوت التى فيها متاعهم وأهلهم فيدخل بيوت الأولاد ، كذا قال المفسرون ، لأنها داخلة فى بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته ، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد وذكر بيوت الآباء وبيوت الأمهات ومن بعدهم. قال النحاس : وعارض بعضهم هذا فقال : هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الأولى فى الظاهر أن يكون الابن مخالفا لهؤلاء . ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لاتنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد ، بل للآباء مزيد خصوصية فى أموال الأولاد لحديث : «أنت ومالك لأبيك » [(١)] وحديث : « ولد الرجل من كسبه » [(٢)] ثم قد ذكر الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة والأخوات ، بل بيوت الأعمام والعمات ، بل بيوت الأخوال والخالات ، فكيف ينفى سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء ، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد ؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم . وقال آخرون : لا يشترط الإذن . قيل : وهذا إذا كان الطعام مبذولا ، فإن كان محرزا دونهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه: ﴿ **أو ما ملكتم مفاتحه** ﴾ أى البيوت التى تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها ، وذلك كالوكلاء والعبيد والخزّان ، فإنهم يملكون التصرف فى بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفاتحه . وقيل : المراد بها : بيوت المماليك . قرأ الجمهور : ﴿ **ملكتم** ﴾ بفتح الميم وتخفيف اللام . وقرأ سعيد بن جبير بضم الميم وكسر اللام مع تشديدها . وقرأ أيضا : « مفاتيحه » بياء بين التاء والحاء . وقرأ قتادة : ﴿ **مفاتحه** ﴾ على الإفراد، والمفاتح جمع مفتح ، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿ **أو صديقكم** ﴾ أى لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة، فإن الصديق فى الغالب يسمح لصديقه بذلك وتطيب به نفسه ، والصديق يطلق على الواحد والجمع ، ومنه قول جرير :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأسهم أعداء وهنّ صديق

ومثله العدوّ والخليط والقطين والعشير ، ثم قال سبحانه: ﴿ **ليس عليكم جناح أن تأكلوا** ﴾ من بيوتكم ﴿ **جميعا أو أشتاتا** ﴾ انتصاب ﴿ **جميعا** ﴾ و ﴿ **أشتاتا** ﴾ على الحال . والأشتات جمع شتّ ، والشتّ المصدر : بمعنى التفرّق ، يقال: شتّ القوم ، أى تفرقوا ، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله ، أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا

---

(١) أحمد ٢/ ٢٠٤ وابن ماجة فى التجارات (٢٢٩٢) كلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) أحمد ٦/ ١٧٣ وأبو داود فى البيوع (٣٥٢٨) والترمذى فى الأحكام (١٣٥٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٧/ ٢٤١ وابن ماجة فى التجارات (٢٢٩٠) والدارمى ٢/ ٢٤٧ ، كلهم عن عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة رضى الله عنها .

من بيوتكم مجتمعين أو متفرقين ، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن يأكل وحده حتى يجد له أكيلا يؤاكله فيأكل معه ، وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف ، ومنه قول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا ، فإنى لست آكله وحدى

﴿ **فإذا دخلتم بيوتا** ﴾ هذا شروع فى بيان أدب آخر أدّب به عباده ، أى إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التى تقدّم ذكرها ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾ أى على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. وقيل : المراد البيوت المذكورة سابقا. وعلى القول الأوّل ، فقال الحسن والنخعى: هى المساجد ، والمراد : سلموا على من فيها من صنفكم ،فإن لم يكن فى المساجد أحد ، فقيل : يقول : السلام على رسول الله . وقيل : يقول : السلام عليكم مريدا للملائكة . وقيل : يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال بالقول الثانى ، أعنى أنها البيوت المذكورة سابقا ، جماعة من الصحابة والتابعين . وقيل : المراد بالبيوت هنا : هى كلّ البيوت المسكونة وغيرها فيسلم على أهل المسكونة ، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه . قال ابن العربى : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح ، وانتصاب ﴿ **تحية** ﴾ على المصدرية ، لأن قوله: ﴿ **فسلموا** ﴾ معناه : فحيوا ، أى تحية ثابتة ﴿ **من عند الله** ﴾ أى إن الله حياكم بها . وقال الفرّاء : أى إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له. ثم وصف هذه التحية فقال : ﴿ **مباركة** ﴾ أى كثيرة البركة والخير دائمتهما ﴿ **طيبة** ﴾ أى تطيب بها نفس المستمع . وقيل : حسنة جميلة. وقال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب ، ثم كرّر سبحانه فقال : ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات** ﴾ تأكيدا لما سبق . وقد قدّمنا أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : بلغنا أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبى ﷺ طعاما ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿**يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ يعنى العبيد والإماء ﴿ **والذين لم يبلغوا الحلم منكم** ﴾ قال : من أحراركم من الرجال والنساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى هذه الآية قال : كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ، ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن . وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظى عن عبد الله ابن سويد قال : سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاثة ، فقال : « إذا أنا وضعت ثيابى بعد الظهيرة لم يلج علىّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن ، وإذا وضعت ثيابى بعد صلاة العشاء . ومن قبل صلاة الصبح » . وأخرجه عبد بن حميد والبخارى فى الأدب عن عبد الله بن سويد من قوله . وأخرج نحوه أيضا ابن سعد عن سويد بن النعمان .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو داود وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : إنه لم يؤمن بها أكثر الناس : يعنى آية الإذن ، وإنى لآمر جاريتى هذه ، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن على[(١)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنّ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ ، والآية التى فى سورة النساء: ﴿ **وإذا حضر القسمة** ﴾ [الآية: ٨]، والآية التى فى الحجرات: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الآية : ١٣] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبىّ ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلى الغداة ، وإذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك، ورخص لهم فى الدخول فيما بين ذلك بغير إذن ، وهو قوله : ﴿ **ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ** ﴾ فأما من بلغ الحلم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال ، وهو قوله : ﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضا ؛ أن رجلا سأله عن الاستئذان فى الثلاث العورات التى أمر اللّه بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن اللّه ستير يحب الستر . وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب فى بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيم فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم اللّه أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى اللّه ، ثم جاء اللّه بعد بالستور ، فبسط عليهم فى الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجاب ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾ قال : هى على الذكور دون الإناث ، ولا وجه لهذا التخصيص ، فالاطلاع على العورات فى هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث . وأخرج ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن بعض أزواج النبى ﷺ فى الآية قالت: نزلت فى النساء أن يستأذنّ علينا. وأخرج الحاكم وصححه عن علىّ فى الآية قال : النساء فإن الرجال يستأذنون . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن السلمى فى هذه الآية قال : هى فى النساء خاصة ، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار . وأخرج الفريابى عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت الشعبى عن هذه الآية أمنسوخة هى ؟ قال : لا . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عطاء ؛ أنه سأل ابن عباس أأستأذن على أختى ؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى وإنى أنفق عليها وإنها معى فى البيت أأستأذن عليها ؟ قال : نعم ، إن اللّه يقول : ﴿**ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم**

(١) أبو داود فى الأدب (٥١٩١) والبيهقى ٧/ ٩٧ .

يبلغوا الحلم منكم ﴾ الآية ، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا فى هؤلاء العورات الثلاث ، قال : ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ فالإذن واجب على كل خلق اللّه أجمعين. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إذن على أمهاتكم . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب عنه قال : يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخيه وأخته . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، عن جابر نحوه . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى السنن عن عطاء بن يسار أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، أأستأذن على أمى ؟ قال : « نعم » ، قال : إنى معها فى البيت ، قال « استأذن عليها»، قال : إنى خادمها أفأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : « أتحبّ أن تراها عريانة ؟ » قال : لا ، قال : « فاستأذن عليها »(١) وهو مرسل . وأخرج ابن أبى شيبة نحوه عن زيد بن أسلم ؛ أن رجلا سأل النبى ﷺ وهو أيضا مرسل .

وأخرج أبو داود ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ الآية ، فنسخ واستثنى من ذلك ﴿ **والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن عنه قال : هى المرأة لا جناح عليها أن تجلس فى بيتها بدرع وخمار وتضع عليها الجلباب ما لم تتبرّج بما يكرهه اللّه ، وهو قوله : ﴿ **فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهنّ غير متبرّجات بزينة** ﴾ . وأخرج أبو عبيدة فى فضائله ، وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والبيهقى عن ابن عباس؛ أنه كان يقرأ : « أن يضعن من ثيابهنّ » ويقول : هو الجلباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عمر فى الآية قال : تضع الجلباب . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى السنن عن ابن مسعود : ﴿ **أن يضعن ثيابهنّ** ﴾ قال : الجلباب والرداء .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٩] . قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعزّ من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون : الصحيح يسبقه إلى المكان ولا يستطيع أن يزاحم ، ويتحرّجون الأكل مع المريض يقولون : لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح ، وكانوا يتحرّجون أن يأكلوا فى بيوت أقاربهم ، فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى** ﴾ يعنى فى الأكل مع الأعمى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقسم نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت

---

(١) البيهقى ٧/ ٩٧ . (٢) أبو داود فى اللباس (٤١١١) والبيهقى ٧/ ٩٣ .

خاله أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرّجرن من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم(١). وأخرج البزار وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول اللّه ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس ، وإنما نحن زمنى ، فأنزل اللّه : ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا﴾ إلى قوله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٦] قال المسلمون : إن اللّه قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل الأموال فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد فكفّ الناس عن ذلك ، فأنزل اللّه : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ إلى قوله : ﴿ أو ماملكتم مفاتحه ﴾ وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته ، والذى رخص اللّه أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ويشرب اللبن ، وكانوا أيضا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ،فرخص اللّه لهم فقال: ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبى ﷺ لا يخالطهم فى طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت رخصة فى مؤاكلتهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود فى مراسيله ، وابن جرير والبيهقى عن الزهرى أنه سئل عن قوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرنى عبيد اللّه بن عبد اللّه أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا ، وكانوا يتحرّجون من ذلك يقولون : لا ندخلها وهم غيب ، فأنزل اللّه هذه الآية رخصة لهم (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحى من بنى كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده فى الجاهلية ، حتى إن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل اللّه : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وأبى صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم ، فنزلت رخصة لهم . وأخرج الثعلبى عن ابن عباس فى الآية ، قال : خرج الحارث غازيا مع رسول اللّه ﷺ وخلف على أهله خالد بن يزيد ، فحرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهودا فنزلت . وأخرج عبد

(١) ابن جرير ١٨/ ١٢٩ والبيهقى ٧/ ٢٧٥ .

(٢) أبو داود فى المراسيل (٤٥٩) وقال المحقق : « رجاله ثقات ، رجال الصحيح غير محمد بن ثور الصنعانى وهو ثقة » . وابن جرير ١٨/ ١٢٩ والبيهقى ٧/ ٢٧٥ .

(٣) ابن جرير ١٨/ ١٣١ .

الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **أو صديقكم** ﴾ قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته ، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **أو صديقكم** ﴾ قال : هذا شىء قد انقطع ، إنما كان هذا فى أوّله ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة ، فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، فربما وجد الطعام وهو جائع فسوّغه الله أن يأكله . وقال : ذهب ذلك ، اليوم البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا فقد ذهب ذلك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم** ﴾ يقول : إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أنفسكم ﴿ **تحية من عند الله** ﴾ وهو السلام ، لأنه اسم الله وهو تحية أهل الجنة . وأخرج البخارى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله ﴿ **مباركة طيبة** ﴾ . وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾ قال : هو المسجد إذا دخلته فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب عن ابن عمر قال : إذا دخل البيت غير المسكون أو المسجد فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾.

جملة : ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدّمها من الأحكام ، و﴿ **إنما** ﴾ من صيغ الحصر . والمعنى : لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يكون ﴿ **بالله ورسوله** ﴾ . وجملة : ﴿**وإذا كانوا معه على أمر جامع** ﴾ معطوفة على آمنوا داخلة معه فى حيز الصلة ، أى إذا كانوا مع رسول الله على أمر جامع ، أى على أمر طاعة يجتمعون عليها ، نحو الجمعة والنحر والفطر والجهاد وأشباه ذلك ، وسمى الأمر جامعا مبالغة ﴿ **لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد

لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبىّ ﷺ حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قال الزجاج : أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، وكذلك ينبغى أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه فى جمع من جموعهم إلا بإذنه ، وللإمام أن يأذن وله أن لا يأذن على ما يرى لقوله تعالى : ﴿ **فأذن لمن شئت منهم** ﴾ وقرأ اليمانى : « على أمر جميع » . والحاصل أن الأمر الجامع أو الجميع هو الذى يعمّ نفعه أو ضرره ، وهو الأمر الجليل الذى يحتاج إلى اجتماع أهل الرأى والتجارب . قال العلماء : كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذنه . ثم قال سبحانه : ﴿ **إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله** ﴾ فبين سبحانه أن المستأذنين : هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم أوّلا بأن المؤمنين الكاملين الإيمان : هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان ﴿ **فإذا استأذنوك لبعض شأنهم** ﴾ أى إذا استأذن المؤمنون رسول الله ﷺ لبعض الأمور التى تهمهم فإنه يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول الله ﷺ ، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم ، وفيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوّغ ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التى ليس وراءها غاية .

﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، أى لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض فى التساهل فى بعض الأحوال عن الإجابة أو الرجوع بغير استئذان أو رفع الصوت . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : المعنى : قولوا : يا رسول الله ، فى رفق ولين . ولا تقولوا : يا محمد ، بتجهم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ويفخموه . وقيل : المعنى : لا تتعرّضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه ، فإن دعوته موجبة ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا** ﴾ التسلل : الخروج فى خفية ، يقال : تسلل فلان من بين أصحابه : إذا خرج من بينهم ، واللواذ من الملاوذة ، وهو : أن تستتر بشىء مخافة من يراك ، وأصله أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، واللوذ : ما يطيف بالجبل ، وقيل : اللواذ : الزوغان من شىء إلى شىء فى خفية . وانتصاب ﴿ **لواذا** ﴾ على الحال، أى متلاوذين يلوذ بعضهم ببعض وينضم إليه . وقيل : هو منتصب على المصدرية لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة ، أى يلوذون لواذًا . وقرأ زيد بن قطيب : « لواذا » بفتح اللام . وفى الآية بيان ما كان يقع من المنافقين ، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتارا من رسول الله ﷺ وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة فكانوا يفرّون عن الحضور ويتسللون فى خفية ويستتر بعضهم ببعض وينضم إليه . وقيل : اللواذ: الفرار من الجهاد وبه قال الحسن ، ومنه قول حسان :

وقريش تلوذ منـا لواذا   لم تحافظ وخفّ منها الحلوم

﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى يخالفون أمر النبى ﷺ بترك العمل بمقتضاه وعدى فعل المخالفة بعن مع كونه متعدّيا بنفسه لتضمينه معنى الإعراض أو الصدّ . وقيل : الضمير للّه سبحانه لأنه الآمر بالحقيقة ، و﴿ **أن تصيبهم فتنة** ﴾ مفعول يحذر ، وفاعله الموصول . والمعنى : فليحذر المخالفون عن أمر اللّه أو أمر رسوله أو أمرهما جميعا إصابة فتنة لهم ﴿ **أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ أى فى الآخرة ؛ كما أن الفتنة التى حذرهم من إصابتها لهم هى فى الدنيا ، وكلمة « أو » لمنع الخلوّ . قال القرطبى : احتجّ الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن اللّه سبحانه قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : ﴿ **أن تصيبهم فتنة** ﴾ الآيـة ، فيجب امتثال أمـره وتحرم مخالفته ، والفتـنة هـنا غير مقيدة بنوع من أنـواع الفـتن . وقيـل : هى القتـل . وقيل : الزلازل . وقيل : تـسلط سـلطان جائر عليهم . وقيل : الطبع على قلوبهم . قـال أبـو عبيدة والأخـفش : « عن » فى هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ، بل هى بمعنى بعد ، كقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ [الكهف: ٥٠] . أى بعد أمر ربه ، والأولى ما ذكرناه من التضمين .

﴿ **ألا إنّ لله ما فى السموات والأرض** ﴾ من المخلوقات بأسرها ، فهى ملكه ﴿ **قد يعلم ما أنتم عليه** ﴾ أيها العباد من الأحوال التى أنتم عليها فيجازيكم بحسب ذلك ، ويعلم هاهنا بمعنى علم ﴿ **ويوم يرجعون إليه** ﴾ معطوف على ما أنتم عليه ، أى يعلم ما أنتم عليه ويعلم يوم يرجعون إليه فيجازيكم فيه بما عملتم . وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجعهم لزيادة تحقيق علمه ، لأن العلم بوقت وقوع الشىء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿**فينبئهم بما عملوا** ﴾ أى يخبرهم بما عملوا من الأعمال التى من جملتها مخالفة الأمر ، والظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظى قالا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة ، قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمى إلى جانب أحد ، وجاء رسول اللّه ﷺ الخبر ، فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه المسلمون ، وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ ويستأذنه فى اللحوق لحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل اللّه فى أولئك : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله** ﴾ الآية(١) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : هى فى الجهاد والجمعة والعيدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **على أمر جامع** ﴾ قال : من طاعة اللّه عامّ .

(١) ابن هشام ٣/ ١٦٧ ، ١٦٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٤٠٩ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عنه فى قوله : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول** ﴾ الآية قال : يعنى كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه ، ولكن وقروه وقولوا له : يا رسول اللّه ، يا نبىّ اللّه . وأخرج عبد الغنى بن سعيد فى تفسيره ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه أيضا فى الآية قال : لا تصيحوا به من بعيد : يا أبا القاسم ، ولكن كما قال اللّه فى الحجرات : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ [الآية :٣] . وأخرج أبو داود فى مراسيله عن مقاتل ، قال : كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن النبى ﷺ يشير إليه بأصبعه التى تلى الإبهام ، فيأذن له النبى ﷺ يشير إليه بيده ، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد ، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج . فأنزل اللّه : ﴿ **الذين يتسللون منكم لواذا** ﴾ الآية (١) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، والطبرانى ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول اللّه ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فى خاتمة سورة النور وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول : «بكل شىء بصير» (٢) .

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٦٢) وقال المحقق : « رجاله ثقات » .

(٢) الطبرانى ١٧/ ٢٨٢ (٧٧٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧ : « هكذا وقع فإن كانت قراءة شاذة وإلا فالتلاوة : ﴿ **بكل شىء عليم** ﴾ وفيه ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات ».

تفسير سورة الفرقـان

هى سبع وسبعون آية . وهى مكية كلها فى قول الجمهور ، وكذا أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه من طرق عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير . قال القرطبى : وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآيات (١) . وأخرج مالك والشافعى والبخارى ومسلم وابن حبان ، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت ، فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ : أرسله ، أقرئنا هشام ، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ: « كذلك أنزلت » ، ثم قال : أقرئنا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : «كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه » (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا (٦) ﴾.

تكلم سبحانه فى هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ، ثم فى النبوة لأنها الواسطة ، ثم فى المعاد لأنه الخاتمة . وأصل تبارك مأخوذ من البركة ، وهى النماء والزيادة ، حسية كانت

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٧١٧ ، والآيات ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) مالك ١/ ٢٠١ والشافعى فى المسند فى التفسير ٢/ ١٨٣ ، ١٨٤ والبخارى فى فضائل القرآن (٤٩٩٢) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٨/ ٢٧٠) والترمذى فى القراءات (٢٩٤٣) وابن حبان فى قراءة القرآن (٧٣٨) .

أو عقلية . قال الزجاج : تبارك تفاعل ، من البركة . قال : ومعنى البركة : الكثرة من كل ذى خير ، وقال الفراء : إن تبارك وتقدس فى العربية واحد ، ومعناهما : العظمة . وقيل : المعنى : تبارك عطاؤه ، أى زاد وكثر . وقيل : المعنى : دام وثبت . قال النحاس : وهذا أولاها فى اللغة ، والاشتقاق من برك الشيء : إذا ثبت ، ومنه برك الجمل ، أى دام وثبت . واعترض ما قاله الفراء بأن التقديس إنما هو من الطهارة ، وليس من ذا فى شيء. قال العلماء : هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه ولا تستعمل إلا بلفظ الماضى ، والفرقان : القرآن ، وسمى فرقانا ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه ، أوبين المحق والمبطل ، والمراد بعبده : نبينا ﷺ . ثم علل التنزيل : ﴿ **ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ فإن النذارة هى الغرض المقصود من الإنزال ، والمراد محمد ﷺ أو الفرقان ، والمراد بالعالمين هنا : الإنس والجن ؛ لأن النبى ﷺ مرسل إليهما، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلا إلى الثقلين ، والنذير : المنذر ، أى ليكون محمد منذرا ، أو ليكون إنزال القرآن منذرا ،ويجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة، أى ليكون إنزاله إنذارا ،أو ليكون محمد إنذارا ، وجعل الضمير للنبى ﷺ أولى ؛ لأن صدور الإنذار منه حقيقة ومن القرآن مجاز، والحمل على الحقيقة أولى ولكونه أقرب مذكور . وقيل : إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ [الإسراء : ٩] .

ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع : الأولى : ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ دون غيره فهو المتصرف فيهما ، ويحتمل أن يكون الموصول الآخر بدلا أو بيانا للموصول الأول ، والوصف أولى ، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه فى الوجود وتوابعه من البقاء وغيره . والصفة الثانية : ﴿ **ولم يتخذ ولدا** ﴾ وفيه رد على النصارى واليهود . والصفة الثالثة : ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾ وفيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية وأهل الشرك الخفى . والصفة الرابعة : ﴿ **وخلق كل شيء** ﴾ من الموجودات ﴿ **فقدره تقديرا** ﴾ أى قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد وهيأه لما يصلح له . قال الواحدى : قال المفسرون : قدر له تقديرا من الأجل والرزق ، فجرت المقادير على ما خلق . وقيل : أريد بالخلق هنا : مجرد الإحداث والإيجاد مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وإن لم يخل عنه فى نفس الأمر ، فيكون المعنى: أوجد كل شيء فقدره لئلا يلزم التكرار .

ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان فقال : ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة**﴾ والضمير فى ﴿ **اتخذوا** ﴾ للمشركين وإن لم يتقدم لهم ذكر ؛ لدلالة نفى الشريك عليهم ، أى اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله آلهة ﴿ **لا يخلقون شيئا** ﴾ والجملة فى محل نصب صفة لآلهة ، أى لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء وغلب العقلاء على غيرهم؛ لأن فى معبودات الكفار الملائكة وعزير والمسيح ﴿ **وهم يخلقون** ﴾ أى يخلقهم الله سبحانه . وقيل : عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جريا على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع . وقيل : معنى ﴿ **وهم**

يخلقون ﴾ : أن عبدتهم يصورونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ فقال : ﴿ **ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا** ﴾ أى لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعا ولا يدفعوا عنها ضررا ، وقدم ذكر الضر؛ لأن دفعه أهم من جلب النفع ، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم ؟ ثم زاد فى بيان عجزهم فنص على هذه الأمور فقال : ﴿ **ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا** ﴾ أى لا يقدرون على إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى ولا بعثهم من القبور ؛ لأن النشور الإحياء بعد الموت ، يقال : أنشر الله الموتى فنشروا ، ومنه قول الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للميت الناشر

ولما فرغ من بيان التوحيد وتزييف مذاهب المشركين شرع فى ذكر شبه منكرى النبوة ، فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله : ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك** ﴾ أى كذب ﴿**افتراه**﴾ أى اختلقه محمد ﷺ ،والإشارة بقوله : ﴿**هذا**﴾ إلى القرآن ﴿ **وأعانه عليه** ﴾ أى على الاختلاق ﴿ **قوم آخرون** ﴾ يعنون من اليهود . قيل : وهم : أبو فكيهة يسار مولى الحضرمى ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى ابن عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود ، وقد مر الكلام على مثل هذا فى النحل . ثم رد الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ **فقد جاؤوا ظلما وزورا** ﴾ أى فقد قالوا ظلما هائلا عظيما وكذبا ظاهرا ، وانتصاب ﴿ **ظلما** ﴾ بـ ﴿ **جاؤوا** ﴾ ، فإن جاء قد يستعمل استعمال أتى ويعدى تعديته . وقال الزجاج : إنه منصوب بنزع الخافض ، والأصل جاؤوا بظلم . وقيل : هو منتصب على الحال ، وإنما كان ذلك منهم ظلما لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشىء فى غير موضعه ، وهذا هو الظلم ، وأما كون ذلك منهم زورا فظاهر لأنهم قد كذبوا فى هذه المقالة .

ثم ذكر الشبهة الثانية فقال : ﴿ **وقالوا أساطير الأولين** ﴾ أى أحاديث الأولين وما سطروه من الأخبار . قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة ، وقال غيره : أساطير جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال ﴿ **اكتتبها** ﴾ أى استكتبها أو كتبها لنفسه ، ومحل اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير ، أو محله الرفع على أنه خبر ثان ؛ لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هذه أساطير الأولين اكتتبها ، ويجوز أن يكون أساطير مبتدأ واكتتبها خبره ، ويجوز أن يكون معنى اكتتبها جمعها من الكتب ، وهو الجمع ، لا من الكتابة بالقلم . والأول أولى . وقرأ طلحة : «اكتتبها » مبنيا للمفعول ، والمعنى : اكتتبها له كاتب ؛ لأنه كان أميا لا يكتب،ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه ، ثم بنى الفعل للضمير الذى هو إياه فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان منصوبا بارزا ، كذا قال فى الكشاف [(١)] ، واعترضه أبو حيان ﴿ **فهى تملى عليه** ﴾ أى تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٦٤ .

اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه ، ويجوز أن يكون المعنى : اكتتبها أراد اكتتابها ﴿ **فهى تملى عليه** ﴾ لأنه يقال: أمليت عليه فهو يكتب ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ غدوة وعشيا كأنهم قالوا : إن هؤلاء يعلمون محمدا طرفى النهار . وقيل : معنى بكرة وأصيلا : دائما فى جميع الأوقات .

فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** ﴾ أى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأخبار الأولين ، بل هو أمر سماوى أنزله الذى يعلم كل شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء ، فلهذا عجزتم عن معارضته ولم تأتوا بسورة منه . وخص السر ؛ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر ، والسر : الغيب ، أى يعلم الغيب الكائن فيهما ، وجملة : ﴿ **إنه كان غفورا رحيما** ﴾ تعليل لتأخير العقوبة ، أى إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله والظلم له ، فإنه لا يعجل عليكم بذلك ؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **تبارك** ﴾ : تفاعل من البركة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأعانه عليه قوم آخرون** ﴾ قال : يهود ﴿ **فقد جاؤوا ظلما وزورا** ﴾ قال : كذبا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده** ﴾ هو القرآن فيه حلاله وحرامه وشرائعه ودينه ، وفرق الله بين الحق والباطل ﴿ **ليكون للعالمين نذيرا**﴾ قال : بعث الله محمدا ﷺ نذيرا من الله لينذر الناس بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلكم ﴿**وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾ قال : بين لكل شيء من خلقه صلاحه وجعل ذلك بقدر معلوم ﴿**واتخذوا من دونه آلهة** ﴾ قال : هى الأوثان التى تعبد من دون الله ﴿ **لا يخلقون شيئا وهم يخلقون** ﴾ وهو الله الخالق الرازق ، وهذه الأوثان تخلق ولا تخلق شيئا ولا تضر ولا تنفع ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا : يعنى بعثا ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ هذا قول مشركى العرب ﴿**إن هذا إلا إفك** ﴾ هو الكذب ﴿ **افتراه وأعانه عليه** ﴾ أى على حديثه هذا وأمره قوم آخرون ، ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ كذب الأولين وأحاديثهم .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا

لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴿١٦﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ فقال: ﴿ **وقالوا ما لهذا الرسول** ﴾ وفى الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه وهو رسول الله ﷺ، وسموه رسولا ؛ استهزاء وسخرية ﴿ **يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق** ﴾ أى ما باله يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ، وزعموا أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الطعام والكسب ، وما الاستفهامية فى محل رفع على الابتداء ، والاستفهام للاستنكار ، وخبر المبتدأ لهذا الرسول ، وجملة : ﴿ **يأكل** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وبها تتم فائدة الإخبار كقوله : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ [المدثر : ٤٩] والإنكار متوجه إلى السبب مع تحقق المسبب ، وهو الأكل والمشى ، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكما واستهزاء . والمعنى : أنه إن صح ما يدعيه من النبوة فما باله لم يخالف حاله حالنا ﴿ **لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا** ﴾ طلبوا أن يكون النبى ﷺ مصحوبا بملك يعضده ويساعده ، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول ﷺ ملكا مستغنيا عن الأكل والكسب ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويشهد له بالرسالة . قرأ الجمهور:﴿ **فيكون**﴾ بالنصب على كونه جواب التحضيض. وقرئ: « فيكون » بالرفع على أنه معطوف على أنزل ، وجاز عطفه على الماضى ؛ لأن المراد به المستقبل .

﴿ **أو يلقى إليه كنز** ﴾ معطوف على أنزل ، ولا يجوز عطفه على فيكون ، والمعنى : أو هلا يلقى إليه كنز ، تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى إليه من السماء ليستغنى به عن طلب الرزق ﴿ **أو تكون له جنة يأكل منها** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **تكون**﴾ بالمثناة الفوقية ، وقرأ الأعمش وقتادة : « يكون » بالتحتية ؛ لأن تأنيث الجنة غير حقيقى . وقرأ : « نأكل » بالنون حمزة وعلى وخلف ، وقرأ الباقون :﴿ **يأكل** ﴾ بالمثناة التحتية ، أى بستان نأكل نحن من ثماره ، أو يأكل هو وحده منه ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته . قال النحاس : والقراءتان حسنتان وإن كانت القراءة بالياء أبين ؛ لأنه قد تقدم ذكر النبى ﷺ وحده ، فعود الضمير إليه بين. ﴿ **وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ المراد بـ ﴿ **الظالمون** ﴾ هنا : هم القائلون بالمقالات الأولى ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به ، أى ما تتبعون إلا رجلا مغلوبا على عقله بالسحر . وقيل: ذا سحر ، وهى الرئة، أى بشرا له رئة لا ملكا ، وقد تقدم بيان مثل هذا فى سبحان .

﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال**﴾ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك، والأمثال هى: الأقوال

النادرة والاقتراحات الغريبة ، وهى ما ذكروه هاهنا ﴿ **فضلوا** ﴾ عن الصواب فلا يجدون طريقا إليه ولا وصلوا إلى شىء منه ، بل جاؤوا بهذه المقالات الزائفة التى لا تصدر عن أدنى العقلاء وأقلهم تمييزا ولهذا قال :﴿ **فلا يستطيعون سبيلا** ﴾ أى لا يجدون إلى القدح فى نبوة هذا النبى طريقا من الطرق . ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك** ﴾ أى تكاثر خير الذى إن شاء جعل لك فى الدنيا معجلا خيرا من ذلك الذى اقترحوه . ثم فسر الخير فقال : ﴿ **جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ فجنات بدل من ﴿ **خير** ﴾ . ﴿ **ويجعل لك قصورا** ﴾ معطوف على موضع جعل ، وهو الجزم ، وبالجزم قرأ الجمهور . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع : « يجعل » على أنه مستأنف ، وقد تقرر فى علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى جوابه الجزم والرفع فجاز أن يكون جعل هاهنا فى محل جزم ورفع فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع . وقرئ بالنصب . وقرئ بإدغام لام لك فى لام يجعل لاجتماع المثلين . وقرئ بترك الإدغام لأن الكلمتين منفصلتان، والقصر : البيت من الحجارة ؛ لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه . وقيل : هو بيت الطين وبيوت الصوف والشعر.

ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذى لا يصدر عن العقلاء فقال: ﴿ **بل كذبوا بالساعة**﴾ أى بل أتوا بأعجب من ذلك كله . وهو تكذيبهم بالساعة ، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها. ثم ذكر سبحانه ما أعده لمن كذب بالساعة فقال : ﴿**وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا** ﴾ أى نارا مشتعلة متسعرة ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى بل كذبوا بالساعة ، والحال أنا أعتدنا . قال أبو مسلم : أعتدنا : أى جعلناه عتيدا ومعدا لهم ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ هذه الجملة الشرطية فى محل نصب صفة لـ ﴿ **سعيرا** ﴾ لأنه مؤنث بمعنى النار، قيل : معنى ﴿ **إذا رأتهم** ﴾ : إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر فى البعد . وقيل : المعنى : إذا رأتهم خزنتها . وقيل : إن الرؤية منها حقيقية وكذلك التغيظ والزفير ، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك . ومعنى ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ : أنها رأتهم وهى بعيدة عنهم ، قيل : بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام . ومعنى التغيظ : أن لها صوتا يدل على التغيظ على الكفار أو لغليانها صوتا يشبه صوت المغتاظ . والزفير : هو الصوت الذى يسمع من الجوف . قال الزجاج : المراد : سماع ما يدل على الغيظ وهو الصوت ، أى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ . وقال قطرب : أراد : علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا كما قال الشاعر :

متقلدا سيفا ورمحا

أى وحاملا رمحا . وقيل : المعنى : سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للمعذبين كما قال : ﴿ **لهم فيها زفير وشهيق** ﴾ [هود : ١٠٦] وفى واللام متقاربان ، تقول : افعل هذا فى الله ولله .

﴿ **وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا** ﴾ وصف المكان بالضيق ؛ للدلالة على زيادة الشدة وتناهى البلاء عليهم ، وانتصاب ﴿ **مقرنين** ﴾ على الحال ، أى إذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم

مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد . وقيل : مكتفين . وقيل : قرنوا مع الشياطين ، أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة إبراهيم[1] ﴿ **دعوا هنالك** ﴾ أى فى ذلك المكان الضيق ﴿ **ثبورا** ﴾ أى هلاكا . قال الزجاج : وانتصابه على المصدرية ، أى ثبرنا ثبورا . وقيل : منتصب على أنه مفعول له ، والمعنى : أنهم يتمنون هنالك الهلاك وينادونه لما حل بهم من البلاء ، فأجيب عليهم بقوله : ﴿ **لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا** ﴾ أى فيقال لهم هذه المقالة ، والقائل لهم هم الملائكة ، أى اتركوا دعاء ثبور واحد ، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك وأعظم ، كذا قال الزجاج ﴿**وادعوا ثبورا كثيرا** ﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير فلهذا لم يجمع، ومثله ضربته ضربا كثيرا ، وقعد قعودا طويلا ، فالكثرة هاهنا هى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به ، لا بحسب كثرته فى نفسه ، فإنه شىء واحد . والمعنى : لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة ، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشد من ذلك لطول مدته وعدم تناهيه . وقيل : هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول . وقيل : إن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، بل هو ثبور كثير لأن العذاب أنواع ، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم : الدلالة على خلود عذابهم وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجى لهم مما هم فيه .

ثم وبخهم الله سبحانه توبيخا بالغا على لسان رسوله فقال : ﴿ **قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون** ﴾ والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة ، أى أتلك السعير خير أم جنة الخلد ؟ وفى إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها وعدم انقطاعه ، ومعنى ﴿ **التى وعد المتقون** ﴾ : التى وعدها المتقون ، والمجىء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير فى النار أصلا ؛ لأن العرب قد تقول ذلك، ومنه ما حكاه سيبويه عنهم أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ؟ وقيل : ليس هذا من باب التفضيل ، وإنما هو كقولك: عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن . كما قال :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء [2]

ثم قال سبحانه : ﴿ **كانت لهم جزاء ومصيرا** ﴾ أى كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم ومصيرا يصيرون إليه . ﴿ **لهم فيها ما يشاؤون** ﴾ أى ما يشاؤونه من النعيم وضروب الملاذ كما فى قوله :﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ﴾ [فصلت : ٣١] وانتصاب خالدين على الحال ، وقد تقدم تحقيق معنى الخلود ﴿ **كان على ربك وعدا مسؤولا**﴾ أى كان ما يشاؤونه . وقيل : كان الخلود . وقيل : كان الوعد المدلول عليه بقوله : ﴿ **وعد المتقون** ﴾ ومعنى الوعد المسؤول : الوعد المحقق بأن يسأل ويطلب كما فى قوله : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾

(١) راجع : فى تفسير سورة إبراهيم آية ٤٩ .

(٢) البيت لحسان بن ثابت فى الرد على أبى سفيان بن الحارث الذي هجا الرسول ﷺ.

[آل عمران : ١٩٤] . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله : ﴿ وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ﴾ [غافر : ٨] وقيل : المراد به : الوعد الواجب وإن لم يسأل .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البخترى والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأباجهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، قال : فجاءهم رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن نسودك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بى مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » ؛ قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك ، أو قالوا : فإذا لم تفعل هذا فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ،وما بعثت إليكم بهذا ،ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا » ، فأنزل الله فى ذلك : **﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾** ، **﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾**[(١)] أى جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن خيثمة قال : قيل للنبى ﷺ : إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض ومفاتيحها مالم يعط نبى قبلك ولا نعطها أحدا بعدك ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئا ، وإن شئت جمعتها لك فى الآخرة ، فقال : « اجمعوها لى فى الآخرة » ، فأنزل الله سبحانه : **﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ﴾**[(٢)]. وأخرج نحوه عنه ابن مردويه من طريق أخرى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال : قال

(١) ابن هشام ١/ ٣٢٤ ـ ٣٣٦ وابن جرير ١٨/ ١٣٨ .

(٢) ابن أبى شيبة (١١٨٤٩) وابن جرير ١٨/ ١٤٠ .

النبى ﷺ : « من يقل على مالم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا » ، قيل : يا رسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « نعم ، أما سمعتم الله يقول: ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ »(١) . وأخرج آدم بن أبى إياس فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ قال : من مسيرة مائة عام ، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ﴿ **سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت ، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها وتبلغ القلوب الحناجر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين**﴾ قال : « والذى نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **دعوا هنالك ثبورا** ﴾ قال : ويلا ﴿ **لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا** ﴾ يقول : لا تدعوا اليوم ويلا واحدا . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى البعث ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يكسى حلته من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادى : ياثبوراه ، ويقولون : ياثبورهم حتى يقف على الناس فيقول : ياثبوراه ، ويقولون : ياثبورهم ، فيقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا»(٢) . وإسناد أحمد هكذا : حدثنا عفان عن حميد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ فذكره . وفى على بن زيد بن جدعان مقال معروف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **كان على ربك وعدا مسؤولا** ﴾ يقول: سلوا الذى وعدتكم تنجزوه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا

(١) ابن جرير ١٨/ ١٤٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٦٠١٥) وأحمد ٣/ ٢٤٩ وابن جرير ١٨/ ١٤١ .

فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾.

قوله: ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الظرف منصوب بفعل مضمر ، أى واذكر ، وتعليق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد كما مر مرارا . قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو فى رواية الدورى : ﴿ **يحشرهم** ﴾ بالياء التحتية ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله فى أول الكلام :﴿كان على ربك﴾ والباقون بالنون على التعظيم ماعدا الأعرج فإنه قرأ : « نحشرهم » بكسر الشين فى جميع القرآن . قال ابن عطية : هى قليلة فى الاستعمال قوية فى القياس ؛ لأن يفعل بكسر العين فى المتعدى أقيس من يفعل بضمها ، ورده أبو حيان باستواء المضموم والمكسور إلا أن يشتهر أحدهما اتبع ﴿ **وما يعبدون من دون الله** ﴾ معطوف على مفعول نحشر ، وغلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان ونحوها على العقلاء من الملائكة والجن والمسيح تنبيها على أنها جميعا مشتركة فى كونها غير صالحة لكونها آلهة ، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها ، فغلبت اعتبارا بكثرة من يعبدها . وقال مجاهد وابن جريج : المراد : الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد . وقال الضحاك وعكرمة والكلبى : المراد : الأصنام خاصة ، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة ، ﴿ **فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو حيوة وابن كثير وحفص:«فنقول » بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، واختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها فى نحشرهم ، وكذا أبو حاتم . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أأنتم أضللتم** ﴾ للتوبيخ والتقريع . والمعنى : أكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم ؟ أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب ؟

وجملة : ﴿ **قالوا سبحانك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومعنى سبحانك : التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة أو أنبياء معصومين ، أو جمادات لا تعقل ، أى تنزيها لك ﴿ **ماكان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء** ﴾ أى ما صح ولا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء فنعبدهم ، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك ؟ والولى يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع ، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿**نتخذ** ﴾ مبنيا للفاعل . وقرأ الحسن وأبو جعفر : « نتخذ » مبنيا للمفعول ، أى ما كان ينبغى لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك . قال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر : لا تجوز هذه القراءة ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية . قال أبو عبيدة : لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه ذكر « من » مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن نتخذ من دونك أولياء . وقيل : إن « من » الثانية زائدة . ثم

حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان فقال : ﴿ **ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر** ﴾ وفى هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل ، ولم يضلهم غيرهم ، والمعنى : ما أضللناهم ، ولكنك يارب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر فى عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك . وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ : « ينبغى » مبنيا للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة . وقيل : المراد بنسيان الذكر هنا : هو ترك الشكر ﴿ **وكانوا قوما بورا** ﴾ أى وكان هؤلاء الذين أشركوا بك وعبدوا غيرك فى قضائك الأزلى قوما بورا ، أى هلكى ، مأخوذ من البوار وهو الهلاك. يقال: رجل بائر وقوم بور ، يستوى فيه الواحد والجماعة لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير ويجوز أن يكون جمع بائر. وقيل : البوار : الفساد . يقال : بارت بضاعته ، أى فسدت ، وأمر بائر ، أى فاسد وهى لغة الأزد . وقيل : المعنى : لا خير فيهم ، مأخوذ من بوار الأرض وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقيل : إن البوار : الكساد ، ومنه بارت السلعة إذا كسدت .

﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : فقال الله عند تبرى المعبودين مخاطبا للمشركين العابدين لغير الله : فقد كذبوكم ، أى فقد كذبكم المعبودون بما تقولون ، أى فى قولكم إنهم آلهة ﴿ **فما يستطيعون** ﴾ أى الآلهة ﴿ **صرفا** ﴾ أى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه . وقيل : حيلة ﴿ **ولا نصرا** ﴾ أى ولا يستطيعون نصركم. وقيل : المعنى : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفا للعذاب الذى عذبهم الله به ولا نصرا من الله ، وهذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ : « تستطيعون » بالفوقية وهى قراءة حفص ، وقرأ الباقون بالتحتية . وقال ابن زيد : المعنى: فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ﷺ ، وعلى هذا فمعنى ﴿ **بما تقولون** ﴾ : ما تقولونه من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى : فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه ولا نصرا لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقرأ الجمهور :﴿ **بما تقولون** ﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب . وحكى الفراء أنه يجوز أن يقرأ: « فقد كذبوكم » مخففا بما يقولون ، أى كذبوكم فى قولهم ، وكذا قرأ بالياء التحتية مجاهد والبزى. ﴿ **ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا** ﴾ هذا وعيد لكل ظالم ويدخل تحته الذين فيهم السياق دخولا أوليا ،والعذاب الكبير: عذاب النار ، وقرئ: « يذقه» بالتحتية ، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحا لبطلان ما تقدم من قوله : ﴿ **يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق**﴾ فقال : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق** ﴾ قال الزجاج : الجملة الواقعة بعد « إلا» صفة لموصوف محذوف ، والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف الموصوف لأن فى قوله : ﴿ **من المرسلين** ﴾ دليلا عليه ، نظيره : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : ١٦٤] أى وما

منا أحد . وقال الفراء : لا محل لها من الإعراب ، وإنما هى صلة لموصول محذوف هو المفعول، والتقدير : إلا من أنهم، فالضمير فى أنهم وما بعده راجع إلى من المقدرة ، ومثله قوله تعالى: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] أى إلا من يردها ، وبه قرأ الكسائى. قال الزجاج : هذا خطأ لأن من الموصولة لا يجوز حذفها . وقال ابن الأنبارى : إنها فى محل نصب على الحال ، والتقدير : إلا وأنهم ، فالمحذوف عنده الواو . قرأ الجمهور : ﴿ **إلا إنهم**﴾ بكسر إن لوجود اللام فى خبرها كما تقرر فى علم النحو ، وهو مجمع عليه عندهم . قال النحاس : إلا أن على بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجوز فى إن هذه الفتح وإن كان بعدها اللام وأحسبه وهما . وقرأ الجمهور:﴿ **يمشون** ﴾ بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأ على وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة ، وهى بمعنى القراءة الأولى ، قال الشاعر :

أمشى بأعطان المياه وأتقى قلائص منها صعبة وركوب

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سباع الحى ضامزة ولا تمشى بواديه الأراجيل

﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ هذا الخطاب عام للناس ، وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنة لبعض ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغنى فتنة للفقير . وقيل : المراد بالبعض الأول : كفار الأمم ، وبالبعض الثانى : الرسل . ومعنى الفتنة : الابتلاء والمحنة . والأول أولى ، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به ؛ فالمريض يقول : لم لم أجعل كالصحيح ؟ وكذا كل صاحب آفة ، والصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه ولا يحقره ، والغنى مبتلى بالفقير يواسيه ، والفقير مبتلى بالغنى يحسده ، ونحو هذا مثله . وقيل : المراد بالآية : أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال : لا أسلم بعده ، فيكون له علىّ السابقة والفضل ، فيقيم على كفره ، فذلك افتتان بعضهم لبعض، واختار هذا الفراء والزجاج. ولاوجه لقصرالآية على هذا ، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة :﴿**أتصبرون**﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، وفى الكلام حذف تقديره : أم لا تصبرون ؟ أى أتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة والابتلاء العظيم . قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية هاهنا موقع قوله : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ فى قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [الملك : ٢] ثم وعد الصابرين بقوله: ﴿ **وكان ربك بصيرا** ﴾ أى بكل من يصبر ومن لا يصبر ، فيجازى كلا منهما بما يستحقه. وقيل :معنى ﴿ **أتصبرون** ﴾ : اصبروا مثل قوله: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة: ٩١] أى انتهوا .

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التى قدحوا بها فى النبوة ،

والجملة معطوفة على ﴿ **وقالوا ما لهذا** ﴾ أى وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله ، كما فى قول الشاعر :

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

أى لا أبالى ، وقيل : المعنى : لا يخافون لقاء ربهم ،كقول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عوامل

أى لم يخف ، وهى لغة تهامة . قال الفراء : وضع الرجاء موضع الخوف . وقيل : لا يأملون ، ومنه قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب

والحمل على المعنى الحقيقى أولى ، فالمعنى : لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب ، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب ﴿ **لولا أنزل علينا الملائكة** ﴾ أى هلا أنزلوا علينا فيخبرونا أن محمدا صادق ، أو هلا أنزلوا علينا رسلا يرسلهم الله ﴿ **أو نرى ربنا**﴾ عيانا فيخبرنا بأن محمدا رسول . ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه فقال :﴿ **لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا** ﴾ أى أضمروا الاستكبار عن الحق والعناد فى قلوبهم كما فى قوله:﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ [غافر : ٥٦] ، والعتو : مجاوزة الحد فى الطغيان والبلوغ إلى أقصى غاياته ، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة فى غاية الكبر والعظم فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم ، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ورؤيته فى الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان ،ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغا هى أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله،أو تعد من المستعدين له ، وهكذا من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حده ، ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه مالا يرى .

وانتصاب ﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾بفعل محذوف ، أى واذكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذى طلبوه والصورة التى اقترحوها ، بل على وجه آخر ، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر ، ويجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدل عليه قوله : ﴿ **لا بشرى يومئذ للمجرمين** ﴾ أى يمنعون البشرى يوم يرون ، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذى يرون فيه الملائكة ، وهو وقت الموت ، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى . قال الزجاج: المجرمون فى هذا الموضع : الذين اجترموا الكفر بالله ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ أى ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة حجرا محجورا ، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعاذة، يقال للرجل: أتفعل كذا ؟ فيقول : حجرا محجورا ، أى حراما عليك التعرض لى . وقيل : إن هذا من قول الملائكة ، أى يقولون للكفار : حراما محرما أن يدخل أحدكم الجنة ، ومن ذلك قول الشاعر :

ألا أصبحت أسماء حجرا محرما وأصبحت من أدنى حمومتها حماء

أى أصبحت أسماء حراما محرما ، وقال آخر :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام إلا تلك الدهاريس

وقد ذكر سيبويه فى باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة وجعلها من جملتها . ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾ هذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالا لها صورة الخير: من صلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الطعام وأمثالها ، ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذى هم عليه ، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده ولم يترك منها شيئا ، وإلا فلا قدوم هاهنا . قال الواحدى : معنى قدمنا : عمدنا وقصدنا ، يقال : قدم فلان إلى أمر كذا : إذا قصده أو عمده ، ومنه قول الشاعر :

وقدم الخوارج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال

وقيل : هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى ، والهباء واحده هباءة ، والجمع أهباء. قال النضر بن شميل : الهباء: التراب الذى تطيره الريح كأنه دخان . وقال الزجاج : هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهرى. والمنثور: المفرق ، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور ، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد . وقيل : إن الهباء : ما أذرته الرياح من يابس أوراق الشجر . وقيل : هو الماء المهراق . وقيل : الرماد . والأول هو الذى ثبت فى لغة العرب ونقله العارفون بها . ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار فقال : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا** ﴾ أى أفضل منزلا فى الجنة ﴿ **وأحسن مقيلا** ﴾ أى موضع قائلة ، وانتصاب ﴿ **مستقرا** ﴾ على التمييز . قال الأزهرى : القيلولة عند العرب : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك يوم . قال النحاس : والكوفيون يجيزون : العسل أحلى من الخل .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ الآية ، قال : عيسى وعزير والملائكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **قوما بورا** ﴾ قال : هلكى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **ومن يظلم منكم** ﴾ قال : هو الشرك . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : يشرك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق** ﴾ يقول :إن الرسل قبل

محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ قال : بلاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن الحسن : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ قال : يقول الفقير : لو شاء الله لجعلنى غنيا مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلنى صحيحا مثل فلان ، ويقول الأعمى : لو شاء الله لجعلنى بصيرا مثل فلان . وأخرج ابن المنذرعن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وعتوا عتوا كبيرا** ﴾ قال : شدة الكفر .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾ قال: يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى نحوه . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قال :عوذا معاذا ، الملائكة تقوله . وفى لفظ قال :حراما محرما أن تكون البشرى فى اليوم إلا للمؤمنين . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قال : حراما محرما أن نبشركم بما نبشر به المتقين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن وقتادة: ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قالا : هى كلمة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا نزلت به شدة قال: حجرا محجورا : حراما محرما .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل** ﴾ قال : عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه فى الدنيا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **هباء منثورا** ﴾ قال : الهباء : شعاع الشمس الذى يخرج من الكوة . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال : الهباء : وهيج الغبار يسطع ، ثم يذهب فلا يبقى منه شىء ، فجعل الله أعمالهم كذلك .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الهباء : الذى يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : هو ما تسفى الريح وتبثه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هو الماء المهراق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾ قال : فى الغرف من الجنة . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾ (١) .

(١) ابن جرير ١٩/ ٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾.

قوله ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ وصف سبحانه ها هنا بعض حوادث يوم القيامة . والتشقق : التفتح . قرأ عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وأبو عمرو : ﴿**تشقق** ﴾ بتخفيف الشين ، وأصله تتشقق، وقرأ الباقون بتشديد الشين على الإدغام . واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، واختار الثانية أبو حاتم ، ومعنى تشققها بالغمام : أنها تتشقق عن الغمام . قال أبو على الفارسى : تشقق السماء وعليها غمام كما تقول : ركب الأمير بسلاحه ، أى وعليه سلاحه ، وخرج بثيابه ، أى وعليه ثيابه . ووجه ما قاله : أن الباء وعن يتعاقبان ، كما تقول: رميت بالقوس . وعن القوس. وروى أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق أبيض . وقيل : إن السماء تتشقق بالغمام الذى بينها وبين الناس . والمعنى : أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء . وقيل : إنها تشقق لنزول الملائكة كما قال سبحانه بعد هذا : ﴿ **ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾ . وقيل : إن « الباء » فى ﴿ **بالغمام** ﴾ سببية ، أى بسبب الغمام ، يعنى بسبب طلوعه منها كأنه الذى تتشقق به السماء. وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف ، أى ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير : « وننزل الملائكة » مخففا ، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة وزاى مخففة بكسرة مضارع أنزل ، والملائكة منصوبة على المفعولية . وقرأ الباقون من السبعة : ﴿ **نزل** ﴾ بضم النون وكسر الزاى المشددة ماضيا مبنيا للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء : « نزل » بالتشديد ماضيا مبنيا للفاعل وفاعله الله سبحانه ، وقرأ أبى بن كعب :« أنزل الملائكة » وروى عنه أنه قرأ :« تنزلت الملائكة » وقد قرئ فى الشواذ بغير هذه، وتأكيد هذا الفعل بقوله : ﴿**تنزيلا** ﴾ يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب ونمط عجيب . قال أهل العلم : إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب .

﴿ **الملك يومئذ الحق للرحمن** ﴾ الملك مبتدأ ، والحق صفة له وللرحمن الخبر ، كذا قال الزجاج ، أى الملك الثابت الذى لا يزول للرحمن يومئذ ؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس

بملك فى الحقيقة. وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة فى هذا اليوم، وأما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره ملك فى الصورة وإن لم يكن حقيقيا . وقيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف ، والحق نعت للملك . والمعنى : الملك الثابت للرحمن خاص فى هذا اليوم ﴿ **وكان يوما على الكافرين عسيرا** ﴾ أى وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديدا على الكفار لما يصابون به فيه ، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب ، وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير ، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة .

﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه** ﴾ الظرف منصوب بمحذوف ، أى واذكر كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول ، أعنى ﴿ **يوم تشقق** ﴾ . ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه** ﴾ الظاهر أن العض هنا حقيقة ، ولا مانع من ذلك ولا موجب لتأويله . وقيل : هو كناية عن الغيظ والحسرة ، والمراد بالظالم : كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل ، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ **يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا**﴾ :يقول فى محل نصب على الحال ، ومقول القول هو :ياليتنى إلخ ، والمنادى محذوف ، أى يا قوم ﴿ **ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾ طريقا وهو طريق الحق ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة ، والمراد اتباع النبى ﷺ فيما جاء به . ﴿ **يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا** ﴾ دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذى أضله فى الدنيا ، وفلان كناية عن الأعلام . قال النيسابورى : زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان فى الفصيح إلا حكاية ، لا يقال : جاءنى فلان ، ولكن يقال : قال زيد: جاءنى فلان ؛ لأنه اسم اللفظ الذى هو علم الاسم ، وكذلك جاء فى كلام الله . وقيل : فلان ، كناية عن علم ذكور من يعقل ، وفلانة عن علم إناثهم . وقيل : كناية عن نكرة من يعقل من الذكور ، وفلانة عمن يعقل من الإناث ، وأما الفلان والفلانة فكناية عن غير العقلاء ، وفل يختص بالنداء إلا فى ضرورة، كقول الشاعر :

فى لجة أمسك فلانا عن فل

وقوله :

حدثانى عـــن فـــلان وفـــل

وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء . وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك وهما فى جعل فلان كناية علم من يعقل . وقرأ الحسن : « ياويلتى » بالياء الصريحة ، وقرأ الدورى بالإمالة . قال أبو على : وترك الإمالة أحسن ؛ لأن أصل هذه اللفظة الياء فأبدلت الكسرة فتحة ، والياء التاء فرارا من الياء ، فمن أمال رجع إلى الذى فر منه .

﴿ **لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى** ﴾ أى والله لقد أضلنى هذا الذى اتخذته خليلا عن القرآن أو عن الموعظة أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك ، بعد إذ جاءنى وتمكنت منه وقدرت

عليه ﴿ **وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾ الخذل : ترك الإغاثة ، ومنه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه ، ثم يتركهم عند استغاثتهم به ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى ، أو من تمام كلام الظالم ، وأنه سمى خليله شيطانا بعد أن جعله مضلا ، أو أراد بالشيطان : إبليس لكونه الذى حمله على مخاللة المضلين .

﴿ **وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾ معطوف على ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ والمعنى : إن قومى اتخذوا هذا القرآن الذى جئت به إليهم وأمرتنى بإبلاغه وأرسلتنى به مهجورا متروكا لم يؤمنوا به ، ولا قبلوه بوجه من الوجوه . وقيل : هو من هجر إذا هذى . والمعنى : أنهم اتخذوه هجرا وهذيانا . وقيل : معنى مهجورا : مهجورا فيه ، ثم حذف الجار ، وهجرهم فيه قولهم : إنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، وهذا القول يقوله الرسول ﷺ يوم القيامة . وقيل : إنه حكاية لقوله ﷺ فى الدنيا ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين** ﴾ هذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، والمعنى : أن الله سبحانه جعل لكل نبى من الأنبياء الداعين إلى الله عدوا يعاديه من مجرمى قومه ، فلا تجزع يا محمد ، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك واصبر كما صبروا ﴿ **وكفى بربك هاديا ونصيرا** ﴾ قال المفسرون : الباء زائدة ، أى كفى ربك ،وانتصاب ﴿ **نصيرا** ﴾ و﴿ **هاديا** ﴾على الحال ،أو التمييز ،أى يهدى عباده إلى مصالح الدين والدنيا وينصرهم على الأعداء .

﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم ، أى هلا نزل الله علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم . واختلف فى قائل هذه المقالة ؛ فقيل : كفار قريش . وقيل : اليهود ، قالوا : هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور ؟ وهذا زعم باطل ودعوى داحضة فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن ولكنهم معاندون ، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه . ثم رد الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ **كذلك لنثبت به فؤادك** ﴾ أى نزلنا القرآن كذلك مفرقا ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف ، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم ، أى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه ، واقترحوا خلافه نزلناه لنقوى بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك ، فإن إنزاله مفرقا منجما على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له وفهمك لمعانيه ، وذلك من أعظم أسباب التثبيت ، واللام متعلقة بالفعل المحذوف الذى قدرناه . وقال أبو حاتم : إن الأخفش قال : إنها جواب قسم محذوف . قال : وهذا قول مرجوح . وقرأ عبد الله : « ليثبت » بالتحتية ، أى الله سبحانه . وقيل: إن هذه الكلمة ، أعنى كذلك ، هى من تمام كلام المشركين ، والمعنى: كذلك ، أى كالتوراة والإنجيل والزبور ، فيوقف على قوله : ﴿ **كذلك** ﴾ ، ثم يبتدأ بقوله : ﴿ **لنثبت به فؤادك** ﴾ على معنى : أنزلناه عليك متفرقا لهذا الغرض . قال ابن الأنبارى : وهذا أجود وأحسن . قال النحاس : وكان ذلك ، أى إنزال القرآن منجما من أعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شىء إلا أجيبوا عنه ،

وهذا لا يكون إلا من نبى ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم ﴿ **ورتلناه ترتيلا** ﴾ هذا معطوف على الفعل المقدر ، أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا ، ومعنى الترتيل : أن يكون آية بعد آية، قاله النخعى والحسن وقتادة . وقيل : إن المعنى : بيناه تبيينا ، حكى هذا عن ابن عباس . وقال مجاهد : بعضه فى إثر بعض . وقال السدى : فصلناه تفصيلا . قال ابن الأعرابى : ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين .

ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون فى كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حالة فقال: ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ أى لا يأتيك يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التى من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك فى مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذى يبطل ما جاؤوا به من المثل ويدمغه ويدفعه. فالمراد بالمثل هنا : السؤال والاقتراح ، وبالحق :جوابه الذى يقطع ذريعته ويبطل شبهته ويحسم مادته . ومعنى ﴿ **أحسن تفسيرا** ﴾ : جئناك بأحسن تفسير ، فأحسن تفسيرا معطوف على الحق ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلاجئناك** ﴾ مفرغ ،والجملة فى محل نصب على الحال ،أى لا يأتونك بمثل إلا فى حال إيتائنا إياك ذلك.

ثم أوعد هؤلاء الجهلة وذمهم فقال : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم** ﴾ أى يحشرون كائنين على وجوههم ، والموصول مبتدأ ، وخبره : أولئك ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، يجوز نصبه على الذم . ومعنى ﴿ **يحشرون على وجوههم** ﴾ : يسحبون عليها إلى جهنم ﴿ **أولئك شر مكانا** ﴾ أى منزلا ومصيرا ﴿ **وأضل سبيلا** ﴾ وأخطأ طريقا ، وذلك لأنهم قد صاروا فى النار . وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان ، وقد قيل : إن هذا متصل بقوله : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾ .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾ قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد : الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق ، فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق فيقول أهل الأرض : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، ثم تنشق السماء الثانية وذكر مثل ذلك ، ثم كذلك فى كل سماء إلى السماء السابعة ، وفى كل سماء أكثر من السماء التى قبلها ، ثم ينزل ربنا فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع والإنس والجن وجميع الخلق ، لهم قرون ككعوب القثاء ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام [1] . وإسناده عند ابن جرير

(١) ابن جرير ١٩/٥ وقال ابن كثير ١٤٨/٥ : « مداره على على بن زيد بن جدعان وفيه ضعف فى سياقاته غالبا وفيها نكارة شديدة ».

هكذا : قال حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى الحجاج بن مبارك بن فضالة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس فذكره . وأخرجه ابن أبى حاتم بإسناد هكذا : قال حدثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول ، حدثنا حماد بن سلمة عن على ابن زيد به .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، بسند قال السيوطى : صحيح ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ أن أبا معيط كان يجلس مع النبى ﷺ بمكة لا يؤذيه ، وكان رجلا حليما ،وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه ،وكان لأبى معيط خليل غائب عنه بالشام ، فقالت قريش : صبأ أبو معيط ، وقدم خليله من الشام ليلا فقال لامرأته : ما فعل محمد مما كان عليه ؟ فقالت : أشد ما كان أمرا ، فقال : ما فعل خليلى أبو معيط؟ فقالت : صبأ ، فبات بليلة سوء ، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه ، فلم يرد عليه التحية ، فقال : مالك لا ترد على تحيتى ؟ فقال : كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت ؟ قال : أو قد فعلتها قريش ؟ قال : نعم ، قال : فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلته ؟ قال : تأتيه فى مجلسه فتبزق فى وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم ، ففعل فلم يزد رسول الله ﷺ على أن مسح وجهه من البزاق ، ثم التفت إليه فقال : « إن وجدتك خارجا من جبال مكة أضرب عنقك صبرا » ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، فقال له أصحابه : اخرج معنا ، قال : وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقى صبرا ، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم ، فلما هزم الله المشركين وحمل به جمله فى جدود من الأرض ، فأخذه رسول الله ﷺ أسيرا فى سبعين من قريش ، وقدم إليه أبو معيط فقال : أتقتلنى من بين هؤلاء ؟ قال : «نعم بما بزقت فى وجهى » ، فأنزل الله فى أبى معيط : ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ إلى قوله : ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ (١) . وأخرج أبو نعيم هذه القصة من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، وذكر أن خليل أبى معيط هو : أبى بن خلف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضا فى قوله : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، وهما الخليلان فى جهنم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾ قال : كان عدو النبى ﷺ أبو جهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : قال المشركون: لو كان محمد كما يزعم نبيا فلم يعذبه ربه ؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ، ينزل عليه الآية والآيتين والسورة والسورتين ، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ إلى ﴿ وأضل سبيلا ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ قال : لنشدد به فؤادك ونربط على

---

(١) الرواية فى ابن هشام مختصرة ٢ / ١٥ .

قلبك ﴿**ورتلناه ترتيلا**﴾ قال : رسلناه ترسيلا ، يقول :شيئا بعد شيء ﴿ **ولا يأتونك بمثل** ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ، ثم سألوك لم يكن عنده ما يجيب ، ولكنا نمسك عليك ، فإذا سألوك أجبت .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤)** ﴾.

اللام فى قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ جواب قسم محذوف ، أى والله لقد آتينا موسى التوراة . ذكر سبحانه طرفا من قصص الأولين تسلية له ﷺ بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله . وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ و﴿ **هارون** ﴾ عطف بيان ، ويجوز أن ينصب على القطع و﴿ **وزيرا** ﴾ المفعول الثانى . وقيل : حال ، والمفعول الثانى معه ، والأول أولى . قال الزجاج : الوزير فى اللغة : الذى يرجع إليه ويعمل برأيه ، والوزر : ما يعتصم به ، ومنه : ﴿ كلا لا وزر ﴾ [القيامة : ١١] . وقد تقدم تفسير الوزير فى طه ، والوزارة لا تنافى النبوة ، فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء ، ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا . وقد كان هارون فى أول الأمر وزيرا لموسى ، ولاشتراكهما فى النبوة قيل لهما : ﴿**اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ وهم فرعون وقومه . والآيات هى التسع التى تقدم ذكرها، وإن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهارون بالذهاب بل كان التكذيب بعد ذلك ، لكن هذا الماضى بمعنى المستقبل على عادة إخبار الله ، أى اذهبا إلى القوم الذين يكذبون بآياتنا. وقيل: إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله ﷺ بيانا لعلة استحقاقهم للعذاب. وقيل :يجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا. وقيل: إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال: أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية وليس المراد آيات الرسالة. قال القشيرى: وقوله تعالى فى موضع آخر:﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : ٢٤] لا ينافى

هذا لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. ويمكن أن يقال : إن تخصيص موسى بالخطاب فى بعض المواطن لكونه الأصل فى الرسالة ، والجمع بينهما فى الخطاب لكونهما مرسلين جميعا ﴿ **فدمرناهم تدميرا** ﴾ فى الكلام حذف ، أى فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، أى أهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكا عظيما . وقيل : إن المراد بالتدمير هنا : الحكم به ؛ لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهارون إليهم ، بل بعده بمدة .

﴿ **وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم** ﴾ فى نصب ﴿ **قوم** ﴾أقوال :العطف على الهاء والميم فى دمرناهم ،أو النصب بفعل محذوف ، أى اذكر ، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ، وهو أغرقناهم ، أى أغرقنا قوم نوح أغرقناهم ، وقال الفراء : هو منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من دون تقدير مضمر يفسره ما بعده . ورده النحاس بأن أغرقنا لا يتعدى إلى مفعولين حتى يعمل فى الضمير المتصل به ، وفى قوم نوح . ومعنى ﴿ **لما كذبوا الرسل** ﴾ : أنهم كذبوا نوحا وكذبوا من قبله من رسل الله . وقال الزجاج : من كذب نبيا فقد كذب جميع الأنبياء، وكان إغراقهم بالطوفان كما تقدم فى هود ﴿ **وجعلناهم للناس آية** ﴾ أى جعلنا إغراقهم ، أو قصتهم للناس آية ، أى عبرة لكل الناس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها وسامع لخبرها ﴿**وأعتدنا للظالمين** ﴾ المراد بالظالمين : قوم نوح على الخصوص . ويجوز أن يكون المراد : كل من سلك مسلكهم فى التكذيب ، والعذاب الأليم: هو عذاب الآخرة . وانتصاب ﴿ **عادا** ﴾ بالعطف على قوم نوح ، وقيل : على محل الظالمين ، وقيل : على مفعول جعلناهم ﴿**وثمود**﴾ معطوف على ﴿ **عادا** ﴾ وقصة عاد وثمود قد ذكرت فيما سبق ﴿**وأصحاب الرس** ﴾ الرس فى كلام العرب: البئر التى تكون غير مطوية ،والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة ،ومنه قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم تنابلة يحفرون الرساسا

قال السدى : هى بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار فنسبوا إليها ، وهو صاحب يس الذى قال : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : ٢٠] وكذا قال مقاتل وعكرمة وغيرهما . وقيل : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم فجفت أشجارهم وزروعهم ، فماتوا جوعا وعطشا . وقيل : كانوا يعبدون الشجر . وقيل : كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيبا فكذبوه وآذوه . وقيل : هم قوم أرسل الله إليهم نبيا فأكلوه ، وقيل : هم أصحاب الأخدود . وقيل : إن الرس : هى البئر المعطلة التى تقدم ذكرها ، وأصحابها : أهلها . وقال فى الصحاح : والرس : اسم بئر كانت لبقية ثمود ، وقيل : الرس : ماء ونخل لبنى أسد ، وقيل : الثلج المتراكم فى الجبال . والرس: اسم واد ، ومنه قول زهير :

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للفم

والرس أيضا : الإصلاح بين الناس والإفساد بينهم ، فهو من الأضداد . وقيل : هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعنقاء ﴿ **وقرونا بين**

ذلك كثيرا ﴾ معطوف على ما قبله. والقرون جمع قرن ، أى أهل قرون ، والقرن: مائة سنة ، وقيل : مائة وعشرون . وقيل : القرن : أربعون سنة ، والإشارة بقوله : ﴿ **بين ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الأمم . وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك .

﴿ **وكلا ضربنا له الأمثال** ﴾ قال الزجاج : أى وأنذرنا كلا ضربنا لهم الأمثال وبينا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة ، فجعله منصوبا بفعل مضمر يفسره ما بعده ؛ لأن حذرنا وذكرنا وأنذرنا فى معنى: ضربنا ، ويجوز أن يكون معطوفا على ما قبله ، والتنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف ، وهو الأمم ، أى كل الأمم ضربنا لهم الأمثال وأما ﴿ **كلا** ﴾ الأخرى فهى منصوبة بالفعل الذى بعدها. والتتبير : الإهلاك بالعذاب . قال الزجاج: كل شىء كسرته وفتته فقد تبرته. وقال المؤرج والأخفش: معنى ﴿ **تبرنا تتبيرا**﴾: دمرنا تدميرا (١) ، أبدلت التاء والباء من الدال والميم ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء** ﴾ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم . والمعنى : ولقد أتوا ، أى مشركو مكة ، على قرية قوم لوط التى أمطرت مطر السوء ، وهو الحجارة ، أى هلكت بالحجارة التى أمطروا بها ، وانتصاب مطر على المصدرية ،أو على أنه مفعول ثان ، إذ المعنى : أعطيتها وأوليتها مطر السوء ، أو على أنه نعت مصدر محذوف ، أى إمطارا مثل مطر السوء ، وقرأ أبو السموأل : « السوء » بضم السين ، وقد تقدم تفسير السوء فى براءة ﴿ **أفلم يكونوا يرونها** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ،أى يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمرون بها ، والفاء للعطف على مقدر ، أى لم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها ﴿**بل كانوا لا يرجون نشورا** ﴾ أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء ، ويجوز أن يكون معنى يرجون : يخافون .

﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزؤا** ﴾ أى ما يتخذونك إلا هزؤا ،أى مهزوءا بك ،قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزوا ، فجواب ﴿ **إذا** ﴾ هو ﴿ **إن يتخذونك** ﴾ وقيل : الجواب محذوف ، وهو : قالوا أهذا الذى ، وعلى هذا فتكون جملة : ﴿ **إن يتخذونك إلا هزؤا** ﴾ معترضة ، والأول أولى . وتكون جملة : ﴿ **أهذا الذى بعث الله رسولا** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى قائلين أهذا إلخ ، وفى اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له وتهكمهم به ، والعائد محذوف ، أى بعثه الله ، وانتصاب ﴿ **رسولا** ﴾ على الحال ، أى مرسلا ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره الموصول، وصلته ﴿ **إن كاد ليضلنا عن آلهتنا** ﴾ أى قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا : ليصرفنا عن آلهتنا فنترك عبادتها ، وإن هنا هى المخففة ، وضمير الشأن محذوف ؛ أى إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿ **لولا أن صبرنا عليها** ﴾ أى حبسنا أنفسنا على عبادتها ، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم فقال ﴿ **وسوف يعلمون حين يرون العذاب من**

(١) فى المطبوعة : « أدمرنا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أضل سبيلا ﴾ أى حين يرون عذاب يوم القيامة الذى يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضل سبيلا ، أى أبعد طريقا عن الحق والهدى ، أهم أم المؤمنون ؟

ثم بين لهم سبحانه أنه لاتمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى ، فقال معجبا لرسول الله ﷺ: ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قدم المفعول الثانى للعناية. كما تقول : علمت منطلقا زيدا ، أى أطاع هواه طاعة كطاعة الإله ، أى انظر إليه يامحمد وتعجب منه . قال الحسن : معنى الآية لا يهوى شيئا إلا اتبعه ﴿ **أفأنت تكون عليه وكيلا** ﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد ، أى أفأنت تكون عليه حفيظا وكفيلا حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من الكفر ، ولست تقدر على ذلك ولا تطيقه ، فليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك البلاغ . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بآية القتال .

ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر فقال :﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون** ﴾ أى أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتتلو عليهم من آيات القرآن ومن المواعظ ؟ أو يعقلون معانى ذلك ويفهمونه حتى تعتنى بشأنهم وتطمع فى إيمانهم ، وليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل . ثم بين سبحانه حالهم وقطع مادة الطمع فيهم فقال : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام** ﴾ أى ما هم فى الانتفاع بما يسمعونه إلا كالبهائم التى هى مسلوبة الفهم والعقل فلا تطمع فيهم ، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة ، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم ويعقلون ما يتلى عليهم ، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له . ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بأنهم كالأنعام إلى ما هو فوق ذلك فقال :﴿ **بل هم أضل سبيلا** ﴾ أى أضل من الأنعام طريقا . قال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها وتنقاد لأربابها ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : إنما كانوا أضل من الأنعام ؛ لأنه لا حساب عليها ولا عقاب لها . وقيل : إنما كانوا أضل ؛ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك ، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا ومكابرة وتعصبا وغمطا للحق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا** ﴾ قال : عونا وعضدا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**فدمرناهم تدميرا** ﴾ قال : أهلكناهم بالعذاب . وأخرج ابن جرير عنه قال : الرس : قرية من ثمود . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الرس : بئر بأذربيجان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس أنه سأل كعبا عن أصحاب الرس قال: صاحب يس الذى قال : ﴿ ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : ٢٠] فرسَّه قومه فى بئر بالأحجار . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبى فحفروا له بئرا فألقوه فيها ، ثم

أطبقوا عليه بحجر ضخم ، فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه فيشترى به طعاما وشرابا ، ثم يأتى به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة فيعينه الله عليها ، فيدلى طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت ، فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب على أذنه سبع سنين نائما ، ثم إنه ذهب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ، ثم إنه ذهب فاحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ، ثم ذهب إلى الحفرة فى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده ، وقد كان بدا لقومه فيه بد فاستخرجوه فآمنوا به وصدقوه ، وكان النبى يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟ فيقولون: ما ندرى ، حتى قبض ذلك النبى، فأهب الله الأسود من نومته بعد ذلك ، إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة» (١) . قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراجه : وفيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجا (٢) . انتهى . الحديث أيضا مرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن زرارة بن أوفى قال : القرن : مائة وعشرون عاما . وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : القرن :سبعون سنة . وأخرج ابن مردويه عن أبى سلمة قال : القرن : مائة سنة. وقد روى مرفوعا إلي النبى ﷺ أنه قال : «القرن مائة سنة » ، وقال : « القرن خمسون سنة » ، وقال : « القرن أربعون سنة » . وما أظنه يصح شىء من ذلك ، وقد سمى الجماعة من الناس قرنا كما فى الحديث الصحيح : «خير القرون قرنى » (٣) . وأخرج الحاكم فى الكنى عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معد بن عدنان أمسك ، ثم يقول : كذب النسابون . قال الله : ﴿ **وقرونا بين ذلك كثيرا** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس :﴿**ولقد أتوا على القرية** ﴾ قال:هى سدوم قرية لوط ﴿**التى أمطرت مطر السوء**﴾ قال : الحجارة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر فى الجاهلية ، فإذا وجد حجرا أحسن منه رمى به وعبد الآخر ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال : ذلك الكافر لا يهوى شيئا إلا اتبعه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ

(١) ابن جرير ١٩/ ١٠ ، ١١ . (٢) ابن كثير ٥/ ١٥٣ .

(٣) أحمد ١/ ٣٧٨ والبخارى فى الشهادات (٢٦٥٢) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٦٢) ، كلهم عن عبد الله بن مسعود .

النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام ، فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ هذه الرؤية إما بصرية ، والمراد بها : ألم تبصر إلى صنع ربك ، أو ألم تبصر إلى الظل كيف مده ربك ؟ وإما قلبية بمعنى العلم ، فإن الظل متغير ، وكل متغير حادث ، ولكل حادث موجد . قال الزجاج : ﴿ **ألم تر** ﴾ ألم تعلم ، وهذا من رؤية القلب . قال : وهذا الكلام على القلب ، والتقدير : ألم تر إلى الظل كيف مده ربك ؟ يعنى الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وهو ظل لا شمس معه ، وبه قال الحسن وقتادة . وقيل : هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها . قال أبو عبيدة : الظل بالغداة والفيء بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس . سمى فيئا ؛ لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيء من برد العشى تذوق

وقال ابن السكيت : الظل : ما نسخته الشمس ، والفيء : ما نسخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . انتهى . وحقيقة الظل : أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين ، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس ، والضوء الكامل لقوته يبهر الحس البصرى ويؤذى بالتسخين ، ولذلك وصفت الجنة به بقوله :﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة : ٣٠] وجملة : ﴿ **ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكنا ثابتا دائما مستقرا لا تنسخه الشمس . وقيل : المعنى : لو شاء لمنع الشمس الطلوع ، والأول أولى . والتعبير بالسكون عن الإقامة والاستقرار سائغ ، ومنه قولهم : سكن فلان بلد كذا : إذا أقام به واستقر فيه. وقوله : ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ معطوف على قوله : مد الظل داخل فى حكمه ، أى جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله ؛ وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل فى الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص .

وقوله : ﴿ ثم قبضناه ﴾ معطوف أيضا على مد داخل فى حكمه . والمعنى : ثم قبضنا ذلك الظل الممدود ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإظلال إلى العدم والاضمحلال . وقيل : المراد فى الآية : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه ، وهى الأجرام النيرة ، والأول أولى . والمعنى : أن الظل يبقى فى هذا الجو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس ، فأشرقت على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما فيه بقية نور النهار ، وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها إذا لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : المعنى : ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿ قبضا يسيرا ﴾ ومعنى ﴿ إلينا ﴾ : أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه قبضا يسيرا ، أى على تدريج قليلا قليلا بقدر ارتفاع الشمس ، وقيل :يسيرا سريعا ، وقيل المعنى : يسيرا علينا ، أى يسيرا قبضه علينا ليس بعسير.

﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا ﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . قال ابن جرير : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها ، واللام متعلقة بجعل ﴿ والنوم سباتا ﴾ أى وجعل النوم سباتا ، أى راحة لكم لأنكم تنقطعون عن الاشتغال ، وأصل السبات : التمدد ، يقال : سبتت المرأة شعرها ، أى نقضته وأرسته ، ورجل مسبوت ، أى ممدود الخلقة . وقيل : للنوم سبات ؛ لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . وقيل : السبت القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه : سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال . قال الزجاج : السبات : النوم ، وهو أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه ، أى جعلنا نومكم راحة لكم. وقال الخليل : السبات : نوم ثقيل . أى جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام والراحة ﴿ وجعل النهار نشورا ﴾ أى زمان بعث من ذلك السبات ، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات. وقال فى الكشاف : إن السبات : الموت ، واستدل على ذلك بكون النشور فى مقابلته [1] .

﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ قرئ : « الريح » وقرئ : « بشرا » بالباء الموحدة وبالنون، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى فى الأعراف [2] ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ أى يتطهر به كما يقال : وضوء للماء الذى يتوضأ به . قال الأزهرى : الطهور فى اللغة : الطاهر المطهر ، والطهور ما يتطهر به. قال ابن الأنبارى: الطهور بفتح الطاء: الاسم ، وكذلك الوضوء والوقود ، وبالضم المصدر ، هذا هو المعروف فى اللغة ؛ وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور: هو الطاهر المطهر ، ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة . وروى عن أبى حنيفة أنه قال : الطهور هو الطاهر ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٣ .

(٢) راجع : تفسير سورة الأعراف آية ٥٧ .

[الإنسان : ٢١] يعنى طاهرا ، ومنه قول الشاعر :

خليلى هــل فى نظــرة بعـد تـــوبة ... أداوى بهـا قلبى على فجـور

إلى رجـح الأكفـال غيـد مـن الظبــى ... عذاب الثنايا ريقهـن طهــور

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر ، ورجح القول الأول ثعلب ، وهو راجح لما تقدم من حكاية الأزهرى لذلك عن أهل اللغة . وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور ، فهو على طريق المبالغة ، وعلى كل حال فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره ، قال الله تعالى :﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ [الأنفال : ١١] وقال النبى ﷺ : «خلق الماء طهورا » (١) .

ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال :﴿ **لنحيى به** ﴾ أى بالماء المنزل من السماء ﴿ **بلدة ميتا** ﴾ وصف البلدة بـ﴿ **ميتا** ﴾ ، وهى صفة للمذكر لأنها بمعنى البلد . وقال الزجاج : أراد بالبلد : المكان ، والمراد بالإحياء هنا : إخراج النبات من المكان الذى لا نبات فيه ﴿ **ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ أى نسقى ذلك الماء ، قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية عنهما وأبو حيان وابن أبى عبلة بفتح النون من : « نسقيه » وقرأ الباقون بضمها ، و«من » فى : ﴿ **مما خلقنا** ﴾ للابتداء ، وهى متعلقة بـ ﴿ **نسقيه** ﴾ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال . والأنعام قد تقدم الكلام عليها . والأناسى جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه . وقال الفراء والمبرد والزجاج : إنه جمع إنسى ، وللفراء قول آخر : إنه جمع إنسان ، والأصل : أناسين مثل سرحان وسراحين وبستان وبساتين ، فجعلوا الياء عوضا من النون .

﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكروا** ﴾ : ضمير ﴿ **صرفناه** ﴾ ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل ، أى كررنا أحوال الإظلال ، وذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر فى القرآن وفى سائر الكتب السماوية ليتفكروا ويعتبروا ، فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحدها . وقال آخرون : إنه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر،أى صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة ، فنزيد منه فى بعض البلدان وننقص فى بعض آخر منها ، وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقد جرى ذكره فى أول السورة حيث قال: ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : ١] وقوله :﴿ لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ﴾ [الفرقان : ٢٩] وقوله :﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ [الفرقان : ٣٠] والمعنى : ولقد كررنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ليذكروا به ويعتبروا بما فيه ، فأبى أكثرهم ﴿ **إلا كفورا** ﴾ به . وقيل : هو راجع إلى الريح ، وعلى رجوع الضمير إلى المطر ، فقد اختلف فى معناه ، فقيل ما ذكرناه . وقيل : صرفناه بينهم وابلا وطشا وطلا ورذاذا ، وقيل: تصريفه : تنويع الانتفاع به فى الشرب والسقى

(١) أحمد ٣/ ٣١ وأبو داود فى الطهارة (٦٦) والترمذى فى الطهارة (٦٦) وقال : « هذا حديث حسن »، كلهم عن أبى سعيد الخدرى .

والزراعات به والطهارات . قال عكرمة : إن المراد بقوله : ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ هو قولهم: فى الأنواء مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر هنا قولهم : مطرنا بنوء كذا . وقرأ عكرمة : « صرفناه » مخففا ، وقرأ الباقون بالتثقيل . وقرأ حمزة والكسائى: « ليذكروا » مخففة الذال من الذكر ،وقرأ الباقون بالتثقيل من التذكر .

﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا** ﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم ، ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيرا واحدا ، وهو أنت يا محمد ، فقابل ذلك بشكر النعمة ﴿ **فلا تطع الكافرين** ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ، بل اجتهد فى الدعوة واثبت فيها، والضمير فى قوله : ﴿ **وجاهدهم به جهادا كبيرا** ﴾ راجع إلى القرآن ، أى جاهدهم بالقرآن واتل عليهم ما فيه من القوارع والزواجر والأوامر والنواهى. وقيل: الضمير يرجع إلى الإسلام. وقيل : بالسيف ، والأول أولى . وهذه السورة مكية ، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة . وقيل : الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله : ﴿ **فلا تطع الكافرين** ﴾ . وقيل : الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا** ﴾ لأنه سبحانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التى أرسل إليها ، وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى وهو محمد ﷺ فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات ، فكبر جهاده ، وعظم وصار جامعا لكل مجاهدة ، ولا يخفى ما فى هذين الوجهين من البعد .

ثم ذكر سبحانه دليلا رابعا على التوحيد فقال : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين** ﴾ مرج : خلى وخلط وأرسل، يقال : مرجت الدابة وأمرجتها : إذا أرسلتها فى المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر . وقال ابن عرفة : خلطهما فهما يلتقيان ، يقال : مرجته : إذا خلطته ، ومرج الدين والأمر : اختلط واضطرب ، ومنه قوله :﴿ فى أمر مريج ﴾ [ق : ٥] وقال الأزهرى : ﴿ **مرج البحرين** ﴾ خلى بينهما ، يقال: مرجت الدابة : إذا خليتها ترعى . وقال ثعلب : المرج : الإجراء ، فقوله : ﴿ **مرج البحرين**﴾ أى أجراهما . قال الأخفش : ويقول قوم : أمرج البحرين مثل مرج ، فعل وأفعل بمعنى. ﴿**هذا عذب فرات** ﴾ الفرات : البليغ العذوبة ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مرجهما ؟ فقيل : هذا عذب وهذا ملح ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال . قيل : سمى الماء الحلو فراتا ؛ لأنه يفرت العطش ، أى يقطعه ويكسره ﴿ **وهذا ملح أجاج** ﴾ أى بليغ الملوحة هذا معنى الأجاج . وقيل : الأجاج : البليغ فى الحرارة . وقيل : البليغ فى المرارة ، وقرأ طلحة : « ملح » بفتح الميم وكسر اللام ﴿ **وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** ﴾ البرزخ : الحاجز والحائل الذى جعله الله بينهما من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ، ومعنى ﴿**حجرا محجورا** ﴾ : سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر ، فالبرزخ : الحاجز ، والحجز : المانع . وقيل: معنى ﴿ **حجرا محجورا** ﴾ : هو ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعوذ كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه، ويقول له هذا القول .

وقيل :حدا محدودا . وقيل : المراد من البحر العذب :الأنهار العظام كالنيل والفرات وجيحون، ومن البحر الأجاج :البحار المشهورة ، والبرزخ بينهما : الحائل من الأرض .وقيل معنى ﴿**حجرا محجورا**﴾:حراما محرما أن يعذب هذا المالح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالمالح، ومثل هذه الآية قوله سبحانه فى سورة الرحمن : ﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ [الآيتان : ١٩ ، ٢٠] .

ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان والماء فقال : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا** ﴾ والمراد بالماء هنا : ماء النطفة ، أى خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا وصهرا . وقيل : المراد بالماء: الماء المطلق الذى يراد فى قوله:﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ [الأنبياء : ٣٠] والمراد بالنسب :هو الذى لا يحل نكاحه.قال الفراء والزجاج: واشتقاق الصهر من صهرت الشىء:إذا خلطته،وسميت المناكح صهرا ؛ لاختلاط الناس بها.وقيل : الصهر: قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان ، وقرابة الزوج هم الأحماء ، والأصهار تعمهما، قاله الأصمعى . قال الواحدى : قال المفسرون : النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ومن هنا إلى قوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ [النساء : ٢٣] تحريم بالصهر ، وهو الخلطة التى تشبه القرابة، حرم الله سبعة أصناف من النسب وسبعة من جهة الصهر ، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها ، والسابعة قوله : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ [النساء : ٢٢] وقد جعل ابن عطية والزجاج وغيرهما الرضاع من جملة النسب ، ويؤيده قوله ﷺ : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ﴿ **وكان ربك قديرا** ﴾ أى بليغ القدرة عظيمها ، ومن جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان وتقسيمه إلى القسمين المذكورين .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ قال : بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس . وأخرج ابن أبى حاتم عنه بلفظ : ألم تر أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلا ، ثم بعث الله عليه الشمس دليلا فقبض الظل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : مد الظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ **ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ قال : دائما ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ يقول : طلوع الشمس ﴿ **ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا** ﴾ قال : سريعا . وأخرج أهل السنن وأحمد وغيرهم من حديث أبى سعيد قال : قيل : يا رسول الله ، أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ وهى بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ، فقال: « إن الماء طهور لا ينجسه شىء » (١) . وفى إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه فى شرحنا على المنتقى .

---

(١) أحمد ٣/ ٣١ وأبو داود فى الطهارة (٦٦) والترمذى فى الطهارة (٦٦) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى ١/ ١٧٤ والبيهقى ١/ ٤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : ما من عام بأقل مطرا من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، ثم قرأ هذه الآية :﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكروا** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجاهدهم به** ﴾ قال : بالقرآن. وأخرج ابن جرير عنه : ﴿**هو الذى مرج البحرين** ﴾ يعنى خلط أحدهما على الآخر فليس يفسد العذب المالح وليس يفسد المالح العذب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وحجرا محجورا** ﴾ يقول : حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن المغيرة قال : سئل عمر بن الخطاب عن ﴿ **نسبا وصهرا** ﴾ ، فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب ، وأما الصهر: فالأختان والصحابة .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾.

لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار وفضائح سيرتهم فقال : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم** ﴾ إن عبدوه ﴿ **ولا يضرهم** ﴾ إن تركوه ﴿ **وكان الكافر على ربه ظهيرا** ﴾ الظهير المظاهر ، أى المعاون على ربه بالشرك والعداوة ، والمظاهرة على الرب هى المظاهرة على رسوله أو على دينه . قال الزجاج : لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله ؛ لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان . وقال أبو عبيدة : المعنى : وكان الكافر على ربه هينا ذليلا ، من قول العرب : ظهرت به ، أى جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه ، ومنه قوله: ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ [هود : ٩٢] أى هينا ، ومنه أيضا قول الفرزدق :

تميم بن بدر لا تكونن حاجتى بظهر فلا يعيا على جوابها

وقيل : إن المعنى : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع ، ويجوز أن يكون الظهير جمعا كقوله : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ [التحريم : ٤] والمعنى : أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله أو على دينه ، والمراد بالكافر هنا : الجنس ، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافر معين، كما قيل : إنه أبو جهل . ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ أى مبشرا للمؤمنين بالجنة ومنذرا للكافرين بالنار .

﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر** ﴾ أى قل لهم يا محمد : ما أسألكم على القرآن من أجر ، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال ، والاستثناء فى قوله :﴿ **إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ منقطع ، أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل . وقيل : هو متصل . والمعنى : إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة وصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الحصول . ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره ألا يطلب منهم أجرا البتة ، أمره أن يتوكل عليه فى دفع المضار وجلب المنافع فقال : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت** ﴾ وخص صفة الحياة؛ إشارة إلى أن الحى هو الذى يوثق به فى المصالح ، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ، والتوكل : اعتماد العبد على الله فى كل الأمور ﴿ **وسبح بحمده** ﴾ أى نزهه عن صفات النقصان. وقيل : معنى ﴿ **سبح** ﴾ : صل ، والصلاة تسمى تسبيحا ﴿ **وكفى به بذنوب عباده خبيرا** ﴾ أى حسبك ، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك : كفى بالله ربا . والخبير: المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شىء . ثم زاد فى المبالغة ، فقال : ﴿ **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى الأعراف ، والموصول فى محل جر على أنه صفة للحى ، وقال : ﴿ **بينهما** ﴾ ولم يقل : بينهن ؛ لأنه أراد النوعين ، كما قال القطامى :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباتتا انقطاعا

فإن قيل : يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض كما تفيده ثم ، فيقال: إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات والأرض ، والرحمن مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو صفة أخرى للحى، وقد قرأه الجمهور بالرفع . وقيل : يجوز أن يكون بدلا من الضمير فى ﴿ **استوى** ﴾ ، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة ، أى فاسأل على رأى الأخفش ، كما فى قول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

وقرأ زيد بن على : « الرحمن » بالجر على أنه نعت للحى أو للموصول ﴿ **فاسأل به**

خبيرا ﴾ الضمير فى به يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش . والمعنى : فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالا من هذه الأمور . وقال الزجاج والأخفش : الباء بمعنى عن ، أى فاسأل عنه ، كقوله : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج : ١] ، وقول عنترة (١) :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم

وقال علقمة بن عبدة (٢) :

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبير بأدواء النساء طبيب

والمراد بالخبير : الله سبحانه ؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو ، ومن هذا قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ، أى للقيك بلقائك إياه الأسد ، فخبيرا منتصب على المفعولية ، أو على الحال المؤكدة ، واستضعف الحالية أبو البقاء فقال : يضعف أن يكون ﴿ **خبيرا** ﴾ حالا من فاعل اسأل ؛ لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد كقوله: ﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ [البقرة : ٩١] قال : ويجوز أن يكون حالا من الرحمن إذا رفعته باستوى . وقال ابن جرير : يجوز أن تكون الباء فى به زائدة. والمعنى: فاسأله حال كونه خبيرا . وقيل : قوله : « به » يجرى مجرى القسم كقوله :﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به ﴾ [النساء : ١] والوجه الأول أقرب هذه الوجوه .

ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال : ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن** ﴾ قال المفسرون : إنهم قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون : مسيلمة . قال الزجاج : الرحمن : اسم من أسماء الله ، فلما سمعوه أنكروا فقالوا : وما الرحمن ﴿ **أنسجد لما تأمرنا** ﴾ والاستفهام للإنكار أى لا نسجد للرحمن الذى تأمرنا بالسجود له ، ومن قرأ بالتحتية فالمعنى : أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له . وقد قرأ المدنيون والبصريون :﴿ **لما تأمرنا** ﴾ بالفوقية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بالتحتية . قال أبو عبيد : يعنون : الرحمن . قال النحاس : وليس يجب أن يتأول على الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم : اسجدوا لما يأمرنا النبى ﷺ ، فتصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أبين ﴿ **وزادهم نفورا**﴾ أى زادهم الأمر بالسجود نفورا عن الدين وبعدا (٣)عنه . وقيل : زادهم ذكر الرحمن تباعدا من الإيمان ، كذا قال مقاتل ، والأول أولى .

---

(١) فى المخطوطة : « امرئ القيس » ، والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ٧/ ٤٧٧٩ .

(٢) فى المخطوطة : « امرؤ القيس » ، والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ٧/ ٤٧٧٩ .

(٣) فى المطبوعة : « بعد » بالرفع ، والصحيح ما أثبتناه بالنصب من المخطوطة .

ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال :﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا** ﴾ المراد بالبروج : بروج النجوم ، أى منازلها الاثنا عشر . وقيل : هى النجوم الكبار ، والأول أولى . وسميت بروجا ، وهى القصور العالية ؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها ، واشتقاق البرج من التبرج ، وهو الظهور ﴿ **وجعل فيها سراجا** ﴾ أى شمسا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ [نوح : ١٦] قرأ الجمهور : ﴿**سراجا** ﴾ بالإفراد. وقرأ حمزة والكسائى : « سرجا » بالجمع ، أى النجوم العظام الوقادة ، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد . قال الزجاج : فى تأويل قراءة حمزة والكسائى أراد الشمس والكواكب ﴿ **وقمرا منيرا** ﴾ أى ينير الأرض إذا طلع ، وقرأ الأعمش :« قمرا » بضم القاف وإسكان الميم ،وهى قراءة ضعيفة شاذة. ﴿ **وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة** ﴾ قال أبو عبيدة: الخلفة: كل شىء بعد شىء ، الليل خلفة للنهار ، والنهار خلفة لليل ؛ لأن أحدهما يخلف الآخر ويأتى بعده ؛ ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول فى الصيف ، ومنه قول زهير بن أبى سلمى :

بها العين والآرام يمشين خلفة ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

قال الفراء فى تفسير الآية : يقول : يذهب هذا ويجىء هذا ، وقال مجاهد : خلفة من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود . وقيل : يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أى جعل الليل والنهار ذوى خلفة ، أى اختلاف ﴿ **لمن أراد أن يذكر** ﴾ قرأ حمزة مخففا ، وقرأ الجمهور بالتشديد ، فالقراءة الأولى من الذكر لله، والقراءة الثانية من التذكر له . وقرأ أبى بن كعب : « يتذكر » ومعنى الآية : أن المتذكر المعتبر إذا نظر فى اختلاف الليل والنهار علم أنه لابد فى انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ﴿ **أو أراد شكورا** ﴾ أى أراد أن يشكر الله على ما أودعه فى الليل والنهار من النعم العظيمة والألطاف الكثيرة .قال الفراء :ويذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد .قال الله تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ [الأعراف : ١٧١] وفى حرف عبد الله :« ويذكروا ما فيه » .

﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحى عباد الله سبحانه ، و﴿ **عباد الرحمن** ﴾ مبتدأ وخبره الموصول مع صلته . والهون مصدر ، وهو السكينة والوقار . وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بـ ﴿ **يمشون** ﴾ أى يمشون على الأرض مشيا هونا . قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشى هونا مناسبة لمشيه ، وأما أن يكون المراد : صفة المشى وحده فباطل ؛ لأنه رُبَّ ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس ، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ فى مشيه كأنما يمشى فى صبب [(١)] . ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل

(١) أحمد ١/٩٦ والترمذى فى المناقب (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، كلاهما عن على بن أبى طالب .

والسفه فلا يجهلون مع من يجهل ولا يسافهون أهل السفه . قال النحاس : ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم تقول العرب : سلاما ، أى تسلما منك ، أى براءة منك ، منصوب على أحد أمرين : إما على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى قالوا سلمنا سلاما ، وهذا على قول سيبويه ، أو على أنه مفعول به ، أى قالوا هذا اللفظ ، ورجحه ابن عطية . وقال مجاهد : ﴿**معنى سلاما**﴾ : سدادا ، أى يقول للجاهل كلاما يدفعه به برفق ولين . قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على قوله : تسليما منكم ولا خير ولا شر بيننا وبينكم . قال المبرد : كان ينبغى أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ، ثم أمروا بحربهم . وقال محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه فى هذا وأساء العبارة . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما فى معنى الناسخ والمنسوخ إلا فى هذه الآية ، لأنه قال فى آخر كلامه فنسختها آية السيف . وأقول : هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم فى غير علمه ومشى فى غير طريقته ، ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين ولا نهوا عنه ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ . قال النضر بن شميل : حدثنى الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابى ، وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا: استووا ، فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابى إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل : هو من قول الله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [البقرة : ٢٩] قال : فصعدنا إليه فقال : هل لكم فى خبز فطير ولبن هجير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاما ، فلم ندر ما قال ، فقال الأعرابى : إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر . قال الخليل : هو من قول الله : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ .

﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ البيتوتة : هى أن يدركك الليل نمت أو لم تنم . قال الزجاج : من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ، كما يقال : بات فلان قلقا ، والمعنى: يبيتون لربهم سجدا على وجوههم ، وقياما على أقدامهم ، ومنه قول امرئ القيس :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا   يزاولنا عن نفسه ونزاوله

﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ أى هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابه ، والغرام : اللازم الدائم ، ومنه سمى الغريم لملازمته ، ويقال : فلان مغرم بكذا ، أى ملازم له مولع به ، هذا معناه فى كلام العرب ، كما ذكره ابن الأعرابى وابن عرفة وغيرهما ، ومنه قول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما   وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال الزجاج : الغرام : أشد العذاب . وقال أبو عبيدة : هو الهلاك . وقال ابن زيد : الشر ، وجملة : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ تعليل لما قبلها ، والمخصوص محذوف ، أى هى ، وانتصاب ﴿ **مستقرا** ﴾ على الحال أو التمييز ، وكذا ﴿ **مقاما** ﴾ . قيل : هما مترادفان ،

وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما . وقيل : بل هما مختلفان معنى : فالمستقر للعصاة فإنهم يخرجون ، والمقام للكفار فإنهم يخلدون ، وساءت من أفعال الذم كبئست ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم .

ثم وصفهم سبحانه بالتوسط فى الإنفاق فقال :﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾ قرأ حمزة والكسائى والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب : ﴿ **يقتروا** ﴾ بفتح التحتية وضم الفوقية ، من قتر يقتر ، كقعد يقعد ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح التحتية وكسر التاء الفوقية . وهى لغة معروفة حسنة ، وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم التحتية وكسر الفوقية . قال أبو عبيدة : يقال : قتر الرجل على عياله يقتر قترا ، وأقتر يقتر إقتارا ، ومعنى الجميع : التضييق فى الإنفاق . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معنى الآية : أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله فهو القوام . وقال إبراهيم النخعى : هو الذى لا يجيع ولا يعرى ، ولا ينفق نفقة ، يقول الناس : قد أسرف . وقال يزيد بن أبى حبيب : أولئك أصحاب محمد كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة الله ،ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد. وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ، ولم يبخلوا كقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ [الإسراء : ٢٩] قرأ حسان بن عبد الرحمن : « وكان بين ذلك قواما » بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها. فقيل : هما بمعنى . وقيل : القوام بالكسر : ما يدوم عليه الشىء ويستقر ، وبالفتح : العدل والاستقامة ، قاله ثعلب . وقيل : بالفتح : العدل بين الشيئين ، وبالكسر: ما يقام به الشىء لا يفضل عنه ولا ينقص . وقيل : بالكسر : السداد والمبلغ ، واسم كان مقدر فيها ، أى كان إنفاقهم بين ذلك قواما وخبرها ﴿ **قواما** ﴾ ، قاله الفراء . وروى عن الفراء قول آخر ، وهو أن اسم كان ﴿ **بين ذلك** ﴾ ، وتبنى بين على الفتح لأنها من الظروف المفتوحة . وقال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا ؛ لأن بين إذا كانت فى موضع رفع رفعت .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وكان الكافر على ربه ظهيرا**﴾ يعنى أبا الحكم الذى سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر** ﴾ قال : قل لهم يا محمد : لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر ، يقول : عرض من عرض الدنيا . وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا** ﴾ قال : هى هذه الاثنا عشر برجا : أولها : الحمل ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ،

---

(١) ابن جرير ١٩ / ٨ .

ثم العقرب، ثم القوس ، ثم الجدى ، ثم الدلو ،ثم الحوت. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ **وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة** ﴾ قال : أبيض وأسود . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، ومن النهار أدركه بالليل. وأخرج الطيالسى وابن أبى حاتم عن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ، فقال: إنه بقى على من وردى شيء فأحببت أن أتمه، أو قال أقضيه ، وتلا هذه الآية :﴿ **وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة** ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وعباد الرحمن** ﴾ قال : هم المؤمنون ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ قال : بالطاعة والعفاف والتواضع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **هونا** ﴾ : علما وحلما . وأخرج عبد ابن حميد عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **إن عذابها كان غراما** ﴾ قال : «الدائم ». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا** ﴾ قال : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا فى معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾.

قوله : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ : لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع فى بيان اجتنابهم للمعاصى فقال: والذين لا يدعون مع الله سبحانه ربا من الأرباب . والمعنى: لا يشركون به شيئا ، بل يوحدونه ويخلصون له العبادة والدعوة ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله** ﴾ أى حرم قتلها ﴿ **إلا بالحق** ﴾ أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أوزنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ **ولا يزنون** ﴾ أى يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح، ولا ملك يمين ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ أى شيئا مما ذكر ﴿ **يلق** ﴾ فى الآخرة ﴿ **أثاما** ﴾ والأثام فى كلام العرب: العقاب . قال الفراء : آثمه الله يؤثمه أثاما وآثاما ، أى جازاه جزاء

الإثم . وقال عكرمة ومجاهد : إن أثاما: واد فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة. وقال السدى : جبل فيها. وقرئ : « يلق» بضم الياء وتشديد القاف . قال أبو مسلم : والأثام والإثم واحد ، والمراد هنا : جزاء الآثام فأطلق اسم الشيء على جزائه . وقرأ الحسن : « يلق أياما » ، جمع يوم ، يعنى : شدائد ، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام ، وما أظن هذه القراءة تصح عنه.

﴿ **يضاعف له العذاب** ﴾ : قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى : « يضاعف ، ويخلد » بالجزم ، وقرأ ابن كثير: «يضعف » بتشديد العين وطرح الألف والجزم ، وقرأ طلحة بن سليمان : « نضعف » بضم النون وكسر العين المشددة والجزم، وهى قراءة أبى جعفر وشيبة . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بالرفع فى الفعلين على الاستئناف . وقرأ طلحة بن سليمان : «وتخلد » بالفوقية خطابا للكافر . وروى عن أبى عمرو أنه قرأ : «ويخلد» بضم الياء التحتية وفتح اللام . قال أبو على الفارسى : وهى غلط من جهة الرواية ، ووجه الجزم فى يضاعف أنه بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى ، ومثله قول الشاعر :

إن علـى اللــه أن تبايـــعا تؤخذ كـرها أو تجـيء طائـعا

والضمير فى قوله : ﴿ **ويخلد فيه** ﴾ راجع إلى العذاب المضاعف ، أى يخلد فى العذاب المضاعف ﴿ **مهانا** ﴾ ذليلا حقيرا . ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا** ﴾ قيل : هـو استثنـاء متصل . وقيل : منقطـع . قـال أبو حيان : لا يظهر الاتصال لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب ، فيصير التقدير : إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف . قال : والأولى عندى أن يكون منقطعا ، أى لكن من تاب . قال القرطبى : لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام فى الكافر والزانى [(١)] . واختلفوا فى القاتل من المسلمين . وقد تقدم بيانه فى النساء والمائدة . والإشارة بقوله: ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ إلى المذكورين سابقا ، ومعنى تبديل السيئات حسنات : أنه يمحو عنهم المعاصى ويثبت لهم مكانها طاعات . قال النحاس : من أحسن ما قيل فى ذلك : أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاص مطيع . قال الحسن : قوم يقولون : التبديل فى الآخرة ، وليس كذلك إنما التبديل فى الدنيا ، يبدل الله لهم إيمانا مكان الشرك ، وإخلاصا من الشك ، وإحصانا من الفجور. قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة . وقيل : إن السيئات تبدل بحسنات ، وبه قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ، أى يغفر الله لهم تلك السيئات ، لا أن يبدلها حسنات . وقيل : المراد بالتبديل :أن يوفقه لأضداد ما سلف منه ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من التبديل .

﴿ **ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾ أى من تاب عما اقترف وعمل عملا

---

(١) القرطبى ٧ / ٤٧٩٣ .

صالحا بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى الله متابا ، أى يرجع إليه رجوعا صحيحا قويا . قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال :﴿ **إلا من تاب وآمن** ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا ، فله حكم التائبين أيضا. وقيل : أى من تاب بلسانه ولم يحقق التوبة بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة ، فهو الذى تاب إلى الله متابا ، أى تاب حق التوبة ، وهى النصوح ، ولذلك أكد بالمصدر ، ومعنى الآية : من أراد التوبة وعزم عليها فليتب إلى الله ، فالخبر فى معنى الأمر ، كذا قيل لئلا يتحد الشرط والجزاء ، فإنه لا يقال : من تاب فإنه يتوب .

ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ أى لا يشهدون الشهادة الكاذبة ، أو لا يحضرون الزور . والزور هو : الكذب والباطل ولا يشاهدونه ، وإلى الثانى ذهب جمهور المفسرين . قال الزجاج : الزور فى اللغة : الكذب ولا كذب فوق الشرك بالله . قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا بمعنى الشرك . والحاصل أن ﴿ **يشهدون** ﴾ إن كان من الشهادة ففى الكلام مضاف محذوف ، أى لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان من الشهود والحضور كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا فى معناه ، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقال محمد بن الحنفية : لا يحضرون اللهو والغناء . وقال ابن جريج : الكذب . وروى عن مجاهد أيضا ، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور ، بل المراد : الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنا ما كان ﴿**وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ أى معرضين عنه غير ملتفتين إليه . واللغو: كل ساقط من قول أو فعل . قال الحسن : اللغو : المعاصى كلها ، وقيل : المراد : مروا بذوى اللغو ، يقال: فلان يكرم عما يشينه ، أى يتنزه ويكرم نفسه عن الدخول فى اللغو والاختلاط بأهله .

﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم** ﴾ أى بالقرآن ، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿ **لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ أى لم يقعوا عليها حال كونهم صما وعميانا ، ولكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين وانتفعوا بها . قال ابن قتيبة : المعنى : لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها ، وعمى لم يبصروها. قال ابن جرير: ليس ثم خرور ، بل كما يقال : قعد يبكى ، وإن كان غير قاعد . قال ابن عطية : كأن المستمع للذكر قائم ، فإذا أعرض عنه كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام. قيل: المعنى: إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم ، فخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صما وعميانا . قال الفراء : أى لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .قال فى الكشاف : ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له ونفى للصمم والعمى ، وأراد أن النفى متوجه إلى القيد لا إلى المقيد .

﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ من ابتدائية ، أو بيانية . قرأ نافع وابن كثير وابن عباس والحسن : ﴿ **وذرياتنا** ﴾ بالجمع ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى

وطلحة وعيسى: « وذريتنا » بالإفراد. والذرية تقع على الجمع ، كما فى قوله :﴿ ذرية ضعافا ﴾ [النساء:٩] وتقع على الفرد كما فى قوله: ﴿ ذرية طيبة ﴾ [آل عمران:٣٨] وانتصاب ﴿ **قرة أعين** ﴾ على المفعولية ، يقال : قرت عينه قرة . قال الزجاج: يقال : أقر الله عينك ، أى صادف فؤادك ما يحبه . وقال المفضل : فى قرة العين ثلاثة أقوال : أحدها : برد دمعها ؛ لأنه دليل السرور والضحك كما أن حره دليل الحزن والغم . والثانى : نومها ؛ لأنه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن . والثالث : حصول الرضا ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير ، وإنما قال : ﴿**إماما** ﴾ ، ولم يقل : أئمة ؛ لأنه أريد به الجنس ، كقوله :﴿ ثم نخرجكم طفلا ﴾ [الحج: ٥] قال الفراء: قال ﴿ **إماما** ﴾ ولم يقل : أئمة ؛ كما قال للاثنين: ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ [الشعراء : ١٦] يعنى : أنه من الواحد الذى أريد به الجمع . وقال الأخفش : الإمام جمع أم من أم يأم ، جمع على فعال ،نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام . وقيل : إن إماما مصدر ، يقال : أم فلان فلانا إماما ، مثل الصيام والقيام . وقيل : أرادوا : اجعل كل واحد منا إماما . وقيل : أرادوا : اجعلنا إماما واحدا لاتحاد كلمتنا ، وقيل: إنه من الكلام المقلوب ، وأن المعنى : واجعل المتقين لنا إماما ، وبه قال مجاهد . وقيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد ، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء : واجعلنى للمتقين إماما ، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله : ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ [المؤمنون : ٥١] وفى هذا إبقاء ﴿ **إماما** ﴾ على حاله، مثل ما فى الآية قول الشاعر :

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتى   إن العواذل لسن لى بأمين

أى أمناء . قال القفال : وعندى : أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل : اجعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة يقال : هؤلاء بينة فلان . قال النيسابورى : قيل : فى الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ويرغب فيها ، والأقرب أنهم سألوا الله أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار إليهم ويقتدى بهم . والإشارة بقوله :﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفات ،وهو مبتدأ وخبره ما بعده ، والجمل مستأنفة . وقيل : إن ﴿ **أولئك** ﴾ وما بعده خبر لقوله :﴿ **وعباد الرحمن** ﴾ كذا قال الزجاج ، والغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها ، وهى فى الأصل لكل بناء مرتفع ، والجمع غرف . وقال الضحاك : الغرفة : الجنة ، والباء فى ﴿ **بما صبروا** ﴾ سببية ، وما مصدرية ، أى يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف ﴿ **ويلقون فيها تحية وسلاما** ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « يلقون » بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، واختار هذه القراءة الفراء ، قال : لأن العرب تقول : فلان يلقى بالسلام والتحية والخير ، وقل ما يقولون : يلقى . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ [الإنسان :

١١] والمعنى : أنه يحيى بعضهم بعضا ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام . قيل : التحية : البقاء الدائم والملك العظيم . وقيل : هى بمعنى السلام . وقيل : إن الملائكة تحييهم وتسلم عليهم ، والظاهر أن هذه التحية والسلام هى من الله سبحانه لهم ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقيل: معنى التحية : الدعاء لهم بطول الحياة. ومعنى السلام : الدعاء لهم بالسلامة من الآفات ، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، أى مقيمين فيها من غير موت ﴿ **حسنت مستقرا ومقاما** ﴾ أى حسنت الغرفة مستقرا يستقرون فيه ، ومقاما يقيمون به ، وهذا فى مقابل ما تقدم من قوله : ﴿ **ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ .

﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم** ﴾ بين سبحانه أنه غنى عن طاعة الكل ، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف . يقال: ما عبأت بفلان ، أى ما باليت به ولا له عندى قدر . وأصل يعبأ من العبء ، وهو الثقل. قال الخليل: ما أعبأ بفلان ، أى ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ، ويدعى أن وجوده وعدمه سواء ، وكذا قال أبو عبيدة . قال الزجاج : ﴿ **ما يعبأ بكم ربى** ﴾ يريد : أى وزن يكون لكم عنده ؟ والعبء : الثقل ، وما استفهامية أو نافية ، وصرح الفراء بأنها استفهامية . قال ابن الشجرى : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب، والتقدير : أى عبء يعبأ بكم ؟ أى أى مبالاة يبالى بكم ؟ ﴿ **لولا دعاؤكم** ﴾ أى لولا دعاؤكم إياه لتعبدوه ، وعلى هذا فالمصدر الذى هو الدعاء مضاف إلى مفعوله ، وهو اختيار الفراء ، وفاعله محذوف ، وجواب لولا محذوف ، تقديره : لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم ، ويؤيد هذا قوله : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] والخطاب لجميع الناس ، ثم خص الكفار منهم فقال: ﴿ **فقد كذبتم** ﴾ وقرأ ابن الزبير : « فقد كذب الكافرون » وفى هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس . وقيل : إن المصدر مضاف إلى الفاعل ، أى لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد . وقيل : المعنى : ما يعبأ بكم أى بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه . وحكى ابن جنى أن ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير . وحكى الزهراوى والنحاس أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما ، وممن قال بأن الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبى والفارسى ، قالا: والأصل : لولا دعاؤكم آلهة من دونه ، وجواب لولا محذوف تقديره على هذا الوجه : لولا دعاؤكم لم يعذبكم ، ويكون معنى ﴿ **فقد كذبتم** ﴾ على الوجه الأول: فقد كذبتم بما دعيتم إليه ، وعلى الوجه الثانى : فقد كذبتم بالتوحيد . ثم قال سبحانه : ﴿ **فسوف يكون لزاما** ﴾ أى فسوف يكون جزاء التكذيب لازما لكم. وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا: ما لزم المشركين يوم بدر ، وقالت طائفة : هو عذاب الآخرة . قال أبو عبيدة : لزاما : فيصلا ، أى فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين . قال الزجاج : فسوف يكون تكذيبكم لزاما يلزمكم فلا تعطون التوبة ، وجمهور القراء على كسر اللام من لزاما ، وأنشد أبو عبيدة لصخر :

فإمـا ينجوا مـن خسـف أرض فقـد لقيا حتوفهمـا لـزامـا

قال ابن جرير : ﴿ **لزاما** ﴾ : عذابا دائما وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض ، كقول أبى ذؤيب :

ففاجأه بعادية لزام ... كما يتفجر الحوض اللفيف

يعنى باللزام : الذى يتبع بعضه بعضا ، وباللفيف : المتساقط من الحجارة المنهدمة . وحكى أبو حاتم عن أبى زيد قال: سمعت أبا السماك يقرأ : « لزاما » بفتح اللام . قال أبو جعفر يكون مصدر لزم ، والكسر أولى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ (١) . وأخرجا وغيرهما أيضا عن ابن عباس ؛ أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ **والذين لا يدعون** ﴾ الآية ، ونزلت : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] (٢). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو فى قوله : ﴿ **يلق أثاما** ﴾ قال : واد فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ،اشتد ذلك على المسلمين ، فقالوا : ما منا أحد إلا أشرك وقتل وزنى ، فأنزل الله : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية ، يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا فى الشرك، ثم نزلت هذه الآية : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ فأبدلهم الله بالكفر الإسلام ، وبالمعصية الطاعة ، وبالإنكار المعرفة ، وبالجهالة العلم . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين : ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما** ﴾ ثم نزلت : ﴿ **إلا من تاب وآمن** ﴾ فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشىء قط فرحه بها، وفرحه بـ ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ (٣) [الفتح : ١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان

---

(١) أحمد ١/ ٣٨٠ والبخارى فى التفسير (٤٧٦١) ومسلم فى الإيمان (٨٦/ ١٤٢) وأبو داود فى الطلاق (٢٣١٠) والترمذى فى التفسير (٣١٨٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٧/ ٨٩، ٩٠ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨١٠) ومسلم فى الإيمان (١٢٢/ ١٩٣) والنسائى فى التفسير (٤٦٩) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧ : « رواه الطبرانى وفيه على بن زيد ، ويوسف بن مهران وقد وثقا ، وفيهما ضعف ، وبقية رجاله ثقات »

السيئات الحسنات . وأخرج أحمد وهناد والترمذى وابن جرير والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا ، وهو يقر ، ليس ينكر ، وهو مشفق من الكبائر أن تجىء ، فيقال : أعطوه بكل سيئة عملها حسنة»(١). والأحاديث فى تكفير السيئات وتبديلها بالحسنات كثيرة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ قال : إن الزور كان صنما بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مروا به مروا كراما لا ينظرون إليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ قال : يعنون من يعمل بالطاعة فتقر به أعيننا فى الدنيا والآخرة ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ قال : أئمة هدى يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة ؛ لأنه قال لأهل السعادة : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء : ٧٣] ولأهل الشقاوة : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص : ٤١] .

وأخرج الحكيم الترمذى عن سهل بن سعد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة** ﴾ قال : الغرفة من ياقوتة حمراء ، أو زبرجدة خضراء ، أو درة بيضاء . ليس فيها فصم ولا وصم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم** ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، فأخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ﴿ **فسوف يكون لزاما** ﴾ قال : موتا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى عنه أنه كان يقرأ : « فقد كذب الكافرون ، فسوف يكون لزاما » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه [عن ابن مسعود] (٢) فى قوله : ﴿ **فسوف يكون لزاما** ﴾ قال: القتل يوم بدر ، وفى الصحيحين عنه قال : خمس قد مضين : الدخان والقمر واللزوم والبطشة واللزام (٣) .

---

(١) أحمد ٥/ ١٥٧ ومسلم فى الإيمان (١٩٠/ ٣١٤) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ١٩/ ٣٠.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من الدر المنثور ٥/ ٨٢ وابن جرير ١٩/ ٣٦ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٧٦٧) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨/ ٤١) .

تفسير سورة الشعراء

وآياتها مائتان وسبع وعشرون آية . وهى مكية عند الجمهور . وكذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : سورة الشعراء أنزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة، وهى ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ إلى آخرها . وأخرج القرطبى فى تفسيره عن البراء أن النبى ﷺ قال :« إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطانى المئين مكان الإنجيل ، وأعطانى الطواسين مكان الزبور ، وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى » (١) . وأخرج أيضا عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : «أعطيت السورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الأول ، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة » (٢) . قال ابن كثير فى تفسيره: ووقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها بسورة الجمعة (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾.

(١ ، ٢) القرطبى ٧ / ٤٨٠٣ .

(٣) ابن كثير ٥ / ١٧٥ .

قوله : ﴿ **طسم** ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائى وخلف بإمالة الطاء . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهرى بين اللفظين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقون بالفتح مشبعا . وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائى بإدغام النون من « طسن » فى الميم ، وقرأ الأعمش وحمزة بإظهارها . قال الثعلبى : الإدغام اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . قال النحاس : وحكى الزجاج فى كتابه: « فيما يجرى وما لا يجرى » أنه يجوز أن يقال : « طاسين ميم » بفتح النون وضم الميم كما يقال : هذا معدى كرب. وقرأ عيسى ويروى عن نافع بكسر الميم على البناء . وفى مصحف عبد الله بن مسعود : « ط س م » هكذا حروفا مقطعة فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر . ومحله الرفع على الابتداء إن كان اسما للسورة كما ذهب إليه الأكثر أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون فى محل نصب بتقدير : اذكر أو اقرأ . وأما إذا كان مسرودا على نمط التعديد كما تقدّم فى غير موضع من هذا التفسير فلا محلّ له من الإعراب . وقد قيل : إنه اسم من أسماء الله سبحانه ، وقيل : اسم من أسماء القرآن . والإشارة بقوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ إلى السورة ، ومحلها الرفع على أنها وما بعدها خبر للمبتدأ إن جعلنا ﴿ **طسم** ﴾ مبتدأ ، وإن جعلناه خبرا لمبتدأ محذوف فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ﴿ **طسم** ﴾ والمراد بالكتاب هنا : القرآن. والمبين : المبين المظهر ، أو البين الظاهر إن كان من أبان بمعنى بان .

﴿ **لعلك باخع نفسك** ﴾ أى قاتل نفسك ومهلكها ﴿ **أن لا يكونوا مؤمنين** ﴾ أى لعدم إيمانهم بما جئت به ، والبخع فى الأصل : أن يبلغ بالذبح النخاع بالنون : قاموس ، وهو عرق فى القفا ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة الكهف، وقرأ قتادة : « باخع نفسك » بالإضافة . قرأ الباقون بالقطع . قال الفراء : « أن » فى قوله : ﴿ **أن لا يكونوا مؤمنين** ﴾ فى موضع نصب لأنها جزاء . قال النحاس : وإنما يقال : « إن » مكسورة لأنها جزء هكذا التعارف والقول فى هذا ما قاله الزجاج فى كتابه فى القرآن : إنها فى موضع نصب مفعول لأجله ، والمعنى : لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ لأنه كان حريصا على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم . وجملة : ﴿ **إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية** ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية ، والمعنى : إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان ، ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك ، ومعنى ﴿ **فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ : أنهم صاروا منقادين لها، أى فتظلّ أعناقهم إلخ . قيل : وأصله : فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير ؛ لأن الأعناق موضع الخضوع . وقيل : إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ووصفت بما يوصفون به . قال عيسى ابن عمر : خاضعين وخاضعة هنا سواء ،واختاره المبرد ، والمعنى: أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا ، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها ، ويسوغ فى كلام العرب أن يترك الخبر عن الأوّل

ويخبر عن الثانى ، ومنه قول الراجز :

طول الليالى أسرعت فى نقضى   طوين طولى وطوين عرضى

فأخبر عن الليالى وترك الطول ، ومنه قول جرير :

أرى مـرّ السنين أخـذن منـى   كما أخذ السرار من الهـلال

وقال أبو عبيد والكسائى : إن المعنى : خاضعيها هم ، وضعفه النحاس . وقال مجاهد : أعناقهم : كبراؤهم . قال النحاس : وهذا معروف فى اللغة ، يقال : جاءنى عنق من الناس ، أى رؤساء منهم . وقال أبو زيد والأخفش : أعناقهم : جماعاتهم ، يقال : جاءنى عنق من الناس ، أى جماعة .

﴿ **وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين** ﴾ بين سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان، يأتيهم بالقرآن حالا بعد حال ، وأن لا يجدّد لهم موعظة وتذكيرا إلا جددوا ما هو نقيض المقصود ، وهو الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، و«من» فى : ﴿ **من ذكر** ﴾ مزيدة لتأكيد العموم ، و« من » فى ﴿ **من ربهم** ﴾ لابتداء الغاية ، والاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم ، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة الأنبياء ﴿ **فقد كذّبوا** ﴾ أى بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا ولم يكتفوا بمجرّد الإعراض . وقيل : إن الإعراض بمعنى : التكذيب ؛ لأن من أعرض عن شىء ولم يقبله فقد كذّبه ، وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح ، والأوّل أولى ، فالإعراض عن الشىء : عدم الالتفات إليه . ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه ، وهو التصريح بالتكذيب ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه ، وهو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله : ﴿ **فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون** ﴾ والأنباء هى : ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلا . وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن ، وقال : ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ ولم يقل : ما كانوا عنه معرضين ، أو ما كانوا به يكذّبون ؛ لأن الاستهزاء أشدّ منهما ومستلزم لهما ، وفى هذا وعيد شديد ، وقد مرّ تفسير مثل هذا فى سورة الأنعام .

ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية التى يحصل بها للمتأمل فيها والناظر إليها والمستدلّ بها أعظم دليل وأوضح برهان ، فقال : ﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم** ﴾ الهمزة للتوبيخ ، والواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره ، فنبه سبحانه على عظمته وقدرته ، وأن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذى يستحق أن يعبد ، والمراد بالزوج هنا: الصنف . وقال الفراء : هو اللون . وقال الزجاج : معنى زوج : نوع ، وكريم : محمود ، والمعنى : من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلا ربّ العالمين ، والكريم فى الأصل : الحسن الشريف ، يقال : نخلة كريمة أى كثيرة

الثمرة ، ورجل كريم : شريف فاضل ، وكتاب كريم : إذا كان مرضيا فى معانيه ، والنبات الكريم : هو المرضى فى منافعه . قال الشعبى : الناس مثل نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار منهم إلى النار فهو لئيم ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ إلى المذكور قبله ، أى إن فيما ذكر من الإنبات فى الأرض لدلالة بينة ، وعلامة واضحة على كمال قدرة اللّه سبحانه ، وبديع صنعته ، ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده وتكذيبه واستهزائه فقال : ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أى سبق علمى فيهم أنهم سيكونون هكذا . وقال سيبويه : إن ﴿ **كان** ﴾ هنا صلة ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع كونه كثير الرحمة ، ولذلك أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ، أو المعنى : أنه منتقم من أعدائه ، رحيم بأوليائه .

وجملة :﴿ **وإذ نادى ربك موسى** ﴾ إلخ مستأنفة مسوقة لتقريرما قبلها من الإعراض والتكذيب والاستهزاء، والعامل فى الظرف محذوف تقديره : واتل إذ نادى أو اذكر ، والنداء : الدعاء ، و« أن » فى قوله : ﴿ **أن ائت القوم الظالمين** ﴾ يجوز أن تكون مفسرة ، وأن تكون مصدرية ، ووصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر الذى ظلموا به أنفسهم وبين المعاصى التى ظلموا بها غيرهم كاستعباد بنى إسرائيل ، وذبح أبنائهم . وانتصاب ﴿ **قوم فرعون** ﴾ على أنه بدل ، أو عطف بيان من القوم الظالمين ، ومعنى ﴿ **ألا يتقون** ﴾ : ألا يخافون عقاب اللّه سبحانه فيصرفون عن أنفسهم عقوبة اللّه بطاعته . وقيل : المعنى : قل لهم ألا تتقون ؟ وجاء بالياء التحتية لأنهم غيب وقت الخطاب ، وقرأ عبيد بن عمير وأبو حازم: « ألا تتقون » بالفوقية أى قل لهم ذلك ، ومثله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : ١٢] بالتحتية والفوقية.

﴿ **قال ربّ إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ أى قال موسى هذه المقالة ، والمعنى : أخاف أن يكذبونى فى الرسالة ﴿**ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى** ﴾ معطوفان على ﴿ **أخاف** ﴾ أى يضيق صدرى لتكذيبهم إياى ، ولا ينطلق لسانى بتأدية الرسالة ، قرأ الجمهور برفع ﴿ **يضيق** ﴾ ، ﴿**لا ينطلق** ﴾ بالعطف على ﴿ **أخاف** ﴾ كما ذكرنا ، أو على الاستئناف، وقرأ يعقوب وعيسى ابن عمر وأبو حيوة بنصبهما عطفا على ﴿ **يكذبون** ﴾ . قال الفراء : كلا القراءتين له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على ﴿ **يكذبون** ﴾ وهذا بعيد ﴿ **فأرسل إلى هارون** ﴾ أى أرسل إليه جبريل بالوحى ليكون معى رسولا موازرا مظاهرا معاونا ، ولم يذكر الموازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا الموضع ، كقوله فى طه: ﴿ واجعل لى وزيرا ﴾ [طه: ٢٩] وفى القصص: ﴿ أرسله معى ردءا يصدقنى ﴾ [القصص : ٣٤] ، وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه ، لا من باب الاستعفاء من الرسالة ، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال. ﴿ **ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون** ﴾ الذنب هو قتله للقبطى ، وسماه ذنبا بحسب زعمهم ، فخاف موسى أن يقتلوه به . وفيه دليل على أن الخوف

قد يحصل مع الأنبياء فضلا عن الفضلاء .

ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع وطرف من الزجر ﴿ **قال كلا فاذهبا بآياتنا**﴾ وفى ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال : ارتدع يا موسى عن ذلك واذهب أنت ومن استدعيته ولا تخف من القبط ﴿ **إنا معكم مستمعون** ﴾ وفى هذا تعليل للردع عن الخوف ، وهو كقوله سبحانه : ﴿إننى معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٦] وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وأنه متولّ لحفظهما وكلاءتهما وأجراهما مجرى الجمع ، فقال : ﴿ **معكم** ﴾ لكون الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة ، أو لكونه أراد موسى وهارون ومن أرسلا إليه ، ويجوز أن يكون المراد : هما مع بنى إسرائيل ، و﴿ **معكم** ﴾ و﴿ **مستمعون** ﴾ خبران لأنّ ، أو الخبر﴿ **مستمعون** ﴾ ، و﴿ **معكم** ﴾ متعلق به ،ولا يخفى ما فى المعية من المجاز ؛ لأن المصاحبة من صفات الأجسام ، فالمراد : معية النصرة والمعونة ﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ووحد الرسول هنا ولم يثنه كما فى قوله : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ [طه:٤٧] لأنه مصدر بمعنى رسالة ، والمصدر يوحد ، وأما إذا كان بمعنى المرسل فإنه يثنى مع المثنى ويجمع مع الجمع . قال أبو عبيدة: رسول بمعنى : رسالة ، والتقدير على هذا : إنا ذوا رسالة ربّ العالمين ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ أبا عمرو رسولا بأنى عن فتاحتكم غنى

أى رسالة . وقال العباس بن مرداس :

ألا من مبلغ عنى خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها

أى رسالة . قال أبو عبيدة أيضا : ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع ، تقول العرب : هذا رسولى ووكيلى ، وهذان رسولى ووكيلى ، وهؤلاء رسولى ووكيلى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنهم عدوّ لى ﴾ [الشعراء : ٧٧] وقيل : معناه : إن كل واحد منا رسول ربّ العالمين ، وقيل : إنهما لما كانا متعاضدين متساندين فى الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد ، و«أن » فى قوله : ﴿ **أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول ، معنى القول ﴿ **قال ألم نربك فينا وليدا** ﴾ أى قال فرعون لموسى بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما اللّه به ، ومعنى ﴿ **فينا** ﴾ : أى فى حجرنا ومنازلنا، أراد بذلك المنّ عليه والاحتقار له أى ربيناك لدينا صغيرا ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال .﴿ **ولبثت فينا من عمرك سنين** ﴾ فمتى كان هذا الذى تدّعيه ؟ قيل : لبث فيهم ثمانى عشرة سنة . وقيل : ثلاثين سنة . وقيل : أربعين سنة . ثم قرّره (١) بقتل القبطى فقال :﴿ **وفعلت فعلتك التى فعلت** ﴾ الفعلة بفتح الفاء :

---

(١) فى المخطوطة : « قرر » والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ٧ / ٤٨١٠ . ط : دار الشعب .

المرّة من الفعل ، وقرأ الشعبى : « فِعلتك » بكسر الفاء ، والفتح أولى ؛ لأنها للمرّة الواحدة لا للنوع ، والمعنى : أنه لما عدّد عليه النعم ذكر له ذنوبه، وأراد بالفعل : قتل القبطى ، ثم قال :﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أى من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلا من أصحابى. وقيل : المعنى : من الكافرين بأن فرعون إله ، وقيل : من الكافرين بالله فى زعمه لأنه كان معهم على دينهم ، والجملة فى محل نصب على الحال .

﴿ **قال فعلتها إذن وأنا من الضالين** ﴾ أى قال موسى مجيبا لفرعون : فعلت هذه الفعلة التى ذكرت ، وهى قتل القبطى وأنا إذ ذاك من الضالين ، أى الجاهلين ، فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذى علمه الله . وقيل : المعنى : من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل . وقال أبو عبيدة : من الناسين ﴿ **ففررت منكم لما خفتكم** ﴾ أى خرجت من بينكم إلى مدين كما فى سورة القصص ﴿ **فوهب لى ربى حكما** ﴾ أى نبوّة أو علما وفهما. وقال الزّجاج : المراد بالحكم :تعليمه التوراة التى فيها حكم الله ﴿ **وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل** ﴾ قيل : هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة كأنه قال : نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها علىّ ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى ، وبهذا قال الفراء وابن جرير . وقيل : هو من موسى على جهة الإنكار ، أى أتمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم وهم قومى ؟ قال الزجاج : المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار بأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى ، واللفظ لفظ خبر ، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى : أنك لو كنت لا تقتل أبناء بنى إسرائيل لكانت أمى مستغنية عن قذفى فى اليم ، فكأنك تمنّ علىّ ما كان بلاؤك سببا له ، وذكر نحوه الأزهرى بأبسط منه . وقال المبرد :يقول : التربية كانت بالسبب الذى ذكرت من التعبيد، أى تربيتك إياى كانت لأجل التملك والقهر لقومى. وقيل : إن فى الكلام تقدير الاستفهام ، أى أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش ، وأنكره النحاس . قال الفراء : ومن قال : إن الكلام إنكار ، قال معناه : أو تلك نعمة ؟ ومعنى ﴿ **أن عبدت بنى إسرائيل** ﴾ : أن اتخذتهم عبيدا، يقال : عبدته وأعبدته بمعنى. كذا قال الفراء ، ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة ، والجر بإضمار الباء ، والنصب بحذفها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ قال : ذليلين . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **ولهم علىّ ذنب** ﴾ قال : قتل النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين** ﴾ قال : للنعمة ، وإن فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر؟ وفى قوله : ﴿**فعلتها إذن وأنا من الضالين** ﴾ قال : من الجاهلين . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **أن عبدت بنى إسرائيل** ﴾ قال : قهرتهم واستعملتهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾.

لما سمع فرعون قول موسى وهارون : ﴿ **إنا رسول ربّ العالمين** ﴾ قال مستفسرا لهما عن ذلك عازما على الاعتراض لـما قالاه فقال : ﴿ **وما ربّ العالمين** ﴾ أى شىء هو ؟ جاء فى الاستفهام بما التى يستفهم بها عن المجهول ويطلب بها تعيين الجنس ، فلما قال فرعون ذلك ، قال موسى :﴿ **ربّ السموات والأرض وما بينهما** ﴾ فعين له ما أراد بالعالمين ، وترك جواب ما سأل عنه فرعون ؛ لأنه سأل عن جنس ربّ العالمين ولا جنس له ، فأجابه موسى بما يدلّ على عظيم القدرة الإلهية التى تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ ولا ربّ غيره ﴿ **إن كنتم موقنين** ﴾ أى إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان . ﴿ **قال** ﴾ فرعون ﴿ **لمن حوله ألا تستمعون** ﴾ أى لمن حوله من الأشراف ألا تستمعون ما قاله ؟ يعنى موسى معجبا لهم من ضعف المقالة كأنه قال : أتسمعون وتعجبون ؟ وهذا من اللعين مغالطة ، لما لم يجد جوابا عن

الحجة التى أوردها عليه موسى .

فلما سمع موسى ما قال فرعون ، أورد عليه حجة أخرى هى مندرجة تحت الحجة الأولى ولكنها أقرب إلى فهم السامعين له ، فقال : ﴿ **ربكم وربّ آبائكم الأوّلين** ﴾ فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا ربّ كما يدعيه ، والمعنى : أن هذا الربّ الذى أدعوكم إليه هو الذى خلق آباءكم الأوّلين وخلقكم ، فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلوق كخلقكم وله آباء قد فنوا كآبائكم ؟ فلم يجبه فرعون عند ذلك بشىء يعتدّ به ، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل إليهم أن هذا الذى قاله موسى مما لا يقوله العقلاء ، فقال : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ قاصدا بذلك المغالطة وإيقاعهم فى الحيرة ، مظهرا أنه مستخفّ بما قاله موسى مستهزئ به ، فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأوّل، فقال: ﴿ **ربّ المشرق والمغرب وما بينهما** ﴾ ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون ، بل بين لفرعون شمول ربوبية اللّه سبحانه للمشرق والمغرب وما بينهما وإن كان ذلك داخلا تحت ربوبيته سبحانه للسموات والأرض وما بينهما ، لكن فيه تصريح بإسناد حركات السموات وما فيها ، وتغيير أحوالها وأوضاعها ، تارة بالنور وتارة بالظلمة إلى اللّه سبحانه ، وتثنية الضمير فى : ﴿ **وما بينهما** ﴾ الأوّل لجنسى السموات والأرض كما فى قول الشاعر :

تنقلت فى أشرف التنقل   بين رماحى مالك ونهشل

﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ أى شيئا من الأشياء ، أو إن كنتم من أهل العقل ، أى إن كنت يا فرعون ومن معك من العقلاء عرفت وعرفوا أنه لاجواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك . ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب ، فقال: ﴿ **لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ أى لأجعلنك من أهل السجن ، وكان سجن فرعون أشدّ من القتل ؛ لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت ، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعا فى إجابته وإرخاء لعنان المناظرة معه، مريدا لقهره بالحجة المعتبرة فى باب النبوة ، وهى إظهار المعجزة، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة فقال : ﴿ **أو لو جئتك بشىء مبين** ﴾ أى أتجعلنى من المسجونين ولو جئتك بشىء يتبين به صدقى ويظهر عنده صحة دعواى ؟ والهمزة هنا للاستفهام ، والواو للعطف على مقدّر كما مرّ مرارا ، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى فقال : ﴿ **فأت به إن كنت من الصادقين** ﴾ فى دعواك ، وهذا الشرط جوابه محذوف ؛ لأنه قد تقدّم ما يدل عليه فعند ذلك أبرز موسى المعجزة .

﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى سورة الأعراف . واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فى الأرض فانثعب ، أى فجرته فانفجر ، وقد عبر سبحانه فى موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله : ﴿ فإذا هى حية تسعى ﴾ [طه : ٢٠] وفى موضع بالجانّ ، فقال : ﴿ كأنها جان ﴾ [النمل : ١٠] والجانّ هو المائل إلى الصغر. والثعبان هو المائل إلى الكبر ، والحية جنس يشمل الكبير والصغير . ومعنى ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ : ما رأيكم

فيه وما مشورتكم فى مثله ؟ فأظهر لهم الميل إلى مايقولونه تألفا لهم واستجلابا لمودّتهم ، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال ، وقارب ما كان يغرّر به عليهم الاضمحلال، وإلا فهو أكبر تيها وأعظم كبرا من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم وواحد منهم ، مع كونه قبل هذا الوقت يدّعى أنه إلههم ويذعنون له بذلك ويصدّقونه فى دعواه، ومعنى ﴿ **أرجه وأخاه** ﴾ : أخر أمرهما ، من أرجأته . وقيل : المعنى: احبسهما ﴿ **وابعث فى المدائن حاشرين** ﴾ وهم الشرط الذين يحشرون الناس ، أى يجمعونهم ﴿ **يأتوك بكل سحار عليم** ﴾ هذا ما أشاروا به عليه ، والمراد بالسحار العليم : الفائق فى معرفة السحر وصنعته .

﴿ **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم** ﴾ هو يوم الزينة كما فى قوله : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ [طه : ٥٩] ﴿ **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾ حثا لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وطلبا أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده ؛ لأنه يعلم أن حجة اللّه هى البالغة ، وحجة الكافرين هى الداحضة ، وفى ظهور حجة اللّه بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين ، والانقهار للمبطلين . ومعنى ﴿ **لعلنا نتبع السحرة** ﴾ : نتبعهم فى دينهم ﴿ **إن كانوا هم الغالبين** ﴾ والمراد باتباع السحرة فى دينهم هو : البقاء على ما كانوا عليه ؛ لأنه دين السحرة إذ ذاك ،والمقصود: المخالفة لما دعاهم إليه موسى ، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه ، فقالوا لفرعون:﴿ **أئن لنا لأجرا** ﴾ أى لجزاء تجزينا به من مال أو جاه . وقيل : أرادوا : إن لنا ثوابا عظيما ، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى ، فقالوا : ﴿ **إن كنا نحن الغالبين** ﴾ فوافقهم فرعون على ذلك ، قال : ﴿**نعم وإنكم إذن لمن المقرّبين** ﴾ أى نعم لكم ذلك عندى مع زيادة عليه ، وهى كونكم من المقرّبين لدى .

﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ وفى آية أخرى : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين﴾ [الأعراف : ١١٥] فيحمل ما هنا على أنه قال لهم : ألقوا بعد أن قالوا هذا القول ، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمرا لهم بفعل السحر ، بل أراد أن يقهرهم بالحجة ويظهر لهم أن الذى جاء به ليس هو من الجنس الذى أرادوا معارضته به ﴿**فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا** ﴾ عند الإلقاء ﴿ **بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ يحتمل قولهم: ﴿**بعزّة فرعون** ﴾ وجهين : الأوّل: أنه قسم ، وجوابه إنا لنحن الغالبون ، والثانى: متعلق بمحذوف ، والباء للسببية ، أى نغلب بسبب عزته ، والمراد بالعزّة : العظمة ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا مستوفى . والمعنى : أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك بإخراج الشىء عن صورته الحقيقية ﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ أى لما شاهدوا ذلك وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر ولا من تمويه السحرة ، آمنوا باللّه

وسجدوا له وأجابوا دعوة موسى وقبلوا نبوّته ، وقد تقدّم بيان معنى ﴿ **ألقى** ﴾ ، ومن فاعله لوقوع التصريح به، وعند سجودهم ﴿ **قالوا آمنا بربّ العالمين . ربّ موسى وهارون** ﴾ ربّ موسى عطف بيان لربّ العالمين ، وأضافوه سبحانه إليهما لأنهما القائمان بالدعوة فى تلك الحال . وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس بربّ ، وأن الربّ فى الحقيقة هو هذا .

فلما سمع فرعون ذلك منهم ورأى سجودهم للّه قال : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ أى بغير إذن منى ، ثم قال مغالطا للسحرة الذين آمنوا ، وموهما للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر : ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشىء يرتفع به شأن موسى ؛ لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة ، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذى شاهدتم وإن كان قد فاق على مافعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ومن هو أستاذهم الذى أخذوا عنه هذه الصناعة ، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر ، وأنه من فعل الربّ الذى يدعو إليه موسى . ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا باللّه لما قهرتهم حجة اللّه ، فقال : ﴿ **فلسوف تعلمون** ﴾ أجمل التهديد أوّلا للتهويل ، ثم فصله فقال : ﴿ **لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ فلما سمعوا ذلك من قوله قالوا : ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ أى لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا ؛ فإن ذلك يزول وننقلب بعده إلى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم ما لايحدّ ولا يوصف . قال الهروى : لا ضير ولا ضرر ولا ضر بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة :

فإنك لا يضرك بعد حول أظبى كان أمك أم حمار

قال الجوهرى : ضاره يضوره ويضيره ضيرا وضورا أى ضرّه . قال الكسائى : سمعت بعضهم يقول : لا ينفعنى ذلك ولا يضورنى . ﴿ **إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا** ﴾ ثم عللوا هذا بقولهم : ﴿ **أن كنا أوّل المؤمنين** ﴾ بنصب أن أى لأن كنا أوّل المؤمنين . وأجاز الفراء والكسائى كسرها على أن يكون مجازاة ، ومعنى ﴿ **أوّل المؤمنين** ﴾ : أنهم أوّل من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية . وقال الفراء : أول مؤمنى زمانهم ، وأنكره الزجاج، وقال : قد روى أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفا ، وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون** ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ يقول : مبين : له خلق حية ﴿ **ونزع يده** ﴾ يقول: وأخرج موسى يده من جيبه ﴿ **فإذا هى بيضاء** ﴾ تلمع ﴿ **للناظرين** ﴾ : لمن ينظر إليها ويراها . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿**وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾ قال : كانوا بالإسكندرية . قال : ويقال : بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ . قال : وهربوا وأسلموا فرعون وهمت به فقال : خذها يا موسى، وكان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئا أى يوهمهم أنه لا يحدث فأحدث

يومئذ تحته . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ **لا ضير** ﴾ قال : يقولون : لا يضيرنا الذى تقول وإن صنعت بنا وصلبتنا ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ يقولون : إنا إلى ربنا راجعون وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا وثباتنا على توحيده والبراءة من الكفر، وفى قوله: ﴿ **أن كنا أوّل المؤمنين** ﴾ قالوا : كانوا كذلك يومئذ أوّل من آمن بآياته حين رأوها .

﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)** ﴾.

قوله : ﴿ **أن أسر بعبادى** ﴾ أمر اللّه سبحانه موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا ، وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به ، وقد تقدّم تفسير مثل هذا فى سورة الأعراف ، وجملة: ﴿ **إنكم متبعون** ﴾ تعليل للأمر المتقدّم ، أى يتبعكم فرعون وقومه ليردّوكم، و﴿ **فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين** ﴾ وذلك حين بلغه مسيرهم، والمراد بالحاشرين : الجامعون للجيش من الأمكنة التى فيها أتباع فرعون ، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون** ﴾ يريد : بنى إسرائيل . والشرذمة : الجمع الحقير القليل ، والجمع شراذم . قال الجوهرى : الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشىء ، وثوب شراذم أى قطع، ومنه قول الشاعر :

جاء الشتاء وقميصى أخلاق   شراذم يضحك منها الخلاق

قال الفراء : يقال : عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون . قال المبرّد : الشرذمة : القطعة من الناس غير الكثير،وجمعها الشراذم . قال الواحدى : قال المفسرون : وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿ **وإنهم لنا لغائظون** ﴾ يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيظ : الغضب ، ومنه التغيظ والاغتياظ، أى غاظونا بخروجهم من غير إذن منى ﴿ **وإنا لجميع حاذرون** ﴾ قرئ : ﴿ **حذرون** ﴾ و ﴿ **حاذرون** ﴾ و« حذرون » بضم الذال، حكى ذلك الأخفش . قال الفراء : الحاذر : الذى يحذرك الآن ، والحذر : المخلوق

كذلك لا تلقاه إلا حذرا . وقال الزجاج: الحاذر : المستعد ، والحذر : المتيقظ ، وبه قال الكسائي ومحمد بن يزيد. قال النحاس: ﴿ **حذرون** ﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو ، و﴿ **حاذرون** ﴾ قراءة أهل الكوفة . قال : وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى حذرون وحاذرون واحد وهو قول سيبويه، وأنشد سيبويه :

حذر أمورا لا تضير وحاذر   ماليس ينجيه من الأقدار

﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم** ﴾ يعني فرعون وقومه أخرجهم الله من أرض مصر وفيها الجنات والعيون والكنوز ، وهي جمع جنة وعين وكنز ، والمراد بالكنوز : الخزائن . وقيل : الدفائن . وقيل : الأنهار ، وفيه نظر لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين: عيون الماء فيدخل تحتها الأنهار. واختلف في المقام الكريم ، فقيل : المنازل الحسان . وقيل : المنابر . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء . وقيل : مرابط الخيل . والأوّل أظهر ، ومن ذلك قول الشاعر :

وفيهم مقامات حسان وجوهها   وأندية ينتابها القول والفعل

﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ **كذلك** ﴾ في محل نصب ، أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا ، ويحتمل أن يكون في محل جرّ على الوصفية ، أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم ، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك . ومعنى ﴿ **وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ : جعلناها ملكا لهم، وهو معطوف على ﴿ **فأخرجناهم** ﴾ ﴿ **فأتبعوهم مشرقين** ﴾ قراءة الجمهور بقطع الهمزة ، وقرأ الحسن والحارث الديناري بوصلها وتشديد التاء ، أي فلحقوهم حال كونهم مشرقين ، أي داخلين في وقت الشروق . يقال: شرقت الشمس شروقا إذا طلعت كأصبح وأمسى أي دخل في هذين الوقتين . وقيل: داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم . وقيل: معنى ﴿ **مشرقين** ﴾: مضيئين. قال الزجاج : يقال : شرقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت : إذا أضاءت .

﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **تراءى** ﴾ بتخفيف الهمزة ، وقرأ ابن وثاب والأعمش من غير همز، والمعنى: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ،وهو تفاعل من الرؤية، وقرئ : « تراءت الفئتان » ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون** ﴾ أي سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم . قرأ الجمهور : ﴿ **إنا لمدركون** ﴾ اسم مفعول من أدرك، ومنه ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ [يونس : ٩٠] . وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير بفتح الدال مشددة وكسر الراء. قال الفراء : هما بمعنى واحد . قال النحاس : ليس كذلك يقول النحويون الحذاق ، إنما يقولون: مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم . قال : وهذا معنى قول سيبويه . وقال الزمخشري : إن معنى هذه القراءة : إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد (١) .

(١) الكشاف ٣/٣١٦ .

﴿ **قال كلا إن معى ربى سيهدين** ﴾ قال موسى هذه المقالة زجرا لهم وردعا ، والمعنى : أنهم لا يدركونكم، وذكرهم وعد الله بالهداية والظفر ، والمعنى : إن معى ربى بالنصر والهداية سيهدين ، أى يدلنى على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به ، أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وذلك قوله : ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ لما قال موسى : ﴿ **إن معى ربى سيهدين** ﴾ بين الله سبحانه له طريق الهداية فأمره بضرب البحر ، وبه نجا بنو إسرائيل وهلك عدوّهم ، والفاء فى ﴿ **فانفلق** ﴾ فصيحة ، أى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فلقا بعدد الأسباط ، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم ، وهو معنى قوله : ﴿ **فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾ والفرق : القطعة من البحر ، وقرئ: « فلق » بلام بدل الراء . والطود : الجبل، قال امرؤ القيس :

فبينا المرء فى الأحياء طود رماه الناس عن كثب فمالا

وقال الأسود بن يعفر :

حلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد

﴿ **وأزلفنا ثم الآخرين** ﴾ أى قرّبناهم إلى البحر : يعنى فرعون وقومه . قال الشاعر :

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

قال أبو عبيدة : ﴿ **أزلفنا** ﴾ : جمعنا ، ومنه قيل لليلة المزدلفة : ليلة جمع ، و « ثم » ظرف مكان للبعيد . وقيل : إن المعنى : ﴿ **وأزلفنا** ﴾ : قربنا من النجاة . والمراد بالآخرين : موسى وأصحابه ، والأول أولى ، وقرأ الحسن وأبو حيوة : «وزلفنا » ثلاثيا ، وقرأ أبى وابن عباس وعبد الله بن الحارث: « وأزلقنا » بالقاف أى أزللنا وأهلكنا من قولهم: أزلقت الفرس : إذا ألقت ولدها . ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين** ﴾ بمرورهم فى البحر بعد أن جعله الله طرقا يمشون فيها ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ يعنى فرعون وقومه أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه . والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية ، ففى ذلك آية عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أى ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين ، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقيل وابنته ، وآسية امرأة فرعون ، والعجوز التى دلت على قبر يوسف ، وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى فإنهم هلكوا فى البحر جميعا بل المراد: من كان معه من الأصل ومن كان متابعا له ومنتسبا إليه ، هذا غاية ما يمكن أن يقال. وقال سيبويه وغيره: إن « كان » زائدة، وأن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة . ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ قال : ستمائة ألف وسبعون ألفا [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانوا ستمائة ألف . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثنى عشر سبطا ، فكان فى كل طريق اثنا عشر ألفا كلهم ولد يعقوب » . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا بسند . قال السيوطى: واه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فرعون عدوّ الله حيث أغرقه الله هو وأصحابه فى سبعين قائدا مع كل قائد سبعون ألفا، وكان موسى مع سبعين ألفا حيث عبروا البحر » . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : كان طلائع فرعون الذين بعثهم فى أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم . وأقول : هذه الروايات المضطربة قد روى عن كثير من السلف ما يماثلها فى الاضطراب والاختلاف ، ولا يصح منها شىء عن النبى ﷺ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ومقام كريم ﴾ قال : المنابر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ كالطود ﴾ قال : كالجبل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وأزلفنا ﴾ قال : قربنا . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبنى إسرائيل: ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل : إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : أيكم يدرى أين قبره ؟ فقالوا : ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبنى إسرائيل ، فأرسل إليها موسى فقال: دلينا على قبر يوسف ؟ فقالت: لا والله حتى تعطينى حكمى ، قال : وما حكمك ؟ قالت : أن أكون معك فى الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له : أعطها حكمها ، فأعطاها حكمها ، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء ، فقالت لهم : انضبوا عنها الماء ففعلوا ، قالت : احفروا فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار » [(٢)] .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن

(١) ابن جرير ١٩/ ٤٧ .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٠٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

قوله : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ معطوف على العامل فى قوله : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى** ﴾ وقد تقدّم . والمراد بنبأ إبراهيم: خبره ، أى اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم وحديثه ، و ﴿ **إذ قال** ﴾ منصوب بنبأ إبراهيم ، أى وقت قوله : ﴿ **لأبيه وقومه ما تعبدون** ﴾ . وقيل : « إذ » بدل من نبأ بدل اشتمال ، فيكون العامل فيه : اتل ، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **ما تعبدون** ﴾ : أىّ شىء تعبدون ؟ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام ، ولكنه أراد إلزامهم الحجة ﴿ **قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين** ﴾ أى فنقيم على عبادتها مستمرا لا فى وقت معين ، يقال : ظل يفعل كذا : إذا فعله نهارا ، وبات يفعل كذا إذا فعله ليلا ، فظاهره أنهم يستمرون على عبادتها نهارا لا ليلا ، والمراد من العكوف لها : الإقامة على عبادتها . وإنما قال : ﴿**لها** ﴾ لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها ، فلما قالوا هذه المقالة قال إبراهيم منبها على فساد مذهبهم : ﴿ **هل يسمعونكم إذ تدعون** ﴾ قال الأخفش: فيه حذف،والمعنى: هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؟ وقرأ قتادة : « هل يسمعونكم » بضم الياء ، أى هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ؟ ﴿ **أو ينفعونكم** ﴾ بوجه من وجوه النفع ﴿ **أو يضرون** ﴾ أى يضرونكم إذا تركتم عبادتهم ، وهذا الاستفهام للتقرير ، فإنها إذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ فلا وجه لعبادتها ، فإذا قالوا : نعم هى كذلك ، أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث ، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم ، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جوابا إلا رجوعهم إلى التقليد البحت وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، أى يفعلون لهذه العبادة هذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التى هى سلب السمع والنفع والضر عنها .

وهذا الجواب هو العصى التى يتوكأ عليها كل عاجز ، ويمشى بها كل أعرج ويغتر بها كل مغرور ، وينخدع لها كل مخدوع ؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التى طبقت الأرض

بطولها والعرض ، وقلت لهم : ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء والأخذ بكل ما يقوله فى الدين ويبتدعه من الرأى المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه ، وأخذوا يعددون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم واقتداء بأقواله وأفعاله وهم قد ملؤوا صدورهم هيبة ، وضاقت أذهانهم عن تصورهم ، وظنوا أنهم خير أهل الأرض وأعلمهم وأورعهم ، فلم يسمعوا لناصح نصحا ولا لداع إلى الحق دعاء ، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم فى غرور عظيم وجهل شنيع وإنهم كالبهيمة العمياء ، وأولئك الأسلاف كالعمى الذين يقودون البهائم العمى ، كما قال الشاعر :

كبهيمة عمياء قاد زمامها ... أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة، المبرأ من التعصب والتعسف، أن تورد عليهم حجج الله ، وتقيم عليهم براهينه ؛ فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد فى قلبه ، وأما من قد استحكم فى قلبه هذا الداء ، فلو أوردت عليه كل حجة وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أذنا صماء وعينا عمياء ، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذى أوجبه عليك القرآن ، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ [القصص: ٥٦] .

ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿ **قال** ﴾ الخليل ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون** ﴾ أى فهل أبصرتم وتفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة ؟ ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التى يعبدونها . فقال : ﴿ **فإنهم عدوّ لى** ﴾ ومعنى كونهم عدوا له مع كونهم جمادا : أنه إن عبدهم كانوا له عدوا يوم القيامة . قال الفراء : هذا من المقلوب ، أى فإنى عدو لهم لأن من عاديته عاداك ، والعدو كالصديق يطلق على الواحد والمثنى والجماعة والمذكر والمؤنث ، كذا قال الفراء. قال علىّ بن سليمان : من قال : عدوة الله، فأثبت الهاء ، قال هى بمعنى : المعادية ، ومن قال : عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. وقيل : المراد بقوله : ﴿ **فإنهم عدو لى** ﴾ آباؤهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام ، ورد بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا فى العابدين ، والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا ربّ العالمين** ﴾ منقطع أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو وليى فى الدنيا والآخرة . قال الزجاج : قال النحويون : هو استثناء ليس من الأوّل، وأجاز الزجاج أيضا أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله . قال الجرجانى : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى ، فجعله من باب التقديم والتأخير ، وجعل إلا بمعنى دون وسوى كقوله : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان : ٥٦] أى دون الموتة الأولى . وقال الحسن بن الفضل : إن المعنى : إلا من عبد رب العالمين .

ثم وصف ربّ العالمين بقوله : ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين** ﴾ أى فهو يرشدنى إلى مصالح الدين والدنيا . وقيل : إن الموصول مبتدأ وما بعده خبره ، والأول أولى . ويجوز أن يكون الموصول بدلا من ربّ ، وأن يكون عطف بيان له ، وأن يكون منصوبا على المدح بتقدير : أعنى أو أمدح ، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله ، فإن الخلق والهداية والرزق يدل عليه قوله : ﴿ **والذى هو يطعمنى ويسقين** ﴾ ودفع ضر المرض ، وجلب نفع الشفاء ، والإماتة والإحياء ، والمغفرة للذنب ، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلا عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التى أعلاها وأولاها العبادة . ودخول هذه الضمائر فى صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره ، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب مع الربّ ، وإلا فالمرض وغيره من الله سبحانه ، ومراده بقوله : ﴿ **ثم يحيين** ﴾ البعث ، وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآى . وقرأ ابن أبى إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الياء ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ هضما لنفسه . وقيل : إن الطمع هنا بمعنى اليقين فى حقه ، وبمعنى الرجاء فى حق سواه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق : « خطاياى » قالا : ليست خطيئته واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى خطايا فى كلام العرب . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] ، وقوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ [الصافات : ٨٩] وقوله: إن سارة أخته ، زاد الحسن : وقوله للكوكب: ﴿ هذا ربى ﴾ [الأنعام : ٨٦] وحكى الواحدى عن المفسرين أنهم فسروا الخطايا بما فسرها به مجاهد. قال الزجاج : الأنبياء بشر ، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون . والمراد بيوم الدين : يوم الجزاء للعباد بأعمالهم ، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ومن معه ضعيف ، فإن تلك معاريض ، وهى أيضا إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه .

ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه والاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء ليقتدى به غيره فى ذلك، فقال : ﴿ **رب هب لى حكما** ﴾ والمراد بالحكم : العلم والفهم. وقيل: النبوة والرسالة . وقيل: المعرفة بحدود الله وأحكامه إلى آخره ﴿ **وألحقنى بالصالحين** ﴾ يعنى: بالنبيين من قبلى . وقيل : بأهل الجنة ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾ أى اجعل لى ثناء حسنا فى الآخرين الذين يأتون بعدى إلى يوم القيامة . قال القتيبى : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ؛ لأن القول يكون به ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة ، ومنه قول الأعشى :

إنى أتتنى لسان لا أسر بها

وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ [الصافات:١٠٨] فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه . وقال مكى : قيل : معنى سؤاله : أن يكون من ذريته فى آخر الزمان من يقوم بالحق ، فأجيبت دعوته فى محمد ﷺ ، ولا وجه لهذا

التخصيص . وقال القشيرى : أراد : الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ، ولا وجه لهذا أيضا ، فإن لسان الصدق أعم من ذلك ﴿ **واجعلنى من ورثة جنة النعيم** ﴾ : ﴿ **من ورثة** ﴾ يحتمل أن يكون مفعولا ثانيا ، وأن يكون صفة لمحذوف هو المفعول الثانى ، أى وارثا من ورثة جنة النعيم ، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة ، وهى جنة النعيم ، وجعلها مما يورث تشبيها لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا ، وقد تقدّم تفسير معنى الوراثة فى سورة مريم ﴿ **واغفر لأبى إنه كان من الضالين** ﴾ كان أبوه قد وعده أن يؤمن به ، فاستغفر له ، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى فى سورة التوبة وسورة مريم ، ومعنى ﴿ **من الضالين** ﴾: من المشركين الضالين عن طريق الهداية. و ﴿ **كان** ﴾ زائدة على مذهب سيبويه كما تقدّم فى غير موضع .

﴿ **ولاتخزنى يوم يبعثون** ﴾ أى لاتفضحنى على رؤوس الأشهاد بمعاتبتى ، أو لا تعذبنى يوم القيامة ، أولاتخزنى بتعذيب أبى أو ببعثه فى جملة الضالين ، والإخزاء يطلق على الخزى وهو الهوان ، وعلى الخزاية وهى الحياء،و ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾ بدل من يوم يبعثون ، أى يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحدا من الناس ، والابن هو أخص القرابة وأولاهم بالحماية والدفع والنفع ، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة والأعوان بالأولى . وقال ابن عطية : إن هذا وما بعده من كلام الله ، وهو ضعيف ، والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ قيل : هو منقطع ، أى لكن من أتى الله بقلب سليم . قال فى الكشاف : إلا حال من أتى الله بقلب سليم (١) ، فقدّر مضافا محذوفا . قال أبوحيان : ولا ضرورة تدعو إلى ذلك . وقيل : إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف ، أو مستثنى منه ، إذ التقدير : لا ينفع مال ولا بنون أحدا من الناس إلا من كانت هذه صفته ، ويحتمل أن يكون بدلا من فاعل ﴿ **ينفع** ﴾ ، فيكون مرفوعا . قال أبو البقاء : فيكون التقدير : إلا مال من أو بنو من فإنه ينفع . واختلف فى معنى القلب السليم ، فقيل : السليم من الشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض. وقيل : هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة . وقيل : السالم من آفة المال والبنين . وقال الضحاك : السليم: الخالص . وقال الجنيد : السليم فى اللغة: اللديغ ، فمعناه : أنه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى ، وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن . قال الرازى : أصح الأقوال أن المراد منه :سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة .

﴿**وأزلفت الجنة للمتقين** ﴾ أى قربت وأدنيت لهم ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها ﴿ **وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ أى جعلت بارزة لهم ، والمراد بالغاوين : الكافرون ، والمعنى أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون ليشتد حزن الكافرين

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠ .

ويكثر سرور المؤمنين ﴿ **وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله** ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿**هل ينصرونكم**﴾ فيدفعون عنكم العذاب ﴿ **أو ينتصرون** ﴾ بدفعه عن أنفسهم . وهذا كله توبيخ وتقريع لهم ، وقرأ مالك بن دينار : « وبرزت » بفتح الباء والراء مبنيا للفاعل . ﴿**فكبكبوا فيها هم والغاوون**﴾ أى ألقوا فى جهنم « هم » يعنى : المعبودين ، و ﴿ **الغاوون** ﴾ يعنى : العابدين لهم . وقيل : معنى كبكبوا : قلبوا على رؤوسهم. وقيل: ألقى بعضهم على بعض ، وقيل : جمعوا ، مأخوذ من الكبكبة وهى الجماعة قاله الهروى . وقال النحاس : هو مشتق من كوكب الشىء ، أى معظمه ، والجماعة من الخيل : كوكب وكبكبة . وقيل : دهدهوا ، وهذه المعانى متقاربة ، وأصله : كببوا بباءين الأولى مشددة من حرفين ، فأبدل من الباء الوسطى الكاف . وقد رجح الزجاج أن المعنى : طرح بعضهم على بعض. ورجح ابن قتيبة أن المعنى:ألقوا على رؤوسهم . وقيل: الضمير فى كبكبوا لقريش . والغاوون : الآلهة . والمراد بجنود إبليس : شياطينه الذين يغوون العباد . وقيل : ذريته . وقيل : كل من يدعو إلى عبادة الأصنام ، و ﴿ **أجمعون** ﴾ تأكيد للضمير فى كبكبوا وما عطف عليه .

وجملة : ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل ؟ ومقول القول : ﴿ **تالله إن كنا لفى ضلال مبين** ﴾ وجملة: ﴿ **وهم فيها يختصمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى قالوا هذه المقالة حال كونهم فى جهنم مختصمين و « إن » فى ﴿ **إن كنا** ﴾ هى المخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية ، أى قالوا : تالله إن الشأن كوننا فى ضلال واضح ظاهر . والمراد بالضلال هنا : الخسار والتبار والحيرة عن الحق ، والعامل فى الظرف ، أعنى : ﴿ **إذ نسويكم بربّ العالمين** ﴾ ، هو كونهم فى الضلال المبين . وقيل : العامل هو الضلال . وقيل : ما يدل عليه الكلام ، كأنه قيل : ضللنا وقت تسويتنا لكم برب العالمين. وقال الكوفيون : إن « إنْ » فى ﴿ **إن كنا** ﴾ نافية واللام بمعنى إلا ، أى ما كنا إلا فى ضلال مبين . والأول أولى ، وهو مذهب البصريين .

﴿ **فما لنا من شافعين** ﴾ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين ﴿ **ولا صديق حميم** ﴾ أى ذى قرابة . والحميم: القريب الذى تودّه ويودك . ووحد الصديق لما تقدم غير مرة أنه يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ،والحميم مأخوذ من حامة الرجل ،أى أقربائه ، ويقال : حمّ الشىء وأحم : إذا قرب منه ، ومنه الحمى لأنه يقرب من الأجل. وقال على بن عيسى : إنما سمى القريب حميما، لأنه يحمى لغضب صاحبه ، فجعله مأخوذا من الحمية . ﴿**فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين**﴾ هذا منهم على طريق التمنى الدال على كمال التحسر كأنهم قالوا : فليت لنا كرة ، أى رجعة إلى الدنيا ، وجواب التمنى : ﴿ **فنكون من المؤمنين** ﴾ أى نصير من جملتهم . والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من نبأ إبراهيم ، والآية : العبرة والعلامة ، والتنوين يدل على التعظيم والتفخيم ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أى أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبأ إبراهيم ، وهم قريش ومن دان بدينهم .

وقيل : وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين ، وهو ضعيف لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه ، أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وألحقنى بالصالحين** ﴾ يعنى : بأهل الجنة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾ قال : اجتماع أهل الملل على إبراهيم . وأخرج عنه أيضا : ﴿ **واغفر لأبى** ﴾ قال : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك . وأخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : ربّ إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى؟ ـ الأبعد ـ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » (١) ، والذيخ هو الذكر من الضباع ، فكأنه حول آزر إلى صورة ذيخ . وقد أخرجه النسائى بأطول من هذا (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **فكبكبوا فيها** ﴾ قال : جمعوا فيها ﴿ **هم والغاوون** ﴾ قال : مشركو العرب والآلهة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **فلو أن لنا كرة** ﴾ قال : رجعة إلى الدنيا ﴿ **فنكون من المؤمنين** ﴾ حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٠) والنسائى فى التفسير (٣٩٥) .

(٢) سبق تخريجه .

قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ أنث الفعل لكونه مسندا إلى قوم ، وهو فى معنى الجماعة أو الأمة أوالقبيلة ، وأوقع التكذيب على المرسلين ، وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم ،لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل ،لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل. وقيل : كذبوا نوحا فى الرسالة وكذبوه فيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده. ﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح** ﴾ أى أخوهم من أبيهم ، لا أخوهم فى الدين . وقيل : هى أخوة المجانسة . وقيل : هو من قول العرب : يا أخا بنى تميم ، يريدون واحدا منهم ﴿ **ألا تتقون** ﴾ ألا تتقون الله بترك عبادة الأصنام وتجيبون رسوله الذى أرسله إليكم ؟ ﴿ **إنى لكم رسول أمين** ﴾ أى إنى لكم رسول من الله أمين فيما أبلغكم عنه . وقيل : أمين فيما بينكم؛ فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أى اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه وأطيعون فيما آمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك والقيام بفرائض الدين ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر** ﴾ أى ما أطلب منكم أجرا على تبليغ الرسالة ولا أطمع فى ذلك منكم ﴿ **إن أجرى** ﴾ الذى أطلبه وأريده ﴿ **إلا على ربّ العالمين**﴾ أى ما أجرى إلا عليه ، وكرر قوله: ﴿**فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ للتأكيد والتقرير فى النفوس مع كونه علق كل واحد منهم بسبب ، وهو الأمانة فى الأوّل، وقطع الطمع فى الثانى ، ونظيره قولك : ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ؟ ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا ؟ وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علة لطاعته .

﴿ **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى كيف نتبعك ونؤمن لك ، والحال أن قد اتبعك الأرذلون ؟ وهم جمع أرذل ، وجمع التكسير: أرذال ، والأنثى :رذلى ، وهم الأقلون جاها ومالا والرذالة: الخسة والذلة ، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم ، أو لاتضاع أنسابهم . وقيل : كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات فى هود . وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمى : « وأتباعك الأرذلون » قال النحاس : وهى قراءة حسنة؛ لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيرا . وأتباع جمع تابع ، فأجابهم نوح بقوله: ﴿ **وما علمى بما كانوا يعملون** ﴾ كان زائدة ، والمعنى: وما علمى بعملهم ، أى لم أكلف العلم بأعمالهم ، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان: والاعتبار به ، لا بالحرف والصنائع والفقر

والغنى ، وكأنهم أشاروا بقولهم : ﴿ **واتبعك الأرذلون** ﴾ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح فأجابهم بهذا . وقيل : المعنى : إنى لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلكم .

﴿ **إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون** ﴾ أى ما حسابهم والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم ، قرأ الجمهور :﴿ **تشعرون** ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن أبى عبلة وابن السميفع والأعرج وأبوزرعة بالتحتية ، كأنه ترك الخطاب للكفار والتفت إلى الإخبار عنهم . قال الزجاج : والصناعات لا تضر فى باب الديانات وما أحسن ما قال : ﴿**وما أنا بطارد المؤمنين** ﴾ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم . ﴿ **إن أنا إلا نذير مبين** ﴾ أى ما أنا إلا نذير موضح لما أمرنى الله سبحانه بإبلاغه إليكم ، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها . ﴿ **قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ أى إن لم تترك عيب ديننا وسبّ آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة . وقيل : من المشتومين . وقيل : من المقتولين ، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد فلما سمع نوح قولهم هذا ، قال: ﴿ **رب إن قومى كذبون** ﴾ أى أصرّوا على تكذيبى ، ولم يسمعوا قولى ولا أجابوا دعائى ﴿**فافتح بينى وبينهم فتحا** ﴾ الفتح : الحكم ، أى احكم بينى وبينهم حكما ، وقد تقدم تحقيق معنى الفتح ﴿ **ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾ .

فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له فقال : ﴿ **فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون** ﴾ أى السفينة المملوءة، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب والمتاع . ﴿ **ثم أغرقنا بعد الباقين** ﴾ أى ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ أى علامة وعبرة عظيمة ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ كان زائدة عند سيبويه وغيره على ما تقدم تحقيقه ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى القاهر لأعدائه ، الرحيم بأوليائه .

﴿ **كذبت عاد المرسلين** ﴾ أنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة ؛ لأن عادا اسم أبيهم الأعلى . ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا قد تقدّم وجهه فى قصة نوح قريبا . ﴿ **إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قول نوح المتقدم قريبا ، وكذا قوله : ﴿ **إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾ الكلام فيه كالذى قبله سواء . ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون** ﴾ الريع : المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة ، يقال : كم ريع أرضك ؟ أى كم ارتفاعها . قال أبو عبيدة : الريع :الارتفاع جمع ريعة . وقال قتادة والضحاك والكلبى : الريع : الطريق ، وبه قال مقاتل والسدى . وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة ، ومنه قول ذى الرمة :

طراقُ الخوافِى مشرف فوْقَ رِيعةٍ   نَدى ليله فى ريشه يترقرقُ

وقيل: الريع : الجبل ، واحده ريعة ، والجمع أرياع . وقال مجاهد : هو الفج بين

الجبلين، وروى عنه أنه الثنية الصغيرة ، وروى عنه أيضا أنه المنظرة . ومعنى الآية : أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما تعبثون ببنيانه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم ، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون المارة وتسخرون منهم . وقال الكلبى : إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم ،حكاه الماوردى . قال ابن الأعرابى: الريع : الصومعة. والريع : البرج يكون فى الصحراء. والريع :التل العالى. وفى الريع لغتان كسر الراء وفتحها. ﴿ **وتتخذون مصانع** ﴾ المصانع : هى الأبنية التى يتخذها الناس منازل . قال أبو عبيدة : كل بناء مصنعة منه وبه قال الكلبى وغيره ، ومنه قول الشاعر :

تركنا دارهم منهم قفارا وهـدّمنا المـصانع والبـروجا

وقيل : هى الحصون المشيدة ، قاله مجاهد وغيره ، وقال الزجاج : إنها مصانع الماء التى تجعل تحت الأرض واحدتها: مصنعة ومصنع ، ومنه قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وليس فى هذا البيت ما يدل صريحا على ما قاله الزجاج ، ولكنه كما قال الجوهرى : المصنعة بضم النون : الحوض يجمع فيه ماء المطر ، والمصانع : الحصون . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن : القصور العالية . ومعنى ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ : راجين أن تخلدوا . وقيل : إن لعل هنا للاستفهام التوبيخى ، أى هل تخلدون ؟ كقولهم: لعلك تشتمنى ، أى هل تشتمنى ؟ وقال الفراء : كى تخلدوا (١) ، لا تتفكرون فى الموت . وقيل : المعنى : كأنكم باقون مخلدون . قرأ الجمهور : ﴿ **تخلدون** ﴾ مخففا .. وقرأ قتادة بالتشديد . وحكى النحاس أن فى بعض القراءات : « كأنكم مخلدون » . وقرأ ابن مسعود : « كى تخلدوا » .

﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ البطش : السطوة والأخذ بالعنف . قال مجاهد وغيره : البطش : العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . والمعنى : فعلتم ذلك ظلما ، وقيل : هو القتل على الغضب . قاله الحسن والكلبى . قيل : والتقدير : وإذا أردتم البطش ، لئلا يتحد الشرط والجزاء ، وانتصاب ﴿ **جبارين** ﴾ على الحال . قال الزجاج: إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم ، وأما فى الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز . ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم والعتو والتمرّد والتجبر أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أجمل التقوى ثم فصلها بقوله : ﴿ **واتقوا الذى أمدَكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين** ﴾ . وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿ **وجنات وعيون** ﴾ أى بساتين وأنهار وأبيار . ثم وعظهم وحذرهم فقال : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ إن كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم ، والمراد بالعذاب العظيم : الدنيوى والأخروى.

---

(١) فى المخطوطة : « تخلدون » ، والصحيح ما أثبتناه على النصب بأن .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **قالوا أنؤمن لك** ﴾ أى أنصدّقك ؟. وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **واتبعك الأرذلون** ﴾ قال : الحواكون . وأخرج أيضا عن قتادة قال : سفلة النـاس وأرذلهـم . وأخـرج ابـن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **الفلك المشحون** ﴾ قال : المتلئ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أنه قال : « أتدرون ما المشحون ؟ قلنا : لا ، قال : هو الموقر » . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: هو المثقل. وأخرج ابن جرير عنه أيضا :﴿ **بكل ريع** ﴾ قال : طريق ﴿ **آية** ﴾ قال : علما ﴿ **تعبثون** ﴾ قال: تلعبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **بكل ريع** ﴾ قال : شرف. وأخرجوا أيضا عنه : ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ قال: كأنكم تخلدون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**جبارين**﴾ قال : أقوياء .

﴿ **قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)** ﴾.

أى وعظك وعدمه ﴿ **سواء** ﴾ عندنا لا نبالى بشىء منه ولا نلتفت إلى ما تقوله . وقد روى العباس عن أبى عمرو ، وروى بشر عن الكسائى ﴿ **أوعظت** ﴾ بإدغام الظاء فى التاء وهو بعيد ؛ لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدا . وروى ذلك عن عاصم والأعمش وابن محيصن . وقرأ الباقون بإظهار الظاء ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين** ﴾ أى ما هذا الذى جئتنا به ودعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأوّلين ، أى عادتهم التى كانوا عليها . وقيل : المعنى : ما هذا الذى نحن عليه إلا خلق الأوّلين وعادتهم،وهذا بناء على ما قاله الفراء وغيره : إن معنى خلق الأوّلين : عادة الأولين . قال النحاس: خلق الأوّلين عند الفراء بمعنى عادة

الأوّلين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : ﴿ **خلق الأولين** ﴾ : مذهبهم وما جرى عليه أمرهم ، والقولان متقاربان . قال : وحكى لنا محمد بن يزيد أن معنى ﴿ **خلق الأوّلين** ﴾ : تكذيبهم . قال مقاتل : قالوا : ما هذا الذى تدعونا إليه إلا كذب الأولين . قال الواحدى : وهو قول ابن مسعود ومجاهد . قال : والخلق والاختلاق : الكذب ، ومنه قوله : ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ [العنكبوت : ١٧] . قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ويعقوب : «خلق الأولين » بفتح الخاء وسكون اللام . وقرأ الباقون بضم الخاء واللام . قال الهروى : معناه على القراءة الأولى : اختلاقهم وكذبهم، وعلى القراءة الثانية : عادتهم ، وهذا التفصيل لابد منه . قال ابن الأعرابى : الخلق: الدين ، والخلق : الطبع ، والخلق : المروءة . وقرأ أبو قلابة بضم الخاء وسكون اللام وهى تخفيف لقراءة الضم لهما . والظاهر أن المراد بالآية هو قول من قال : ما هذا الذى نحن عليه إلا عادة الأوّلين وفعلهم ، ويؤيده قولهم : ﴿ **وما نحن بمعذبين** ﴾ أى على ما نفعل من البطش ونحوه مما نحن عليه الآن . ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم** ﴾ أى بالريح كما صرح القرآن فى غير هذا الموضع بذلك ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ تقدّم تفسير هذا قريبا فى هذه السورة .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ذكر قصة صالح وقومه ، وكانوا يسكنون الحجر فقال : ﴿ **كذبت ثمود** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا على رب العالمين** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قصة هود المذكورة قبل هذه القصة . ﴿ **أتتركون فيما ها هنا آمنين** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى أتتركون فى هذه النعم التى أعطاكم الله آمنين من الموت والعذاب باقين فى الدنيا . ولما أبهم النعم فى هذا فسرها بقوله : ﴿ **فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم** ﴾ والهضيم : النضيج الرخص اللين اللطيف ، والطلع : ما يطلع من الثمر ، وذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار ، وكثيرا ما يذكرون الشىء الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولايقصدون إلا الإبل ، وهكذا يذكرون الجنة ، ولا يريدون إلا النخل . قال زهير :

كأن عينى فى غربى مقتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

وسحقا جمع سحوق ، ولا يوصف به إلا النخل . وقيل : المراد بالجنات غير النخل من الشجر ، والأوّل أولى. وحكى الماوردى فى معنى ﴿ **هضيم** ﴾ اثنى عشر قولا ، أحسنها وأوفقها للغة ما ذكرناه . ﴿ **وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين** ﴾ النحت : النجر والبرى ، نحته ينحته بالكسر : براه . والنحاتة : البراية ، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع (١) : ﴿ **فرهين** ﴾ بغير ألف . وقرأ الباقون : ﴿**فارهين** ﴾ بالألف . قال أبو عبيدة وغيره : وهما بمعنى واحد . والفره : النشاط ، وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا : ﴿ **فارهين** ﴾ حاذقين بنحتها . وقيل : متجبرين ،

(١) فى المخطوطة : « قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان » ، وعند القرطبى ٧/ ٤٨٤٥: « ونافع » بدلا من «وابن ذكوان » وهو الصحيح .

و«فرهين » بطرين أشرين ، وبه قال مجاهد وغيره . وقيل : شرهين. وقال الضحاك: كيسين . وقال قتادة : معجبين ناعمين آمنين ، وبه قال الحسن . وقيل : فرحين ، قاله الأخفش . وقال ابن زيد : أقوياء . ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين** ﴾ أى المشركين . وقيل : الذين عقروا الناقة . ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله : ﴿ **الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ أى ذلك دأبهم يفعلون الفساد فى الأرض ولا يصدر منهم الصلاح ألبتة ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين** ﴾ أى الذين أصيبوا بالسحر ، قاله مجاهد وقتادة . وقيل : المسحر هو : المعلل بالطعام والشراب ، قاله الكلبى وغيره ، فيكون المسحر الذى له سحر ، وهو الرئة ، فكأنهم قالوا : إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب . قال الفراء : أى إنك تأكل الطعام والشراب وتسحر به ، ومنه قول امرئ القيس أو لبيد :

فإن تسألينا : فيم نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس أيضا :

أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

قال المؤرج : المسحر : المخلوق ، بلغة ربيعة . ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ فى قولك ودعواك. ﴿ **قال هذه ناقة** ﴾ الله ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ أى لها نصيب من الماء ولكم نصيب منه معلوم، ليس لكم أن تشربوا فى اليوم الذى هو نصيبها ، ولا هى : تشرب فى اليوم الذى هو نصيبكم. قال الفراء : الشرب: الحظ من الماء . قال النحاس : فأما المصدر ، فيقال فيه : شرب شِربا وشُربا وأكثرها المضموم. والشرب بفتح الشين جمع شارب ، والمراد هنا : الشرب بالكسر ، وبه قرأ الجمهور فيهما ، وقرأ ابن أبى عبلة بالضم فيهما . ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ أى لا تمسوها بعقر ، أو ضرب ، أو شيء مما يسوؤها ، وجواب النهى فيأخذكم . ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين** ﴾ على عقرها ، لما عرفوا أن العذاب نازل بهم،وذلك أنه أنظرهم ثلاثا ،فظهرت عليهم العلامة فى كل يوم وندموا حيث لا ينفع الندم؛ لأن ذلك لا يجدى عند معاينة العذاب وظهور آثاره. ﴿ **فأخذهم العذاب** ﴾ الذى وعدهم به . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ فى هذه السورة ، وتقدّم أيضا تفسير قصة صالح وقومه فى غير هذه السورة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **ونخل طلعها هضيم** ﴾ قال : معشب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : أينع وبلغ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : أرطب واسترخى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فرهين** ﴾ قال : حاذقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿**فرهين**﴾ أشرين . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن

مجاهد قال : شرهين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ قال : من المخلوقين ، وأنشد قول لبيد بن ربيعة :

فإن تسألينا فيم نحن . . . . البيت

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لها شرب** ﴾ قال : إذا كان يومها أصدر لها لبنا ما شاؤوا .

﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)** ﴾.

ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم ، وهى قصة لوط . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إذ قال لهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا على ربّ العالمين** ﴾ فى هذه السورة ، وتقدم أيضا تفسير قصة لوط مستوفى فى الأعراف . قوله: ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين** ﴾ الذكران : جمع الذكر ضد الأنثى . ومعنى ﴿ **تأتون** ﴾ : تنكحون الذكران من العالمين ، وهم بنو آدم ،

أو كل حيوان ، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم فى الأعراف . ﴿ **وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ أى وتتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء ، وأراد بالأزواج : جنس الإناث ﴿ **بل أنتم قوم عادون** ﴾ أى مجاوزون للحدّ فى جميع المعاصى ، ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران ﴿ **قالوا لئن لم تنته يا لوط** ﴾ عن الإنكار علينا وتقبيح أمرنا ﴿ **لتكونن من المخرجين** ﴾ من بلدنا، المنفيين عنها . ﴿ **قال إنى لعملكم** ﴾ وهو ما أنتم فيه من إتيان الذكران ﴿ **من القالين** ﴾ المبغضين له . والقلى : البغض ، قليته أقليه قلا وقلاء ، ومنه قول الشاعر:

فلست بمقلى الخلال ولا قالى

وقال الآخر :

ومالك عندى إن نـأيت قـلاء

ثم رغب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم ، وطلب من الله عزّ وجل أن ينجيه فقال : ﴿ **رب نجنى وأهلى مما يعملون** ﴾ أى من عملهم الخبيث ، أو من عقوبته التى ستصيبهم ، فأجاب الله سبحانه دعاءه ، وقال : ﴿ **فنجيناه وأهله أجمعين** ﴾ أى أهل بيته ، ومن تابعه على دينه ، وأجاب دعوته ﴿ **إلا عجوزا فى الغابرين** ﴾ هى امرأة لوط ، ومعنى ﴿ **فى الغابرين** ﴾ من الباقين فى العذاب . وقال أبو عبيدة : من الباقين فى الهرم ، أى بقيت حتى هرمت . قال النحاس : يقال للذاهب : غابر ، وللباقى : غابر . قال الشاعر :

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تـدرى من النـاتج

والأغبار :بقية الألبان ،وتقول العرب:ما مضى وما غبر أى ما مضى وما بقى.﴿ **ثم دمرنا الآخرين** ﴾ أى أهلكناهم بالخسف والحصب.﴿ **وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ يعنى الحجارة ﴿ **فساء مطر المنذرين** ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : مطرهم ، وقد تقدم تفسير : ﴿**إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ فى هذه السورة .

﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر : « ليكة » بلام واحدة وفتح التاء جعلوه اسما غير معرف بأل مضافا إليه أصحاب ، وقرأ الباقون:﴿ **الأيكة** ﴾ معرفا ، و ﴿ **الأيكة** ﴾ : الشجر الملتف ، وهى الغيضة . وليكة : اسم للقرية . وقيل : هما بمعنى واحد اسم للغيضة . قال القرطبى : فأما ما حكاه أبو عبيد من أن ليكة اسم القرية التى كانوا فيها ، وأن الأيكة اسم البلد كله ، فشىء لا يثبت ولا يعرف من قاله ولوعرف لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعا على خلافه . قال أبو على الفارسى : الأيكة : تعريف أيكة ، فإذا حذفت الهمزة تخفيفا ألقيت حركتها على اللام . قال الخليل : الأيكة : غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر ﴿ **إذ قال لهم شعيب ألا تتقون** ﴾ لم يقل : أخوهم كما قال فى الأنبياء قبله ؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة فى النسب ، فلما ذكر مدين قال أخاهم

شعيبا لأنه كان منهم ، وقد مضى تحقيق نسبه فى الأعراف ، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **إنى لكم رسول أمين** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إلا على رب العالمين** ﴾ فى هذه السورة .

قوله : ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين** ﴾ أى أتموا الكيل لمن أراده وعامل به ، ولا تكونوا من المخسرين : الناقصين للكيل والوزن ، يقال : أخسرت الكيل والوزن ، أى نقصته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين : ٣] ثم زاد سبحانه فى البيان فقال : ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ أى أعطوا الحق بالميزان السوى ، وقد مر بيان تفسير هذا فى سورة سبحان ، وقد قرئ : ﴿ **بالقسطاس** ﴾ مضموما ومكسورا . ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ البخس : النقص ، يقال : بخسه حقه : إذا نقصه ، أى لا تنقصوا الناس حقوقهم التى لهم ، وهذا تعميم بعد التخصيص ، وقد تقدّم تفسيره فى سورة هود ، وتقدم أيضا تفسير ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ فيها وفى غيرها . ﴿ **واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وقرأ أبو حصين والأعمش والحسن والأعرج وشيبة بضمهما وتشديد اللام، وقرأ السلمى بفتح الجيم مع سكون الباء . والجبلة : الخليقة ، قاله مجاهد وغيره . يعنى : الأمم المتقدّمة ، يقال: جبل فلان على كذا ، أى خلق . قال النحاس : الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأوّلين وبضمهما مع تشديد اللام فيهما ، وبضم الجيم وفتحها وسكون الباء ، قال الهروى : الجِبِلَّة والجُبُلَة والجِبِلّ والجُبُلّ لغات ، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جبلا كثيرا ﴾ [يس : ٦٢] أى خلقا كثيرا ، ومن ذلك قول الشاعر :

والموت أعظم حادث فيما يمرّ على الجبلة

﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ قد تقدّم تفسيره مستوفى فى هذه السورة . ﴿ **وإن نظنك لمن الكاذبين** ﴾ : « إن » هى المخففة من الثقيلة عملت فى ضمير شأن مقدر ، واللام هى الفارقة ، أى فيما تدعيه علينا من الرسالة . وقيل : هى النافية ، واللام بمعنى إلا ، أى ما نظنك إلا من الكاذبين ، والأول أولى . ﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء** ﴾ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ، فقالوا له هذا القول تعنتاً واستبعادا وتعجيزا . والكسف: القطعة . قال أبو عبيدة : الكسف :جمع كسفة مثل سدر وسدرة . قال الجوهرى : الكسفة : القطعة من الشيء ، يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع كسف ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة سبحان . ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فى دعواك ﴿ **قال ربى أعلم بما تعملون**﴾ من الشرك والمعاصى ، فهو مجازيكم على ذلك إن شاء ، وفى هذا تهديد شديد . ﴿**فكذبوه** ﴾ فاستمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ والظلة : السحاب ، أقامها الله فوق رؤوسهم فأمطرت عليهم نارا فهلكوا ، وقد أصابهم الله بما اقترحوا؛ لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر ، وإن أرادوا بها القطعة من السماء فقد نزل عليهم العذاب من جهتها . وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيها على أن لهم فى

ذلك اليوم عذابا غير عذاب الظلة ، كذا قيل . ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذى أصابهم بقوله : ﴿ **إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ لما فيه من الشدة عليهم التى لا يقادر قدرها ، وقد تقدّم تفسير قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ فى هذه السورة مستوفى ، فلا نعيده ، وفى هذا التكرير لهذه الكلمات فى آخر هذه القصص من التهديد والزجر والتقرير والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام ويعرف أساليبه.

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ قال : تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرجا أيضا عن قتادة : ﴿ **إلا عجوزا فى الغابرين** ﴾ قال: هى امرأة لوط غبرت فى عذاب الله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد « ليكة » قال : هى الأيكة . وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ قال :كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين ﴿ **إذ قال لهم شعيب** ﴾ ولم يقل : أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن من جنسهم ﴿ **ألا تتقون** ﴾ : كيف لا تتقون وقد علمتم أنى رسول أمين ، لا تعتبرون من هلاك مدين وقد أهلكوا فيما يأتون ؟ وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين ، فقال لهم شعيب : ﴿ **إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم** ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ **من أجر** ﴾ فى العاجل من أموالكم ، إن أجرى إلا على ربّ العالمين . ﴿ **واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأوّلين** ﴾ يعنى : القرون الأولين الذين أهلكوا بالمعاصى ولا تهلكوا مثلهم . ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين** ﴾ يعنى : من المخلوقين . ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء** ﴾ يعنى : قطعا من السماء ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ أرسل الله إليهم سموما من جهنم ، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر ، فحميت بيوتهم وغلت مياههم فى الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين ، والسموم معهم ، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم ، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء ، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **الجبلة الأولين** ﴾ : الخلق الأولين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عنه أيضا أنه سئل عن قوله : ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ قال : بعث الله عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم أجوافها فأخذ بأنفسهم ، فخرجوا من البيوت هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم

بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارا ، فذلك عذاب يوم الظلة [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم عنه أيضا قال : من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه. أقول : فما نقول له رضى الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه هاهنا ؟ ويمكن أن يقال: إنه لما كان هو الحبر الذى علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصا بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذى حدثنا به فقد وصانا بتكذيبه ؛ لأنه قد علمه ولم يعلمه غيره .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾ الضمير يرجع إلى ما نزله عليه من الأخبار ، أى وإن

---

(١) ابن جرير ١٩/ ٦٧ والحاكم ٢/ ٥٦٨ وسكت عنه الذهبى .

هذه الأخبار أو وإن القرآن وإن لم يجر له ذكر للعلم به ، قيل : وهو على تقدير مضاف محذوف أى ذو تنزيل ، وأما إذا كان تنزيل بمعنى منزل فلا حاجة إلى تقدير مضاف . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم : ﴿ **نزل** ﴾ مخففا ، وقرأه الباقون مشددا ، و﴿**الروح الأمين** ﴾ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به ، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، والروح الأمين :جبريل ، كما فى قوله : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ [البقرة : ٩٧] ومعنى ﴿ **على قلبك** ﴾ : أنه تلاه على قلبه ، ووجه تخصيص القلب ؛ لأنه أول مدرك من الحواس الباطنة . قال أبو حيان : إن ﴿ **على قلبك** ﴾ و﴿ **لتكون** ﴾ متعلقان بنزل. وقيل : يجوز أن يتعلقا بتنزيل ، والأوّل أولى، وقرئ : « نزّل » مشددًا مبنيا للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعا على النيابة ﴿ **لتكون من المنذرين** ﴾ علة للإنزال ، أى أنزله لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والإنذارات والعقوبات . ﴿ **بلسان عربى مبين** ﴾ متعلق بالمنذرين ، أى لتكون من المنذرين بهذا اللسان ، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلا من ﴿ **به** ﴾ . وقيل : متعلق بنزل ، وإنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار ، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربيا بلسان الرسول العربى لئلا يقول مشركو العرب : لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم وأزاح علتهم ودفع معذرتهم .

﴿ **وإنه لفى زبر الأولين** ﴾ أى إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التى أجمعت عليها الشرائع فى كتب الأولين من الأنبياء، والزبر : الكتب ، الواحد زبور ، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا . وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ . وقيل : المراد بكون القرآن فى زبر الأوّلين : أنه مذكور فيها هو نفسه ، لا ما اشتمل عليه من الأحكام ، والأوّل أولى . ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ الهمزة للإنكار ،والواو للعطف على مقدّر كما تقدم مرارا . والآية : العلامة والدلالة ، أى ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق ،وأنه تنزيل رب العالمين، وأنه فى زبر الأولين ، ﴿ **أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ على العموم ، أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم ويصدقونهم . قرأ ابن عامر : « تكن » بالفوقية « وآية » بالرفع على أنها اسم كان ، وخبرها أن يعلمه إلخ ، ويجوز أن تكون تامة ، وقرأ الباقون : « يكن » بالتحتية و﴿ **آية** ﴾ بالنصب على أنها خبر ﴿ **يكن** ﴾، واسمها ﴿ **أن يعلمه** ﴾ إلخ . قال الزجاج: ﴿**أن يعلمه** ﴾ اسم ﴿**يكن** ﴾ و ﴿ **آية** ﴾ خبره . والمعنى : أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل أن محمدا نبى حق علامة ودلالة على نبوته ؛ لأن العلماء الذين آمنوا من بنى إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره فى كتبهم ، وكذا قال الفراء ، ووجها قراءة الرفع بما ذكرنا . وفى قراءة ابن عامر نظر ؛ لأن جعل النكرة اسما والمعرفة خبرا غير سائغ، وإن ورد شاذا فى مثل قول الشاعر :

فلا يك موقف منك الوداعا

وقول الآخر :

وكان مزاجها عسل وماء

ولا وجه لما قيل : إن النكرة قد تخصصت بقولهم : ﴿ **لهم** ﴾ لأنه فى محل نصب على الحال والحال صفة فى المعنى؛ فأحسن ما يقال فى التوجيه ما قدمنا ذكره من أن ﴿ **يكن** ﴾ تامة. ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين** ﴾ أى لو أنزلنا القرآن على الصفة التى هو عليها على رجل من الأعجمين الذى لا يقدرون على التكلم بالعربية . ﴿ **فقرأه عليهم** ﴾ قراءة صحيحة ﴿ **ما كانوا به مؤمنين** ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمى للكلام العربى إلى إعجاز القرآن . وقيل : المعنى : ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به ، وقالوا : ما نفقه هذا ولا نفهمه، ومثل هذا قوله : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ [فصلت : ٤٤] يقال : رجل أعجم وأعجمى : إذا كان غير فصيح اللسان وإن كان عربيا ، ورجل عجمى : إذا كان أصله من العجم وإن كان فصيحا ، إلا أن الفراء أجاز أن يقال : رجل عجمى بمعنى أعجمى ، وقرأ الحسن : «على بعض الأعجميين » وكذلك قرأ الجحدرى . قال أبو الفتح بن جنى: أصل الأعجمين: الأعجميين ، ثم حذفت ياء النسب ، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها .

﴿ **كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك السلك سلكناه ، أى أدخلناه فى قلوبهم : يعنى : القرآن حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه معجز . وقال الحسن وغيره : سلكنا الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين. وقال عكرمة : سلكنا القسوة . والأول أولى ؛ لأن السياق فى القرآن . وجملة : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ تحتمل وجهين : الأول : الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبلها . والثانى : أنها فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿**سلكناه** ﴾ ،ويجوز أن يكون حالا من ﴿ **المجرمين** ﴾. وأجاز الفراء الجزم فى ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة ، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت « لا » موضع « كيلا » مثل هذا ربما جزمت ما بعدها ، وربما رفعت ، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه : إن لم أربطه ينفلت ، وأنشد لبعض بنى عقيل :

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا   مساكنة لا يقرف الشر قارف

بالرفع ، ومن الجزم قول الآخر :

لطال ما حلأتماها لا ترد   فخلياها والسجال تبترد

قال النحاس : وهذا كله فى ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم ﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أى لا يؤمنون إلى هذه الغاية وهى مشاهدتهم للعذاب الأليم. ﴿ **فيأتيهم** ﴾ العذاب ﴿ **بغتة** ﴾ أى فجأة و الحال أنهم ﴿ **لا يشعرون** ﴾ بإتيانه ، وقرأ الحسن : « فتأتيهم » بالفوقية ، أى الساعة وإن لم يتقدّم لها ذكر ، لكنه قد دل العذاب عليها.

﴿ **فيقولوا هل نحن منظرون** ﴾ أى مؤخرون وممهلون . قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنيا للرجعة إلى الدنيا لاستدراك ما فرط منهم . وقيل : إن المراد بقولهم : ﴿ **هل نحن منظرون** ﴾ : الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ ولا يخفى ما فى هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر ، فإن معنى ﴿ **هل نحن منظرون** ﴾ : طلب النظرة والإمهال ، وأما قوله : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ فالمراد به : الردّ عليهم والإنكار لما وقع منهم من قولهم : ﴿ فأمطر[1] علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] وقولهم: ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ [الأعراف: ٧٠] ﴿ **أفرأيت إن متعناهم سنين** ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام كما مرّ فى غير موضع ، ومعنى أرأيت : أخبرنى ، والخطاب لكل من يصلح له ، أى أخبرنى إن متعناهم سنين فى الدنيا متطاولة ، وطولنا لهم الأعمار ﴿ **ثم جاءهم ما كانوا يوعدون** ﴾ من العذاب والهلاك ﴿ **ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون**﴾: « ما » هى الاستفهامية ، والمعنى : أى شىء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل ؟ و« ما » فى ﴿ **ما كانوا يمتعون** ﴾ يجوز أن تكون المصدرية ، ويجوز أن تكون الموصولة ، والاستفهام للإنكار التقريرى ، ويجوز أن تكون « ما » الأولى نافية ، والمفعول محذوف ، أى لم يغن عنهم تمتيعهم شيئا ، وقرئ : « يمتعون » بإسكان الميم وتخفيف التاء من أمتع الله زيدا بكذا ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون** ﴾ : « من » مزيدة للتأكيد ، أى وما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون . وجملة : ﴿ **إلا لها منذرون** ﴾ يجوز أن تكون صفة لقرية ، ويجوز أن تكون حالا منها ، وسوغ ذلك سبق النفى ، والمعنى : ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم والإعذار بإرسال الرسل وإنزال الكتب . وقوله : ﴿ **ذكرى** ﴾ بمعنى : تذكرة ، وهى فى محل نصب على العلة أو المصدرية . وقال الكسائى : ﴿ **ذكرى** ﴾ فى موضع نصب على الحال. وقال الفراء والزجاج : إنها فى موضع نصب على المصدرية ، أى يذكرون ذكرى . قال النحاس : وهذا قول صحيح؛ لأن معنى ﴿ **إلا لها منذرون** ﴾: إلا لها مذكرون . قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذكرى فى موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى إنذارنا ذكرى ، أو ذلك ذكرى . قال ابن الأنبارى : المعنى : هى ذكرى ، أو يذكرهم ذكرى، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف ﴿ **وما كنا ظالمين** ﴾ فى تعذيبهم ، فقد قدّمنا الحجة إليهم وأنذرناهم وأعذرنا إليهم .

﴿ **وما تنزلت به الشياطين** ﴾ أى بالقرآن ، وهذا ردّ لما زعمه الكفرة فى القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة ﴿ **وما ينبغى لهم** ﴾ ذلك ، ولا يصح منهم ﴿ **وما يستطيعون** ﴾ ما نسبه الكفار إليهم أصلا . ﴿ **إنهم عن السمع** ﴾ للقرآن ، أو لكلام الملائكة ﴿ **لمعزولون** ﴾ : محجوبون مرجومون بالشهب . وقرأ الحسن وابن السميفع والأعمش: « وما تنزلت به الشياطون »[2] بالواو والنون إجراء له مجرى جمع السلامة . قال النحاس: وهذا غلط عند

---

(١) فى المخطوطة : « أمطر » وهو خطأ .

(٢) فى المطبوعة : الشياطين .

جميع النحويين . قال : وسمعت على بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا من غلط العلماء ، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا ، وهو فى موضع رفع ؛ اشتبه عليه بالجمع السالم فغلط . قال الفراء : غلط الشيخ ، يعنى: الحسن ، فقيل ذلك للنضر ابن شميل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه ، يعنى محمد بن السميفع ،مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلا وقد سمعا فيه شيئا . وقال المؤرج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه . قال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول : دخلنا بساتين من ورائها بساتون .

ثم لما قرر سبحانه حقية القرآن وأنه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده فقال : ﴿**فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين**﴾ وخطاب النبى ﷺ بهذا مع كونه منزها عنه معصوما منه لحث العباد على التوحيد ونهيهم عن شوائب الشرك ، وكأنه قال : أنت أكرم الخلق على وأعزهم عندى ولو اتخذت معى إلها لعذبتك ، فكيف بغيرك من العباد. ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ خص الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أولى ، وهدايتهم إلى الحق أقدم . قيل: هم قريش ، وقيل : بنو عبد مناف ، وقيل : بنو هاشم . وقد ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت دعا النبى ﷺ قريشا ، فاجتمعوا فعم وخص ، فذلك منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين ، وسيأتى بيان ذلك . ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ يقال : خفض جناحه : إذا ألانه ، وفيه استعارة حسنة. والمعنى : ألن جناحك وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم . ﴿ **فإن عصوك** ﴾ أى خالفوا أمرك ولم يتبعوك ﴿ **فقل إنى برىء مما تعملون** ﴾ أى من عملكم ، أو من الذى تعملونه ، وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين :المشارفون للإيمان المصدقون باللسان ؛ لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه ولا يخالفونه .

ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال : ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم** ﴾ أى فوض أمورك إليه فإنه القادر على قهر الأعداء ، وهو الرحيم للأولياء . قرأ نافع وابن عامر : «فتوكل » بالفاء . وقرأ الباقون : ﴿ **وتوكل** ﴾ بالواو ، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها مترتبا عليه ، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفا على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب . ﴿ **الذى يراك حين تقوم** ﴾ أى حين تقوم إلى الصلاة وحدك فى قول أكثر المفسرين . وقال مجاهد : حين تقوم حيثما كنت . ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ أى ويراك إن صليت فى الجماعة راكعا وساجدا وقائما ، كذا قال أكثر المفسرين . وقيل : يراك فى الموحدين من نبى إلى نبى حتى أخرجك فى هذه الأمة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **يراك حين تقوم** ﴾ : قيامه إلى التهجد ، وقوله : ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ يريد : ترددك فى تصفح أحوال المجتهدين فى العبادة وتقلب بصرك فيهم ، كذا قال مجاهد . ﴿ **إنه هو السميع** ﴾ لما تقوله ﴿ **العليم** ﴾ به .

ثم أكد سبحانه معنى قوله : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين** ﴾ وبينه فقال : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين** ﴾ أى على من تتنزل ، فحذف إحدى التاءين ، وفيه بيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ . ﴿ **تنزل على كل أفاك أثيم** ﴾ . والأفاك : الكثير الإفك ، والأثيم : كثير الإثم ، والمراد بهم : كل من كان كاهنا ، فإن الشياطين كانت تسترق السمع ثم يأتون إليهم فيلقونه إليهم ، وهو معنى قوله : ﴿ **يلقون السمع** ﴾ أى مايسمعونه مما يسترقونه ، فتكون جملة : ﴿ **يلقون السمع** ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين فى محل نصب على الحال ، أى حال كون الشياطين ملقين السمع أى ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الكهان . ويجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع ، أى ينصتون إلى الملأ الأعلى ليسترقوا منهم شيئا ، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول : المسموع ، وعلى الوجه الثانى :نفس حاسة السمع . ويجوز أن تكون جملة : ﴿**يلقون السمع** ﴾ راجعة إلى كل أفاك أثيم على أنها صفة أو مستأنفة . ومعنى الإلقاء: أنهم يسمعون ما تلقيه إليهم الشياطين من الكلمات التى تصدق الواحدة منها ، وتكذب المائة الكلمة كما ورد فى الحديث. وجملة:﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ راجعة إلى كل أفاك أثيم ، أى وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين ؛ لأنهم يضمون إلى ما يسمعونه كثيرًا من أكاذيبهم المختلقة ،أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع، أى المسموع من الشياطين إلى الناس ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ راجعة إلى الشياطين ، أى وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعونه ؛ فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيرا من الكذب . وقد قيل : كيف يصح على الوجه الأوّل وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعا بالإفك . وأجيب بأن المراد بالأفاك : الذى يكثر الكذب لا الذى لا ينطق إلا بالكذب ، فالمراد بقوله : ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ : أنه قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الشياطين . والغرض الذى سيق لأجله هذا الكلام ردّ ما كان يزعمه المشركون من كون النبى ﷺ من جملة من يلقى إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب . ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق ، فكيف يكون كما زعموا ؟ ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين ، وهذا النبى المرسل من عند الله برسالته إلى الناس يذمهم ويلعنهم ويأمر بالتعوذ منهم .

ثم لما كان قد قال قائل من المشركين : إن النبى ﷺ شاعر ، بين سبحانه حال الشعراء ومنافاة ماهم عليه لما عليه النبى ﷺ فقال : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ والمعنى : أن الشعراء يتبعهم ، أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون ، أى : الضالون عن الحق، والشعراء : جمع شاعر ، والغاوون : جمع غاوٍ ، وهم ضُلال الجن والإنس . وقيل: الزائلون عن الحق . وقيل : الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لايجوز. وقيل: المراد : شعراء الكفار خاصة. قرأ الجمهور : ﴿ **والشعراء** ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره ما بعده ، وقرأ عيسى بن عمر : « الشعراء » بالنصب على الاشتغال، وقرأ نافع وشيبة

والحسن والسلمى : « يتبعهم » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد . ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال : ﴿ **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون** ﴾ والجملة مقرّرة لما قبلها ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، يقال : هام يهيم هيما وهيمانا : إذا ذهب على وجهه ، أى ألم تر أنهم فى كل فن من فنون الكذب يخوضون ، وفى كل شعب من شعاب الزور يتكلمون ؟ فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء ، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل ، وتارة يخوضون فى بحر السفاهة والوقاحة ، ويذمون الحق ويمدحون الباطل ، ويرغبون فى فعل المحرمات ، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه فى أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وأنهم يقولون مالا يفعلون** ﴾ أى يقولون: فعلنا وفعلنا وهم كذبة فى ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه ، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده فى كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات ، وأنهم فعلوا بهن كذا وكذا ، وذلك كذب محض وافتراء بحت .

ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحرى الحق والصدق فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى دخلوا فى حزب المؤمنين وعملوا بأعمالهم الصالحة ، ﴿ **وذكروا الله كثيرا** ﴾ فى أشعارهم ﴿ **وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ كمن يهجو منهم من هجاه ، أو ينتصر لعالم أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبى ﷺ فإنهم كانوا يهجون من يهجوه ، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم، ويدخل فى هذا من انتصر بشعره لأهل السنة وكافح أهل البدعة ، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم وهجو السنة المطهرة ، كما يقع ذلك كثيرا من شعراء الرافضة ونحوهم ، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة ، وفاعله من المجاهدين فى سبيل الله ، المنتصرين لدينه ، القائمين بما أمر الله بالقيام به . واعلم أن الشعر فى نفسه ينقسم إلى أقسام ، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام . وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب . وقد وردت أحاديث فى ذمه وذم الاستكثار منه ، ووردت أحاديث أخر فى إباحته وتجويزه ، والكلام فى تحقيق ذلك يطول ، وسنذكر فى آخر البحث ما ورد فى ذلك من الأحاديث .

ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ فإن فى قوله : ﴿ **سيعلم** ﴾ تهويلا عظيما وتهديدا شديدا ، وكذا فى إطلاق ﴿**الذين ظلموا** ﴾ وإبهام ﴿ **أى منقلب ينقلبون** ﴾ . وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء ، ولا وجه لذلك فإن الاعتبار بعموم اللفظ. وقوله: ﴿ **أى منقلب** ﴾ صفة لمصدر محذوف، أى ينقلبون منقلبا أى منقلب ، وقدم لتضمنه معنى الاستفهام ، ولا يعمل فيه ﴿ **سيعلم** ﴾ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، بل هو معلق عن العمل فيه . وقرأ ابن عباس والحسن : « أى

منفلت ينفلتون » بالفاء مكان القاف ، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون والفاء الفوقية . وقرأ الباقون بالقاف والباء من الانقلاب بالنون والقاف والموحدة ، والمعنى على قراءة ابن عباس والحسن: أن الظالمين يطمعون فى الانفلات من عذاب الله والانفكاك منه ولا يقدرون على ذلك.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾ قال : هذا القرآن ﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ قال: جبريل . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **الروح الأمين** ﴾ قال : « الروح الأمين: جبريل ، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بلسان عربى مبين** ﴾ قال : بلسان قريش ولو كان غير عربى ما فهموه . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن بريدة فى قوله : ﴿ **بلسان عربى مبين** ﴾ قال : بلسان جرهم [(١)] . وأخرج مثله أيضا عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن سلام من علماء بنى إسرائيل ، وكان من خيارهم فآمن بكتاب محمد ، فقال لهم الله : ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا وعم وخص فقال: « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يامعشر بنى قصىّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك ضرا ولا نفعا ، إلا أن لكم رحما وسأبلها ببلالها » [(٢)] . وفى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الذى يراك حين تقوم** ﴾ قال : للصلاة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه: ﴿ **الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين** ﴾ يقول : قيامك وركوعك وسجودك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا: ﴿ **وتقلبك فى الساجدين**﴾ قال : يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم .وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿**وتقلبك فى الساجدين** ﴾ قال : كان النبى ﷺ إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه . ومنه الحديث فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٣٩ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٣٦٠ والبخارى فى التفسير (٤٧٧١) ومسلم فى الإيمان (٣٤٨/ ٢٠٤) والترمذى فى التفسير (٣١٨٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

«هل ترون قبلتي هاهنا ؟ فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم ، وإنى لأراكم من وراء ظهرى » (١) . وأخرج ابن أبى عمر العدنى فى مسنده والبزار وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ قال : من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبيا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عنه فى الآية نحوه.

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت: سأل أناس النبى ﷺ عن الكهان قال: « إنهم ليسوا بشيء » ، قالوا: يا رسول الله ، إنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا ؟ قال : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » وفى لفظ للبخارى : « فيزيدون معها مائة كذبة»(٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ الآيات (٣). وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن عساكر عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ **والشعراء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ما لا يفعلون** ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم ، فأنزل الله : ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ينقلبون** ﴾ (٤) ، وروى نحو هذا من طرق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ **يتبعهم الغاوون** ﴾ قال : هم الكفار يتبعون ضلال الجن والإنس ﴿ **فى كل واد يهيمون** ﴾ قال : فى كل لغو يخوضون ﴿ **وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾: أكثر قولهم يكذبون ، ثم استثنى منهم فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ قال : ردّوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **والشعراء** ﴾ قال : المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبى ﷺ ﴿**يتبعهم الغاوون** ﴾ قال : غواة الجن فى كل واد يهيمون فى كل فن من الكلام يأخذون . ثم استثنى فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ الآية ، يعنى : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك كانوا يذبون عن النبى ﷺ وأصحابه بهجاء المشركين . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **الغاوون** ﴾ قال : هم الرواة. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عنه أيضا: ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ الآية قال : أبو بكر وعمر وعلى وعبد الله بن رواحة .

وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك ؛ أنه قال للنبى ﷺ : إن الله قد أنزل فى الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال :« إن المؤمن

---

(١) مالك ١/ ١٦٧ وأحمد ٢/ ٣٠٣ والبخارى فى الصلاة (٤١٨) ومسلم فى الصلاة (٤٢٤ / ١٠٩) .

(٢) أحمد ٦/ ٨٧ والبخارى فى الطب (٥٧٦٢) ومسلم فى السلام (٢٢٢٨ / ١٢٢) .

(٣) ابن جرير ١٩/ ٧٨ .

(٤) ابن سعد ٣/ ٥٢٨ .

يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبى ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا » [(٢)] . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود مرفوعا : « الشعراء الذين يموتون فى الإسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين لأزواجهن فى الجنة ، والذين ماتوا فى الشرك يدعون بالويل والثبور فى النار » [(٣)] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن من الشعر لحكمة » قال : وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت فقالوا : إنا نقول الشعر وقد نزلت هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا » فقرؤوا : ﴿**والشعراء**﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فقال: « أنتم هم » ﴿ **وذكروا الله كثيرا** ﴾ فقال: « أنتم هم » ﴿ **وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ فقال : «أنتم هم » . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : « اهج المشركين ، فإن جبريل معك » [(٤)] . وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال : قيل يا رسول الله ، إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك ، فقام ابن رواحة فقال : يا رسول الله، ائذن لى فيه ، فقال : « أنت الذى تقول ثبت الله؟» فقال : نعم يا رسول ، قلت :

ثبت الله ما أعطاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا مثل ما نصرا

قال : « وأنت ، ففعل الله بك مثل ذلك » ، ثم وثب كعب فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فيه ؟ فقال : «أنت الذى تقول همت ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، قلت :

همت سخينة أن تغالب ربها ... فلتغلبن مغالب الغلاب

فقال : « أما إن الله لم ينس ذلك لك » ، ثم قام حسان فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فيه ،وأخرج لسانا له أسود ، فقال: يا رسول الله ، لو شئت لفريت به المراد ، ائذن لى فيه ، فقال : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم واهجهم وجبريل معك» . وأخرج أحمد وابن سعد عن أبى هريرة قال : مر عمر بحسان وهو ينشد فى المسجد فلحظ إليه فنظر إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، فسكت ثم التفت حسان إلى أبى هريرة فقال : أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس ؟ » قال: نعم [(٥)]. وأخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعا نحوه .

(١) أحمد ٦/ ٣٨٧ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦١٣٥) وأحمد ٣/ ٤١ ومسلم فى الشعر (٢٢٥٩/ ٩) .

(٣) الديلمى (٣٦١٣) .

(٤) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٠٧٣) والبخارى فى الأدب (٦١٥٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٦/ ١٥٣) .

(٥) أحمد ٢/ ٢٦٩ وابن سعد ٥/ ١٥٧ ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٥/ ٥١) وأبو داود فى الأدب (٥٠١٣) والنسائى ٢/ ٤٨ .

وأخرج ابن أبى شيبة عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من الشعر حكما » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود عن النبى ﷺ : « إن من الشعر حكما ، ومن البيان سحرا » (٢) . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه ، خير من أن يمتلئ شعرا » (٣) . وفى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا»(٤) . قال فى الصحاح : وروى القيح جوفه يريه وريا : إذا أكله . قال القرطبى : روى إسماعيل بن عيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيح الشعر كقبيح الكلام » . قال القرطبى : رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامى وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . قال : وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام» (٥) . وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ فقال:« هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ » قلت : نعم . قال : « هيه » فأنشدته بيتا ، فقال : « هيه » ، ثم أنشدته بيتا ، فقال: « هيه » حتى أنشدته مائة بيت (٦) . وأخرج ابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد فى قوله : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ قال : هؤلاء الذين يخربون البيت .

---

(١) ابن أبى شيبة (٦٠٥٩) وأبو داود فى الأدب (٥٠١٢) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٠٦٢) .

(٣) أحمد ٢/ ٢٨٨ والبخارى فى الأدب (٦١٥٥) ومسلم فى الشعر (٢٢٥٧/ ٨) وأبو داود فى الأدب (٥٠٠٩) والترمذى فى الأدب (٢٨٥١) وقال:«هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الأدب (٣٧٥٩) .

(٤) سبق تخريجه . (٥) القرطبى ٧/ ٤٨٦٦ .

(٦) مسلم فى الشعر (٢٢٥٥/ ١) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٥٨) .

تفسير سورة النمل

هى ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون .قال القرطبى : وهى مكية كلها فى قول الجميع [(١)] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة النمل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾.

قوله: ﴿ طس﴾ قد مرّ الكلام مفصلا فى فواتح السور ، وهذه الحروف إن كانت اسما للسورة فمحلها الرفع على الابتداء وما بعده خبره ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا اسم هذه السورة وإن لم تكن هذه الحروف اسما للسورة ، بل مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها ، والإشارة بقوله: ﴿ تلك ﴾ إلى نفس السورة؛ لأنها قد ذكرت إجمالا بذكر اسمها ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ آيات القرآن ﴾ والجملة خبر المبتدأ الأوّل على تقدير أنه مرتفع بالابتداء ﴿وكتاب مبين ﴾ قرأ الجمهور بجرّ كتاب عطفا على القرآن ، أى تلك آيات القرآن

(١) القرطبى ٧/ ٤٨٧٠ .

وآيات كتاب مبين ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ **وكتاب** ﴾ : القرآن نفسه ، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد المدلول ،وأن يكون المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو نفس السورة ، وقرأ ابن أبى عبلة : « وكتاب مبين » برفعهما عطفا على آيات . وقيل : هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف وإقامة المضاف إليه مقامه ، أى وآيات كتاب مبين ، فقد وصف الآيات بالوصفين : القرآنية الدالة على كونه مقروءا مع الإشارة إلى كونه قرآنا عربيا معجزا ، والكتابية الدالة على كونه مكتوبا مع الإشارة إلى كونه متصفا بصفة الكتب المنزلة ، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة مع اتحاد المدلول ، ثم ضم إلى الوصفين وصفا ثالثا ، وهى الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه ، أو هو من أبان بمعنى : بان معناه واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة . وقدّم وصف القرآنية هنا نظرا إلى تقدّم حال القرآنية على حال الكتابة وأخّره فى سورة الحجر فقال : ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ [الحجر: ١] ؛ نظرا إلى حالته التى قد صار عليها ، فإنه مكتوب . والكتابة سبب القراءة والله أعلم . وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب ، وتعريف الكتاب فى سورة الحجر ، وتنكير القرآن فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف والتنكير .

﴿ **هدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ فى موضع نصب على الحال من الآيات أو من الكتاب ، أى تلك آيات هادية ومبشرة، ويجوز أن يكون فى محل رفع على الابتداء ، أى هو هدى ، أو هما خبران آخران لتلك ، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر ، أى يهدى هدى ويبشر بشرى . ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ والموصول فى محل جرّ ، أو يكون بدلا أو بيانا ،أو منصوبا على المدح ، أو مرفوعا على تقدير مبتدأ . والمراد بالصلاة : الصلوات الخمس ، والمراد بالزكاة : الزكاة المفروضة ، وجملة : ﴿**وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكرّر الضمير للدلالة على الحصر ، أى لا يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، وجعل الخبر مضارعا للدلالة على التجدد فى كلّ وقت وعدم الانقطاع .

ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وهم الكفار، أى لا يصدّقون بالبعث ﴿ **زينا لهم أعمالهم** ﴾ قيل : المراد : زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : المراد : أن الله زين لهم الأعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيرى الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك . قال الزجاج : معنى الآية أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه ﴿ **فهم يعمهون** ﴾ أى يتردّدون فيها متحيرين على الاستمرار لا يهتدون إلى طريقة ولا يقفون على حقيقة. وقيل: معنى ﴿ **يعمهون** ﴾: يتمادون . وقال قتادة : يلعبون ، وفى معنى التحير قال الشاعر :

ومهمه أطرافه فى مهمه أعمى الهدى الحائرين العمه

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين قبله ، وهو مبتدأ خبره ﴿**لهم سوء العذاب** ﴾ قيل : فى الدنيا كالقتل والأسر ، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده :﴿ **وهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ أى هم أشدّ الناس خسرانا وأعظمهم خيبة . ثم مهد سبحانه مقدّمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة ، فقال : ﴿**وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ أى يلقى عليك فتلقاه وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم. قيل: إن ﴿ **لدن** ﴾ ها هنا بمعنى عند . وفيها لغات كما تقدّم فى سورة الكهف .

﴿ **إذ قال موسى لأهله** ﴾ الظرف منصوب بمضمر وهو اذكر . قال الزجاج : موضع « إذ » نصب ، المعنى : اذكر إذ قال موسى ، أى اذكر قصته إذ قال لأهله ، والمراد بأهله : امرأته فى مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب ، فكنى عنها بلفظ الأهل الدالّ على الكثرة ، ومثله قوله: ﴿ امكثوا ﴾ [طه : ١٠]. ومعنى ﴿ **إنى آنست نارا** ﴾ : أبصرتها ﴿ **سآتيكم منها بخبر** ﴾ السين تدلّ على بعد مسافة النار ﴿ **أو آتيكم بشهاب قبس** ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتنوين ﴿ **شهاب** ﴾ ، وقرأ الباقون بإضافته إلى قبس ، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلا من شهاب أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس ، وعلى القراءة الثانية بالإضافة للبيان، والمعنى على القراءتين : آتيكم بشعلة نار مقبوسة ، أى مأخوذة من أصلها . قال الزجاج : من نوّن جعل ﴿ **قبس** ﴾ من صفة شهاب ، وقال الفراء : هذه الإضافة كالإضافة فى قولهم : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، أضاف الشىء إلى نفسه لاختلاف أسمائه . وقال النحاس : هى إضافة النوع إلى الجنس كما تقول : ثوب خز ، وخاتم حديد . قال : ويجوز فى غير القرآن بشهاب قبسا على أنه مصدر أو بيان حال ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ أى رجاء أن تستدفئوا بها ، أو لكى تستدفئوا بها من البرد ، يقال : صلى بالنار واصطلى بها : إذا استدفأ بها . قال الزجاج : كلّ أبيض ذى نور فهو شهاب . وقال أبو عبيدة : الشهاب : النار، ومنه قول أبى النجم :

كأنما كان شهابا واقدا ... أضاء ضوءا ثم صار خامدا

وقال ثعلب : أصل الشهاب : عود فى أحد طرفيه جمرة ، والآخر لا نار فيه ، والشهاب: الشعاع المضىء ، وقيل : للكوكب :شهاب ، ومنه قول الشاعر :

فى كفه صعدة مثقفة ... فيها سنان كشعلة القبس

﴿ **فلما جاءها** ﴾ أى جاء النار موسى ﴿ **نودى أن بورك من فى النار ومن حولها** ﴾: « أن » هى المفسرة لما فى النداء من معنى القول ، أو هى المصدرية ، أى بأن بورك . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . قال الزجاج : « أن » فى موضع نصب ، أى بأن قال ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله . والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى . وقرأ أبى وابن عباس ومجاهد : « أن بوركت النار ومن حولها » حكى ذلك أبو حاتم . وحكى الكسائى

عن العرب : باركك اللّه ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، وكذلك حكى هذا الفراء . قال ابن جرير : قال : ﴿ **بورك من فى النار** ﴾ ولم يقل : بورك على النار على لغة من يقول : باركك اللّه . أى بورك على من فى النار ، وهو موسى ، أو على من فى قرب النار لا أنه كان فى وسطها . وقال السدّى : كان فى النار ملائكة ، والنار هنا هى مجرّد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار ، فلما وصل إليها وجدها نورا . وحكى عن الحسن وسعيد بن جبير أن المراد بمن فى النار : هو اللّه سبحانه، أى نوره . وقيل : بورك ما فى النار من أمر اللّه سبحانه الذى جعلها على تلك الصفة . قال الواحدى : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار : النور ، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **وسبحان الله ربّ العالمين** ﴾ وفيه تعجيب لموسى من ذلك.

﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾ الضمير للشأن ، أنا اللّه العزيز الغالب القاهر الحكيم فى أمره وفعله. وقيل : إن موسى قال : ياربّ من الذى نادانى ؟ فأجابه اللّه سبحانه بقوله : ﴿ **إنه أنا الله** ﴾ ثم أمره سبحانه بأن يلقى عصاه ليعرف ما أجراه اللّه سبحانه على يده من المعجزة الخارقة ، وجملة : ﴿ **وألق عصاك** ﴾ معطوفة على ﴿ **بورك** ﴾، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها من يده فصارت حية ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جان** ﴾ قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرّك الجانّ ، وهى الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجانّ فى خفة حركتها ، وشبهها فى موضع آخر بالثعبان لعظمها . وجمع الجانّ :جنان وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبى : لا صغيرة ولا كبيرة ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ من الخوف ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أى لم يرجع ، يقال : عقب فلان : إذا رجع ، وكل راجع معقب . وقيل : لم يقف ولم يلتفت. والأوّل أولى ؛ لأن التعقيب هو الكرّ بعد الفرّ .

فلما وقع منه ذلك قال اللّه سبحانه : ﴿ **يا موسى لا تخف** ﴾ أى من الحية وضررها ﴿ **إنى لا يخاف لدىّ المرسلون** ﴾ أى لا يخاف عندى من أرسلته برسالتى فلا تخف أنت . قيل : ونفى الخوف عن المرسلين ليس فى جميع الأوقات ، بل فى وقت الخطاب لهم ؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون . ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : ﴿ **إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم** ﴾ أى لكن من أذنب فى ظلم نفسه بالمعصية ﴿ **ثم بدل حسنا** ﴾ أى توبة وندما ﴿ **بعد سوء** ﴾ أى بعد عمل سوء ﴿ **فإنى غفور رحيم** ﴾ وقيل : الاستثناء من مقدّر محذوف ، أى لا يخاف لدىّ المرسلون ، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل إلخ ، كذا قال الفراء. قال النحاس : الاستثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر . وروى عن الفراء أنه قال : إلا بمعنى الواو . وقيل: إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف . والمعنى: إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد ،واختار هذا النحاس، وقال : علم من عصى منهم فاستثناه فقال : ﴿ **إلا من ظلم** ﴾ وإن كنت قد غفرت له كآدم وداود وإخوة يوسف وموسى بقتله القبطىّ . ولا مانع من الخوف بعد المغفرة ، فإن نبينا ﷺ الذى

غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر كان يقول : «وددت أنى شجرة تعضد » (١) .

﴿ وأدخل يدك فى جيبك ﴾ المراد بالجيب هو المعروف ، وفى القصص : ﴿ اسلك يدك فى جيبك ﴾ [القصص: ٣٢] . وفى ﴿ أدخل ﴾ من المبالغة ما لم يكن فى ﴿ اسلك﴾ . ﴿تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى من غير برص أو نحوه من الآفات، فهو احتراس . وقوله : ﴿تخرج ﴾ جواب : ﴿ أدخل يدك ﴾ . وقيل : فى الكلام حذف تقديره : أدخل يدك تدخل وأخرجها تخرج ، ولا حاجة لهذا الحذف ولا ملجئ إليه . قال المفسرون : كانت على موسى مدرعة من صوف لا كمّ لها ولا إزار ، فأدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى تبرق كالبرق، وقوله : ﴿ فى تسع آيات﴾ قال أبو البقاء : هو فى محل نصب على الحال من فاعل تخرج ، وفيه بعد. وقيل : متعلق بمحذوف ، أى اذهب فى تسع آيات. وقيل : متعلق بقوله : ﴿ ألق عصاك ﴾ و ﴿ أدخل يدك﴾ فى جملة تسع آيات أو مع تسع آيات . وقيل: المعنى : فهما آيتان من تسع يعنى: العصا واليد ، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان ، والفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب فى بواديهم ، والنقصان فى مزارعهم . قال النحاس : أحسن ما قيل فيه : أن هذه الآية يعنى اليد داخلة فى تسع آيات ، وكذا قال المهدوى والقشيرى . قال القشيرى: تقول: خرجت فى عشرة نفر ، وأنت أحدهم ، أى خرجت عاشر عشرة ، ففى بمعنى من لقربها منها كما تقول : خذ لى عشرا من الإبل فيها فحلان ، أى منها. قال الأصمعى فى قول امرئ القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثون شهرا فى ثلاثة أحوال

فى بمعنى من . وقيل : فى بمعنى مع ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ قال الفراء : فى الكلام إضمار ، أى إنك مبعوث،أو مرسل إلى فرعون وقومه ، وكذا قال الزجاج : ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ الجملة تعليل لما قبلها . ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ أى جاءتهم آياتنا التى على يد موسى حال كونها مبصرة ، أى واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ [الإسراء : ٥٩] . قال الأخفش : ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا . وقرأ علىّ بن الحسين وقتادة : « مبصرة » بفتح الميم والصاد، أى مكانا يكثر فيه التبصر ، كما يقال : الولد مجبنة ومبخلة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ أى لما جاءتهم قالوا هذا القول ، أى سحر واضح .

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ أى كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها فالواو للحال ، وانتصاب ﴿ ظلما وعلوا ﴾ على الحال ، أى ظالمين عالين ، ويجوز أن ينتصبا على العلة ، أى الحامل لهم على ذلك الظلم والعلوّ ، ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف ، أى

(١) الترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) وأحمد ٥/١٧٣ وذكر أن هذه الجملة من قول أبى ذر .

جحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . قال أبو عبيدة: والباء فى ﴿ **وجحدوا بها** ﴾ زائدة ، أى وجحدوها . قال الزجاج : التقدير : وجحدوا بها ظلما وعلوّا ، أى شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند اللّه ﴿ **فانظر** ﴾ يا محمد ، ﴿ **كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أى تفكر فى ذلك فإن فيه معتبرا للمعتبرين ؛ وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم فى البحر على تلك الصفة الهائلة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار** ﴾ يعنى تبارك وتعالى : نفسه كان نور ربّ العالمين فى الشجرة ﴿**ومن حولها** ﴾ يعنى : الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : كان اللّه فى النور نودى من النور ﴿**ومن حولها** ﴾ قال : الملائكة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : ناداه اللّه وهو فى النور . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **أن بورك من فى النار** ﴾ قال : بوركت النار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : فى مصحف أبىّ بن كعب . « بوركت النار ومن حولها » أما النار فيزعمون أنها نور ربّ العالمين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أن بورك** ﴾ قال : قدّس .

وأخرج عبد بن حميد وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق أبى عبيدة عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول اللّه ﷺ فقال : « إن اللّه لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كلّ شىء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ **أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله ربّ العالمين** ﴾ . والحديث أصله مخرّج فى صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرّة (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه ، فقال له : أدخل يدك فى جيبك فأدخلها . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا** ﴾ قال : تكبروا وقد استيقنتها أنفسهم ، وهذا من التقديم والتأخير.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

(١) أحمد ٤/ ٤٠٥ ومسلم فى الإيمان (١٧٩/ ٢٩٣) وابن ماجة فى المقدمة (١٩٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٩٦.

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾.

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع فى قصة داود وابنه سليمان ، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هى كالبيان والتقرير لقوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ والتنوين فى ﴿ **علما** ﴾ إما للنوع ، أى طائفة من العلم ، أو للتعظيم ، أى علما كثيرا ، والواو فى قوله: ﴿ **وقالا الحمد لله** ﴾ للعطف على محذوف ؛ لأن هذا المقام مقام الفاء ؛ فالتقدير : ولقد آتيناهما علما فعملا به وقالا الحمد للّه ، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقا بعمل القلب ، وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ﴿ **الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ أى فضلنا بالعلم والنبوّة وتسخير الطير والجنّ والإنس ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعا منهم . وفى الآية دليل على شرف العلم وارتفاع محله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم التى ينعم اللّه بها على عباده، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من العباد ، ومنح شرفا جليلا .

﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ أى ورثه العلم والنبوة . قال قتادة والكلبى : كان لداود تسعة عشر ولدا ذكرا فورث سليمان من بينهم نبوّته ، ولو كان المراد : وراثة المال لم يخصّ سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده فى ذلك سواء ، وكذا قال جمهور المفسرين ، فهذه الوراثة هى وراثة مجازية كما فى قوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » [(١)]. ﴿ **وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير** ﴾ قال سليمان هذه المقالة مخاطبا للناس تحدّثا بما أنعم اللّه به عليه وشكر النعمة التى خصه بها . وقدّم منطق الطير ؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره . قال الفراء : منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل ، وأنشد قول حميد بن ثور :

عجيب لها أن يكون غناؤها فصيحا ولم يغفر بمنطقها فما

---

(١) أحمد ٥/ ١٩٦ وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) وابن ماجة فى المقدمة (٢٢٣) والدارمى ١/ ٩٨،كلهم عن أبى الدرداء .

ومعنى الآية : فهمنا ما يقول الطير . قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جندا من جنده يسير معه لتظليله من الشمس . وقال قتادة والشعبى : إنما علم منطق الطير خاصة ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير ، وكثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التى سمع كلامها وفهمه ، ومعنى ﴿ **وأوتينا من كل شىء** ﴾ :كل شىء تدعو إليه الحاجة ، كالعلم والنبوّة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض . وجاء سليمان بنون العظمة ، والمراد : نفسه بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف ، لا تكبرا وتعظيما لنفسه ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من التعليم والإيتاء ﴿ **لهو الفضل المبين** ﴾ أى الظاهر الواضح الذى لا يخفى على أحد ، أو المظهر لفضيلتنا .

﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير** ﴾ الحشر: الجمع ، أى جمع له جنوده من هذه الأجناس. وقد أطال المفسرون فى ذكر مقدار جنده وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ولا تصحّ من جهة النقل ، ولو صحت لكان فى القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ أى لكلّ طائفة منهم وزعة تردّ أولهم على آخرهم فيقفون على مراتبهم، يقال : وزعه يزعه وزعا : كفه ، والوازع فى الحرب : الموكل بالصفوف يزع من تقدّم منهم ، أى يردّه ، ومنه قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقول الآخر :

ومن لم يزعه لبه وحياؤه ... فليس له من شيب فوديه وازع

وقول الآخر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلا وافر العقل كامله

وقيل : من التوزيع بمعنى : التفريق ، يقال : القوم أوزاع ، أى طوائف . ﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل** ﴾ حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام ويكون غاية لما قبلها ، والمعنى : فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية وهو إتيانهم على واد النمل ، أى فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ ، و﴿ **على واد النمل** ﴾ متعلق بـ﴿ **أتوا** ﴾ وعدى بعلى ؛ لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون . والمعنى : أنهم قطعوا الوادى وبلغوا آخره ، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله : ﴿ الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ [الفجر : ٩] . إلا الكسائى فإنه وقف بالياء ، قال : لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل . قال كعب : واد النمل بالطائف . وقال قتادة ومقاتل : هو بالشام ﴿ **قالت نملة** ﴾ هذا جواب إذا ، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى فرت ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة : ﴿ **يأيها النمل ادخلوا مساكنكم** ﴾ جعل خطاب النمل

كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب ، والمساكن هى الأمكنة التى يسكن النمل فيها . قيل : وهذه النملة التى سمعها سليمان هى أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها . وردّ هذا أبو حيان فقال: لحاق التاء فى قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة، بل يصحّ أن يقال فى المذكر : قالت ، لأن نملة وإن كانت بالتاء فهى مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى ، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ، ولا بالتعرّض لاسم النملة ولما ذكر من القصص الموضوعة والأحاديث المكذوبة . قرأ الحسن وطلحة ومعمر بن سليمان : « نملة » والنمل بضم الميم وفتح النون بزنة رجل وسمرة . وقرأ سليمان التيمى بضمتين فيهما .

﴿ **لا يحطمنكم سليمان وجنوده** ﴾ الحطم : الكسر ، يقال : حطمته حطما ، أى كسرته كسرا ، وتحطم : تكسر ، وهذا النهى هو فى الظاهر للنمل ، وفى الحقيقة لسليمان ، فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، ويجوز أن يكون بدلا من الأمر، ويحتمل أن يكون جوابا للأمر . قال أبو حيان : أما تخريجه على جواب الأمر فلا يكون إلا على قراءة الأعمش ، فإنه قرأ : «لا يحطمكم » بالجزم بدون نون التوكيد ، وأما مع وجود نون التوكيد فلا يجوز ذلك إلا فى الشعر . قال سيبويه : وهو قليل فى الشعر ، شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما . وقرأ أبىّ : «ادخلوا مساكنكنّ » وقرأ شهر بن حوشب: « مسكنكم ». وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى الهمدانى : « لا يحطمنكم » بضمّ الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب وأبو عمرو فى رواية بسكون نون التوكيد ، وجملة :﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **يحطمنكم** ﴾ أى لا يشعرون بحطمكم ولا يعلمون بمكانكم ، وقيل : إن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها ، وهو بعيد .

﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها** ﴾ قرأ ابن السميفع : « ضحكا » وعلى قراءة الجمهور يكون ﴿**ضاحكا** ﴾ حالا مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم . وقيل : هى حال مقدّرة لأن التبسم أوّل الضحك . وقيل : لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له . وقيل : إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير ، وعلى قراءة ابن السميفع يكون « ضحكا » مصدرا منصوبا بفعل محذوف أو فى موضع الحال ، وكان ضحك سليمان تعجبا من قولها وفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل ﴿ **وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ** ﴾ قد تقدّم بيان معنى أوزعنى قريبا فى قوله: ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال فى الكشاف : وحقيقة أوزعنى : اجعلنى أزع شكر نعمك عندى وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى حتى لا أنفك شاكرا لك . انتهى(١) . قال الواحدى : أوزعنى ، أى ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ ، يقال : فلان موزع بكذا ؛ أى مولع به . انتهى . قال القرطبى : وأصله من وزع ، فكأنه قال : كفنى عما يسخطك . انتهى (٢) . والمفعول الثانى لأوزعنى هو : أن أشكر نعمتك التى أنعمت على.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٥٧.
(٢) القرطبى ٧/ ٤٨٩٣.

وقال الزجاج : إن معنى ﴿ **أوزعني** ﴾ : امنعني أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم ، ومعنى ﴿ **وعلى والدى** ﴾ : الدعاء منه بأن يوزعه اللّه شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه ، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يستوجب الشكر منه للّه سبحانه ، ثم طلب أن يضيف اللّه له لواحق نعمه إلى سوابقها ، ولا سيما النعم الدينية ، فقال : ﴿ **وأن أعمل صالحا ترضاه** ﴾ أى عملا صالحا ترضاه منى . ثم دعا أن يجعله اللّه سبحانه فى الآخرة داخلا فى زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التى يتعلق الطلب بها ، فقال: ﴿ **وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ والمعنى : أدخلنى فى جملتهم ، وأثبت اسمى فى أسمائهم ، واحشرنى فى زمرتهم إلى دار الصالحين وهى الجنة .

اللهم وإنى أدعوك بما دعاك به هذا النبىّ الكريم ، فتقبل ذلك منى وتفضل علىّ به ، فإنى وإن كنت مقصرا فى العمل ففضلك هو سبب الفوز بالخير ، فهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأن دخول الجنة التى هى دار المؤمنين بالتفضل منك لا بالعمل منهم ، كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه فى الصحيح : «سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمته » [(١)] . فإذا لم يكن إلا تفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز، والتفريط فى التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع .

ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان ، وذلك بدلالة الهدهد فقال : ﴿ **وتفقد الطير** ﴾ التفقد : تطلب ما غاب عنك وتعرف أحواله ، والطير: اسم جنس لكل ما يطير ، والمعنى : أنه تطلب ما فقد من الطير وتعرف حال ما غاب منها ، وكانت الطير تصحبه فى سفره ، وتظله بأجنحتها ﴿ **فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ أى ما للهدهد لا أراه ؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذى تستعمله العرب كثيرا ، وقيل : لا حاجة إلى ادّعاء القلب ، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد ، كأنه قال : مالى لا أراه؟ هل ذلك لساتر يستره عنى ؟ أو لشىء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب فقال : ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾ و« أم » هى المنقطعة التى بمعنى الإضراب . قرأ ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب « مالى » بفتح الياء ، وكذلك قرؤوا فى يس : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ [يس : ٢٢] بفتح الياء وقرأ بإسكانها فى الموضعين حمزة والكسائى [(٢)] ، ويعقوب . وقرأ الباقون بفتح التى فى يس وإسكان التى هنا . قال أبو عمرو : لأن هذه التى هنا استفهام ، والتى فى يس نفى ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان . ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه** ﴾ اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ما هو ؟ فقال مجاهد وابن جريج : هو أن ينتف ريشه جميعا . وقال يزيد بن

---

(١) أحمد ٦/ ١٢٥ والبخارى فى الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم فى صفات المنافقين (٧٨/٢٨١٨) ،كلهم عن عائشة رضى اللّه عنها .

(٢) الكسائى ممن يقرؤها بالفتح فى الموضعين كما ذكر القرطبى ٧/ ٤٨٩٥ .

رومان : هو أن ينتف ريش جناحيه . وقيل : هو أن يحبسه مع أضداده . وقيل : أن يمنعه من خدمته ، وفى هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد . وقوله : ﴿**عذابا**﴾ اسم مصدر على حذف الزوائد كقوله:﴿ أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ [نوح:١٧] . ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية ، وقرأ الباقون بنون مشددة فقط ، وهى نون التوكيد ، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشدّدة مفتوحة غير موصولة بالياء، والسلطان المبين هو : الحجة البينة في غيبته . ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ أى الهدهد مكث زمانا غير بعيد . قرأ الجمهور : « مكث » بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها ، ومعناه فى القراءتين : أقام زمانا غير بعيد . قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كقعد يقعد قعودا . وقيل: إن الضمير فى مكث لسليمان . والمعنى : بقى سليمان بعد التفقد والتوعد زمانا غير طويل ، والأوّل أولى ﴿ **فقال أحطت بما لم تحط به** ﴾ أى علمت ما لم تعلمه من الأمر ، والإحاطة : العلم بالشىء من جميع جهاته ، ولعل فى الكلام حذفا ، والتقدير : فمكث الهدهد غير بعيد فجاء فعوتب على مغيبه، فقال معتذرا عن ذلك:﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾. قال الفراء: ويجوز إدغام التاء فى الطاء ،فيقال :أحطّ ،وإدغام الطاء فى التاء فيقال أحتّ ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ قرأ الجمهور من سبأ بالصرف على أنه اسم رجل ، نسب إليه قوم ، ومنه قول الشاعر:

الواردون وتيم فى ذرى سبأ قد غض أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة ، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل وقال : سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام . وقيل : هو اسم امرأة سميت بها المدينة . قال القرطبى : والصحيح أنه اسم رجل كما فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مسيك المرادى . قال ابن عطية : وخفى هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء . وزعم الفراء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال : ما أدرى ما هو ؟ قال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول هذا ، قال : والقول فى سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل اسم رجل ، فإن صرفته فلأنه قد صار اسما للحىّ ، وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل ثمود ، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف . انتهى. وأقول: لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس ، وهو أيضا اسم رجل من قحطان ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، ولكن المراد هنا : أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه ، وسيأتى فى آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا ويؤيده ، ومعنى الآية:أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين. والنبأ هو: الخبر الخطير الشأن.

فلما قال الهدهد لسليمان ما قال ، قال له سليمان : وما ذاك ؟ فقال : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم** ﴾ وهى بلقيس بنت شرحبيل ، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ ، والجملة هذه كالبيان ، والتفسير للجملة التى قبلها ، أى ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء

﴿**وأوتيت من كلّ شيء**﴾ فيه مبالغة، والمراد : أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التى تحتاجها . وقيل : المعنى : أوتيت من كل شيء فى زمانها شيئا ، فحذف شيئا ،لأن الكلام قد دلّ عليه ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ أى سرير عظيم ، ووصفه بالعظم لأنه ـ كما قيل ـ كان من ذهب طوله ثمانون ذراعا ، وعرضه أربعون ذراعا ، وارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر. وقيل: المراد بالعرش هنا : الملك ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ، ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وسرير عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله** ﴾ أى يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه سبحانه ، قيل: كانوا مجوسا. وقيل: زنادقة . ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ التى يعملونها وهى عبادة الشمس وسائر أعمال الكفر ﴿ **فصدهم عن السبيل** ﴾ أى صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح ، وهو الإيمان باللّه وتوحيده ﴿ **فهم لا يهتدون** ﴾ إلى ذلك .

﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ قرأ الجمهور بتشديد ﴿ **ألا** ﴾ . قال ابن الأنبارى : الوقف على فهم لا يهتدون غير تام عند من شدد ألا ؛ لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا . قال النحاس: هى أن دخلت عليها لا ، وهى فى موضع نصب . قال الأخفش : أى زين لهم أن يسجدوا للّه بمعنى : لئلا يسجدوا للّه . وقال الكسائى : هى فى موضع نصب بصدّهم ؛ أى فصدهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا ، فهو على الوجهين مفعول له . وقال اليزيدى: إنه بدل من أعمالهم فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل: العامل فيها ﴿ **لا يهتدون** ﴾ أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا للّه ، وتكون لا على هذا زائدة كقوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] . وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة ؛ لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين أو بالصد ،أو بمنع الاهتداء ، وقد رجح كونه علة للصدّ الزجاج ، ورجح الفراء كونه علة لزين ، قال : زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا ، ثم حذفت اللام . وقرأ الزهرى والكسائى بتخفيف « ألا » قال الكسائى: ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر ، فتكون « ألا » على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ، واسجدوا فعل أمر ، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا ، ولكن الصحابة رضى اللّه عنهم أسقطوا الألف من يا وهمزة الوصل من اسجدوا خطأ ووصلوا الياء بسين اسجدوا ،فصارت صورة الخط ألا يسجدوا ، والمنادى محذوف ، وتقديره:ألا يا هؤلاء اسجدوا . وقد حذفت العرب المنادى كثيرا فى كلامها ، ومنه قول الشاعر :

ألا يا اسلمى يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول الآخر أيضا :

ألا يا اسلمى يا هند هند بنى بكر

وهو كثير فى أشعارهم . قال الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضى وجوب السجود دون قراءة التشديد ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة التشديد . قال الزجاج : ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع فى وسطه ، وكذا قال النحاس ، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ معترضة من كلام الهدهد ، أو من كلام سليمان ، أو من كلام اللّه سبحانه . وفى قراءة عبد اللّه بن مسعود : « هل لا تسجدوا » بالفوقية ، وفى قراءة أبى : « ألا تسجدوا » بالفوقية أيضا . ﴿ **الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض** ﴾ أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما ، يقال : خبأت الشيء أخبؤه خبأ ، والخبء ما خبأته . قال الزجاج : جاء فى التفسير أن الخبء ها هنا بمعنى : القطر من السماء والنبات من الأرض . وقيل : خبء الأرض : كنوزها ونباتها . وقال قتادة : الخبء : السر . قال النحاس : أى ما غاب فى السموات والأرض . وقرأ أبىّ وعيسى بن عمر : « الخب » بفتح الباء من غير همز تخفيفا ، وقرأ عبد اللّه وعكرمة ومالك بن دينار : « الخبا » بالألف. قال أبو حاتم : وهذا لا يجوز فى العربية. وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن. وفى قراءة عبد اللّه : «يخرج الخب من السموات والأرض ». قال الفراء: ومن وفى يتعاقبان ، والموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للّه سبحانه ، أو بدلا منه ، أو بيانا له ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على المدح ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وجملة : ﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾ معطوفة على يخرج ، قرأ الجمهور بالتحتية فى الفعلين ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وحفص والكسائى بالفوقية للخطاب ، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة ، وأما القراءة الثانية : فلكون قراءة الزهرى والكسائى فيها الأمر بالسجود والخطاب لهم بذلك ، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب . والمعنى : أن اللّه سبحانه يخرج ما فى هذا العالم الإنسانى من الخفاء بعلمه له كما يخرج ما خفى فى السموات والأرض .

ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته وجليل سلطانه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة قال: ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ قرأ الجمهور ﴿**العظيم**﴾: بالجرّ نعتا للعرش ، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتا للربّ ، وخصّ العرش بالذكر ؛ لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك فى المرفوع إلى رسول اللّه ﷺ .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه كتب : إن اللّه لم ينعم على عبد نعمة فحمد اللّه عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل. قال الله عزّ وجل: ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى**

فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ وأى نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان ؟ أقول : ليس فى الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله ، والذى تدلّ عليه أنهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم ، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله :﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ قال : ورثه نبوّته وملكه وعلمه . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان يستسقى بالناس ، فمرّ على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا ، فقال سليمان للناس : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم [(١)] . وأخرج الحاكم فى المستدرك عن جعفر بن محمد قال : أعطى سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والدواب والطير والسباع ، وأعطى كل شىء ، ومنطق كل شىء ، وفى زمانه صنعت الصنائع المعجبة ، حتى إذا أراد الله أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه ، وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة[(٢)] . قال الذهبى : هذا باطل ، قد رويت قصص فى عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر شىء منها ، فالإمساك عن ذكرها أولى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله :﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : جعل لكل صنف وزعة تردّ أولاها على أخراها لئلا تتقدّمه فى السير كما تصنع الملوك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**أوزعنى**﴾ قال : ألهمنى . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : إن سليمان نزل منزلا فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد يدلّ سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه ففقده ، قيل : كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ويضع له الصبى الحبالة فيغيبها فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القضاء ذهب البصر [(٣)] . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ قال : أنتف ريشه كله ، وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال : كان اسم هدهد سليمان : غبر . وأقول : من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله ، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر أن اسم النملة : حرس ، وأنها من قبيلة يقال لها : بنو الشيصان ، وأنها كانت

---

(١) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٢٠).

(٢) الحاكم ٢/ ٥٨٨ .

(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٩٠٢) وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

عرجاء ، وكانت بقدر الذئب ، وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ، ونحن نعلم أنه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ فى ذلك شيء ، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان أو بأحد من أصحابه ، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب، وقد أمرنا أن لا نصدّقهم ولا نكذبهم ، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ماروى : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » (١) . فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم . وقد كرّرنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ قال : خبر الحق الصدق البين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس : كلّ سلطان فى القرآن حجة وذكر هذه الآية ، ثم قال : وأىّ سلطان كان للهدهد ؟ يعنى : أن المراد بالسلطان :الحجة لا السلطان الذى هو الملك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ قال : اطلعت على ما لم تطلع عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **وجئتك من سبأ** ﴾ قال : سبأ بأرض اليمن ، يقال لها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ **بنبأ يقين** ﴾ قال : بخبر حقّ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم** ﴾ قال : كان اسمها : بلقيس بنت ذى شيرة ، وكانت صلباء شعراء . وروى عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد أنها : بلقيس بنت شراحيل ، وعن ابن جريج : بنت ذى شرح . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إحدى أبوى بلقيس كان جنيا » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ قال : سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالى الثمن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يخرج الخبء** ﴾ قال : يعلم كلّ خبيئة فى السماء والأرض .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا

---

(١) أخرج أحمد ٢/ ٢٠٢ (٣٤٦١) والترمذى فى العلم (٢٦٦٩) وقال : « . . هذا حديث حسن صحيح » عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

(٢) ابن جرير ١٩/ ٩٥.

بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾.

جملة : ﴿ **قال سننظر** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أى قال سليمان للهدهد : سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿ **أصدقت** ﴾ فيما قلت ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ هذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على أنها مفعول ﴿**سننظر** ﴾ ، وأم هى المتصلة ، وقوله : ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ أبلغ من قوله : أم كذبت ؛ لأن المعنى : من الذين اتصفوا بالكذب وصار خلقا لهم . والنظر: هو التأمل والتصفح . وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار والكشف عن الحقائق وعدم قبول خبر المخبرين تقليدا لهم واعتمادا عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بين سليمان هذا النظر الذى وعد به فقال : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم** ﴾ أى إلى أهل سبأ . قال الزجاج : فى « ألقه » خمسة أوجه : إثبات الياء فى اللفظ وحذفها ، وإثبات الكسرة للدلالة عليها ، وبضم الهاء وإثبات الواو ، وبحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها ، وبإسكان الهاء . وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو وحمزة وأبو بكر . وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء . وروى عن هشام وجهان : إثبات الياء لفظا وحذفها مع كسر الهاء . وقرأ الباقون بإثبات الياء فى اللفظ ، وقوله :﴿ **بكتابى هذا** ﴾ يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب ، وأن يكون بدلا منه ، وأن يكون بيانا له . وخص الهدهد بإرساله بالكتاب ؛ لأنه المخبر بالقصة ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضى كونه أهلا للرسالة ﴿ **ثم تول عنهم** ﴾ أى تنح عنهم ، أمره بذلك لكون التنحى بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التى يتأدب بها رسل الملوك . والمراد : التنحى إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع . وقيل : معنى التولى : الرجوع إليه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ أى تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول وما يتراجعونه بينهم من الكلام .

﴿ **قالت** ﴾ أى بلقيس ﴿ **يأيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير: فذهب الهدهد فألقاه إليهم ، فسمعها تقول : ﴿ **يأيها الملأ** ﴾ إلخ . ووصفت الكتاب بالكريم ؛ لكونه من عند عظيم فى نفسها فعظمته إجلالا لسليمان . وقيل : وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن . وقيل : وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوما بخاتم سليمان ، وكرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا (١).

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ أى وإن ما اشتمل عليه من الكلام وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية . ﴿ **أن لا تعلوا علىّ** ﴾ أى لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك ، و«أن» هى المفسرة . وقيل: مصدرية ، ولا ناهية. وقيل : نافية ، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب أو خبر مبتدأ محذوف،أى هو أن لا تعلوا. قرأ الجمهور : ﴿ **إنه من سليمان وإنه** ﴾ بكسرهما على الاستئناف ، وقرأ عكرمة وابن أبى عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجرّ ، وقرأ أبى : « إن من سليمان وإن بسم اللّه » بحذف الضميرين وإسكان النونين على أنهما مفسرتان ،وقرأ عبد اللّه بن مسعود :« وإنه من سليمان » بزيادة الواو ، وروى ذلك أيضا عن أبى . وقرأ أشهب العقيلى وابن السميفع: « أن لا تغلوا » بالغين المعجمة من الغلوّ ، وهو تجاوز الحدّ فى الكبر ﴿ **وأتونى مسلمين** ﴾ أى منقادين للدين مؤمنين بما جئت به .

﴿ **قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى** ﴾ الملأ : أشراف القوم ، والمعنى : يأيها الأشراف ، أشيروا على ، وبينوا لى الصواب فى هذا الأمر ، وأجيبونى بما يقتضيه الحزم . وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون فى ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت لهم : يأيها الملأ إنى ألقى إلى ، يأيها الملأ أفتونى . وكرر « قالت » لمزيد العناية بما قالته لهم . ثم زادت فى التأدب واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ويشيروا عليها بالصواب فقالت : ﴿ **ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ أى ما كنت مبرمة أمرا من الأمور حتى تحضروا عندى وتشيروا علىّ ، فقالوا مجيبين لها : ﴿ **نحن أولو قوة** ﴾ فى العدد والعدة ﴿ **وأولو بأس شديد** ﴾ عند الحرب واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا . ثم فوضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها وقوّة عقلها فقالوا : ﴿ **والأمر إليك** ﴾ أى موكول إلى رأيك ونظرك ﴿ **فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ أى تأملى ماذا تأمرينا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون له ؟ فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها** ﴾ أى إذا دخلوا قرية من القرى خرّبوا

---

(١) من ذلك ما أخرج البخارى فى اللباس (٥٨٧٢) ومسلم فى اللباس (٢٠٩٢/٥٦) وأبو داود فى الخاتم (٤٢١٤) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح ».كلهم عن أنس بن مالك أن نبى الله ﷺ أراد أن يكتب إلى رهط ـ أو أناس ـ من الأعاجم ، فقيل له : إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم. . .الحديث .

مبانيها ، وغيروا مغانيها، وأتلفوا أموالها ، وفرّقوا شمل أهلها ﴿ **وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ أى أهانوا أشرافها وحطوا مراتبهم ، فصاروا عند ذلك أذلة ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك وتستحكم لهم الوطأة وتتقرّر لهم فى قلوبهم المهابة . قال الزجاج: أى إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة . والمقصود من قولها هذا : تحذير قومها من مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وقد صدقها اللّه سبحانه فيما قالت ، فقال سبحانه : ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ أى مثل ذلك الفعل يفعلون . قال ابن الأنبارى : الوقف على قوله : ﴿ **وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ وقف تام ، فقال اللّه عزّ وجلّ تحقيقا لقولها : ﴿**وكذلك يفعلون** ﴾ . وقيل : هذه الجملة من تمام كلامها ، فتكون من جملة مقول قولها ، وعلى القول الأول تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

ثم لما قدّمت لهم هذه المقدمة ، وبينت لهم ما فى دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة ، وأوضحت لهم وجه الرأى عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت: ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية** ﴾ أى إنى أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلى إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال ، فإن كان ملكا أرضيناه بذلك وكفينا أمره ، وإن كان نبيا لم يرضه ذلك ؛ لأن غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين فلا ينجينا منه إلا إجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ؛ ولهذا قالت: ﴿ **فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ الفاء للعطف على مرسلة ، و ﴿ **بم** ﴾ متعلق بـ﴿**يرجع**﴾، والمعنى : إنى ناظرة فيما يرجع به رسلى المرسلون بالهدية من قبول أو رد فعاملة بما يقتضيه ذلك ، وقد طوّل المفسرون فى ذكر هذه الهدية ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب والصحة.

﴿ **فلما جاء سليمان** ﴾ أى فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان ، والمراد بهذا المضمر : الجنس ، فلا ينافى كونهم جماعة كما يدل عليه قولها : ﴿ **بم يرجع المرسلون** ﴾ وقرأ عبد اللّه : « فلما جاؤوا سليمان » أى الرسل ، وجملة : ﴿ **قال أتمدونن بمال** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر والاستفهام للاستنكار ، أى قال منكرا لإمدادهم له بالمال مع علوّ سلطانه وكثرة ماله . وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب فى نون الوقاية ، والباقون بنونين من غير إدغام ، وأما الياء فإن نافعا وأبا عمرو وحمزة يثبتونها وصلا ويحذفونها وقفا ، وابن كثير يثبتها فى الحالين ، والباقون يحذفونها فى الحالين . وروى عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة ﴿ **فما آتانى الله خير مما آتاكم**﴾ أى ما آتانى من النبوة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذى هذه الهدية من جملته . قرأ أبو عمرو ونافع وحفص ﴿ **آتانى الله** ﴾ بياء مفتوحة وقرأ يعقوب بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل ، وقرأ الباقون بغير ياء فى الوصل والوقف . ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدّم فقال : ﴿ **بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ توبيخا لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء ، وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتى ؛ لأن اللّه سبحانه قد أعطانى منها ما لم يعطه أحدا من العالمين ، ومع ذلك أكرمنى بالنبوّة . والمراد بهذا

الإضراب من سليمان : بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم والحط عليهم.

﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ أى قال سليمان للرسول : ارجع إليهم ، أى إلى بلقيس وقومها ، خاطب المفرد ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل ، إما لأن الذى سيرجع هو الرسول فقط ، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا وخاطبهم معه فيما سبق افتنانا فى الكلام . وقرأ عبد اللّه بن عباس : « ارجعوا » . وقيل : إن الضمير يرجع إلى الهدهد ، واللام فى « لنأتينهم » جواب قسم محذوف . قال النحاس : وسمعت ابن كيسان يقول : هى لام توكيد ولام أمر ولام خفض ، وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشىء إلى أصله ، وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية ، ومعنى ﴿ **لا قبل لهم** ﴾ : لا طاقة لهم بها ، والجملة فى محل جرّ صفة لجنود ﴿ **ولنخرجنهم** ﴾ معطوف على جواب القسم ، أى لنخرجنهم من أرضهم التى هم فيها ﴿ **أذلة** ﴾ أى حال كونهم أذلة بعد ما كانوا أعزة ، وجملة : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ فى محل نصب على الحال. قيل: وهى حال مؤكدة لأن الصغار هو الذلة . وقيل : إن المراد بالصغار هنا : الأسر والاستعباد. وقيل : إن الصغار: الإهانة التى تسبب عنها الذلة .

ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان ، وأخبر جبريل سليمان بذلك فقال سليمان : ﴿ **يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ أى عرش بلقيس الذى تقدّم وصفه بالعظم ﴿**قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ أى قبل أن تأتينى هى وقومها مسلمين . قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا ؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم . قال ابن عطية : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هى بعد مجىء هديتها وردّه إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين . وقيل : استدعاء العرش قبل وصولها ليريها القدرة التى هى من عند اللّه ويجعله دليلا على نبوّته ، وقيل : أراد أن يختبر عقلها ، ولهذا قال : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ . . . .إلخ. وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد فى وصفه للعرش بالعظم ، والقول الأوّل هو الذى عليه الأكثر .

﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ قرأ الجمهور بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء وسكون المثناة التحتية وبالتاء ، وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى وابن السميفع وأبو السمال : « عفريه » بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء رويت هذه القراءة عن أبى بكر الصديق . وقرأ أبو حيان بفتح العين .والعفريت :المارد الغليظ الشديد . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء : عفر وعفريه وعفريت . وقال قتادة : هو الداهية ، وقيل : هو رئيس الجنّ . قال ابن عطية : وقرأت فرقة :« عفر» بكسر العين جمعه على عفار ، ومما ورد من أشعار العرب مطابقا لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائى :

فقال شيطان لهم عفريت ما لكم مكث ولا تبييت

ومما ورد على القراءة الثانية قول ذى الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عفريــة مصوّب فى سواد الليل منقضب

ومعنى قول العفريت : أنه سيأتى بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذى يجلس فيه للحكومة بين الناس ﴿ **وإنى عليه لقوى أمين** ﴾ إنى لقوىّ على حمله ، أمين على ما فيه . قيل : اسم هذا العفريت : كودن ذكره النحاس عن وهب بن منبه . وقال السهيلى : ذكوان . وقيل : اسمه : دعوان . وقيل : صخر . وقوله : ﴿ **آتيك** ﴾ فعل مضارع ، وأصله أأتيك بهمزتين ، فأبدلت الثانية ألفا . وقيل : هو اسم فاعل .

﴿**قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك**﴾ **قال أكثر المفسرين** : اسم هذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو من بنى إسرائيل ، وكان وزيرا لسليمان ، وكان يعلم اسم اللّه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . قال ابن عطية وقالت فرقة : هو سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت فقال له تحقيرا له: ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ وقيل هو جبريل ، وقيل : الخضر. والأوّل أولى . وقد قيل : غير ذلك بما لا أصل له . والمراد بالطرف : تحريك الأجفان وفتحها للنظر وارتداده انضمامها. وقيل: هو بمعنى المطروف ، أى الشىء الذى ينظره . وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك : افعل ذلك فى لحظة : قاله مجاهد. وقال سعيد بن جبير: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به ، فوضعه بين يديه والمعنى : حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء ، والأول أولى هـذه الأقوال ، ثم الثالث ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده** ﴾ قيل : فى الآية حذف ، والتقدير : فأذن له سليمان فدعا اللّه فأتى به ، فلما رآه سليمان مستقرا عنده ، أى رأى العرش حاضرا لديه ﴿ **قال هذا من فـضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ **هذا** ﴾ إلى حضور العرش، ﴿**ليبلونى** ﴾ أى ليختبرنى أشكره بذلك وأعترف أنه من فضله من غير حول منى ولا قوّة أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به. قال الأخفش: المعنى : لينظر أأشكر أم أكفر ، وقال غيره : معنى ﴿ **ليبلونى** ﴾ : ليتعبدنى ، وهو مجاز . والأصل فى الابتلاء : الاختبار .﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها ، والمعنى : أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر ﴿ **ومن كفر** ﴾ بترك الشكر ﴿ **فإن ربى غنى** ﴾ عن شكره ﴿ **كريم** ﴾ فى ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه وسلبه ما أعطاه منها ، « وأم » فى ﴿ **أم أكفر** ﴾ هى متصلة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم** ﴾ يقول : كن قريبا منهم ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها فقرئ عليها فإذا فيه : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾. وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ **كتاب كريم** ﴾ قال : مختوم. وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ميمون بن مهران ،أن النبى ﷺ كان يكتب : « باسمك اللهم » حتى نزلت ﴿ **إنه**

من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . وأخرج أبو داود فى مراسيله عن أبى مالك مرفوعا مثله [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ أفتونى فى أمرى ﴾** قال : جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم فى رأيها ، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه ، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت : أرسل إليه بهدية فإن قبلها فهو ملك أقاتله ، وإن ردّها تابعته فهو نبىّ ، فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم ، فأمر الشياطين فموّهوا ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا وقصوره ذهب وفضة ، فلما دخلوا عليه بهديتها قال : **﴿ أتمدونن بمال ﴾** ثم قال سليمان : **﴿ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾** فقال كاتب سليمان: ارفع بصرك ، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير **﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾** فنزع منه فصوصه ومرافقه وما كان عليه من شىء فقيل لها: **﴿ أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾** وأمرالشياطين فجعلوا لها صرحا ممرّدا من قوارير وجعل فيها تماثيل السمك ، فقيل لها : **﴿ ادخلى الصرح ﴾** فكشفت عن ساقيها فإذا فيها شعر . فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت . فقيل لها : **﴿ إنه صرح ممرّد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾** .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : **﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾** قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : يقول الربّ تبارك وتعالى : **﴿ وكذلك يفعلون ﴾** . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: **﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ﴾** قال : أرسلت بلبنة من ذهب ، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله : **﴿ أتمدونن بمال ﴾** الآية . وقال ثابت البنانى: أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج . وقال مجاهد : جوارى لباسهن لباس الغلمان ، وغلمان لباسهم لباس الجوارى. وقال عكرمة : أهدت مائتى فرس على كل فرس غلام وجارية ، وعلى كلّ فرس لون ليس على الآخر . وقال سعيد بن جبير : كانت الهدية جواهر ، وقيل :غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره .

وأخرج ابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: **﴿ قبل أن يأتونى مسلمين ﴾** قال : طائعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه قال : اسم العفريت : صخر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه أيضا : **﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾** قال : من مجلسك . وأخرج ابن أبى حاتم ، عنه أيضا : **﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ﴾** قال : هو آصف بن برخيا ، وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم . وأخرج أبو عبيد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال فى قراءة ابن مسعود: « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا أنظر فى كتاب ربى ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٣٥) وقال المحقق : « رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبى مالك وهو ثقة » .

طرفك » قال: فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش فى نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم . وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس ، فى قوله: ﴿ **قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ قال : قال لسليمان: انظر إلى السماء ، قال : فما أطرف حتى جاءه به فوضعه بين يديه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض ، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدى سليمان (١) .

﴿ **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)** ﴾.

قوله : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ التنكير : التغيير ، يقول : غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته . قيل : جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه . وقيل : غير بزيادة ونقصان . قال الفراء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن فى عقلها شيئا ، فأراد أن يمتحنها. وقيل : خافت الجنّ أن يتزوّج بها سليمان ، فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدا، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الحمار ، وقوله : ﴿ **ننظر** ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ، وبالجزم قرأ الجمهور ، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف ﴿ **أتهتدى** ﴾ إلى معرفته ، أو إلى الإيمان باللّه ﴿ **أم تكون من الذين لا يهتدون** ﴾ إلى ذلك .

﴿ **فلما جاءت** ﴾ أى بلقيس إلى سليمان ﴿ **قيل** ﴾ لها ، والقائل هو سليمان ، أو غيره بأمره : ﴿ **أهكذا عرشك** ﴾ لم يقل : هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتم الاختبار لعقلها ﴿ **قالت كأنه هو** ﴾ قال مجاهد: جعلت تعرف وتنكر وتعجب من حضوره عند سليمان ، فقالت : كأنه هو . وقال مقاتل :عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها : أهذا عرشك ؟ لقالت : نعم . وقال عكرمة : كانت حكيمة ، قالت إن قلت : هو هو، خشيت أن أكذب ، وإن قلت : لا ، خشيت أن أكذب ، فقالت : كأنه هو ، وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ **وكنا مسلمين** ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدرة اللّه من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها .

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٩٠٣) .

وقيل: هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال .

﴿ **وصدّها ما كانت تعبد من دون الله** ﴾ هذا من كلام اللّه سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادّعته من الإسلام ، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد ، أى منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده ، وهى الشمس . قال النحاس : أى صدّها عبادتها من دون اللّه . وقيل :فاعل صد هو الله ، أى منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون « ما » فى محل نصب . وقيل : الفاعل سليمان ، أى ومنعها سليمان ما كانت تعبد ، والأول أولى ، والجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا ، وجملة : ﴿ **إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ تعليل للجملة الأولى ، أى سبب تأخرها عن عبادة اللّه ، ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر . قرأ الجمهور : ﴿ **إنها** ﴾ بالكسر. وقرأ أبو حيان بالفتح . وفى هذه القراءة وجهان : أحدهما : أن الجملة بدل مما كانت تعبد . والثانى : أن التقدير : لأنها كانت تعبد ، فسقط حرف التعليل .

﴿ **قيل لها ادخلى الصرح** ﴾. قال أبو عبيدة : الصرح: القصر. وقال الزجاج : الصرح : الصحن . يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها . قال ابن قتيبة : الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير وجعل تحته ماء وسمك. وحكى أبو عبيد فى الغريب أن الصرح: كل بناء عال مرتفع ، وأن الممرّد : الطويل ﴿ **فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها** ﴾ أى فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة ، واللجة : معظم الماء ، فلذلك كشفت عن ساقيها لتخوض الماء ، فلما فعلت ذلك ﴿ **قال** ﴾ سليمان : ﴿ **إنه صرح ممرّد من قوارير** ﴾ الممرّد : المحكوك المملس ، ومنه الأمرد ، وتمرد الرجل إذا لم تخرج لحيته ، قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء : التى لا ورق لها . والممرّد أيضا : المطوّل ، ومنه قيل للحصن : مارد، ومنه قول الشاعر :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم   قبيل الضحى فى السابرى الممرّد

أى الدروع الواسعة الطويلة . فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت ، قالت : ﴿**ربّ إنى ظلمت نفسى**﴾ أى بما كنت عليه من عبادة غيرك . وقيل : بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها توهمت أنه أراد تغريقها فى اللجة ، والأوّل أولى ﴿ **وأسلمت مع سليمان** ﴾ متابعة له داخلة فى دينه ﴿ **لله ربّ العالمين** ﴾ التفتت من الخطاب إلى الغيبة ، قيل : لإظهار معرفتها باللّه ، والأولى أنها التفتت لما فى هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علما للذات . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ قال : زيد فيه ونقص ﴿ **ننظر أتهتدى** ﴾ قال : لننظر إلى عقلها فوجدت ثابتة العقل .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها** ﴾ قال : من قول سليمان . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد نحوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما رأته حسبته لجة** ﴾ قال : بحرا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم

عنه فى أثـر طويل ؛أن سليمان تزوّجها بعد ذلك . قال أبو بكر بن أبى شيبة : ما أحسنه من حديث . قال ابن كثير فى تفسيره بعد حكايته لقول أبى بكر بن أبى شيبة : بل هو منكر جدا، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم . والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب بما يوجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلا إلى هذه الأمة من بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حـرّف وبدّل ونسخ . انتهى [١] . وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه فى هذا التفسير ونبهنا عليه فى عدة مواضع ، وكنت أظنّ أنه لم ينبه على ذلك غيرى . فالحمد لله على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، والعقيلى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أوّل من صنعت له الحمامات سليمان » [٢] . وروى عنه مرفوعا من طريق أخرى رواها الطبرانى ، وابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى الشعب بلفظ : « أوّل من دخل الحمام سليمان فلما وجد حرّه قال : أوّه من عذاب الله » [٣] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾معطوف على قوله : ﴿ **ولقد آتينا داود** ﴾ واللام هى الموطئة للقسم ، وهذه القصة من جملة بيان قوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ و﴿**صالحا** ﴾ عطف بيان ، و﴿ **أن اعبدوا الله** ﴾ تفسير للرسالة وأن هى المفسرة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن اعبدوا الله ، و « إذا » فى ﴿ **فإذا هم فريقان** ﴾ هى الفجائية ، أى ففاجئوا التفرق والاختصام ، والمراد بـالـ ﴿ **فريقان** ﴾ : المؤمنون منهم والكافرون . ومعنى

(١) ابن كثير ٥/ ٢٤٠ .

(٢) البخارى فى التاريخ ١/ ٣٦٢ وقال : « إسماعيل بن عبد الرحمن لا يتابع عليه ، فيه نظر » .

(٣) ابن عدى ١/ ٢٨٦ والبيهقى فى الشعب (٧٧٧٨) ط:دار الكتب العلمية ، وقد تفرد به إسماعيل بن عبد الرحمن وسبق تعليق البخارى عليه . انظر : لسان الميزان ١/ ٤٦٧ .

الاختصام : أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه ويزعم أن الحقّ معه . وقيل : إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا ؟ وقيل : أحد الفريقين صالح ، والفريق الآخر جميع قومه ، وهو ضعيف .

﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أى قال صالح للفريق الكافر منهم منكرا عليهم : لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة . والمعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب وتقدّمون الكفر الذى يجلب إليكم العقوبة ؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون : ائتنا يا صالح بالعذاب ﴿ **لولا تستغفرون الله** ﴾ هلا تستغفرون الله وتتوبون إليه من الشرك ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ رجاء أن ترحموا أوكى ترحموا فلا تعذبوا ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشرّ ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازا ؛ إما لأن العقاب من لوازمه ؛ أوأنه يشبهه فى كونه مكروها ، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم ﴿ **قالوا اطيرنا بك وبمن معك** ﴾ أصله تطيرنا ،وقد قرئ بذلك. والتطير : التشاؤم ، أى تشاءمنا بك وبمن معك ممن أجابك ودخل فى دينك وذلك ؛ لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح ، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهم بها وكانوا إذا أرادوا سفرا أو أمرا من الأمور نفروا طائرا من وكره فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك قال لهم صالح: ﴿ **طائركم عند الله** ﴾ أى ليس ذلك بسبب الطير الذى تتشاءمون به ، بل سبب ذلك عند الله ، وهو ما يقدّره عليكم ، والمعنى : أن الشؤم الذى أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم وهذا كقوله تعالى : ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ [الأعراف : ١٣١] . ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان ، فقال : ﴿ **بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ أى تمتحنون وتختبرون . وقيل : تعذبون بذنوبكم . وقيل : يفتنكم غيركم . وقيل : يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعى إليه .

﴿ **وكان فى المدينة** ﴾ التى فيها صالح ، وهو الحجر ﴿ **تسعة رهط** ﴾ أى تسعة رجال من أبناء الأشراف . والرهط : اسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كلّ واحد منهم جماعة . والجمع أرهط وأراهط . وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة . ثم وصف هؤلاء بقوله : ﴿ **يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ أى شأنهم وعملهم الفساد فى الأرض الذى لا يخالطه صلاح،وقد اختلف فى أسماء هؤلاء التسعة اختلافا كثيرا لا حاجة إلى التطويل بذكره . ﴿ **قالوا تقاسموا بالله** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله ، هذا على أن ﴿ **تقاسموا** ﴾ فعل أمر ، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا ، كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقال : تقاسموا ، أو يكون حالا على إضمار قد ، أى قالوا ذلك متقاسمين . وقرأ ابن مسعود : « يفسدون فى الأرض ولا يصلحون تقاسموا بالله » وليس فيها قالوا ، واللام فى ﴿ **لنبيتنه وأهله** ﴾ جواب القسم ، أى لنأتينه بغتة فى وقت البيات ، فنقتله وأهله ﴿ **ثم لنقولن لوليه** ﴾ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم فى

﴿لنبيتنه﴾ وفى ﴿ لنقولن ﴾ ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ حمزة والكسائى بالفوقية فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ مجاهد وحميد بالتحتية فيهما ، والمراد بولىّ صالح : رهطه ﴿ ما شهدنا مهلك أهله ﴾ أى ما حضرنا قتلهم ولا ندرى من قتله وقتل أهله ، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفى شهودهم لنفس القتل بالأولى ، وقيل : إن المهلك بمعنى : الإهلاك ، وقرأ حفص والسلمى مهلك بفتح الميم واللام، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم وكسرها (١) . ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما قلناه . قال الزجاج : وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه وكان هذا مكرا منهم ؛ ولهذا قال اللّه سبحانه: ﴿ومكروا مكرا ﴾ أى بهذه المحالفة ﴿ ومكرنا مكرا ﴾ جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بمكر اللّه بهم .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ أى انظر ما انتهى إليه أمرهم الذى بنوه على المكر وما أصابهم بسببه ﴿ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ قرأ الجمهور بكسر همزة أنا ، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش والحسن وابن أبى اسحاق وعاصم بفتحها ، فمن كسر جعله استئنافا . قال الفراء والزجاج : من كسر استأنف، وهو يفسر به ما كان قبله . كأنه جعله تابعا للعاقبة ، كأنه قال: العاقبة إنا دمرناهم ،وعلى قراءة الفتح يكون التقدير: بأنا دمرناهم أو لأنا دمرناهم ، وكان تامة وعاقبة فاعل لها ، أو يكون بدلا من عاقبة ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى هى أنا دمرناهم ويجوز أن تكون كان ناقصة وكيف خبرها ، ويجوز أن يكون خبرها أنا دمرنا . قال أبو حاتم : وفى حرف أبى : « أن دمرناهم » . والمعنى فى الآية : أن اللّه دمر التسعة الرهط المذكورين . ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك ، ومعنى التأكيد بأجمعين : أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وجملة : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ مقرّرة لما قبلها . قرأ الجمهور : ﴿ خاوية ﴾ بالنصب على الحال . قال الزجاج : المعنى : فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية ، وكذا قال الفراء والنحاس ، أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : نصب خاوية على القطع . والأصل : فتلك بيوتهم الخاوية . فلما قطع منها الألف واللام نصبت كقوله : ﴿ وله الدين واصبا ﴾ [النحل : ٥٢] . وقرأ عاصم بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى وعيسى بن عمر برفع ﴿ خاوية ﴾ على أنه خبر اسم الإشارة وبيوتهم بدل ، أو عطف بيان ، أو خبر لاسم الإشارة وخاوية خبر آخر . والباء فى : ﴿ بما ظلموا ﴾ للسببية ، أى بسبب ظلمهم ﴿ إن فى ذلك ﴾ التدمير والإهلاك ﴿ لآية ﴾ عظيمة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى يتصفون بالعلم بالأشياء . ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ وهم صالح ومن آمن به ﴿ وكانوا يتقون ﴾ اللّه ويخافون عذابه .

(١) فى المخطوطة : « قرأ حفص والسلمى مهلك بفتح الميم واللام، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم وكسر اللام» ، وفى العبارة قلب إذ الثابت أن حفصا قرأ بفتح الميم وكسر اللام وكذا السلمى، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم واللام . انظر : النشر فى القراءات العشر ٢/ ٣١١ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **طائركم** ﴾ قال : مصائبكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وكان فى المدينة تسعة رهط** ﴾ قال : هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها : نبيت صالحا وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به علم فدمرهم اللّه أجمعين .

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)** ﴾.

انتصاب ﴿ **لوطا** ﴾ بفعل مضمر معطوف على أرسلنا ، أى وأرسلنا لوطا ، و ﴿ **إذ قال**﴾ ظرف للفعل المقدر ويجوز أن يقدر : اذكر ؛ والمعنى : وأرسلنا لوطا وقت قوله لقومه:﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ أى الفعلة المتناهية فى القبح والشناعة ، وهم أهل سدوم ، وجملة : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ فى محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار ، أى وأنتم تعلمون أنها فاحشة. وذلك أعظم لذنوبكم ، على أن ﴿ **تبصرون** ﴾ من بصر القلب ، وهو العلم ، أو بمعنى النظر؛ لأنهم كانوا لا يسترون حال فعل الفاحشة عتوا وتمردا ، وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف مستوفى . ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال شهوة** ﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هى اللواطة ، وانتصاب ﴿ **شهوة** ﴾ على العلة ، أى للشهوة ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى إتيانا شهوة ، أو أنه بمعنى الحال ، أى مشتهين لهم ﴿ **من دون النساء** ﴾ أى

متجاوزين النساء اللاتى هنّ محل لذلك ﴿ **بل أنتم قوم تجهلون** ﴾ التحريم أو العقوبة على هذه المعصية ، واختار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة من أئنكم .

﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ **جواب** ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ أى إلا قولهم . وقرأ ابن أبى إسحاق برفع جواب على أنه اسم كان وخبرها ما بعده . ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضا من الإخراج بقولهم : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ أى يتنزهون عن أدبار الرجال : قالوا ذلك استهزاء منهم بهم. ﴿ **فأنجيناه وأهله** ﴾ من العذاب ﴿ **إلا امرأته قدّرناها من الغابرين** ﴾ أى قدّرنا أنها من الباقين فى العذاب ، ومعنى ﴿ **قدرنا** ﴾ : قضينا قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد ، وقرأ عاصم بالتخفيف . والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى . ﴿**وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ هذا التأكيد يدل على شدة المطر وأنه غير معهود ﴿ **فساء مطر المنذرين**﴾ المخصوص بالذم محذوف ، أى ساء مطر المنذرين مطرهم ، والمراد بالمنذرين : الذين أنذروا فلم يقبلوا ، وقد مضى بيان هذا كله فى الأعراف والشعراء .

﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده** ﴾ قال الفراء : قال أهل المعانى : قيل للوط : قل : الحمد للّه على هلاكهم، وخالفه جماعة فقالوا : إن هذا خطاب لنبينا ﷺ ، أى قيل : الحمد للّه على هلاك كفار الأمم الخالية ، وسلام على عباده ﴿ **الذين اصطفى** ﴾ قال النحاس : وهذا أولى لأن القرآن منزل على النبى ﷺ وكلّ ما فيه فهو مخاطب به إلا ما لم يصحّ معناه إلا لغيره . قيل : والمراد بعباده الذين اصطفى : أمة محمد ﷺ، والأولى حمله على العموم ، فيدخل فى ذلك الأنبياء(١) وأتباعهم ﴿ **آلله خير أما يشركون** ﴾ أى اللّه الذى ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام ؟ وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلى ، بل هى كقول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما فى الآية من باب التهكم بهم ، إذ لا خير فيهم أصلا . وقد حكى سيبويه أن العرب تقول : السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة ، ولا خير فى الشقاوة أصلا . وقيل : المعنى : أثواب اللّه خير ، أم عقاب ما تشركون به ؟ وقيل : قال لهم ذلك جريا على اعتقادهم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا . وقيل: المراد من هذا الاستفهام : الخبر . قرأ الجمهور : « تشركون » بالفوقية على الخطاب ، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿ **يشركون** ﴾ بالتحتية ، و« أم » فى ﴿ **أما يشركون** ﴾ هى المتصلة ، وأما فى قوله : ﴿ **أمن خلق السموات والأرض** ﴾ فهى المنقطعة . وقال أبو حاتم : تقديره : ءالهتكم خير أم من خلق السموات والأرض وقدر على خلقهنّ ؟ وقيل : المعنى : أعبادة ما

---

(١) فى المطبوعة :« الأنباء » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تعبدون من أوثانكم خير ، أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فتكون « أم » على هذا متصلة وفيها معنى التوبيخ والتهكم كما فى الجملة الأولى . وقرأ الأعمش: « أمن » بتخفيف الميم ﴿**وأنزل لكم من السماء ماء**﴾ أى نوعا من الماء ،وهو المطر ﴿ **فأنبتنا به حدائق** ﴾ جمع حديقة. قال الفراء : الحديقة : البستان الذى عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق : النخل ﴿ **ذات بهجة** ﴾ أى ذات حسن ورونق . والبهجة : هى الحسن الذى يبتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة على الجمع ؛ لأن المعنى : جماعة حدائق ﴿ **ما كان لكم أن تنبتوا شجرها** ﴾ أى ما صح لكم أن تفعلوا ذلك ، ومعنى هذا النفى : الحظر والمنع من فعل هذا ، أى ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ذلك ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشىء من العدم إلى الوجود . ثم قال سبحانه موبخا لهم مقرّعا ﴿ **أإله مع الله** ﴾ أى هل معبود مع اللّه الذى تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل شريكا له فى العبادة ؟ وقرئ:« أإلها مع اللّه » بالنصب على تقدير: أتدعون إلها . ثم أضرب عن تقريعهم وتوبيخهم بما تقدم وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فقال: ﴿ **بل هم قوم يعدلون** ﴾ أى يعدلون باللّه غيره، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل .

ثم شرع فى الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها فقال :﴿ **أمن جعل الأرض قرارا** ﴾ القرار: المستقر ، أى دحاها وسوّاها بحيث يمكن الاستقرار عليها . وقيل : هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله : ﴿ **أمن خلق السموات والأرض** ﴾ ولا ملجئ لذلك ، بل هى وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشىء آخر ﴿ **وجعل خلالها أنهارا** ﴾ الخلال : الوسط . وقد تقدّم تحقيقه فى قوله : ﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾ [الكهف: ٣٣] ، ﴿ **وجعل لها رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة ﴿ **وجعل بين البحرين حاجزا** ﴾ الحاجز : المانع ، أى جعل بين البحرين من قدرته حاجزا ، والبحران هما : العذب والمالح ، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يدخل فى هذا ، وقد مرّ بيانه فى سورة الفرقان ﴿ **أإله مع الله** ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه فهل إله فى الوجود يصنع صنعه ويخلق خلقه؟ فكيف يشركون به مالا يضرّ ولا ينفع ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ توحيد ربهم وسلطان قدرته .

﴿ **أمن يجيب المضطرّ إذا دعاه** ﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار ، وهو المكروب المجهود الذى لا حول له ولا قوة . وقيل : هو المذنب ، وقيل : هو الذى عراه ضرّ من فقر أو مرض ، فألجأه إلى التضرّع إلى اللّه . واللام فى ﴿ **المضطر** ﴾ للجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه ، وإلا فقد ضمن اللّه سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه فى إجابه دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص وقطع النظر عما سوى اللّه ، وقد أخبر الله

سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين وإن كانوا كافرين فقال : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا اللّه مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ [يونس:٢٢] ، وقال : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . فأجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم **﴿ويكشف السوء ﴾** أى الذى يسوء العبد من غير تعيين ، وقيل : هو الضر ، وقيل : هو الجور **﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾** أى يخلف كل قرن منكم القرن الذى قبله بعد انقراضهم ، والمعنى : يهلك قرنا وينشئ آخرين . وقيل : يجعل أولادكم خلفا منكم . وقيل : يجعل المسلمين خلفا من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم **﴿أإله مع الله ﴾** الذى يوليكم هذه النعم الجسام **﴿ قليلا ما تذكرون ﴾** أى تذكرا قليلا ما تذكرون . قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب بالتحتية على الخبر ردّا على قوله : **﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾** واختار هذه القراءة أبو حاتم .

﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ﴾ أي يرشدكم فى الليالى المظلمات إذا سافرتم فى البرّ أو البحر . وقيل: المراد : مفاوز البرّ التى لا أعلام لها ولجج البحار ، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها **﴿ ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾** والمراد بالرحمة هنا: المطر، أى يرسل الرياح بين يدى المطر ، وقبل نزوله **﴿ أإله مع الله ﴾** يفعل ذلك ويوجده **﴿تعالى الله عما يشركون ﴾** أى تنزه وتقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكا له . **﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾** كانوا يقرّون بأن اللّه سبحانه هو الخالق فألزمهم الإعادة ، أى إذا قدر على الابتداء قدر على الإعادة **﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾** بالمطر والنبات ، أى هو خير أم ما تجعلونه شريكا له مما لا يقدر على شيء من ذلك **﴿ أإله مع الله ﴾** حتى تجعلونه شريكا له **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾** أى حجتكم على أن لله سبحانه شريكا ، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعا يصنع كصنعه ، وفى هذا تبكيت لهم وتهكم بهم **﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾** أى لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات والأرض الغيب الذى استأثر اللّه بعلمه ، والاستثناء فى قوله إلا اللّه منقطع ، أى لكن اللّه يعلم ذلك ، ورفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعا هو على اللغة التميمية كما فى قولهم :

إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل : إن فاعل **﴿ يعلم ﴾** هو ما بعد إلا ، و **﴿ من فى السموات ﴾** مفعوله ، و**﴿الغيب﴾** بدل من « من » ، أى لا يعلم غيب من فى السموات والأرض إلا اللّه ، وقيل : هو استثناء متصل من « من » . وقال الزجاج : **﴿ إلا الله﴾** بدل من « من » . قال الفراء : وإنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر كقولهم : ما ذهب أحد إلا أبوك وهو كقول الزجاج . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء **﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾** أى لا يشعرون

متى ينشرون من القبور ، وأيان مركبة من أى وإن . وقد تقدّم تحقيقه ، والضمير للكفرة . وقرأ السلمى :« إيان » بكسر الهمزة ، وهى لغة بنى سليم وهى منصوبة بـ « يبعثون » ومعلقة لـ « يشعرون » ، فتكون هى وما بعدها فى محل نصب بنزع الخافض ، أى وما يشعرون بوقت بعثهم ، ومعنى أيان معنى متى .

﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **ادّارك** ﴾ . وأصل ادارك : تدارك ، أدغمت التاء فى الدال وجيء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمر وحميد : « بل أدرك » من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار وسليمان بن يسار والأعمش: « بل ادّرك » بفتح لام بل وتشديد الدال . وقرأ ابن محيصن : « بل أدرك » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس وأبو رجاء وشيبة والأعمش والأعرج : « بلى أدّارك» بإثبات الياء فى بل وبهمزة قطع وتشديد الدال . وقرأ أبىّ « بل تدارك » ومعنى الآية : بل تكامل علمهم فى الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه . وقيل : معناه : تتابع علمهم فى الآخرة ، والقراءة الثانية معناها كمل علمهم فى الآخرة مع المعاينة وذلك حين لا ينفعهم العلم ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا مكذبين . وقال الزجاج : إنه على معنى الإنكار ، واستدلّ على ذلك بقوله فيما بعد : ﴿ **بل هم منها عمون** ﴾ أى لم يدرك علمهم علم الآخرة ، وقيل : المعنى : بل ضلّ وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم ، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى فافتعل وتفاعل قد يجيئان لمعنى ، والقراءة الرابعة هى بمعنى الإنكار . قال الفراء : وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم ، وفى الآية قراءات أخر لا ينبغى الاشتغال بذكرها وتوجيهها . ﴿ **بل هم فى شك منها** ﴾ أى بل هم اليوم فى الدنيا فى شك من الآخرة . ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشد منه فقال : ﴿ **بل هم منها عمون** ﴾ فلا يدركون شيئا من دلائلها لاختلال بصائرهم التى يكون بها الإدراك ، وعمون جمع عم : وهو من كان أعمى القلب ، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شيء مما يوصل إلى العلم بها ، فمن قال : إن معنى الآية الأولى أعنى ﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ أنه كمل علمهم وتمّ مع المعاينة فلابدّ من حمل قوله: ﴿ **بل هم فى شك** ﴾ إلخ على ما كانوا عليه فى الدنيا ، ومن قال: إن معنى الآية الأولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم يحتج إلى تقييد قوله : ﴿ **بل هم فى شك** ﴾ إلخ بما كانوا عليه فى الدنيا . وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهورا بينا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ . قال : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه ، وروى مثله عن سفيان الثورى . والأولى ما قدمناه من التعميم فيدخل فى ذلك أصحاب نبينا ﷺ دخولا أوليا . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى والطبرانى ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت: يا رسول الله ، إلى ما تدعو ؟ قال : « أدعو الله وحده الذى إن مسك ضرّ فدعوته كشفه عنك » هذا طرف من حديث طويل . وقد رواه أحمد من وجه آخر

فبين اسم الصحابى فقال :حدّثنا عفان ، حدّثنا حماد بن سلمة ،حدّثنا يونس ،حدّثنا عبيد بن عبيدة الهجيمى عن أبيه عن أبى تميمة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى . ولهذا الحديث طرق عند أبى داود والنسائى (١) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . وقالت فى آخره : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول: ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ قال : حين لا ينفع العلم . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عنه أنه قرأ :« بل أدرك علمهم فى الآخرة » قال : لم يدرك علمهم . قال أبو عبيد : يعنى أنه قرأها بالاستفهام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : « بل ادّرك علمهم فى الآخرة » يقول : غاب علمهم .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢)** ﴾.

لما ذكر سبحانه أن المشركين فى شك من البعث وأنهم عمون عن النظر فى دلائله أراد أن

---

(١) أحمد ٥/ ٦٤ وأبو داود فى اللباس (٤٠٨٤) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٥٥) ومسلم فى الإيمان (١٧٧/ ٢٨٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٨) وقال : « حسن صحيح » .

يبين غاية شبههم وهى مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم ترابا فقال : ﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ﴾ والعامل فى « إذا » محذوف دلّ عليه ﴿ مخرجون ﴾ تقديره : أنبعث أو نخرج إذا كنا ، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء بينهما . قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة باستفهامين ، إلا أنهما حققا الهمزتين. وقرأ نافع بهمزة . وقرأ ابن عامر وورش(١) ويعقوب . ﴿ أإذا ﴾ بهمزتين و﴿ إننا ﴾ بنونين على الخبر ، ورجح أبو عبيد قراءة نافع ، وردّ على من جمع بين استفهامين ؛ ومعنى الآية : أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا ترابا ، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: ﴿ لقد وعدنا هذا ﴾ يعنون البعث ﴿ نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أى من قبل وعد محمد لنا ، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدّرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿ إن هذا ﴾ الوعد بالبعث ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة ، وقد تقدّم تحقيق معنى الأساطير فى سورة المؤمنون .

ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث ، فأمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث ومعنى النظر هو : مشاهدة آثارهم بالبصر ، فإن فى المشاهدة زيادة اعتبار . وقيل: المعنى : فانظروا بقلوبكم وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ، والأوّل أولى لأمرهم بالسير فى الأرض ﴿ولا تحزن عليهم ﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿ ولا تكن فى ضيق ﴾ الضيق الحرج ، يقال : ضاق الشيء ضيقا بالفتح وضيقا بالكسر قرئ بهما ، وهما لغتان . قال ابن السكيت : يقال : فى صدر فلان ضيق وضيق وهو ما تضيق عنه الصدور . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى آخر سورة النحل ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أى بالعذاب الذى تعدنا به ﴿إن كنتم صادقين ﴾ فى ذلك .

﴿ قل عسى أن يكون ردف لكم ﴾ يقال: ردفت الرجل وأردفته: إذا ركبت خلفه ،وردفه : إذا أتبعه وجاء فى أثره ، والمعنى : قل يا محمد ، لهؤلاء الكفار : عسى أن يكون هذا العذاب الذى به توعدون تبعكم ولحقكم ، فتكون اللام زائدة للتأكيد ، أو بمعنى : اقترب لكم ودنا لكم ، فتكون غير زائدة . قال ابن شجرة : معنى ردف لكم: تبعكم ، قال: ومنه ردف المرأة ، لأنه تبع لها من خلفها ، ومنه قول أبى ذؤيب :

عاد السواد بياضا فى مفارقه ... لا مرحبا ببياض الشيب إذ زدفا

قال الجوهرى: وأردفه لغة فى ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ... ظننت بآل فاطمة الظنونا

(١) فى المخطوطة : « ابن عامر وورش ويعقوب » ، وفى القرطبى : « والكسائى وابن عامر ورويس ويعقوب » . انظر : القرطبى ٧/ ٤٩٤٤ .

قال الفراء : ردف لكم دنا لكم ولهذا قيل : لكم . وقرأ الأعرج : « ردف لكم » بفتح الدال وهى لغة والكسر أشهر . وقرأ ابن عباس : « أزف لكم » وارتفاع ﴿ **بعض الذى تستعجلون** ﴾ أى على أنه فاعل ردف ، والمراد : بعض الذى تستعجلونه من العذاب ، أى عسى أن يكون قد قرب ودنا وأزف بعض ذلك ، قيل : هو عذابهم بالقتل يوم بدر . وقيل: هو عذاب القبر . ثم ذكر سبحانه فضله فى تأخير العذاب فقال : ﴿ **وإن ربك لذو فضل على الناس** ﴾ فى تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون**﴾ فضله وإنعامه ولا يعرفون حق إحسانه .

ثم بين أنه مطلع على ما فى صدورهم ، فقال : ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم** ﴾ أى ما تخفيه . قرأ الجمهور: ﴿ **تكن** ﴾ بضم التاء من أكنّ . وقرأ ابن محيصن وابن السميفع وحميد بفتح التاء وضم الكاف ، يقال : كننته بمعنى : سترته وخفيت أثره ﴿ **وما يعلنون** ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم . ﴿ **وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال المفسرون : ما من شىء غائب وأمر يغيب عن الخلق فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين إلا هو مبين فى اللوح المحفوظ ، وغائبة هى من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة . قال الحسن : الغائبة هنا هى : القيامة . وقال مقاتل : علم ما تستعجلون من العذاب هو مبين عند الله وإن غاب عن الخلق . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا : جميع ما أخفى الله عن خلقه وغيبه عنهم مبين فى أمّ الكتاب ، فكيف يخفى عليه شىء من ذلك ؟ ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت ومؤجل بأجل علمه عند الله ، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له ؟

﴿ **إن هذا القرآن يقصّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرّقوا فرقا وتحزّبوا أحزابا يطعن بعضهم على بعض ويتبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن مبينا لما اختلفوا فيه من الحق ،فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرّقهم. ﴿ **وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ أى وإنّ القرآن لهدى ورحمة لمن آمن بالله وتابع رسوله ، وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به ، ومن جملتهم من آمن من بنى إسرائيل . ﴿ **إن ربك يقضى بينهم بحكمه** ﴾ أى يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بما يحكم به من الحق فيجازى المحق ويعاقب المبطل . وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا فيظهر ما حرّفوه . قرأ الجمهور : ﴿**بحكمه** ﴾ بضم الحاء وسكون الكاف . وقرأ جناح بكسرها وفتح الكاف جمع حكمة ﴿ **وهو العزيز العليم** ﴾ العزيز : الذى لا يغالب ، والعليم : بما يحكم به ، أو الكثير العلم .

ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة ، فقال : ﴿ **فتوكل على الله** ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدّم ذكره، والمعنى: فوّض إليه أمرك واعتمد عليه فإنه ناصرك. ثم علل ذلك بعلتين : الأولى: قوله : ﴿ **إنك على الحق المبين** ﴾ أى الظاهر ، وقيل : المظهر . والعلة الثانية : قوله : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى فى انتفاء الجدوى بالسماع ، أو

كحال الصمّ الذين لا يسمعون ولا يفهمون ولا يهتدون ؛ صار ذلك سببا قويا فى عدم الاعتداد بهم . شبه الكفار بالموتى الذين لا حسّ لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء إلى الله . ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال : ﴿ **إذا ولوا مدبرين**﴾ أى إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما ، فإن الأصمّ لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلا فكيف إذا كان معرضا عنه موليا مدبرا ؟ وظاهر نفى إسماع الموتى العموم ، فلا يخصّ منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ خاطب القتلى فى قليب بدر ، فقيل له : يا رسول الله ، إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها (١) وكذلك ما ورد من أن « الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا » (٢) . وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبى إسحاق : « لا يسمع » بالتحتية مفتوحة وفتح الميم ، وفاعله الصمّ . وقرأ الباقون :﴿ **تسمع** ﴾ بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع . قال قتادة : الأصمّ إذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع ، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان .

ثم ضرب العمى مثلا لهم فقال : ﴿ **وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم** ﴾ أى ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشادا يوصله إلى المطلوب منه وهو الإيمان ، وليس فى وسعك ذلك ، ومثله قوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ [القصص : ٥٦] . قرأ الجمهور بإضافة هادى إلى العمى . وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيان : « بهاد العمى » بتنوين هاد. وقرأ حمزة : « تهدى » فعلا مضارعا ، وفى حرف عبد الله : « وما أن تهدى العمى » . ﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أى ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر، والمراد بمن يؤمن بالآيات : من يصدّق القرآن، وجملة : ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ تعليل للإيمان ، أى فهم منقادون مخلصون .

ثم هدد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها :فقال:﴿ **وإذا وقع القول عليهم** ﴾. واختلف فى معنى وقوع القول عليهم ، فقال قتادة : وجب الغضب عليهم : وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقيل : حق العذاب عليهم ، وقيل : وجب السخط ، والمعانى متقاربة . وقيل : المراد بالقول : ما نطق به القرآن من مجىء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التى كانوا يستعجلونها . وقيل : وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم . وقيل : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . والحاصل أن المراد بوقع : وجب ، والمراد بالقول : مضمونه ، أو أطلق المصدر على المفعول ، أى القول . وجواب الشرط : ﴿ **أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ . واختلف فى هذه الدابة علي أقوال ، فقيل : إنها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة ويكون من أشراط الساعة . وقيل : هى دابة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها : الجساسة . وقيل : هى دابة على خلقة بنى آدم وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض . وقيل : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إيَّل،

(١) مسلم فى الجنة (٢٨٧٣/ ٧٦) وفى المطبوعة : « أجسادا أرواح لها » والصحيح ماأثبتناه من المخطوطة .
(٢) مسلم فى الجنة (٢٨٧٠/ ٧١) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣١) ورواه أحمد ٢/ ٤٤٥ عن أبى هريرة .

وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا . وقيل : هى الثعبان المشرف على جدار الكعبة التى اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . والمراد : أنها هى التى تخرج فى آخر الزمان . وقيل : هى دابة ما لها ذنب ولها لحية . وقيل : هى إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره وقد رجح القول الأوّل القرطبى فى تفسيره .

واختلف من أى موضع تخرج ؟ فقيل : من جبل الصفا بمكة . وقيل : تخرج من جبل أبى قبيس . وقيل : لها ثلاث خرجات : خرجة فى بعض البوادى حتى يتقاتل عليها الناس ، وتكثر الدماء ثم تكمن ، وتخرج فى القرى ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها . وقيل : تخرج من بين الركن والمقام. وقيل: تخرج فى تهامة . و قيل : من مسجد الكوفة من حيث فار التنور . وقيل : من أرض الطائف . وقيل : من صخرة من شعب أجياد . وقيل : من صدع فى الكعبة. واختلف فى معنى قوله : ﴿ **تكلمهم** ﴾ فقيل : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوؤهم . وقيل : تكلمهم بقوله تعالى : ﴿**أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ أى بخروجها ؛لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور : ﴿ **تكلمهم** ﴾ من التكليم ، ويدلّ عليه قراءة أبىّ : « تنبئهم » وقرأ ابن عباس وأبو زرعة وأبو رجاء والحسن: « تكلمهم » بفتح الفوقية وسكون الكاف من الكلم ، وهو الجرح . قال عكرمة: أى تسمهم وسما . وقيل : تجرحهم . وقيل : إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف وسكون اللام وهو الجرح ، والتشديد للتكثير ، قاله أبو حاتم . قرأ الجمهور : « إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » بكسر إن على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحاق بفتح «أن» . قال الأخفش : المعنى على قراءة الفتح : « بأن الناس » . وكذا قرأ ابن مسعود : «بأن الناس» بالباء . وقال أبو عبيد : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ، أى تخبرهم أن الناس ، وعلى هذه القراءة فالذى تكلم الناس به هو قوله: ﴿ **أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك . وأما على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة كما قدّمنا، ولا تكون من كلام الدابة. وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين ، وجزم بـه الكسائى والفـراء . وقال الأخفش : إن كسر « إن » هو على تقدير القول ، أى تقول لهم : « إن الناس » إلخ ، فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية، والمراد بالناس فى الآية : هم الناس على العموم ، فيدخل فى ذلك كل مكلف ، وقيل : المراد الكفار خاصة ، وقيل : كفار مكة ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عسى أن يكون ردف لكم** ﴾ قال : اقترب لكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون** ﴾ قال: يعلم ما عملوا بالليل والنهار . و أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

عنه أيضا : ﴿ **وما من غائبة** ﴾ الآية يقول : ما من شيء فى السماء والأرض سرّا ولا علانية إلا يعلمه . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله :﴿ **وإذا وقع القول عليهم** ﴾ الآية قال : إذا لم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر. وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية أنه فسر : ﴿ **وقع القول عليهم** ﴾ بما أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ قال : تحدّثهم . وأخرج ابن جرير عنه قال: كلامها: تنبئهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى داود نفيع الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **تكلمهم** ﴾ يعنى : هل هو من التكليم باللسان أو من الكلم وهو الجرح ؟ فقال : كل ذلك ، واللّه ، تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر ، أى تجرحه ، وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ليس ذلك حديثا ولا كلاما (١) ، ولكنها سمة تسم من أمرها اللّه به ، فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يجرح جارح ، حتى إذا فرغت مما أمرها اللّه به فهلك من هلك ونجا من نجا ، كان أوّل خطوة تضعها بأنطاكية » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: الدابة ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون ، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج . وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : «تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشترى الرجل الدابة ، فيقال له ممن اشتريتها ؟ فيقول : من الرجل المخطم » (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: إن للدابة ثلاث خرجات . وذكر نحو ما قدّمنا. وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد رفعه قال: تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة . وأخرج سعيد بن منصور ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : تخرج من بعض أودية تهامة .

وأخرج الطيالسى وأحمد ونعيم بن حماد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتخطم أنف الكافر بالعصا ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » (٣) . وأخرج الطيالسى ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن

(١) فى المخطوطة : « ليس ذلك حديث ولا كلام » بالرفع والصحيح ما أثبتناه بالنصب خبر ليس .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٩ : « رجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبد الرحمن بن عطية وهو ثقة » .

(٣) الطيالسى (٢٥٦٤) وأحمد ٢/ ٢٩٥ والترمذى فى التفسير (٣١٨٧) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٦) وابن جرير ٢٠/ ١١ والحاكم ٤/ ٤٨٥ وسكت عنه الذهبى .

أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن حذيفة بن أسيد الغفارىّ قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : «لها ثلاث خرجات من الدهر» (١) . وذكرنحو ما قدمنا فى حديث طويل . وفى صفتها ومكان خروجها وما تصنعه ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف . وأما كونها تخرج ، وكونها من علامات الساعة فالأحاديث الواردة فى ذلك صحيحة . ومنها ما هو ثابت فى الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات » (٢). وذكر منها الدابة فإنه فى صحيح مسلم وفى السنن الأربعة ، وكحديث:« بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها ،والدجال،والدابة »(٣). فإنه فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، وكحديث ابن عمرو (٤) مرفوعا : «إن أوّل الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى » (٥) فإنه فى صحيح مسلم أيضا .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة

(١) الطيالسى (١٠٦٩) وابن جرير ٢٠/ ١٠ وصححه الحاكم ٤/ ٤٨٤ وقال الذهبى : « فيه طلحة بن عمرو الحضرمى ضعفوه وتركه أحمد » .

(٢) مسلم فى الفتن (٢٩٠١/ ٣٩) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١١) والترمذى فى الفتن (٢١٨٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٠٠) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٥٥).

(٣) أحمد ٢/ ٣٣٧ ومسلم فى الفتن (٢٩٤٧/ ١٢٨) .

(٤) فى المطبوعة : « ابن عمر » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

(٥) أحمد ٢/ ٢٠١ ومسلم فى الفتن (٢٩٤١/ ١١٨) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١٠) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٩) .

فوجا ﴾ العامل فى الظرف فعل محذوف خوطب به النبى ﷺ ، والحشر: الجمع . قيل : والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق ، و « من » لابتداء الغاية ، والفوج: الجماعة كالزمرة ، و« من» فى **﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾** بيانية **﴿ فهم يوزعون ﴾** أى يحبس أولهم على آخرهم ، وقد تقدّم تحقيقه فى هذه السورة مستوفى . وقيل : معناه : يدفعون ، ومنه قول الشماخ :

وسمه وزعنا من خميس جحفل

ومعنى الآية : واذكر يا محمد ، يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم أو يدفعون ، أى اذكر لهم هذا أو بينه تحذيرا لهم وترهيبا . **﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾** إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيخا وتقريعا : **﴿ أكذّبتم بآياتى ﴾** التى أنزلتها على رسلى ، وأمرتهم بإبلاغها إليكم والحال أنكم **﴿ لم تحيطوا بها علما﴾** بل كذبتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها ولا مستدلين على صحتها أو بطلانها تمردا وعنادا وجرأة على الله وعلى رسله ، وفى هذا مزيد تقريع وتوبيخ ؛ لأن من كذب بشىء ولم يحط به علما فقدكذب فى تكذيبه ، ونادى على نفسه بالجهل وعدم الإنصاف ، وسوء الفهم ، وقصور الإدراك ، ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من العلوم الشرعية أو لذم علم هو مقدّمة من مقدّمتها ، ووسيلة يتوسل بها إليها ، ويفيد زيادة بصيرة فى معرفتها ، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها ، وهى اثنا عشر علما ، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية ، وهكذا كل علم من العلوم التى لها مزيد نفع فى فهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل ، طاعن على العلوم الشرعية ، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التى تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ، ولا يعلم به ، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره ، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول وركاك الأديان ورعاع المتلبسين بالعلم زورا وكذبا .

و« أم » فى قوله : **﴿ أماذا كنتم تعملون ﴾** هى المنقطعة ، والمعنى : أم أى شىء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها والتفكر فى معانيها ؟ وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم. **﴿ ووقع القول عليهم ﴾** قد تقدم تفسيره قريبا، والباء فى **﴿ بما ظلموا ﴾** للسببية، أى وجب القول عليهم بسبب الظلم الذى أعظم أنواعه الشرك بالله **﴿ فهم لا ينطقون ﴾** عند وقوع القول عليهم ، أى ليس لهم عذر ينطقون به ، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم . وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون .

ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد ، وعلى الحشر ، وعلى النبوّة مبالغة فى الإرشاد وإبلاء للمعذرة ، فقال : **﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾** أى جعلنا الليل للسكون والاستقرار والنوم ، وذلك بسبب ما

فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش ، والنهار مبصرا ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذى لا بدّ له منهم ، ووصف النهار بالإبصار ، وهو وصف للناس مبالغة فى إضاءته كأنه يبصر ما فيه . قيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : وجعلنا الليل مظلما ليسكنوا ، وحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه ، وتقدّم تحقيقه فى الإسراء وفى يونس . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور ﴿ **لآيات** ﴾ أى علامات ودلالات ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ بالله سبحانه .

ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ هو معطوف على ﴿ **ويوم نحشر** ﴾ منصوب بناصبه المتقدّم. قال الفراء: إن المعنى: وذلكم يوم ينفخ فى الصور ، والأوّل أولى . والصور : قرن ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدم فى الأنعام استيفاء الكلام عليه . والنفخات فى الصور ثلاث : الأولى : نفخة الفزع، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة البعث . وقيل : إنها نفختان ، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيرى والقرطبى(١) . وغيرهما. وقال الماوردى: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿ **ففزع من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ أى خافوا وانزعجوا لشدّة ما سمعوا . وقيل : المراد بالفزع هنا : الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا : إذا أسرعت إلى إجابتك ، والأوّل أولى بمعنى الآية . وإنما عبر بالماضى مع كونه معطوفا على مضارع : للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان . وقال الفراء : هو محمول على المعنى؛ لأن المعنى : إذا نفخ ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ أى إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة . واختلف فى تعيين من وقع الاستثناء له ، فقيل : هم الشهداء والأنبياء . وقيل : الملائكة . وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وقيل: الحور العين . وقيل : هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ ويمكن أن يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك ﴿ **وكل أتوه داخرين** ﴾ قرأ الجمهور:«آتوه » على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿ **أتوه** ﴾ فعلا ماضيا ، وكذا قرأ ابن مسعود . وقرأ قتادة : « وكل أتاه » . قال الزجاج : إن من قرأ على الفعل الماضى فقد وحد على لفظ كل ، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه ، وهو غلط ظاهر ، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها، بل التوحيد فى قراءة قتادة فقط، ومعنى﴿ **داخرين**﴾: صاغرين ذليلين ، وهو منصوب على الحال ، قرأ الجمهور : ﴿ **داخرين** ﴾ وقرأ الأعرج : «دخرين » بغير ألف ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة النحل .

﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ معطوف على ﴿ **ينفخ** ﴾ . والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكلّ من يصلح للرؤية ، و ﴿ **تحسبها جامدة** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ترى أو

---

(١) القرطبى ٧ / ٤٩٥٦ .

من مفعوله ؛ لأن الرؤية بصرية . وقيل : هى بدل من الجملة الأولى ، وفيه ضعف ، وهذه هى العلامة الثالثة لقيام الساعة ، ومعنى ﴿ **تحسبها جامدة**﴾ أى قائمة ساكنة ، وجملة: ﴿ **وهى تمرّ مر السحاب** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهى تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التى تسيرها الرياح . قال القتيبى : وذلك أن الجبال تجمع وتسير وهى فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير . قال القشيرى: وهذا يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى: ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ [النبأ : ٢٠] . قرأ أهل الكوفة تحسبها بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسرها ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شيء** ﴾ انتصاب ﴿ **صنع** ﴾ على المصدرية عند الخليل وسيبويه وغيرهما ، أى صنع اللّه ذلك صنعا . وقيل : هو مصدر مؤكد لقوله : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ . وقيل : منصوب على الإغراء، أى انظروا صنع اللّه ،ومعنى ﴿ **الذى أتقن كل شيء** ﴾: الذى أحكمه ، يقال : رجل تقن ، أى حاذق بالأشياء ، وجملة : ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شيء ، والخبير : المطلع على الظواهر والضمائر . قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالتحتية على الخبر .

﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ الألف واللام للجنس ، أى من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند اللّه خير منها ،أى أفضل منها وأكثر. وقيل: خير حاصل من جهتها ، والأول أولى . وقيل : المراد بالحسنة هنا : لا إله إلا اللّه. وقيل : هى الإخلاص . وقيل : أداء الفرائض ، والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص وإن قال به بعض السلف . قيل : وهذه الجملة بيان لقوله : ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ . وقيل : بيان لقوله : ﴿ **وكل أتوه داخرين**﴾ . قرأ عاصم وحمزة والكسائى : ﴿ **وهم من فزع** ﴾ بالتنوين وفتح ميم ﴿ **يومئذ** ﴾ . وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إلىّ ؛ لأنه أعم التأويلين لأن معناه : الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع . وقيل : إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر ، فتكون القراءتان بمعنى واحد . وقيل : المراد بالفزع ها هنا هو : الفزع الأكبر المذكور فى قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] . ووجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن ، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بنى ، وقد تقدم فى سورة هود كلام فى هذا مستوفى . ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار** ﴾ . قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم حتى قيل إنه مجمع عليه بين أهل التأويل : إن المراد بالسيئة هنا : الشرك ، ووجه التخصيص قوله : ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ ، فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك ، ومعنى ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ : أنهم كبوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها ، يقال : كببت الرجل : إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ ، وجملة : ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ بتقدير القول ، أى يقال ذلك ، والقائل خزنة جهنم ، أى ما تجزون إلا جزاء عملكم .

﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها** ﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة ، أى قل يا محمد : إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة وحده لا شريك له . والمراد بالبلدة : مكة ، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام ؛ ولكونها أحبّ البلاد إلى رسوله ، والموصول صفة للربّ ، وهكذا قرأ الجمهور. وقرأ ابن عباس وابن مسعود : « التى حرمها » على أن الموصول صفة للبلدة ، ومعنى ﴿**حرّمها**﴾ : جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصطاد صيدها ، ولا يختلى خلالها ﴿ **وله كل شىء** ﴾ من الأشياء خلقا وملكا وتصرّفا ، أى ولله كل شىء ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ أى المنقادين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه . والمراد بقوله : ﴿ **أن أكون** ﴾ : أن أثبت على ما أنا عليه ﴿**وأن أتلو القرآن**﴾ أى أداوم تلاوته وأواظب على ذلك . قيل : وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان ، والأول أولى ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه** ﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه، أى فمن اهتدى على العموم ، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه فعمل بما فيه من الإيمان بالله ، والعمل بشرائعه . قرأ الجمهور : ﴿ **وأن أتلو** ﴾ بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة وهى القراءة ، أو من التلوّ ، وهو الاتباع . وقرأ عبد الله : « وأن اتل » بحذف الواو أمرا له ﷺ وكذا وجهه الفراء . قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة ، وهى مخالفة لجميع المصاحف ﴿ **ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين** ﴾ أى ومن ضلّ بالكفر وأعرض عن الهداية فقل له : إنما أنا من المنذرين ، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم وليس علىّ غير ذلك . وقيل : الجواب محذوف ، أى فوبال ضلاله عليه ، وأقيم ﴿ **إنما أنا من المنذرين** ﴾ مقامه لكونه كالعلة له .

﴿ **وقل الحمد لله** ﴾ على نعمه التى أنعم بها علىّ من النبوّة والعلم وغير ذلك ، وقوله : ﴿ **سيريكم آياته** ﴾ هو من جملة ما أمر به النبى ﷺ أن يقوله ، أى سيريكم الله آياته فى أنفسكم وفى غيركم ﴿ **فتعرفونها** ﴾ أى تعرفون آياته ، ودلائل قدرته ووحدانيته ، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار ؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان ، وذلك عند حضور الموت . ثم ختم السورة بقوله : ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله ، وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم . قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم : ﴿**تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **داخرين** ﴾ قال : صاغرين . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ قال : قائمة ﴿**صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ قال : أحكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ قال : أحسن كل شىء خلقه وأوثقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : ﴿ **من جاء**

بالحسنة فله خير منها﴾ قال: « هى لا إله إلا اللّه » **﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ﴾** قال : « هى الشرك » [(١)] . وإذا صحّ هذا عن رسول اللّه ﷺ فالمصير إليه فى تفسيركلام اللّه سبحانه متعيَن ويحمل على أن المراد قال: لا إله إلا اللّه بحقها ،وما يجب لها ، فيدخل تحت ذلك كل طاعة ،ويشهد له ما أخرجه الحاكم فى الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إذا كان يوم القيامة : جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدى اللّه سبحانه، فيقول اللّه للإيمان : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار » ثم تلا رسول اللّه ﷺ : **﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾** ، يعنى قول: لا إله إلا اللّه **﴿ ومن جاء بالسيئة﴾** يعنى: الشرك **﴿ فكبت وجوههم فى النار﴾**. وأخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة وأنس نحوه مرفوعا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ :**﴿ من جاء بالحسنة ﴾** يعنى « شهادة أن لا إله إلا اللّه » **﴿فله خير منها ﴾** يعنى بالخير :« الجنة » **﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾** يعنى :« الشرك » **﴿فكبت وجوههم فى النار ﴾** وقال : « هذه تنجى ، وهذه تردى » . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق عن ابن مسعود : **﴿ من جاء بالحسنة ﴾** قال: لا إله إلا اللّه ، **﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾** قال : بالشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم : **﴿ فله خير منها ﴾** قال : له منها خير، يعنى: من جهتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : **﴿ فله خير منها ﴾** قال : ثواب . وأخرج أيضا عنه أيضا قال : البلدة : مكة .

---

(١) ابن جرير ٢٠ / ١٥ .

تفسير سورة القصص

آياتها ثمان وثمانون آية ، وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . وأخرج ابن الضريس وابن النجار وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة القصص بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثل ذلك . قال القرطبى : قال ابن عباس وقتادة : إنها نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة وقت هجرة رسول الله ﷺ وهى قوله عزّ وجلّ :﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ وقال مقاتل : فيها من المدنى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلى قوله :﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ (١) . وأخرج أحمد والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : سنده جيد عن معدى كرب قال : أتينا عبد الله بن مسعود فسألناه أن يقرأ علينا :﴿ طسم ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت ، فأتيت خبابا فقلت : كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ طسم ﴾ أو ﴿ طس ﴾؟ فقال : كلّ كان رسول الله ﷺ يقرأه (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٩٦٣ .

(٢) أحمد ١/ ٤١٩ والطبرانى (٣٦١٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧:« رجاله ثقات » وصححه الشيخ شاكر فى تعليقه على المسند ٦/ ٣٩٧٩.

الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(١٣) ﴾.

الكلام فى فاتحة هذه السورة قد مرّ فى فاتحة الشعراء وغيرها فلا نعيده ، وكذلك مرّ الكلام على قوله: ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ فاسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده،أو خبر مبتدأ محذوف و﴿ **آيات** ﴾ بدل من اسم الإشارة ،ويجوز أن يكون تلك فى موضع نصب بـ﴿ **نتلو** ﴾ والمبين : المشتمل على بيان الحق من الباطل. قال الزجاج: مبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وهو من أبان بمعنى: أظهر ﴿ **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ أى نوحى إليك من خبرهما ملتبسا بالحق ،وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن.وقيل : إن مفعول نتلو محذوف ، والتقدير : نتلو عليك شيئا من نبئهما ، ويجوز أن تكون « من » مزيدة على رأى الأخفش ، أى نتلو عليك نبأ موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر، أو للتبعيض، ولا ملجئ للحكم بزيادتها، والحق :الصدق. وجملة : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض** ﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ . قال المفسرون: معنى ﴿**علا**﴾ : تكبر وتجبر بسلطانه. والمراد بالأرض: أرض مصر. وقيل : معنى ﴿ **علا** ﴾: ادعى الربوبية.وقيل:علا عن عبادة ربه ﴿ **وجعل أهلها شيعا** ﴾ أى فرقا وأصنافا فى خدمته يشايعونه على مايريد ويطيعونه ، وجملة : ﴿ **يستضعف طائفة منهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا ، ويجوز أن تكون فى محلّ نصب على الحال من فاعل جعل ، أى جعلهم شيعا حال كونهم مستضعفا طائفة منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة ، والطائفة هم بنو إسرائيل ، وجملة : ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم** ﴾ بدل من الجملة الأولى ، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان ، أو حالا ، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلا منها ، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك النساء ؛ لأن المنجمين فى ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل . قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذبا فلا معنى للقتل ﴿ **إنه كان من المفسدين** ﴾ فى الأرض بالمعاصى والتجبر ، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد .

﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾جاء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. واستحضارصورتها، أى نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم . والمراد بهؤلاء :بنو إسرائيل ، والواو فى ﴿**ونريد** ﴾ للعطف على جملة : ﴿ **إن فرعون علا** ﴾ وإن كانت الجملة المعطوف عليها إسمية ؛ لأن بينهما تناسبا من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان ، ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿ **يستضعف** ﴾ بتقدير مبتدأ ، أى ونحن نريد أن نمنّ على

الذين استضعفوا فى الأرض ، كما فى قول الشاعر :

نجوت وأرهنهم ملكا

والأوّل أولى . ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أى قادة فى الخير ودعاة إليه ، وولاة على الناس وملوكا فيهم ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ لملك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم ، فيكون ملك فرعون فيهم ويسكنون فى مساكنه ومساكن قومه ، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم ﴿ ونمكن لهم فى الأرض ﴾ أى نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاؤوا . قرأ الجمهور :﴿ نمكن ﴾ بدون لام ، وقرأ الأعمش : « لنمكن » بلام العلة . ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ نرى ﴾ بنون مضمومة وكسر الراء على أن الفاعل هو اللّه سبحانه . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « ويرى » بفتح الياء التحتية والراء ، والفاعل فرعون . والقراءة الأولى ألصق بالسياق ؛ لأن قبلها نريد ونجعل ونمكن بالنون . وأجاز الفراء : « ويرى فرعون » بضم الياء التحتية وكسر الراء ، أى ويرى اللّه فرعون ، ومعنى ﴿منهم ﴾ : من أولئك المستضعفين ﴿ ماكانوا يحذرون ﴾ الموصول هو المفعول الثانى على القراءة الأولى، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية، والمعنى: أن اللّه يريهم ، أو يرون هم الذى كانوا يحذرون منه ويجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد المولود من بنى إسرائيل المستضعفين .

﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه ﴾ أى ألهمناها وقذفنا فى قلبها وليس ذلك هو الوحى الذى يوحى إلى الرسل . وقيل : كان ذلك رؤيا فى منامها . وقيل : كان ذلك بملك أرسله اللّه يعلمها بذلك . وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية ، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما فى الحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما (١) ، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما فى الحديث الثابت فى الصحيح فلم يكن بذلك نبيا (٢) . و« أن » فى ﴿ أن أرضعيه ﴾ هى المفسرة ؛ لأن فى الوحى معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن أرضعيه ، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن ، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين ، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿ فألقيه فى اليم ﴾ وهو بحر النيل، وقد تقدّم بيان الكيفية التى ألقته فى اليمّ عليها فى سورة طه ﴿ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ أى لا تخافى عليه الغرق أو الضيعة ، ولا تحزنى لفراقه ﴿ إنا رادّوه إليك ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد .

والفاء فى قوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ هى الفصيحة ، والالتقاط : إصابة الشيء من

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦٤) ومسلم فى الزهد (٢٩٦٤/ ١٠) والبيهقى ٧/ ٢١٩كلهم عن أبى هريرة .

(٢) مسلم فى الحج (١٢٢٦/ ١٦٧) والدارمى ٢/ ٣٥ كلاهما عن مطرف عن عمران بن حصين .

غير طلب . والمراد بآل فرعون: هم الذين أخذوا التابوت الذى فيه موسى من البحر ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقته فى اليمّ بعد ما جعلته فى التابوت فالتقطه من وجده من آل فرعون ، واللام فى ﴿ **ليكون لهم عدوّا وحزنا** ﴾ لام العاقبة ، ووجه ذلك : أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولدا وقرّة عين لا ليكون عدوّا فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدوّا وحزنا ، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم وثمرة له شبهت بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله ، ومن هذا قول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

وقول الآخر :

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قرأ الجمهور : ﴿ **وحزنا** ﴾ بفتح الحاء والزاى ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : «وحزنا» بضم الحاء وسكون الزاى ، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم، وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم، والرَّشَد والرُّشْد ، والسَّقَم والسُّقْم ، وجملة : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ لتعليل ما قبلها ، أو للاعتراض لقصد التأكيد ؛ ومعنى ﴿**خاطئين** ﴾: عاصين آثمين فى كل أفعالهم وأقوالهم ، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب ، وقرئ : « خاطين » بياء من دون همزة فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور ولكنها خففت بحذف الهمزة ، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو ، أى تجاوز الصواب .

﴿ **وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك** ﴾ أى قالت امرأة فرعون لفرعون،وارتفاع ﴿ **قرّة**﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قاله الكسائى وغيره ، وقيل : على أنه مبتدأ وخبره : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ قاله الزجاج ، والأوّل أولى . وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها وأخرجته من التابوت وخاطبت بقولها : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ فرعون ومن عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له . وقرأ عبد الله بن مسعود : « وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لى ولك » ويجوز نصب « قرة » بقوله: ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ على الاشتغال. وقيل: إنها قالت : لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بنى إسرائيل . ثم عللت ما قالته بالترجى منها لحصول النفع منه لهم ، أو التبنى له فقالت : ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ فنصيب منه خيرا ﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها ، وجملة : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهم لا يشعرون أنهم على خطأ فى التقاطه ، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده ، فتكون حالا من آل فرعون ، وهى من كلام الله سبحانه . وقيل : هى من كلام المرأة ، أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه وهم لا يشعرون ، قاله الكلبى ، وهو بعيد جدا . وقد حكى الفراء عن السدّى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن قوله : ﴿**لا تقتلوه** ﴾ من كلام فرعون واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، ويكفي فى ردّه ضعف إسناده .

﴿ **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا** ﴾ قال المفسرون : معنى ذلك أنه فارغ من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه . قال أبو عبيدة : خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن وابن إسحاق وابن زيد : فارغا مما أوحى إليها من قوله : ﴿**ولا تخافى ولا تحزنى**﴾ وذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه وهلاكه . وقال الأخفش : فارغا من الخوف والغمّ لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحى إليها، وروى مثله عن أبى عبيدة أيضا . وقال الكسائى : ناسيا ذاهلا. وقال العلاء بن زياد :نافرا . وقال سعيد بن جبير: والها ، كادت تقول:وا ابناه ؛ من شدّة الجزع. وقال مقاتل :كادت تصيح شفقة عليه من الغرق. وقيل: المعنى:أنها لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش. قال النحاس : وأصحّ هذه الأقوال الأوّل ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله ، فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى ، وقول من قال : فارغا من الغمّ غلط قبيح لأن بعده : ﴿ **إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ وقرأ فضالة بن عبيد الأنصارى ومحمد بن السميفع وأبو العالية وابن محيصن : « فزعا » بالفاء والزاى والعين المهملة من الفزع، أى خائفا وجلا . وقرأ ابن عباس : « قرعا » بالقاف المفتوحة والراء المهملة المكسورة والعين المهملة من قرع رأسه: إذا انحسر شعره، ومعنى ﴿ **وأصبح** ﴾:وصار ،كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء فى أمر رشيد　　　وأصبحت المدينة للوليد

﴿ **إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، أى إنها كادت لتظهر أمر موسى وأنه ابنها من فرط مادهمها من الدهش والخوف والحزن ، من بدا يبدو: إذا ظهر ،وأبدى يبدى: إذا أظهر، وقيل: الضمير فى ﴿ **به** ﴾ عائد إلى الوحى الذى أوحى إليها ، والأوّل أولى . وقال الفراء : إن كانت لتبدى باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها . قال الزجاج : ومعنى الربط على القلب : إلهام الصبر وتقويته ، وجواب لولا محذوف ، أى لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت ، واللام فى : ﴿**لتكون من المؤمنين**﴾ متعلق بـ ﴿ **ربطنا** ﴾ والمعنى:ربطنا على قلبها لتكون من المصدّقين بوعد الله وهو قوله: ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾ قيل:والباء فى:﴿ **لتبدى به** ﴾ زائدة للتأكيد.والمعنى: لتبديه، كما تقول : أخذت الحبل وبالحبل . وقيل : المعنى : لتبدى القول به ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾ أى قالت أمّ موسى لأخت موسى وهى مريم : قصيه ، أى تتبعى أثره ، واعرفى خبره ، وانظرى أين وقع وإلى من صار؟ يقال: قصصت الشيء: إذا اتبعت أثره متعرّفا لحاله ﴿**فبصرت به عن جنب**﴾ أى أبصرته عن بعد ، وأصله عن مكان جنب، ومنه الأجنبى. قال الشاعر :

فلا تحرمينى نائلا عن جنابة　　　فإنى امرؤ وسط الديار غريب

وقيل : المراد بقوله : ﴿ **عن جنب** ﴾ : عن جانب ، والمعنى : أنها أبصرت إليه متجانفة مخاتلة ، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم عن جانب ، ومحل :﴿ **عن جنب** ﴾ النصب على الحال إما من الفاعل ، أى بصرت به مستخفية كائنة عن جنب ، وإما من المجرور ، أى بعيدا

منها . قرأ الجمهور : ﴿ **بصرت** ﴾ به بفتح الباء وضم الصاد ، وقرأ قتادة بفتح الصاد وقرأ عيسى بن عمر بكسرها . قال المبرّد : أبصرته وبصرت به بمعنى ، وقرأ الجمهور :﴿ **عن جنب**﴾ بضمتين ، وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن عليّ بفتح الجيم وسكون النون ، وروى عن قتادة أيضا أنه قرأ بفتحهما. وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضم الجيم وسكون النون. وقال أبو عمرو بن العلاء: إن معنى ﴿ **عن جنب** ﴾ : عن شوق. قال : وهى لغة جذام يقولون: جنبت إليك،أى اشتقت إليك ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾أنها تقصه وتتبع خبره وأنها أخته.

﴿ **وحرّمنا عليه المراضع** ﴾ المراضع جمع مرضع ، أى منعناه أن يرضع من المرضعات . وقيل : المراضع جمع مرضع بفتح الضاد ، وهو الرضاع أو موضعه ، وهو الثدى ، ومعنى ﴿**من قبل** ﴾ : من قبل أن نردّه إلى أمه ، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره ، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه ، فلم يرضع من واحدة منهنّ فعند ذلك ﴿ **قالت** ﴾ أى أخته لما رأت امتناعه من الرضاع : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم** ﴾ أى يضمنون لكم القيام به وإرضاعه ﴿ **وهم له ناصحون** ﴾ أى مشفقون عليه لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته . وفى الكلام حذف ، والتقدير: فقالوا لها : من هم ؟ فقالت : أمى ، فقيل لها : وهل لأمك لبن ؟ قالت : نعم لبن أخى هارون : فدلتهم على أمّ موسى فدفعوه إليها ، فقبل ثديها ، ورضع منه ، وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقرّ عينها** ﴾ بولدها ﴿**ولا تحزن** ﴾ على فراقه ﴿ **ولتعلم أن وعد الله** ﴾ أى جميع وعده ، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله : ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾. ﴿ **حق** ﴾ لا خلف فيه واقع لا محالة ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك ، بل كانوا فى غفلة عن القدر وسرّ القضاء ، أو أكثر الناس لايعلمون بذلك أو لا يعلمون أن الله وعدها بأن يردّه إليها .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وجعل أهلها شيعا** ﴾ قال : فرّق بينهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة:﴿ **وجعل أهلها شيعا** ﴾ قال: يستعبد طائفة منهم ويدع طائفة ، ويقتل طائفة ويستحيى طائفة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله :﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة** ﴾ قال : يوسف وولده . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾ قال : هم بنو إسرائيل ﴿ **ونجعلهم أئمة** ﴾ أى ولاة الأمر ﴿**ونجعلهم الوارثين** ﴾ أى الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿ **ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾ قال : ما كان القوم حذروه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **وأوحينا إلى أمّ موسى** ﴾ أى ألهمناها الذى صنعت بموسى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال : قال ابن عباس فى قوله :

﴿فإذا خفت عليه﴾ قال : أن يسمع جيرانك صوته . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا ﴾ قال : فرغ من ذكر كل شىء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى. وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله :﴿ وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا ﴾ قال : خاليا من كل شىء غير ذكر موسى . وفى قوله : ﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ قال : تقول : يا ابناه . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أى اتبعى أثره ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال : عن جانب . وأخرج الطبرانى وابن عساكر عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « أما شعرت أن الله زوّجنى مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وامرأة فرعون ؟» قالت : هنيئا لك يا رسول الله. وأخرجه ابن عساكر عن ابن أبى روّاد مرفوعا بأطول من هذا ، وفى آخره أنها قالت : بالرفاء والبنين (١) . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وحرّمنا عليه المراضع من قبل ﴾ قال : لا يؤتى بمرضع فيقبلها .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

(١) الطبرانى ٢٢/ ٤٥١ (١١٠٠) ولكنه عن أبى رواد لا عن أبى أمامة ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٢١ : «منقطع الإسناد وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف » . وذكر الهيثمى ــ أيضاً ــ أن حديث أبى أمامة قيل للسيدة عائشة ، وفيه خالد بن يوسف السمنى وهو ضعيف .

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾.

قوله : ﴿ **ولما بلغ أشدّه** ﴾ قد تقدّم الكلام فى بلوغ الأشدّ فى الأنعام ، وقد قال ربيعة ومالك: هو الحلم لقوله تعالى:﴿حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا ﴾ الآية [النساء:٦] وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثورى وغيرهما . وقيل : الأشدّ: ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين ، والاستواء :من الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل : الاستواء هو بلوغ الأربعين ، وقيل : الاستواء : إشارة إلى كمال الخلقة . وقيل : هو بمعنى واحد ، وهو ضعيف لأن العطف يشعر بالمغايرة ﴿ **آتيناه حكما وعلما** ﴾ الحكم : الحكمة على العموم. وقيل: النبوّة. وقيل: الفقه فى الدين. والعلم : الفهم ، قاله السدّى . وقال مجاهد : الفقه . وقال ابن إسحاق : العلم بدينه ودين آبائه . وقيل : كان هذا قبل النبوّة . وقد تقدّم بيان معنى ذلك فى البقرة ﴿ **وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الذى جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله وألقت ولدها فى البحر وصدّقت بوعد اللّه نجزى المحسنين على إحسانهم ، والمراد العموم .

﴿ **ودخل المدينة** ﴾ أى ودخل موسى مدينة مصر الكبرى . وقيل : مدينة غيرها من مدائن مصر ، ومحل قوله: ﴿ **على حين غفلة من أهلها** ﴾ النصب على الحال : إما من الفاعل ، أى مستخفيا ، وإما من المفعول . قيل : لما عرف موسى ما هو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفيا . قيل: كان دخوله بين العشاء والعتمة ، وقيل : وقت القائلة . قال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم ، فكان منه ما حكى اللّه سبحانه بقوله : ﴿ **فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته** ﴾ أى ممن شايعه على دينه ، وهم بنو إسرائيل ﴿ **وهذا من عدوّه** ﴾ أى من المعادين له على دينه وهم قوم فرعون ﴿ **فاستغاثه الذى من شيعته**﴾ أى طلب منه أن ينصره ويعينه على خصمه ﴿ **على الذى من عدوّه** ﴾ فأغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب فى جميع الملل . قيل : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه واستغاث بموسى ﴿ **فوكزه موسى** ﴾ الوكز : الضرب بجمع الكف ، وهكذا اللكز واللهز . وقيل : اللكز على اللحى ، والوكز على القلب . وقيل : ضربه بعصاه. وقرأ ابن مسعود : «فلكزه » وحكى الثعلبى أن فى مصحف عثمان : « فنكزه » بالنون . قال الأصمعى : « نكزه » بالنون : ضربه ودفعه . قال الجوهرى : اللكز : الضرب على الصدر. وقال أبو زيد : فى جميع الجسد ،يعنى أنه يقال له لكز . واللهز: الضرب بجميع اليدين فى الصدر ، ومثله عن أبى عبيدة ﴿ **فقضى عليه** ﴾ أى قتله ، وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه : فقد قضيت عليه ، ومنه قول الشاعر :

قد عضه فقضى عليه الأشجع

قيل : لم يقصد موسى قتل القبطى ، وإنما قصد دفعه فأتى ذلك على نفسه ، ولهذا قال : ﴿ **هذا من عمل الشيطان** ﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل ؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار . وقيل: إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأمونا عندهم ، فلم يكن له أن يغتالهم . ثم وصف الشيطان بقوله : ﴿ **إنه عدوّ مضل مبين** ﴾ أى عدوّ للإنسان يسعى فى إضلاله ، ظاهر العداوة والإضلال. وقيل: إن الإشارة بقوله :﴿ **هذا** ﴾ إلى عمل المقتول لكونه كافرا مخالفا لما يريده الله . وقيل : إنه إشارة إلى المقتول نفسه ، يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه . ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه : ﴿ **قال ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر** ﴾ الله ﴿ **له** ﴾ ذلك ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ ووجه استغفاره: أنه لم يكن لنبىّ أن يقتل حتى يؤمر . وقيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين ، أو أراد إنى ظلمت نفسى بقتل هذا الكافر ؛ لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلنى به ، ومعنى فاغفر لى : فاستر ذلك علىّ لا تطلع عليه فرعون ، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نادما على ذلك خائفا من العقوبة بسببه ، حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول : إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، كما ثبت ذلك فى حديث الشفاعة الصحيح (١) . وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة . وقيل : كان ذلك قبل بلوغه سنّ التكليف وإنه كان إذ ذاك فى اثنتى عشرة سنة ، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ولا شك أنهم معصومون من الكبائر ، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة ؛ لأن الوكزة فى الغالب لا تقتل .

ثم لما أجاب الله سؤاله وغفر له ما طلب منه مغفرته ، قال : ﴿ **ربّ بما أنعمت علىّ** ﴾ هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم والجواب مقدر ، أى أقسم بإنعامك علىّ لأتوبنّ وتكون جملة : ﴿ **فلن أكون ظهيرا للمجرمين** ﴾ كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه ألا يظاهر مجرما . ويجوز أن تكون هذه الباء هى باء السببية متعلقة بمحذوف ، أى اعصمنى بسبب ما أنعمت به علىّ ، ويكون قوله : ﴿ **فلن أكون ظهيرا** ﴾ مترتبا عليه ، ويكون فى ذلك استعطاف لله تعالى وتوصل إلى إنعامه بإنعامه ، و « ما » فى قوله : ﴿ **بما أنعمت** ﴾ إما موصولة أو مصدرية ، والمراد بما أنعم به عليه : هو ما آتاه من الحكم والعلم أو بالمغفرة أو بالجميع ، وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون والانتظام فى جملته فى ظاهر الأمر ، أو مظاهرته على ما فيه إثم . قال الكسائى والفراء: ليس قوله: ﴿ **فلن أكون ظهيرا للمجرمين** ﴾ خبرا بل هو دعاء، أى فلا تجعلنى يارب ظهيرا لهم . قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله :« فلا تجعلنى ياربّ

---

(١) أحمد ٢/ ٤٣٥ والبخارى فى التفسير (٤٧١٢) ومسلم فى الإيمان (١٩٤/ ٣٢٧) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٠٦) وابن ماجة مختصرا فى الأطعمة (٣٣٠٧) كلهم من طريق أبى حيان التيمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة به .

ظهيرا للمجرمين » وقال الفراء : المعنى : اللهم فلن أكون ظهيرا للمجرمين . وقال النحاس : إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام .

﴿ **فأصبح فى المدينة خائفا يترقب** ﴾ أى دخل فى وقت الصباح فى المدينة التى قتل فيها القبطى ، و﴿**خائفا** ﴾ خبر ﴿ **أصبح** ﴾ ويجوز أن يكون حالاً ، والخبر : ﴿ **فى المدينة** ﴾ و﴿**يترقب** ﴾ يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا ثانية، وأن يكون بدلا من ﴿ **خائفا** ﴾ ومفعول ﴿ **يترقب** ﴾ محذوف ، والمعنى : يترقب المكروه أو يترقب الفرح ﴿ **فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ إذا هى الفجائية والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يستصرخه** ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطى الذى قد قتله موسى بالأمس ، والاستصراخ : الاستغاثة ، وهو من الصراخ ، وذلك أن المستغيث يصوّت ويصرخ فى طلب الغوث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع   كان الجواب له قرع الظنابيب

﴿ **قال له موسى إنك لغوىّ مبين** ﴾ أى بين الغواية ، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته ولا تطيقه . وقيل : إنما قال له هذه المقالة ؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر . ﴿ **فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدوّ لهما** ﴾ أى يبطش بالقبطى الذى هو عدوّ لموسى وللإسرائيلى ؛ حيث لم يكن على دينهما . وقد تقدّم معنى يبطش واختلاف القراء فيه . ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ القائل هو الإسرائيلى لما سمع موسى يقول له : ﴿ **إنك لغوى مبين** ﴾ ورآه يريد أن يبطش بالقبطى ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى : ﴿ **أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ فلما سمع القبطى ذلك أفشاه ، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلى ، هكذا قال جمهور المفسرين . وقيل : إن القائل : ﴿ **أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ هو القبطى ، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلى ، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطى قبل هذا بلا فصل ؛ لأنه هو المراد بقوله عدوّ لهما، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرّة الأولى ، والمرّة الأخرى هو الذى أفشى عليه، وأيضا إن قوله : ﴿ **إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض** ﴾ لا يليق صدور مثله إلا من كافر، و« إن» فى قوله : ﴿ **إن تريد** ﴾ هى النافية ، أى ما تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض . قال الزجاج : الجبار فى اللغة: الذى لا يتواضع لأمر الله ، والقاتل بغير حق جبار . وقيل : الجبار : الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل ، ولا ينظر فى العواقب ، ولا يدفع بالتى هى أحسن ﴿ **وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ أى الذين يصلحون بين الناس .

﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** ﴾ قيل : المراد بهذا الرجل : حزقيل وهو مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم موسى. وقيل: اسمه شمعون. وقيل: طالوت. وقيل: شمعان. والمراد بأقصى المدينة : آخرها وأبعدها ، و﴿ **يسعى** ﴾ يجوز أن يكون فى محل رفع صفة لرجل ،

ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال؛ لأن لفظ رجل وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله : من أقصى المدينة ﴿ **قال يا موسى إن الملأ يأتمرون** [١] **بك ليقتلوك** ﴾ أى يتشاورون فى قتلك ويتآمرون بسببك . قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضا بقتلك . وقال أبو عبيد : يتشاورون فيك ليقتلوك : يعنى أشراف قوم فرعون . قال الأزهرى : ائتمر القوم وتآمروا ، أى أمر بعضهم بعضا ، نظيره قوله: ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ [الطلاق: ٦] . قال النمر بن تولب [٢] :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يؤتمر

﴿ **فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ فى الأمر بالخروج ، واللام للبيان ؛ لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه . ﴿ **فخرج منها خائفا يترقب** ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفا من الظالمين مترقبا لحوقهم به وإدراكهم له. ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلا :﴿ **رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾ أى خلصنى من القوم الكافرين وادفعهم عنى ، وخل بينى وبينهم . ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ أى نحو مدين قاصدا لها . قال الزجاج : أى سلك فى الطريق الذى تلقاء مدين فيها . انتهى . يقال : داره تلقاء دار فلان ، وأصله من اللقاء . ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ، ولهذا خرج إليها ﴿ **قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** ﴾ أى يرشدنى نحو الطريق المستوية إلى مدين .

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ أى وصل إليه ، وهو الماء الذى يستقون منه ﴿ **وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ أى وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم ، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول فى المورد ، وقد يطلق على البلوغ إليه وإن لم يدخل فيه ، وهو المراد هنا ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقا جمامه

وقد تقدم تحقيق معنى الورود فى قوله: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] وقيل : مدين : اسم للقبيلة لا للقرية، وهى غير منصرفة على كلا التقديرين . ﴿ **ووجد من دونهم** ﴾ أى من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التى جاء منها . وقيل : معناه : فى موضع أسفل منهم ﴿ **امرأتين تذودان** ﴾ أى تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس ويخلو بينهما وبين الماء ، ومعنى الذود : الدفع والحبس ، ومنه قول الشاعر :

أبيت على باب القوافى كأنما أذود بها سربا من الوحش نزّعا

أى أحبس وأمنع ، وورد الذود بمعنى الطرد ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) فى المطبوعة : « يأتمرن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) شاعر مخضرم أدرك الإسلام وهو كبير السن ، وروى حديثا وعمر طويلا حتى أنكر عقله وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره. الإصابة ٣/ ٥٧٣ .

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأى عصى تذود

أى تطرد . ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ أى قال موسى للمرأتين : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ؟ والخطب : الشأن . قيل : وإنما يقال : ما خطبك لمصاب ، أو مضطهد ، أو لمن يأتى بمنكر﴿ **قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء** ﴾ أى إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم ، أو عجزا عن السقى معهم . قرأ الجمهور: ﴿ **يصدر** ﴾ بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر المتعدّى بالهمزة . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال من صدر يصدر لازما ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف ، أى يرجعون مواشيهم ، والرعاء جمع راع . قرأ الجمهور : ﴿ **الرعاء** ﴾ بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها ، قال أبو الفضل : هو مصدر أقيم مقام الصفة ، فلذلك استوى فيه الواحد والجمع . وقرئ : « الرعاء » بالضم اسم جمع . وقرأ طلحة بن مصرف : « نسقى » بضم النون من أسقى ﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾ عالى السن ، وهذا من تمام كلامهما ، أى لا يقدر أن يسقى ماشيته من الكبر ، فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقى الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك . فلما سمع موسى كلامهما ﴿ **سقى لهما** ﴾ رحمة لهما، أى سقى أغنامهما لأجلهما « ثم » لما فرغ من السقى لهما ﴿ **تولى إلى الظل** ﴾ أى انصرف إليه ، فجلس فيه . قيل : كان هذا الظل ظل سمرة هنالك . ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب مناديا لربه ﴿ **إنى لما أنزلت إلىّ من خير** ﴾ أىّ خير كان ﴿ **فقير** ﴾ أى محتاج إلى ذلك. قيل : أراد بذلك الطعام ، واللام فى:﴿ **لما أنزلت**﴾ معناها : إلى . قال الأخفش : يقال: هو فقير له وإليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والمحاملى فى أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما بلغ أشدّه** ﴾ قال : ثلاثا وثلاثين سنة ﴿ **واستوى** ﴾ قال : أربعين سنة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المعمرين من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال : الأشد : ما بين الثمانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ فى النقصان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** ﴾ قال : نصف النهار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراسانى عنه أيضا فى الآية قال : مابين المغرب والعشاء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **هذا من شيعته** ﴾ قال : إسرائيلى ﴿ **وهذا من عدوه** ﴾ قال : قبطى ﴿ **فاستغاثه الذى من شيعته** ﴾ الإسرائيلى ﴿ **على الذى من عدوه** ﴾القبطى﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ قال: فمات، قال : فكبر ذلك على موسى . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ قال : هو صاحب موسى الذى استنصره بالأمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : الذى استنصره هو الذى استصرخه . وأخرج ابن المنذر عن الشعبى قال : من قتل رجلين فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية:

﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : خرج موسى خائفا يترقب جائعا ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين، و**﴿ عليه أمة من الناس يسقون﴾**وامرأتان جالستان بشياههما فسألهما : **﴿ ماخطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾** قال : فهل قربكما ماء ؟ قالتا : لا ، إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر ، قال: فانطلقا فأريانيها ، فانطلقتا معه ، فقال الصخرة بيده فنحاها ، ثم استقى لهما سجلا واحدا فسقى الغنم ، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها **﴿ ثم تولى إلى الظل فقال ربّ إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾** فسمعتا ، قال : فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما ، فسألهما فأخبرتاه ، فقال لإحداهما : انطلقى فادعيه، فأتت ، فقالت : **﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾** فمشت بين يديه ، فقال لها : امشى خلفى ؛ فإنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى أن أرى منك ما حرّم اللّه علىّ ، وأرشدينى الطريق**﴿ فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾** قال لها أبوها : ما رأيت من قوّته وأمانته ؟ فأخبرته بالأمر الذى كان ، قالت : أما قوّته فإنه قلب الحجر وحده ، وكان لا يقلبه إلا النفر . وأما أمانته فقال : امشى خلفى وأرشدينى الطريق لأنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى منك ما حرّمه اللّه .

قيل لابن عباس : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما .

وأخرج الفريابى ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال : إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين ، قال : ما خطبكما ؟ فحدّثتاه ، فأتى الحجر ، فرفعه وحده ، ثم استقى فلم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدّثتاه، وتولى موسى إلى الظلّ فقال : **﴿ رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾** . قال : **﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾** واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة **﴿ قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾** فقام معها موسى ، فقال لها : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ، فإنى أكره أن يصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك ، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه ، فقالت إحداهما: **﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوىَ الأمين ﴾** قال : يا بنية ما علمك بأمانته وقوّته ؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرة رجال ، وأما أمانته فقال : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ؛ فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك،

فزاده ذلك رغبة فيه ، فقال : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ﴾ إلى قوله: ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ أى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت ﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ﴾ قال :نعم، قال: ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ فزوّجه وأقام معه يكفيه ويعمل فى رعاية غنمه وما يحتاج إليه وزوجه صفورا وأختها شرفا ، وهما اللتان كانتا تذودان (١) . قال ابن كثير بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث : إن إسناده صحيح (٢) . والسلفع من النساء : الجريئة السليطة .

وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ قال : ورد الماء حيث ورد وإنه لتتراءى خضرة البقل فى بطنه من الهزال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثمانى ليال ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، وخرج حافيا ، فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : ﴿ تذودان ﴾ : تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس ويخلو لهما البئر. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضا قال : لقد قال موسى : ﴿ ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾ وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ما سأل إلا الطعام . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: سأل فلقا من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩١) وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) ابن كثير ٥/ ٢٧٢ .
(٣) ابن أبي شيبة (١٦١٤٧) .

وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾.

قوله : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾ فى الكلام حذف يدل عليه السياق . قال الزجاج : تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء فى السقى ، فحدّثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل : الصغرى، أن تدعوه له فجاءته. وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب. وقيل : هما ابنتا أخى شعيب ، وأن شعيبا كان قد مات . والأوّل أرجح ، وهو ظاهر القرآن . ومحلّ ﴿ **تمشى** ﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت ، ﴿ **وعلى استحياء** ﴾ حال أخرى ، أى كائنة على استحياء حالتى المشى والمجيء فقط ، وجملة : ﴿ **قالت إن أبى يدعوك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل : ماذا قالت له لما جاءته ؟ ﴿ **ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ أى جزاء سقيك لنا ﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص** ﴾ القصص مصدر سمى به المفعول ، أى المقصوص يعنى أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطىّ إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿ **قال** ﴾ شعيب : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ أى فرعون وأصحابه؛ لأن فرعون لا سلطان له على مدين ، وللرازى فى هذا الموضع إشكالات باردة جدّا لا تستحق أن تذكر فى تفسير كلام اللّه عزّ وجلّ ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلا عن الكامل ، وأشفّ ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقى ؟ ويجاب عنه: بأنه اتبع سنة اللّه فى إجابة دعوة نبىّ من أنبياء اللّه ، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل،ولهذا ورد أنه لما قدّم إليه الطعام قال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا.

﴿ **قالت إحداهما يا أبت استأجره** ﴾ القائلة هى التى جاءته ، أى استأجره ليرعى لنا الغنم ، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة . وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصم ، وجملة : ﴿ **إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى ، أى إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعا بين خصلتى القوّة والأمانة . وقد تقدّم فى المروىّ عن ابن عباس وعمر ؛ أن أباها سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة فأجابته بما تقدّم قريبا . ﴿ **قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ فيه مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، والقصة معروفة [١] ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوّة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة

---

(١) أحمد ١/ ١٢ والبخارى فى النكاح (٥١٢٢) والنسائى ٦/ ٨٣ والطبرانى ٢٣/ ١٨٦ (٣٠٢) .

لنفسها على رسول الله ﷺ . ﴿ **على أن تأجرنى ثمانى حجج** ﴾ أى على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنين . قال الفراء : يقول: على أن تجعل ثوابى أن ترعى غنمى ثمانى سنين ، ومحل : ﴿ **على أن تأجرنى** ﴾ النصب على الحال ، وهو مضارع أجرته ، ومفعوله الثانى محذوف ، أى نفسك ، و ﴿ **ثمانى حجج** ﴾ ظرف . قال المبرد : يقال : أجرت دارى ومملوكى ، غير ممدود وممدودا والأوّل أكثر ﴿ **فإن أتممت عشرا فمن عندك** ﴾ أى إن أتممت ما استأجرتك عليه من الرعى عشر سنين فمن عندك ، أى تفضلا منك لا إلزاما منى لك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام ، موكولا إلى المروءة ، ومحل ﴿ **فمن عندك** ﴾ الرفع على تقدير مبتدأ ، أى فهى من عندك ﴿ **وما أريد أن أشق عليك** ﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام ، واشتقاق المشقة من الشق ، أى شق ظنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق ، وتارة يقول : لا أطيق . ثم رغبه فى قبول الإجارة فقال: ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ فى حسن الصحبة والوفاء . وقيل : أراد الصلاح على العموم ، فيدخل صلاح المعاملة فى تلك الإجارة تحت الآية دخولا أوليا ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضا للأمر إلى توفيق الله ومعونته .

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فقال : ﴿ **ذلك بينى وبينك** ﴾ واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه ، وجملة : ﴿ **أيما الأجلين قضيت** ﴾ شرطية وجوابها :﴿ **فلا عدوان على** ﴾ والمراد بالأجلين : الثمانية الأعوام والعشرة الأعوام ، ومعنى ﴿**قضيت** ﴾ : وفيت به وأتممته ، والأجلين مخفوض بإضافة أىّ إليه ، وما زائدة . وقال ابن كيسان: « ما » فى موضع خفض بإضافة أىّ إليها ، و ﴿ **الأجلين** ﴾ بدل منها ، وقرأ الحسن : « أيما »بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود : « أىّ الأجلين ما قضيت » ومعنى ﴿ **فلا عدوان على**﴾: فلا ظلم علىّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين ، أى كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب بالنقصان على العشرة . وقيل : المعنى : كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، وهذا أظهر . وأصل العدوان : تجاوز الحد فى غير ما يجب . قال المبرد : وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما ، ولكنه جمعهما ليجعل الأوّل كالأتمّ فى الوفاء . قرأ الجمهور : ﴿ **عدوان** ﴾ بضم العين . وقرأ أبوحيوة بكسرها . ﴿ **والله على ما نقول وكيل** ﴾ أى على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا، شاهد وحفيظ ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شىء من ذلك. قيل: هو من قول موسى . وقيل: من قول شعيب ، والأوّل أولى لوقوعه فى جملة كلام موسى .

﴿ **فلما قضى موسى الأجل** ﴾ هو أكملهما وأوفاهما ، وهو العشرة الأعوام كما سيأتى آخر البحث ، والفاء فصيحة ﴿ **وسار بأهله** ﴾ إلى مصر . وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ﴿ **آنس من جانب الطور نارا** ﴾أى أبصر من الجهة التى تلى الطور نارا ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة طه مستوفى . ﴿ **قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ وهذا تقدّم تفسيره أيضا فى سورة طه وفى سورة النمل . ﴿ **أو جذوة** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم،

وقرأ حمزة ويحيى بن وثاب بضمها ، وقرأ عاصم والسلمى وذرّ بن حبيش بفتحها . قال الجوهرى : الجِذوة والجُذوة والجَذوة : الجمرة ، والجمع جِذَى وجُذى وجَذى . قال مجاهد : فى الآية أن الجذوة : قطعة من الجمر فى لغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : هى القطعة الغليظة من الخشب كأن فى طرفها نارا ولم يكن ، ومما يؤيد أن الجذوة الجمرة قول السلمى :

وبدلت بعد المسك والبان شقوة   دخان الجذا فى رأس أشمط شاحب

﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ أى تستدفئون بالنار . ﴿ **فلما أتاها** ﴾ أى أتى النار التى أبصرها . وقيل : أتى الشجرة، والأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة. ﴿ **نودى من شاطئ الواد الأيمن**﴾: « من » لابتداء الغاية، و﴿ **الأيمن** ﴾ صفة للشاطئ ، وهو من اليمن وهو البركة ، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى ، أى الذى يلى يمينه دون يساره ، وشاطئ الوادى : طرفه . وكذا شطه . قال الراغب : وجمع الشاطئ : أشطاء ، وقوله : ﴿ **فى البقعة المباركة** ﴾ متعلق بـ ﴿ **نودى** ﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ ، و ﴿ **من الشجرة** ﴾ بدل اشتمال من شاطئ الواد ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ . وقال الجوهرى :يقول شاطئ الأودية ولا يجمع. قرأ الجمهور : ﴿ **فى البقعة** ﴾ بضم الباء ، وقرأ أبو سلمة والأشهب العقيلى بفتحها ، وهى لغة حكاها أبو زيد ﴿ **أن يا موسى إنى أنا الله** ﴾: « أن » هى المفسرة ، ويجوز أن تكون هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن،وجملة النداء مفسرة له، والأوّل أولى . قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿ **إنى** ﴾ على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه . وقرئ بالفتح وهى قراءة ضعيفة .

وقوله : ﴿ **وأن ألق عصاك** ﴾ معطوف على ﴿ **أن يا موسى** ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى طه والنمل، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جان** ﴾ فى سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ أى منهزما ، وانتصاب ﴿**مدبرا** ﴾ على الحال ، وقوله : ﴿ **ولم يعقب** ﴾ فى محل نصب أيضا على الحال ، أى لم يرجع ﴿ **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده ، وكذلك قوله : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك** ﴾ جناح الإنسان : عضده ، ويقال لليد كلها : جناح ، أى اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع ، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات : الأولى : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك** ﴾ . والثانية: ﴿ **واضمم إليك جناحك** ﴾. والثالثة :﴿ **وأدخل يدك فى جيبك** ﴾ . ويجوز أن يراد بالضم : التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا . ومعنى ﴿ **من الرهب** ﴾ : من أجل الرهب، وهو الخوف . قرأ الجمهور :« الرهب » بفتح الراء والهاء ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ حفص والسلمى وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفصا بضم الراء وإسكان الهاء . وقال الفراء : أراد بالجناح : عصاه ، وقال بعض أهل المعانى : الرهب : الكمّ بلغة

حمير وبنى حنيفة . قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر : أعطنى ما فى رهبك ، فسألته عن الرهب ، فقال : الكم . فعلى هذا يكون معناه : اضمم إليك يدك وأخرجها من الكمّ ﴿ **فذانك** ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿ **برهانان من ربك إلى فرعون وملئه** ﴾ أى حجتان نيرتان ودليلان واضحان ، قرأ الجمهور :﴿ **فذانك** ﴾ بتخفيف النون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديدها ، قيل : والتشديد لغة قريش . وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر وشبل وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة ، والياء بدل من إحدى النونين وهى لغة هذيل ، وقيل : لغة تميم ، وقوله : ﴿ **من ربك** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى كائنان منه ، وكذلك قوله : ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى مرسلان ، أو واصلان إليهم ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ : متجاوزين الحدّ فى الظلم ، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج ، والجملة تعليل لما قبلها .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن أبى الهذيل عن عمر بن الخطاب فى قوله : ﴿ **تمشى على استحياء** ﴾ قال : جاءت مستترة بكمّ درعها على وجهها . وأخرجه ابن المنذر عن أبى الهذيل موقوفا عليه . وأخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال : لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء ، فقال له شعيب : كل ، قال موسى : أعوذ باللّه ، قال : ولم ؟ ألست بجائع ؟ قال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا ، قال : لا واللّه ولكنها عادتى وعادة آبائى ، نقرى الضيف ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قصّ عليه القصص . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال : كان صاحب موسى أثرون ابن أخى شعيب النبى . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الذى استأجر موسى يثربى صاحب مدين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه قال : كان اسم ختن موسى يثربى. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : يقول أناس : إنه شعيب ، وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذ . وأخرج ابن ماجة والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عتبة بن النذَّر(١) السلمى قال : كنا عند رسول ﷺ فقرأ سورة :﴿ **طسم** ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال : «إن موسى أجر نفسه ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل » قيل : يا رسول اللّه ، أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أبرّهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه » (٢) الحديث بطوله . وفى إسناده مسلمة بن على الحسنى الدمشقى البلاطى ضعفه الأئمة. وقد روى من وجه آخر وفيه نظر .

---

(١) فى المخطوطة : « ابن المنذر » ، والصحيح ابن النُذَّر بضم النون وتشديد الذال المفتوحة . الإصابة ٢/ ٤٥٦ (٥٤١٥) .

(٢) ابن ماجة فى الرهون (٢٤٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ :« رواه البزار والطبرانى وفى إسناده ابن لهيعة وفيه ضعف وقد يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدّثنى ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن الندر[١] السلمى صاحب رسول الله ﷺ فذكره ، وابن لهيعة ضعيف ، وينظر فى بقية رجال السند . وأخرج ابن جرير عن أنس طرفا منه موقوفا عليه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد والبخارى وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل [٢] . وأخرج البزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه[٣] ، وقوله : « إن رسول الله إذا قال فعل » فيه نظر ؛ فإن موسى لم يقل إنه سيقضى أكثر الأجلين بل قال : ﴿ **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على** ﴾ وقد روى عن رسول الله ﷺ أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق[٤] . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن أبى ذرّ قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إذا سئلت أى الأجلين قضى موسى ؟ فقل : خيرهما وأبرهما ، وإن سئلت أىّ المرأتين تزوّج؟ فقل الصغرى منهما ، وهى التى جاءت فقالت : ﴿ **يا أبت استأجره** ﴾ » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سألوك أيهما تزوّج؟ فقل الصغرى منهما». وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن أبى ذرّ؛ أن النبى ﷺ سئل : أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال :« أبرّهما وأوفاهما»، قال : « وإن سئلت أىّ المرأتين تزوّج؟ فقل : الصغرى منهما» . قال البزار : لا نعلم يروى عن أبى ذرّ إلا بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران، وهو ضعيف. وأما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوّى بعضها بعضا . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق السدّى قال : قال ابن عباس : لما قضى موسى الأجل سار بأهله ، فضلّ الطريق ، وكان فى الشتاء فرفعت له نار ، فلما رآها ظنّ أنها نار ، وكانت من نور الله ﴿ **فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ فإن لم أجد خبرا آتيكم بشهاب قبس ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ من البرد .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ لعلى أجد من يدلنى على

---

(١) سبق استدراك الخطأ فى هامش (١) السابق .

(٢) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٦) والبخارى فى الشهادات (٢٦٨٤) .

(٣) أبو يعلى (٢٤٠٨) وابن جرير ٤٣/٢٠ وصححه الحاكم ٤٠٧/٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى :« حفص واهٍ » .

(٤) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٥) وصححه الحاكم ٤٠٨/٢ كلاهما عن ابن عباس ، وقال الذهبى : «إبراهيم لا يعرف» .

الطريق، وكانوا قد ضلوا الطريق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿أو جذوة﴾ قال : شهاب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ نودى من شاطئ الواد ﴾ قال : كان النداء من السماء الدنيا ، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضى الله عنه. وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : ذكرت لى الشجرة التى أوى إليها موسى ، فسرت إليها يومى وليلتى حتى صبحتها ، فإذا هى سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبى ﷺ وسلمت ، فأهوى إليها بعيرى وهو جائع ، فأخذ منها ملء فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه ، فصليت على النبىّ وسلمت ، ثم انصرفت (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ قال: يدك .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٤٣)﴾.

لما سمع موسى قول الله سبحانه : ﴿ فذانك برهانان [من ربك] (٢) إلى فرعون ﴾ طلب منه سبحانه أن يقوّى قلبه، فقال : ﴿ ربّ إنى قتلت منهم نفسا ﴾ يعنى القبطى الذى وكزه فقضى عليه ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ بها . ﴿وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ﴾ لأنه كان فى لسان موسى حبسة كما تقدّم بيانه . والفصاحة لغةً : الخلوص ، يقال : فصح اللبن وأفصح : فهو فصيح ، أى خلص من الرغوة ، ومنه فصح الرجل : جادت لغته ، وأفصح : تكلم بالعربية . وقيل : الفصيح : الذى ينطق ، والأعجم : الذى لا ينطق . وأما فى اصطلاح أهل

(١) ابن جرير ٢٠/٣٧ وصححه الحاكم ٢/٥٧٧ وقال الذهبى : « على شرط الشيخين » .
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة .

البيان فالفصاحة: خلوص الكلمة عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس. وفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد. وانتصاب ﴿ **ردءا** ﴾ على الحال، والردء: المعين، من أردأته، أى أعنته، يقال: فلان ردء فلان: إذا كان ينصره ويشدّ ظهره، ومنه قول الشاعر:

ألم تر أن أصرم كان ردئى   وخير الناس فى قلّ ومال

وحذفت الهمزة تخفيفا فى قراءة نافع وأبى جعفر، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة: إذا زاد عليها، فكان المعنى: أرسله معى زيادة فى تصديقى، ومنه قول الشاعر:

وأسمر خطيا كأن كعوبه   نوى القسب قد أردى ذراعا على العشر

وروى البيت فى الصحاح بلفظ: قد أربى، والقسب: الصلب، وهو الثمر اليابس الذى يتفتت فى الفم، وهو صلب النواة. ﴿ **يصدقنى** ﴾ قرأ عاصم وحمزة: ﴿**يصدقنى**﴾ بالرفع على الاستئناف، أو صفة لـ﴿ **ردءا** ﴾ أو الحال من مفعول أرسله. وقرأ الباقون بالجزم على جواب الأمر، وقرأ أبى وزيد ابنا على: « يصدقون » أى فرعون وملؤه ﴿ **إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ إذا لم يكن معى هارون لعدم انطلاق لسانى بالمحاجة. ﴿ **قال سنشدّ عضدك بأخيك**﴾ أى نقويك به، فشدّ العضد كناية عن التقوية، ويقال فى دعاء الخير: شدّ اللّه عضدك، وفى ضدّه: فتّ اللّه فى عضدك. قرأ الجمهور: ﴿**عضُدك**﴾ بفتح العين. وقرأ الحسين وزيد ابنا علىّ بضمها. وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضمة وسكون. وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما. ﴿ **ونجعل لكما سلطانا** ﴾ أى حجة وبرهانا، أو تسلطا عليه، وعلى قومه ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ بالأذى ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة، و﴿ **بآياتنا** ﴾ متعلق بمحذوف، أى تمتنعان منهم بآياتنا، أو اذهبا بآياتنا. وقيل: الباء للقسم، وجوابه: ﴿ **يصلون** ﴾ وما أضعف هذا القول. وقال الأخفش وابن جرير: فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ بآياتنا، وأوّل هذه الوجوه أولاها، وفى: ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ تبشير لهما وتقوية لقلوبهما.

﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات** ﴾ البينات: الواضحات الدلالة، وقد تقدّم وجه إطلاق الآيات، وهى جمع على العصا واليد فى سورة طه ﴿ **قالوا ما هذا إلا سحر مفترى** ﴾ أى مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ﴿ **وما سمعنا بهذا** ﴾ الذى جئت به من دعوى النبوّة، أو ما سمعنا بهذا السحر ﴿ **فى آبائنا الأوّلين** ﴾ أى كائنا أو واقعا فى آبائنا الأوّلين. ﴿ **وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده** ﴾ يريد نفسه، وإنما جاء بهذه العبارة؛ لئلا يصرّح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة، واللّه أعلم. قرأ الجمهور:﴿ **وقال موسى** ﴾ بالواو، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن: « قال موسى » بلا واو، وكذلك هو فى مصاحف أهل مكة. وقرأ الكوفيون إلا عاصما: « ومن يكون له عاقبة الدار » بالتحتية على أن اسم يكون عاقبة الدار.

والتذكير لوقوع الفصل ؛ ولأنه تأنيث مجازى ، وقرأ الباقون : ﴿ **تكون** ﴾ بالفوقية ، وهى أوضح من القراءة الأولى . والمراد بالدار هنا : الدنيا ، وعاقبتها : هى الدار الآخرة ، والمعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة . والضمير فى : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ للشأن ، أى إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون ، أى لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة الدار : خاتمة الخير .

﴿ **وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾: تمسك اللعين بمجرّد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه ، وقد كان يعلم أن ربه اللّه عزّ وجلّ ، ثم رجع إلى تكبره وتجبره وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال: ﴿ **فأوقد لى يا هامان على الطين** ﴾ أى اطبخ لى الطين حتى يصير آجرا ﴿ **فاجعل لى صرحا** ﴾ أى اجعل لى من هذا الطين الذى توقد عليه حتى يصير آجرا صرحا ، أى قصرا عاليا ﴿ **لعلى أطلع إلى إله موسى** ﴾ أى أصعد إليه ﴿ **وإنى لأظنه من الكاذبين**﴾ والطلوع والاطلاع واحد ، يقال : طلع الجبل واطلع. ﴿ **واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق** ﴾ المراد بالأرض : أرض مصر، والاستكبار : التعظم بغير استحقاق ، بل بالعدوان ؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى ، ولا شبهة ينصبها فى مقابلة ما أظهره من المعجزات ﴿ **وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون** ﴾ أى فرعون وجنوده ، والمراد بالرجوع : البعث والمعاد . قرأ نافع وشيبة وابن محيصن وحميد ويعقوب وحمزة والكسائى : « لا يرجعون » بفتح الياء وكسر الجيم مبنيا للفاعل . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الجيم مبنيا للمفعول ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد .

﴿ **فأخذناه وجنوده** ﴾ بعد أن عتوا فى الكفر وجاوزوا الحدّ فيه ﴿ **فنبذناهم فى اليم** ﴾ أى طرحناهم فى البحر ، وقد تقدّم بيان الكلام فى هذا ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، أى انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك ؟ ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾ أى صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين فى الكافرين ، فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادى فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتدوا وسلكوا طريقتهم تقليدا لهم . وقيل : المعنى : إنه يأتمّ بهم ، أى يعتبر بهم من جاء بعدهم ويتعظ بما أصيبوا به ، والأول أولى ﴿ **ويوم القيامة لاينصرون**﴾ أى لاينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب اللّه ﴿**وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ أى طردا وإبعادا ، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من ذكرهم لعنهم ، والأوّل أولى .﴿ **ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ المقبوح : المطرود المبعد . وقال أبوعبيدة وابن كيسان : معناه : من المهلكين الممقوتين . وقال أبو زيد : قبح اللّه فلانا قبحا وقبوحا : أبعده من كل خير . قال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد ، ومثله قول الشاعر :

ألا قبح اللّه البراجم كلها   وقبح يربوعا وقبح دارما

وقيل : المقبوح : المشوة الخلقة . والعامل فى يوم ، محذوف يفسره من المقبوحين . والتقدير : وقبحوا يوم القيامة . أوهو معطوف على موضع فى هذه الدنيا ، أى وأتبعناهم لعنة يوم القيامة ، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف ، أى ولعنة يوم القيامة . ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ يعنى التوراة ﴿ **من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ أى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . وقيل : من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . وانتصاب ﴿ **بصائر للناس**﴾ على أنه مفعول له أو حال ، أى آتيناه الكتاب لأجل يتبصر به الناس ، أو حال كونه بصائر للناس يبصرون به الحق ويهتدون إليه وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به . ﴿**ورحمة** ﴾ لهم من الله رحمهم بها ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ هذه النعم فيشكرون الله ويؤمنون به ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿**ردءا يصدقنى** ﴾ كى يصدقنى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما قال فرعون : ﴿ **يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ قال جبريل : ياربّ ،طغى عبدك فائذن لى فى هلكه ، فقال : يا جبريل ، هو عبدى ولن يسبقنى ، له أجل قد أجلته حتى يجىء ذلك الأجل ، فلما قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾ قال الله : يا جبريل سبقت دعوتك فى عبدى وقد جاء أوان هلاكه . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ:« كلمتان قالهما فرعون:﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ وقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ » [النازعات : ٢٤] قال : « كان بينهما أربعون عاما ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ » [النازعات : ٢٥] . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بلغنى أن فرعون أوّل من طبخ الآجر . وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله : ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ » (١) . وأخرجه البزار وابن جرير وابن أبى حاتم من وجه آخر عن أبى سعيد موقوفا (٢) .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٠٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ٢٠/ ٥٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ :« رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا ورجالهما رجال الصحيح ».

رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾.

قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الغربى** ﴾ هذا شروع فى بيان إنزال القرآن ، أى وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربىّ، فيكون من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجاج. وقال الكلبى : بجانب الوادى الغربىّ ، أى حيث ناجى موسى ربه ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ أى عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿**وما كنت من الشاهدين**﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته وتحكيه من جهة نفسك . وإذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ والمشاهدة لها منه ، وانتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدّمنا تقريره ، تبين أنه من عند الله سبحانه بوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك ، فهذا الكلام هو على طريقة :﴿وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقيل: معنى ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ : إذ كلفناه وألزمناه . وقيل : أخبرناه أن أمة محمد خير الأمم ، ولا يستلزم نفى كونه بجانب الغربى نفى كونه من الشاهدين ؛ لأنه يجوز أن يحضر ولا يشهد . قيل : المراد بالشاهدين : السبعون الذين اختارهم موسى للميقات .

﴿ **ولكنا أنشأنا قرونا** ﴾ أى خلقنا أمما بين زمانك يا محمد وزمان موسى ﴿ **فتطاول عليهم العمر** ﴾ طالت عليهم المهلة وتمادى عليهم الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وتنوسيت الأديان

فتركوا أمر اللّه ونسوا عهده ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ [الحديد : ١٦] ، وقد استدّل بهذا الكلام على أن اللّه سبحانه قد عهد إلى موسى عهودا فى محمد ﷺ وفى الإيمان به فلما طال عليهم العمر ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها ﴿ **وما كنت ثاويا فى أهل مدين** ﴾ أى مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم وتقصّ عليهم من جهة نفسك . يقال :ثوى يثوى ثواء وثويا : فهوثاو. قال ذو الرمة :

لقد كان فى حول ثواء ثويته   تقضى لبانات ويسأم سائم

وقال العجاج :

فبات حيث يدخل الثوّى

يعنى الضيف المقيم .

وقال آخر :

طال الثواء على رسوم المنزل

﴿ **تتلو عليهم آياتنا** ﴾ أى تقرأ على أهل مدين آياتنا وتتعلم منهم . وقيل : تذكرهم بالوعد والوعيد ، والجملة فى محل نصب على الحال أو خبر ثان ، ويجوز أن تكون هذه الجملة هى الخبر ، و﴿ **ثاويا** ﴾ حال . وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل : وها أنت تتلو على أمتك ﴿**ولكنا كنا مرسلين** ﴾ أى أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار ولولا ذلك لما علمتها . قال الزجاج : المعنى : أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ، ولكنا أوحيناها إليك وقصصناها عليك .

﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أى وما كنت يا محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميقات مع السبعين. وقيل المنادى :هو أمة محمد ﷺ . قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر اللّه له فضل محمد وأمته قال : يارب أرنيهم ، فقال اللّه : إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم ، قال : بلى يارب ، فقال اللّه : يأمة محمد ، فأجابوا من أصلاب آبائهم . فيكون معنى الآية على هذا : ما كنت يامحمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك ، وسيأتى ما يدلّ على هذا ويقوّيه ويرجحه فى آخر البحث إن شاء اللّه ﴿ **ولكن رحمة من ربك** ﴾ أى ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم . وقيل : ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم . وقيل : علمناك. وقيل : عرفناك. قال الأخفش : هو منصوب ، يعنى : رحمة ، على المصدر ، أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله ، أى فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة . قال النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ولكن بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : هو خبر لكان مقدّرة ، أى ولكن كان

ذلك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر وأبوحيوة : «رحمة» بالرفع على تقدير : ولكن أنت رحمة . وقال الكسائى : الرفع على أنها اسم كان المقدّرة ، وهو بعيد إلا على تقدير أنها تامة ، واللام فى: ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك** ﴾ متعلق بالفعل المقدّر على الاختلاف فى تقديره . والقوم : هم أهل مكة ، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله ﷺ. وجملة: ﴿ **ما أتاهم** ﴾ . . . إلخ صفة لـ﴿ **قوما**﴾ ، ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ أى يتعظون بإنذارك .

﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم** ﴾ لولا هذه ، هى الامتناعية وأن وما فى حيزها فى موضع رفع بالابتداء وجوابها محذوف . قال الزجاج : وتقديره : ما أرسلنا إليهم رسلا : يعنى أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [النساء : ١٦٥] وقدّره ابن عطية : لعاجلناهم بالعقوبة ، ووافقه على هذا التقدير الواحدى فقال : والمعنى : لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم ، وقوله : ﴿ **فيقولوا** ﴾ عطف على تصيبهم ومن جملة ما هو فى حيز لولا ، أى فيقولوا : ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا** ﴾ ولولا هذه الثانية، هى التحضيضية، أى هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك ، وجوابها هو : ﴿ **فنتبع آياتك** ﴾ وهو منصوب بإضمار أن ؛ لكونه جوابا للتحضيض ، والمراد بالآيات : الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة ، وإنما عطف القول على تصيبهم ؛ لكونه هو السبب للإرسال ، ولكن العقوبة لما كانت هى السبب للقول وكان وجوده بوجودها؛ جعلت العقوبة كأنها هى السبب لإرسال الرسل بواسطة القول ﴿ **ونكون من المؤمنين** ﴾ بهذه الآيات ، ومعنى الآية : أنا لو عذبناهم لقالوا : طال العهد بالرسل ولم يرسل الله إلينا رسولا ، ويظنون أن ذلك عذر لهم ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم .

﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى** ﴾ أى فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند الله وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن ، قالوا تعنتا منهم وجدالابالباطل : هلا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى موسى من الآيات التى من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة ؟ فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل** ﴾ أى من قبل هذا القول ، أو من قبل ظهور محمد ؛ والمعنى : أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ، وجملة: ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم ، والمراد بقولهم :﴿ **ساحران** ﴾ موسى ومحمد ، والتظاهر: التعاون ، أى تعاونا على السحر ، والضمير فى قوله : ﴿ **أولم يكفروا** ﴾ لكفار قريش . وقيل : هو لليهود . والأوّل أولى ، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم إلا أن يراد من أنكر نبوّة موسى كفرعون وقومه ، فإنهم وصفوا موسى وهارون بالسحر ، ولكنهم ليسوا من اليهود ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر ،

والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضا بالسحر . وقيل: المعنى : أو لم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد .قرأ الجمهور: ﴿**ساحران**﴾وقرأ الكوفيون: ﴿**سحران**﴾ يعنون التوراة والقرآن . وقيل : الإنجيل والقرآن . قال بالأوّل الفراء ، وقال بالثانى أبو زيد. وقيل: إن الضمير فى :﴿ **أولم يكفروا** ﴾ لليهود ، وأنهم عنوا بقولهم : ﴿ **ساحران** ﴾ عيسى ومحمدا . ﴿ **وقالوا إنا بكلّ كافرون** ﴾ أى بكلّ من موسى ومحمد ، أو من موسى وهارون ، أو من موسى وعيسى على اختلاف الأقوال ، وهذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فالمراد : التوراة والقرآن أو الإنجيل والقرآن . وفى هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر ، أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك .

ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه** ﴾ أى قل لهم يا محمد : فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ، و﴿ **أتبعه** ﴾ جواب الأمر ، وقد جزمه جمهور القراء لذلك . وقرأ زيد بن علىّ برفع: « أتبعه » على الاستئناف ، أى فأنا أتبعه . قال الفراء : إنه على هذه القراءة صفة للكتاب ، وفى هذا الكلام تهكم به . وفيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور ؛ لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين ، ومعنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ : إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين صادقين . ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ أى لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين ، وجواب الشرط :﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ أى آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ولا برهان ، وقيل : المعنى : فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به . وتعدية ﴿ **يستجيبوا** ﴾ باللام هو أحد الجائزين ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ أى لا أحد أضلّ منه ، بل هو الفرد الكامل فى الضلال ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات اللّه .

﴿ **ولقد وصلنا لهم القول** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **وصلنا** ﴾ بتشديد الصاد ، وقرأ الحسن بتخفيفها ، ومعنى الآية:أتبعنا بعضه بعضا وبعثنا رسولا بعد رسول . وقال أبو عبيدة والأخفش : معناه : أتممنا . وقال ابن عيينة والسدّى : بينا . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا ، والأولى أولى . وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض ، ومنه قول الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذمتى بحبل ضعيف لا تزال توصل

وقال امرؤ القيس :

يقلب كفيه بخيط موصل

والضمير فى :﴿ **لهم** ﴾ عائد إلى قريش . وقيل : إلى اليهود . وقيل : للجميع ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ فيكون التذكر سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم . ﴿ **الذين**

آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ أى من قبل القرآن ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **هم به يؤمنون** ﴾ أخبرسبحانه أن طائفة من بنى إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد اللّه بن سلام وسائر من أسلم من أهل الكتاب ، وقيل: الضمير فى ﴿ **من قبله** ﴾ يرجع إلى محمد ﷺ ، والأوّل أولى . والضمير فى ﴿ **به** ﴾ راجع إلى القرآن على القول الأوّل ، وإلى محمد على القول الثانى . ﴿**وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به** ﴾ أى وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدّقنا به ﴿ **إنه الحق من ربنا**﴾ أى الحق الذى نعرفه المنزل من ربنا﴿ **إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ أى مخلصين للّه بالتوحيد أو مؤمنين بمحمد وبما جاء به لما نعلمه من ذكره فى التوراة والإنجيل من التبشير به ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرّتين** ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ، والباء فى ﴿ **بما صبروا** ﴾ للسببية ، أى بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر . وبالنبىّ الأوّل والنبىّ الآخر ﴿ **ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾ الدرء: الدفع ، أى يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى . وقيل : يدفعون بالطاعة المعصية . وقيل : بالتوبة والاستغفار ، الذنوب . وقيل : بشهادة أن لا إله إلا اللّه ، الشرك ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون**﴾ أى ينفقون أموالهم فى الطاعات وفيما أمر به الشرع .

ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ تكرّما وتنزّها وتأدّبا بآداب الشرع ، ومثله قوله سبحانه:﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ [الفرقان:٧٢] واللغو هنا هو : مايسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم ﴿**وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ لا يلحقنا من ضرركفركم شىء ، ولايلحقكم من نفع إيماننا شىء ﴿**سلام عليكم** ﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ؛ ولكن المراد به :سلام المتاركة ؛ ومعناه: أمنة لكم منا وسلامة، لانجاريكم ولا نجاوبكم فيما أنتم فيه . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿ **لا نبتغى الجاهلين** ﴾ أى لا نطلب صحبتهم . وقال مقاتل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه . وقال الكلبى : لا نحبّ دينكم الذى أنتم عليه . ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت** ﴾ من الناس وليس ذلك إليك ﴿ **ولكن اللّه يهدى من يشاء** ﴾ هدايته ﴿**وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أى القابلين للهداية المستعدّين لها ، وهذه الآية نزلت فى أبى طالب كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما (١) ، وقد تقدّم ذلك فى براءة . قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب ، وقد تقرّر فى الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل فى ذلك أبو طالب دخولا أوليا .

﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ أى قال مشركو قريش ومن تابعهم : إن ندخل فى دينك يا محمد نتخطف من أرضنا ، أى يتخطفنا العرب من أرضنا ، يعنون مكة

---

(١) أحمد ٥/ ٤٣٣ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٢) ومسلم فى الإيمان (٢٤/ ٣٩) والنسائى فى التفسير (٢٥٠) كلهم عن المسيب بن حزن ، كما أخرجه أحمد ٢/ ٤٣٤ ومسلم فى الإيمان (٢٥/ ٤٢) والترمذى فى التفسير (٣١٨٨) وقال : «حسن غريب »، كلهم عن أبى هريرة .

ولا طاقة لنا بهم ، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة ، والتخطف فى الأصل هو : الانتزاع بسرعة . قرأ الجمهور: ﴿ **نتخطف** ﴾ بالجزم جوابا للشرط ، وقرأ المنقرى بالرفع على الاستئناف . ثم ردّ ذلك عليهم ردّا مصدّرا باستفهام التوبيخ والتقريع فقال : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا** ﴾ أى ألم نجعل لهم حرما ذا أمن ؟ قال أبو البقاء : عدّاه بنفسه ؛ لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك فى قوله : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ثم وصف هذا الحرم بقوله : ﴿ **يجبى إليه ثمرات كل شىء** ﴾ أى تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضى المختلفة وتحمل إليه. قرأ الجمهور : ﴿ **يجبى** ﴾ بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شىء ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات ، وأيضا ليس تأنيث ثمرات بحقيقىّ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، وقرأ نافع بالفوقية اعتبارا بثمرات. وقرأ الجمهور أيضا: ﴿**ثمرات**﴾بفتحتين ، وقرأ أبان بضمتين ، جمع ثمر بضمتين ، وقرئ بفتح الثاء وسكون الميم ﴿ **رزقا من لدنا** ﴾ منتصب على المصدرية؛ لأن معنى ﴿ **يجبى** ﴾ : نرزقهم ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف ، أى نسوقه إليهم رزقا من لدنا ، ويجوز أن ينتصب على الحال ، أى رازقين ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ لفرط جهلهم ومزيد غفلتهم وعدم تفكرهم فى أمر معادهم ورشادهم ؛ لكونهم ممن طبع اللّه على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وقد أخرج الفريابى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى معا فى الدلائل عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ قال : نودوا : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى ، واستجبت لكم قبل أن تدعونى[(١)] . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا . وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة ، والديلمى عن عمرو بن عبسة قال: سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ : ما كان النداء وما كانت الرحمة ؟ قال : «كتبه اللّه قبل أن يخلق خلقه بألفى عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى: ياأمة محمد ، سبقت رحمتى غضبى ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ، فمن لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا عبدى ورسولى صادقا أدخلته الجنة »[(٢)] . وأخرج الختلى فى الديباج عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن حذيفة فى قوله: ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ مرفوعا، قال: نودوا: يا أمة محمد، ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا: « إن اللّه نادى : يا أمة محمد، أجيبوا ربكم » قال : «فأجابوا وهم فى

(١) النسائى فى التفسير (٤٠٢) وابن جرير ٢٠/٥١ وصححه الحاكم ٢/٤٠٨ على شرط مسلم وسكت عنه الذهبى .

(٢) الديلمى (٧٢٠٦).

أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبيك، أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا، قال : صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدى حقا ، قد عفوت عنكم قبل أن تدعونى، وأعطيتكم قبل أن تسألونى، فمن لقينى منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول الله ﷺ : «الهالك فى الفترة يقول: ربّ لم يأتنى كتاب ولا رسول»، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ قالوا ساحران تظاهرا﴾ إلخ : قال : هم أهل الكتاب ﴿ إنا بكل كافرون ﴾ يعنى بالكتابين: التوراة ، والفرقان. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، وأبو القاسم البغوى والباوردى وابن قانع الثلاثة فى معاجم الصحابة، والطبرانى وابن مردويه بسند جيد عن رفاعة القرظى قال: نزلت: ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ فى عشرة رهط أنا أحدهم (١) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ قال: يعنى من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل والآخر، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده» (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبى هريرة أن قوله: ﴿ إنك لاتهدى من أحببت﴾ نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الإسلام (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن ناسا من قريش قالوا للنبىّ ﷺ : إن نتبعك يتخطفنا الناس، فنزلت: ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك ﴾ الآية (٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه: ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شىء ﴾ قال: ثمرات الأرض.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) ابن جرير ٢٠/ ٥٦ والطبرانى (٤٥٦٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ : « رواه الطبرانى بإسنادين : أحدهما: متصل ورجاله ثقات وهو هذا والآخر : منقطع الإسناد».

(٢) أحمد ٤/ ٣٩٥ والبخارى فى العلم (٩٧) ومسلم فى الإيمان (١٥٤/ ٢٤١) والترمذى فى النكاح (١١١٦) وقال: «حسن صحيح » والنسائى فى النكاح ٦/ ١١٥ وابن ماجة فى النكاح (١٩٥٦) والدارمى فى النكاح ٢/ ١٥٥.

(٣) سبق تخريجه . (٤) ابن جرير ٢٠/ ٦٠ .

وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾.

قوله: ﴿ **وكم أهلكنا من قرية** ﴾ أى من أهل قرية كانوا فى خفض عيش ودعة ورخاء، فوقع منهم البطر فأهلكوا. قال الزجاج: البطر: الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا فى البطر فأكلوا رزق اللّه وعبدوا الأصنام. قال الزجاج والمازنى : معنى ﴿ **بطرت معيشتها** ﴾ : بطرت فى معيشتها ، فلما حذفت « فى» تعدّى الفعل ،كقوله : ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف :١٥٥] . وقال الفراء : هو منصوب على التفسير كما تقول : أبطرك مالك وبطرته، ونظيره عنده قوله تعالى : ﴿ إلا من سفه نفسه﴾ [البقرة : ١٣٠] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير: أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى : جهلت ﴿ **فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا** ﴾ أى لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنا قليلا، كالذى يمرّ بها مسافرا فإنه يلبث فيها يوما أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها إلا أياما قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل : إن الاستثناء يرجع إلى المساكن، أى لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب، كذا قال الفراء وهو قول ضعيف ﴿**وكنا نحن الوارثين** ﴾ منهم ؛لأنهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم وأموالهم، ومحلّ جملة :﴿ **لم تسكن** ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال.

﴿ **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا** ﴾ أى وما صحّ ولا استقام أن يكون اللّه مهلك القرى الكافرة أى الكافر أهلها حتى يبعث فى أمها رسولا ينذرهم ويتلو عليهم آيات اللّه الناطقة بما أوجبه اللّه عليهم وما أعدّه من الثواب للمطيع والعقاب للعاصى، ومعنى ﴿ **أمها** ﴾ : أكبرها وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها؛ لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأى، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأمّ لما

حولها من القرى. وقال الحسن : أمّ القرى : أوّلها. وقيل : المراد بأمّ القرى هنا : مكة ،كما فى قوله : ﴿إن أوّل بيت وضع للناس﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] ، وقد تقدم بيان ماتضمنته هذه الآية فى آخر سورة يوسف، وجملة : ﴿ **يتلو عليهم آياتنا** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى تاليا عليهم ومخبرا لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا ﴿ **وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما فى قوله سبحانه : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [هود : ١١٧].

ثم قال سبحانه : ﴿ **وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها**﴾ الخطاب لكفار مكة، أى وما أعطيتم من شىء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدّة حياتكم أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه أويزول عنكم، وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء ﴿ **وما عند الله**﴾ من ثوابه وجزائه ﴿**خير**﴾ من ذلك الزائل الفانى ؛ لأنه لذّة خالصة عن شوب الكدر﴿ **وأبقى** ﴾ لأنه يدوم أبدا، وهذا ينقضى بسرعة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن الباقى أفضل من الفانى ، وما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن والقلب ، وقرئ بنصب :« متاع » على المصدرية ، أى فتمتعون متاع الحياة ، وقرأ أبو عمرو : «يعقلون» بالتحتية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب وقراءتهم أرجح ؛ لقوله : ﴿ **وما أوتيتم** ﴾ .

﴿ **أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه**﴾ أى وعدناه بالجنة وما فيها من النعم التى لاتحصى فهو لاقيه، أى مدركه لا محالة فإن الله لايخلف الميعاد ﴿ **كمن متعناه متاع الحياة الدنيا** ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغيصه ﴿**ثم هو يوم القيامة من المحضرين**﴾ هذا معطوف على قوله :﴿ **متعناه** ﴾ داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرّر له، والمعنى : ثم هذا الذى متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار ، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام ، والاستفهام للإنكار، أى ليس حالهما سواء ، فإن الموعود بالجنة لابدّ أن يظفر بما وعد به مع أنه لايفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن. وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرّد التمتيع بشىء من الدنيا يستوى فيه هو والمؤمن،وينال كل واحد منهما حظه منه ، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان ؟ قرأ الجمهور:﴿ **ثم هو** ﴾ بضم الهاء ، وقرأ الكسائى وقالون بسكون الهاء إجراء لـ« ثم » مجرى الواو والفاء.

وانتصاب يوم فى قوله : ﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ بالعطف على يوم القيامة أو بإضمار اذكر، أى يوم ينادى الله سبحانه هؤلاء المشركين ﴿ **فيقول** ﴾ لهم :﴿ **أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم، ومفعولا يزعمون محذوفان ، أى تزعمونهم شركائى لدلالة الكلام عليهما ﴿ **قال الذين حق عليهم القول** ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أربابا من دون الله، كذا قال الكلبى. وقال قتادة: هم الشياطين ﴿ **ربنا**

هؤلاء الذين أغوينا ﴾ أى دعوناهم إلى الغواية يعنون الأتباع ﴿ **أغويناهم كما غوينا**﴾ أى أضللناهم كما ضللنا ﴿ **تبرأنا إليك** ﴾ منهم، والمعنى : أن رؤساء الضلال أو الشياطين تبرّؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج : برئ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال اللّه تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، و﴿ **هؤلاء** ﴾ مبتدأ و﴿ **الذين أغوينا**﴾ صفته ، والعائد محذوف ، أى أغويناهم ، والخبر : ﴿ **أغويناهم** ﴾ ، ﴿ **كما غوينا**﴾ نعت مصدر محذوف . وقيل : إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا ، وأما ﴿ **أغويناهم كما غوينا** ﴾ فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، ورجح هذا أبو علىّ الفارسى، واعترض الوجه الأوّل ، وردّ اعتراضه أبو البقاء. ﴿ **ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم .وقيل : إن «ما» فى :﴿ **ما كانوا** ﴾ مصدرية، أى تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والأول أولى .

﴿ **وقيل ادعوا شركاءكم** ﴾ أى قيل للكفار من بنى آدم هذا القول ، والمعنى : استغيثوا بآلهتكم التى كنتم تعبدونهم من دون اللّه فى الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم ﴿ **فدعوهم** ﴾ عند ذلك ﴿ **فلم يستجيبوا لهم** ﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع ﴿ **ورأو العذاب** ﴾ أى التابع والمتبوع قد غشيهم ﴿ **لو أنهم كانوا يهتدون** ﴾ قال الزجاج: جواب لو محذوف ، والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب . وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم. وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق . وقيل : المعنى : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد آن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون. وقيل غير ذلك ، والأوّل أولى . ويوم فى قوله : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ معطوف على ماقبله، أى : ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى ؟

﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ** ﴾ أى خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمى الذين لايهتدون، والأصل فعموا عن الأنباء، ولكنه عكس الكلام للمبالغة، والأنباء : الأخبار، وإنما سمى حججهم أخبارا ؛ لأنها لم تكن من الحجة فى شىء ، وإنما هى أقاصيص وحكايات ﴿**فهم لا يتساءلون** ﴾ لا يسأل بعضهم بعضا، ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون ؛ لأن اللّه قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . قرأ الجمهور : ﴿**عميت**﴾ بفتح العين وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم. ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين** ﴾ أن تاب من الشرك وصدّق بما جاء به الرسل وأدّى الفرائض واجتنب المعاصى فعسى أن يكون من المفلحين ، أى الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإن كانت فى الأصل للرجاء فهو من اللّه واجب على ما هو عادة الكرام . وقيل: إن الترجى هو من التائب المذكور لا من جهة اللّه سبحانه.

﴿ **وربك يخلق ما يشاء** ﴾ أى يخلقه ﴿ **ويختار** ﴾ ما يشاء أن يختاره. ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم، بل

الاختيار إلى الله ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أى التخير. وقيل : المراد من الآية : أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار، أى الاختيار إلى الله عزّ وجلّ. وقيل: إن هذه الآية جواب عن قولهم: ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال الزجاج : الوقف على ﴿ ويختار ﴾ تام على أن «ما» نافية. قال : ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ ﴿ يختار﴾ والمعنى: ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة. والصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف . وقال ابن جرير: إن تقدير الآية : ويختار لولايته الخيرة من خلقه، وهذا فى غاية من الضعف . وجوّز ابن عطية أن تكون كان تامة ، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة. وهذا أيضا بعيد جدًا . وقيل : إن «ما » مصدرية ، أى يختار اختيارهم والمصدر واقع موقع المفعول به ، أى ويختار مختارهم ، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير. والراجح أوّل هذه التفاسير ، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة ﴾ [الأحزاب: ٣٦] والخيرة : التخير كالطيرة فإنها التطير، اسمان يستعملان استعمال المصدر، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿سبحان الله ﴾ أى تنزّه تنزّها خاصا به من غير أن ينازعه منازع ويشاركه مشارك ﴿ وتعالى عما يشركون﴾ أى عن الذين يجعلونهم شركاء له،أو عن إشراكهم.

﴿ وربك يعلم ما تكنّ صدورهم ﴾ أى تخفيه من الشرك، أو من عداوة رسول الله ﷺ ، أو من جميع مايخفونه مما يخالف الحق ﴿ وما يعلنون ﴾ أى يظهرونه من ذلك. قرأ الجمهور : ﴿ تكن ﴾ بضم التاء الفوقية وكسر الكاف. وقرأ ابن محيصن وحميد بفتح الفوقية وضم الكاف. ثم تمدح سبحانه وتعالى بالوحدانية والتفرّد باستحقاق الحمد فقال : ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى ﴾ أى الدنيا ﴿ والآخرة ﴾ أى الدار الآخرة ﴿ وله الحكم ﴾ يقضى بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ بالبعث فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا ترجعون إلى غيره .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ قال : قال الله: لم نهلك قرية بإيمان،ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها ، ولو كانت مكة آمنت لم يهلكوا مع من هلك ، ولكنهم كذبوا وظلموا فبذلك هلكوا . وأخرج مسلم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عزّ وجلّ : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى » (١) الحديث بطوله. وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ماكانوا ، فمن أطعم لله عزّ وجلّ أطعمه الله ، ومن كسا لله عزّ وجلّ كساه الله، ومن سقى لله عزّ وجلّ سقاه الله، ومن كان فى رضا الله كان الله على رضاه » . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ فعميت عليهم الأنباء ﴾ قال:

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٦٩/ ٤٣) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٥٠ .

الحجج ﴿ **فهم لا يتساءلون** ﴾ قال: بالأنساب. وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح تعليم الاستخارة وكيفية صلاتها ودعائها (١)، فلا نطول بذكره.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ

---

(١) أحمد ٣/ ٣٤٤ والبخارى فى التهجد (١١٦٢) وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٨) والترمذى فى الوتر (٤٨٠) وقال: « حسن صحيح غريب » والنسائى ٦/ ٨٠ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٨٣) كلهم عن جابر بن عبد الله.

الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾.

قوله : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أى أخبرونى ﴿ **إن جعل الله عليكم الليل سرمدا** ﴾ السرمد : الدائم المستمرّ ، من السرد ، وهو المتابعة فالميم زائدة ، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمرى عليك بغمة ... نهارى ولا ليلى عليك بسرمد

وقيل : إن ميمه أصلية ووزنه فعلل لا مفعل ، وهوالظاهر. بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة ؛ فإنه لو كان الدهر الذى يعيشون فيه ليلا دائما إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه وطلب ما لا بدّ لهم منه ، مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس . ثم امتنّ عليهم فقال : ﴿ **من إله غير الله يأتيكم بضياء** ﴾ أى هل لكم إله من الآلهة التى تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ؟ أى بنور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه وتصلح به ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول وتدبير وتفكر .

ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود الليل فقال : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة** ﴾ أى جعل جميع الدهر الذى تعيشون فيه نهارا إلى يوم القيامة ﴿ **من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه** ﴾ أى تستقرّون فيه من النصب والتعب ، وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ ؛ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير اللّه ، وإذا أقرّوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه عزّ وجلّ فقد لزمتهم الحجة ،وبطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة ، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله: ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل قوله : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه** ﴾ أى فى الليل ﴿**ولتبتغوا من فضله** ﴾ أى فى النهار بالسعى فى المكاسب ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى ولكى تشكروا نعمة الله عليكم ، وهذه الآية من باب اللف والنشر، كما فى قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها ، العناب والحشف البالى

واعلم أنه وإن كان السكون فى النهار ممكنا ، وطلب الرزق فى الليل ممكنا ، وذلك عند طلوع القمر على الأرض ، أوعند الاستضاءة بشىء بما له نور كالسراج ، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به. ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين ؛ لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام ، وينادون أخرى

فيسكتون ، وفى هذا التكرير أيضا تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ ، وقوله : ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيدا** ﴾ عطف على ينادى ، وجاء بصيغة الماضِى للدلالة على التحقق ، والمعنى : وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم .قال مجاهد :هم الأنبياء ، وقيل :عدول كل أمة، والأول أولى. ومثله قوله سبحانه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء :٤١] ثم بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله : ﴿**فقلنا هاتوا برهانكم** ﴾ أى حجتكم ودليلكم بأن معى شركاء ، فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان ، ولذا قال : ﴿ **فعلموا أن الحق لله** ﴾ فى الإلهية وأنه وحده لا شريك له ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى غاب عنهم وبطل وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب فى الدنيا بأن للّه شركاء يستحقون العبادة .

ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة وعجيب الصنع فقال : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى** ﴾ قارون على وزن فاعول اسم أعجمى ممتنع للعجمة والعلمية ، وليس بعربىّ مشتق من قرنت . قال الزجاج : لو كان قارون من قرنت الشىء لانصرف . قال النخعى وقتادة وغيرهما : كان ابن عمّ موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث. وقال ابن إسحاق : كان عمّ موسى لأب وأم فجعله أخا لعمران ، وهما ابنا قاهث . وقيل : ابن خالة موسى ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، فنافق كما نافق السامرى وخرج عن طاعة موسى ، وهو معنى قوله : ﴿ **فبغى عليهم** ﴾ أى جاوز الحدّ فى التجبر والتكبر عليهم وخرج عن طاعة موسى وكفر باللّه . قال الضحاك : بغيه على بنى إسرائيل : استخفافه بهم لكثرة ماله وولده . وقال قتادة : بغيه بنسبته ما آتاه اللّه من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته . وقيل : كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فتعدّى عليهم وظلمهم.وقيل:كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية .

﴿ **وآتيناه من الكنوز** ﴾ جمع كنز، وهو المال المدّخر . قال عطاء : أصاب كنزا من كنوز يوسف ، وقيل : كان يعمل الكيمياء ، و« ما » فى قوله : ﴿ **ما إن مفاتحه** ﴾ موصولة صلتها إنّ وما فى حيزها ، ولهذا كسرت . ونقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما فى حيزها صلة الذى ، واستقبح ذلك منهم لوروده فى الكتاب العزيز فى هذا الموضع . والمفاتح : جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل : المراد بالمفاتح : الخزائن ، فيكون واحدها مفتح بفتح الميم. قال الواحدى: إن المفاتح: الخزائن فى قول أكثر المفسرين ، كقوله: ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام : ٥٩] قال : وهو اختيار الزجاج فإنه قال : الأشبه فى التفسير أن مفاتحه :خزائن ماله . وقال آخرون : هى جمع مفتاح ، وهو ما يفتح به الباب ، وهذا قول قتادة ومجاهد ﴿ **لتنوء بالعصبة أولى القوة** ﴾ هذه الجملة خبر إن وهى واسمها وخبرها صلة ما الموصولة ، يقال: ناء بحمله: إذا نهض به مثقلا ، ويقال : ناء بى الحمل : إذا أثقلنى، والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح . قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب ، والمعنى : لتنوء

بها العصبة ، أى تنهض بها . قال أبو زيد : نؤت بالحمل : إذا نهضت به . قال الشاعر :

إنا وجدنا خلفا بئس الخلف   عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

وقال الفراء : معنى تنوء بالعصبة : تميلهم بثقلها ، كما يقال : يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس وذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأته ، واختار هذا النحاس ، وبه قال كثير من السلف . وقيل : هو مأخوذ من النأى ، وهو البعد وهو بعيد . وقرأ بديل بن ميسرة: « لينوء » بالياء ، أى لينوء الواحد منها أو المذكور ، فحمل على المعنى . والمراد بالعصبة : الجماعة التى يتعصب بعضها لبعض . قيل : هى من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين العشرة إلى العشرين . وقيل : من الخمسة إلى العشرة . وقيل : أربعون . وقيل : سبعون . وقيل غير ذلك ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح** ﴾ الظرف منصوب بـ﴿ **تنوء** ﴾ . وقيل :بـ﴿ **آتيناه** ﴾ وقيل : بـ﴿ **بغى** ﴾ . وردّهما أبو حيان بأن الإيتاء والبغى لم يكونا ذلك الوقت . وقال ابن جرير : هو متعلق بمحذوف وهو : اذكر ، والمراد بقومه هنا : هم المؤمنون من بنى إسرائيل. وقال الفراء :هو موسى وهو جمع أريد به الواحد ، ومعنى ﴿ **لا تفرح** ﴾ : لا تبطر ولا تأشر ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم . قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال ، فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه . وقيل : المعنى : لا تفسد ، كقول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة   وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أى أفسدتك . قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء . وقال الفراء : معنى الفرحين : الذين هم فى حال الفرح ، والفارحين : الذين يفرحون فى المستقبل . وقال مجاهد : معنى ﴿**لا تفرح** ﴾ : لا تبغ إن اللّه لا يحبّ الفرحين الباغين . وقيل معناه : لا تبخل إن اللّه لا يحبّ الباخلين .

﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾ أى واطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال الدار الآخرة فأنفقه فيما يرضاه اللّه لا فى التجبر والبغى. وقرئ: « واتبع » ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾. قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل فى دنياه لآخرته ، ونصيب الإنسان عمره وعمله الصالح . قال الزجاج : معناه : لا تنس أن تعمل لآخرتك ؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذى يعمل به لآخرته . وقال الحسن وقتادة : معناه : لا تضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآنى ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ أى أحسن إلى عباد اللّه كما أحسن اللّه إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا . وقيل : أطع اللّه واعبده كما أنعم عليك ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ؛ أن جبريل سأل رسول اللّه ﷺ

عن الإحسان فقال : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) . ﴿ **ولا تبغ الفساد فى الأرض** ﴾ أى لاتعمل فيها بمعاصى اللّه ﴿ **إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ فى الأرض .

﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ قال قارون هذه المقالة ردّا على من نصحه بما تقدّم ، أى إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمى ، فقوله : ﴿ **على علم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ **عندى** ﴾ إما ظرف لأوتيته ، وإما صلة للعلم . وهذا العلم الذى جعله سببا لما ناله من الدنيا ، قيل : هو علم التوراة . وقيل : علمه بوجوه المكاسب والتجارات . وقيل : معرفة الكنوز والدفائن . وقيل : علم الكيمياء . وقيل : المعنى إن اللّه آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى إياها لفضل علمه منى . واختار هذه الزجاج وأنكر ما عداه . ثم ردّ اللّه عليه قوله هذا فقال : ﴿ **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعا** ﴾ المراد بالقرون : الأمم الخالية ، ومعنى أكثر جمعا : أكثر منه جمعا للمال ، ولوكان المال أو القوّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم اللّه . وقيل : القوّة : الآلات ، والجمع الأعوان . وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون ؛ لأنه قد قرأ التوراة ، وعلم علم القرون الأولى وإهلاك اللّه سبحانه لهم ﴿**ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ أى لا يسألون سؤال استعتاب، كما فى قوله :﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ [النحل : ٨٤]، ﴿ وما هم من المعتبين ﴾ [فصلت : ٢٤] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، كما فى قوله :﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر : ٩٢] . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ؛ لأنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية .

﴿ **فخرج على قومه فى زينته** ﴾ الفاء للعطف على ﴿ **قال** ﴾ وما بينهما اعتراض ، و﴿ **فى زينته** ﴾ متعلق بخرج ، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج ، وقد ذكر المفسرون فى هذه الزينة التى خرج فيها روايات مختلفة، والمراد : أنه خرج فى زينة انبهر لها من رآها ، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى اللّه عنهم بقوله: ﴿ **قال الذين يريدون الحياة الدنيا**﴾ وزينتها ﴿ **ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا. واختلف فى هؤلاء القائلين بهذه المقالة ، فقيل : هم من مؤمنى ذلك الوقت . وقيل : هم قوم من الكفار .

﴿ **وقال الذين أوتوا العلم** ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل قالوا للذين تمنوا : ﴿ **ويلكم ثواب الله خير** ﴾ أى ثواب اللّه فى الآخرة خير مما تمنونه ﴿ **لمن آمن وعمل صالحا** ﴾ فلا تمنوا عرض

---

(١) أحمد ١/ ٢٧ ومسلم فى الإيمان (٨/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : «حسن صحيح » والنسائى ٨/ ٩٧، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣) كلهم عن عمر بن الخطاب ، وأحمد ٢/ ٤٢٦ والبخارى فى الإيمان (٥٠) ومسلم فى الإيمان (٩/ ٥) والنسائى ٨/ ١٠١ ـ ١٠٣ وابن ماجة فى المقدمة (٦٤) كلهم عن أبى هريرة .

الدنيا الزائل الذى لا يدوم ﴿ **ولا يلقاها** ﴾ أى هذه الكلمة التى تكلم بها الأحبار . وقيل : الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة . وقيل : إلى الجنة ﴿ **إلا الصابرون** ﴾ على طاعة اللّه والمصبرون أنفسهم عن الشهوات . ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ يقال : خسف المكان يخسف خسوفا : ذهب فى الأرض ، وخسف به الأرض خسفا ، أى غاب به فيها ، والمعنى : أن اللّه سبحانه غيبه وغيب داره فى الأرض ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله** ﴾ أى ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿ **وما كان** ﴾ هو فى نفسه ﴿ **من المنتصرين** ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف .

﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس** ﴾ أى منذ زمان قريب ﴿ **يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر** ﴾ أى يقول كل واحد منهم متندّما على ما فرط منه من التمنى . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائى: إن القوم تنبهوا فقالوا : وى ، والمتندم من العرب يقول فى خلال ندمه : وى . قال الجوهرى : وى : كلمة تعجب ، ويقال : ويك ، وقد تدخل وى على كأن المخففة والمشدّدة ويكأن اللّه . قال الخليل : هى مفصولة تقول : وى ، ثم تبتدئ فيقول : كأن . وقال الفراء : هى كلمة تقرير كقولك : أما ترى صنع اللّه وإحسانه ؟ وقيل: هى كلمة تنبيه بمنزلة ألا . وقال قطرب : إنما هو : ويلك فأسقطت لامه ، ومنه قول عنترة :

ولقد شفا نفسى وأبرأ سقمها قول الفوارس ويك عنتر أقدم

وقال ابن الأعرابى : معنى ويكأن اللّه: أعلم أن اللّه . وقال القتيبى: معناها بلغة حمير : رحمة ، وقيل : هى بمعنى : ألم تر ؟. وروى عن الكسائى أنه قال : هى كلمة تفجع ﴿ **لولا أن من الله علينا** ﴾ برحمته وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغى ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمنى﴿ **لخسف بنا** ﴾ كما خسف به . وقرأ حفص :﴿ **لخسف** ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ الباقون مبنيا للمفعول ﴿ **ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ أى لا يفوزون بمطلب من مطالبهم . ﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ أى الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها، كأنه قال : تلك التى سمعت بخبرها وبلغك شأنها ﴿ **نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض**﴾ أى رفعة وتكبرا على المؤمنين ﴿ **ولا فسادا** ﴾ أى عملا بمعاصى اللّه سبحانه فيها، وذكر العلوّ والفساد منكرين فى حيز النفى ؛ يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنه علوّ وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص ، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائنا ما كان ، وأما العلوّ فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير والتطاول على الناس ، وليس منه طلب العلو فى الحقّ والرئاسة فى الدين ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن .

﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ وهو أن اللّه يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ أى إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه،وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى سورة النمل.

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن ﴾ قال المفسرون : أى أنزل عليك القرآن . وقال الزجاج : فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ، وتقدير الكلام : فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه ﴿لرادّك إلى معاد ﴾ قال جمهور المفسرين : أى إلى مكة . وقال مجاهد وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى: لرادّك إلى يوم القيامة. وهو اختيار الزجاج ، يقال : بينى وبينك المعاد، أى يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء. وقال أبو مالك وأبو صالح : لرادّك إلى معاد : إلى الجنة . وبه قال أبو سعيد الخدرى ، وروى عن مجاهد . وقيل : ﴿ إلى معاد ﴾ : إلى الموت ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبىّ ﷺ: إنك فى ضلال . والمراد: بمن جاء بالهدى ، هو النبىّ ﷺ ، ومن هو فى ضلال مبين : المشركون ، والأولى حمل الآية على العموم ، وأن اللّه سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين ويجازيها بما تستحقه من خير وشر .

﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أى ما كنت ترجو أنا نرسلك إلى العباد وننزل عليك القرآن . وقيل : ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك . والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ منقطع ، أى لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك ، ويجوز أن يكون متصلا حملا على المعنى، كأنه قيل: وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. والأوّل أولى وبه جزم الكسائى والفرّاء ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾ أى عونا لهم ، وفيه تعريض بغيره من الأمة. وقيل : المراد: لا تكوننّ ظهيرا لهم بمداراتهم . ﴿ ولا يصدّنك عن آيات اللّه بعد إذ أنزلت إليك ﴾ أى لا يصدنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم عن تلاوة آيات اللّه والعمل بها بعد إذ أنزلها اللّه إليك وفرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الصاد من صده يصده . وقرأ عاصم بضم الياء وكسر الصاد، من أصدّه بمعنى صدّه . ﴿وادع إلى ربك ﴾ أى ادع الناس إلى اللّه وإلى توحيده ، والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه ﴿ولا تكوننّ من المشركين ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدّم ؛ لأنه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال ، وكذلك قوله : ﴿ ولا تدع مع اللَه إلها آخر﴾ فإنه تعريض لغيره . ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال :﴿ لا إله إلا هو كل شىء ﴾ من الأشياء كائنا ما كان ﴿ هالك إلا وجهه ﴾ أى إلا ذاته . قال الزجاج : وجهه منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان مرفوعا بمعنى : كلّ شىء غير وجهه هالك ، كما قال الشاعر :

وكلّ أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كلّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه .﴿ له الحكم ﴾ أى القضاء النافذ يقضى بما شاء ويحكم بما أراد ﴿ وإليه ترجعون ﴾ عند البعث ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا إله غيره سبحانه وتعالى .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سرمدا ﴾ قال : دائما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ وضلّ عنهم ﴾ يوم القيامة ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ قال : يكذبون فى

الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى** ﴾ قال :كان ابن عمه وكان يتبع العلم حتى جمع علما فلم يزل فى أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده فقال له موسى : إن اللّه أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى ، فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم ،جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ فقالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغىّ من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك ، قالت: نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا له : ما أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا ، وأمرنى إذا زنا وقد أحصن أن يرجم ، قالوا: وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا : فإنك قد زنيت . قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت ، فقالوا : ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى : أنشدك باللّه إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى باللّه فإنهم دعونى وجعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برىء وأنك رسول اللّه ، فخرّ موسى ساجدا يبكى ، فأوحى اللّه إليه ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى، فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يقولون: ياموسى ياموسى ، فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم ، فجعلوا يقولون: يا موسى ياموسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم فغشيتهم ، فأوحى اللّه : ياموسى ، سألك عبادى وتضرّعوا إليك فلم تجبهم وعزتى لو أنهم دعونى لأجبتهم . قال ابن عباس : وذلك قوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى [(١)] .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن خيثمة قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلا أغرّ محجل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه قال : وجدت فى الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز . قلت : لم أجد فى الإنجيل هذا الذى ذكره خيثمة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لتنوء بالعصبة** ﴾ قال : تثقل . وأخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوّة. وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : العصبة: أربعون رجلا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **إن اللّه لا يحب الفرحين** ﴾ قال : المرحين ، وفى قوله : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ قال : أن تعمل فيها لآخرتك . وأخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فخرج**

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٢) وصححه الحاكم ٢/٤٠٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

على قومه فى زينته ﴾ فى أربعة آلاف بغل . وقد روى عن جماعة من التابعين أقوال فى بيان ما خرج به على قومه من الزينة ولا يصحّ منها شىء مرفوعا ، بل هى من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة ، ولا أدرى كيف إسناد هذا الحديث الذى رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه . وأخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ قال : خسف به إلى الأرض السلفى .

وأخرج المحاملى ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ فى قوله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ قال : « التجبر فى الأرض والأخذ بغير الحق » . وروى نحوه عن مسلم البطين وابن جريج وعكرمة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **لا يريدون علوا فى الأرض** ﴾ قال : بغيا فى الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هو الشرف والعلوّ عند ذوى سلطانهم . وأقول: إن كان ذلك للتقوّى به على الحق ، فهو من خصال الخير لا من خصال الشرّ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال : إن الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه ، فيدخل فى هذه الآية :﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علىّ رضى اللّه عنه : وهذا محمول على من أحبّ ذلك لالمجرّد التجمل ، فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى أحبّ أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ قال : « لا ، إن اللّه جميل يحب الجمال»[(١)] . وأخرج ابن مردويه وابن عساكرعن علىّ بن أبى طالب أنه قال :نزلت هذه الآية ، يعنى :﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ إلخ فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عدى بن حاتم قال : لما دخل على النبىّ ﷺ ألقى إليه وسادة ، فجلس على الأرض فقال : أشهد أنك لا تبغى علوّا فى الأرض ولا فسادا فأسلم.

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، وأخرج أيضا ابن مردويه عن علىّ بن الحسين بن واقد أن قوله تعالى : ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن** ﴾ الآية أنزلت على رسول اللّه ﷺ بالجحفة حين خرج النبىّ ﷺ مهاجرا إلى المدينة. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ قال : إلى مكة [(٢)] . زاد ابن مردويه: كما أخرجك منها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ قال : الآخرة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه ، وأبو يعلى وابن المنذر

(١) مسلم فى الإيمان (١٤٧/٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وقال : «حسن صحيح غريب » كلاهما عن عبد اللّه بن مسعود ، وأخرجه أحمد ٤/ ١٣٣ عن أبى ريحانة ، وابن كثير ٥/ ٣٠٣ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٧٣) والنسائى فى التفسير (٤٠٦) وابن جرير ٢٠/ ٨٠ .

عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لرادّك إلى معاد**﴾ قال : معاده : الجنة ، وفى لفظ : معاده: آخرته[١].
وأخرج الحاكم فى التاريخ ، والديلمى عن علىّ بن أبى طالب قال : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ : الجنة. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : لما نزلت :﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : ٢٦] قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فلما نزلت : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران : ١٨٥] قالت الملائكة : هلك كلّ نفس ، فلما نزلت: ﴿ **كلّ شىء هالك إلا وجهه** ﴾ قالت الملائكة : هلك أهل السماء والأرض . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ **كلّ شىء هالك إلا وجهه**﴾ قال : إلا ما أريد به وجهه .

(١) البخارى فى التاريخ ١/ ٢٨٠ وأبو يعلى (١١٣١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ : « رجاله ثقات » .

تفسير سورة العنكبوت

هى تسع وستون آية . وقد اختلف فى كونها مكية أو مدنية ، أو بعضها مكيا وبعضها مدنيا على ثلاثة أقوال : الأول: أنها مكية كلها ، أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، وأخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير ، وبه قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . والقول الثانى : أنها مدنية كلها، قال القرطبى : وهو أحد قولى ابن عباس وقتادة . والقول الثالث : أنها مكية إلا عشر آيات من أولّها ، قال القرطبى : وهو أحد قولى ابن عباس وقتادة ، وهو قول يحيى بن سلام [(١)] . وحكى عن علىّ ابن أبى طالب أنها نزلت بين مكة والمدينة ، وهذا قول رابع . وأخرج الدارقطنى فى السنن عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يصلى فى كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات ، يقرأ فى الركعة الأولى العنكبوت أو الروم ، وفى الثانية يس [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً

---

(١) القرطبى ٧ / ٥٠٣٩ .

(٢) الدارقطنى ٢ / ٦٤ ، وفيه سعيد بن حفص ، قال ابن حجر فى تقريب التهذيب ١/ ٢٩٣ : « صدوق تغير فى آخر أيامه » .

مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾.

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى فى سورة البقرة . والاستفهام فى قوله : ﴿**أحسب الناس** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، و﴿ **أن يتركوا** ﴾ فى موضع نصب بحسب ، وهى وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه والجمهور ، و﴿ **أن يقولوا** ﴾ فى موضع نصب على تقدير : لأن يقولوا ، أو بأن يقولوا ، أو على أن يقولوا. وقيل: هو بدل من أن يتركوا ، ومعنى الآية : أن الناس لا يتركون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿ **أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ أى وهم لا يبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، وليس الأمر كما حسبوا ، بل لابد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق ، والصادق من الكاذب ، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان واستبعاده. وبيان أنه لابد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها . قال الزجاج : المعنى : أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا : إنا مؤمنون فقط ، ولا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم ؟ وهو قوله: ﴿ **أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون** ﴾ . قال السدّى وقتادة ومجاهد : أى لا يبتلون فى أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتى فى بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه ، وظاهرها شمول كلّ الناس من أهل الإيمان ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة فى سبب خاص فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدوّ وغير ذلك .

﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم** ﴾ أى هذه سنة الله فى عباده وأنه يختبر مؤمنى هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن فى غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع مع قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ومن آمن بهم من تلك الأمور التى نزلت بهم ﴿**فليعلمنّ الله الذين صدقوا** ﴾ فى قولهم : آمنا ﴿ **وليعلمنّ الكاذبين** ﴾ منهم فى ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ **فليعلمن** ﴾ بفتح الياء واللام فى الموضعين ، أى ليظهرنّ الله الصادق والكاذب فى قولهم ويميز بينهم ، وقرأ علىّ بن أبى طالب فى الموضعين بضم الياء وكسر اللام . والمعنى ، أى يعلم الطائفتين فى الآخرة بمنازلهم ، أو يعلم الناس بصدق من صدق ويفضح الكاذبين بكذبهم ، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها .

﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا** ﴾ أى يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ، وهو سادّ مسد مفعولى حسب، وأم هى المنقطعة ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك . وقال الزجاج : ﴿ **ما** ﴾ فى موضع نصب بمعنى :ساء شيئًا أو حكما يحكمون . قال : ويجوز أن تكون ﴿ **ما** ﴾ فى موضع رفع بمعنى : ساء الشىء أو الحكم حكمهم ، وجعلها ابن كيسان مصدرية ، أى ساء حكمهم ﴿ **من كان يرجو لقاء الله** ﴾ أى من كان يطمع ، والرجاء بمعنى الطمع . قاله سعيد بن جبير . وقيل : الرجاء هنا بمعنى الخوف .

قال القرطبى : أجمع أهل التفسير أن المعنى : من كان يخاف الموت ، ومنه قول الهذلى :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها

قال الزجاج : معنى من كان يرجو لقاء اللّه : من كان يرجو ثواب لقاء اللّه . أى ثواب المصير إليه ، فالرجاء على هذا معناه : الأمل ﴿ **فإن أجل الله لآت** ﴾ أى الأجل المضروب للبعث آت لا محالة . قال مقاتل : يعنى يوم القيامة ، والمعنى : فليعمل لذلك اليوم كما فى قوله :﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ﴾ [الكهف : ١١٠] « ومن » فى الآية التى هنا يجوز أن تكون شرطية ، والجزاء ﴿ **فإن أجل الله لآت** ﴾ ، ويجوز أن تكون موصولة ودخلت الفاء فى جوابها تشبيها لها بالشرطية . وفى الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى ﴿ **وهو السميع** ﴾ لأقوال عباده ﴿ **العليم** ﴾ بما يسرّونه وما يعلنونه .

﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه** ﴾ أى من جاهد الكفار وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه ، أى ثواب ذلك له لالغيره ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ﴿**إن الله لغنى عن العالمين** ﴾ فلا يحتاج إلى طاعاتهم كما لا تضرّه معاصيهم . وقيل : المعنى : ومن جاهد عدّوه لنفسه لا يريد بذلك وجه اللّه ، فليس للّه حاجة بجهاده ، والأوّل أولى ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنَ عنهم سيآتهم** ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة بسبب ماعملوا من الصالحات ﴿ **ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ أى بأحسن جزاء أعمالهم . وقيل : بجزاء أحسن أعمالهم ، والمراد بأحسن : مجرّد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتا عنه . وقيل : يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما فى قوله : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا** ﴾ انتصاب ﴿ **حسنا** ﴾ على أنه نعت مصدر محذوف ، أى إيصاء حسنا على المبالغة ، أو على حذف المضاف ، أى ذا حسن . هذا مذهب البصريين ، وقال الكوفيون :تقديره : ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا ، فهو مفعول لفعل مقدّر، ومنه قول الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا

ومن أبى دهماء إذ يوصينا

خيرا بها كأنما خافونا

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا ، ومثله قول الحطيئة :

وصيت من برّة قلبا حرّا بالكلب خيرا والحمأة شرّا

قال الزجاج : معناه : ووصينا الإنسان : أن يفعل بوالديه ما يحسن . وقيل : هو صفة لموصوف محذوف ، أى ووصيناه أمرا ذا حسن ، وقيل : هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين ، أى ألزمناه حسنا . وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى ووصيناه بحسن . وقيل :

هو مصدر لفعل محذوف ، أى يحسن حسنا ، ومعنى الآية :التوصية للإنسان بوالديه بالبّر بهما والعطف عليهما . قرأ الجمهور : ﴿ **حسنا** ﴾ بضم الحاء وإسكان السين ، وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتحهما ، وقرأ الجحدرى : « إحسانا » وكذا فى مصحف أبىّ ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ أى طلبا منك وألزماك أن تشرك بى إلها ليس لك به علم بكونه إلها فلا تطعهما ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وعبر بنفى العلم عن نفى الإله لأن ما لا يعلم صحته لايجوز اتباعه ، فكيف بما علم بطلانه ؟ وإذا لم تجز طاعة الأبوين فى هذا المطلب مع المجاهدة منهم له فعدم جوازها مع مجرّد الطلب بدون مجاهدة منها أولى . ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصى اللّه سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية للّه كما صحّ ذلك عن رسول اللّه ﷺ ﴿ **إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أى أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها . فأجازى كلا منكم بما يستحقه . والموصول فى قوله : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فى محل رفع على الابتداء وخبره :﴿ **لندخلنهم فى الصالحين** ﴾ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الاشتغال ، ويجوز أن يكون المعنى : لندخلنهم فى مدخل الصالحين ، وهو الجنة كذا قيل ، والأوّل أولى .

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله** ﴾ أى فى شأن اللّه ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان ، وكما يفعله أهل المعاصى مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان باللّه والعمل بما أمربه ﴿ **جعل فتنة الناس** ﴾ التى هى ما يوقعونه عليه من الأذى ﴿**كعذاب الله** ﴾ أى جزع من أذاهم . فلم يصبر عليه وجعله فى الشدّة والعظم كعذاب اللّه فأطاع الناس كما يطيع اللّه. وقيل : هو المنافق إذا أُذى فى اللّه رجع عن الدين فكفر . قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذية فى اللّه ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك** ﴾ أى نصر من اللّه للمؤمنين وفتح وغلبة للأعداء وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ **ليقولنّ إنا كنا معكم** ﴾ أى داخلون معكم فى دينكم ومعاونون لكم على عدوّكم ، فكذبهم الله وقال : ﴿ **أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين** ﴾ أى هو سبحانه أعلم بما فى صدورهم منهم من خير وشرّ ، فكيف يدّعون هذه الدعوى الكاذبة ؟ وهؤلاء هم قوم ممن كان فى إيمانهم ضعف ، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم . وإذا ظهرت قوّة الإسلام ونصر اللّه المؤمنين فى موطن من المواطن قالوا: ﴿ **إنا كنا معكم** ﴾ وقيل : المراد بهذا وما قبله المنافقون . قال مجاهد : نزلت فى ناس كانوا يؤمنون باللّه بألسنتهم . فإذا أصابهم بلاء من اللّه أو مصيبة افتتنوا . وقال الضحاك : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون . فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ، والظاهر أن هذا النظم من قوله : ﴿ **ومن الناس من يقول** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ نازل فى المنافقين لما يظهر من السياق ، ولقوله: ﴿ **وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين** ﴾ فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيده ، أى ليميزنّ اللّه بين الطائفتين ويظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين ، فالمخلص الذى لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى ويصبر فى اللّه حق الصبر ، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب اللّه .

والمنافق الذى يميل هكذا وهكذا ، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم وكفر باللّه عزّ وجلّ ، وإن خفقت ريح الإسلام وطلع نصره ولاح فتحه رجع إلى الإسلام ، وزعم أنه من المسلمين .

﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا** ﴾ اللام فى ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ هى لام التبليغ، أى قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه فى غير موضع ، أى قالوا لهم اسلكوا طريقتنا ، وادخلوا فى ديننا ﴿ **ولنحمل خطاياكم** ﴾ أى إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم ؛ فنؤاخذ به دونكم واللام فى ﴿ **لنحمل** ﴾ لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك . وقال الفراء والزجاج : هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء ، أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، ثم ردّ اللّه عليهم بقوله :﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء** ﴾ من الأولى بيانية . والثانية مزيدة للاستغراق ، أى وماهم بحاملين شيئا من خطيئاتهم التى التزموا بها ، وضمنوا لهم حملها ،ثم وصفهم اللّه سبحانه بالكذب فى هذا التحمل فقال: ﴿ **إنهم لكاذبون** ﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم . قال المهدوى : هذا التكذيب لهم من اللّه عزّ وجلّ حمل على المعنى ؛ لأن المعنى : إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم ، فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر .

﴿ **وليحملن أثقالهم** ﴾ أى أوزارهم التى عملوها ، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿ **وأثقالا مع أثقالهم** ﴾ أى أوزارا مع أوزارهم . وهى أوزار من أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة ومثله قوله سبحانه : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾[النحل : ٢٥] ومثله قوله ﷺ : « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » (١) كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى صحيح مسلم وغيره ﴿ **وليسألنّ يوم القيامة** ﴾ تقريعا وتوبيخا ﴿ **عما كانوا يفترون** ﴾ أى يختلقونه من الأكاذيب التى كانوا يأتون بها فى الدنيا . وقال مقاتل : يعنى قولهم : نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من اللّه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله:﴿ **آلم. أحسب الناس أن يتركوا** ﴾ الآية . قال : أنزلت فى ناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول اللّه ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا ، قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردّوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه ، فخرجوا فاتبعم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل اللّه فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾(٢)

(١) مسلم فى العلم (٢٦٧٤ / ١٦) وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٦) والدارمى فى المقدمة ١ / ١٣١ .
(٢) ابن جرير ٢٠ / ٨٢ .

[النحل : ١١٠] . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه . وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال :نزلت فى عمار بن ياسر إذ كان يعذب فى الله :﴿ **آلم . أحسب الناس أن يتركوا** ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه عن ابن مسعود قال : أوّل من أظهر الله إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر . وسمية أم عمار ، وعمار ، وصهيب . وبلال ، والمقداد . فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد (٢) . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أن يسبقونا** ﴾ قال : أن يعجزونا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : قالت أمى لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بمحمد ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ وأخرجه أيضا الترمذى من حديثه ، وقال : نزلت فىّ أربع آيات وذكر نحو هذه القصة ، وقال: حسن صحيح (٣). وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى أيضا (٤). وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة وأبو يعلى وابن حبان وأبو نعيم والبيهقى والضياء عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علىّ ثالثة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ماوارى إبط بلال » (٥) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ قال : يرتدّ عن دين الله إذا أوذى فى الله .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ**

---

(١) ابن سعد ٣ / ٢٥٠ وابن جرير ٢٠ / ٨٣ .

(٢) ابن ماجة فى المقدمة (١٥٠) . قال فى زوائده : « إسناده ثقات » ، وصححه الحاكم ٣ / ٢٨٤ ووافقه الذهبى، وابن حبان (٧٠٤١) .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣١٨٩) .

(٤) أحمد ١ / ١٨١ ومسلم فى فضائل الصحابة (١٧٤٨ / ٤٤) وأبو داود فى الجهاد (٢٧٤٠) والنسائى فى التفسير (٢١٦) .

(٥) أحمد ٣ / ١٢٠ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٧٢) وقال : «حسن غريب » وابن ماجة فى المقدمة (١٥١) وأبو يعلى (٣٤٢٣) وابن حبان (٦٥٢٦) وأبو نعيم فى الحلية ١/ ١٥٠ .

وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾.

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله فى أول السورة : ﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم** ﴾ فيه تثبيت للنبى ﷺ ، كأنه قيل له : إن نوحا لبث ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك . قيل : ووقع فى النظم إلا خمسين عاما ولم يقل : تسعمائة سنة وخمسين؛ لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى ، فقد يطلق على ما يقرب منه . وقد اختلف فى مقدار عمر نوح . وسيأتى آخر البحث . وليس فى الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة ، وهى لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث فى غيرهم قبل اللبث فيهم ، وقد تلبث فى الأرض بعد هلاكهم بالطوفان ، والفاء فى ﴿**فأخذهم الطوفان**﴾ للتعقيب ، أى أخذهم عقب تمام المدة المذكورة ، والطوفان يقال لكل شىء كثير مطيف بجمع محيط بهم من مطر أو قتل أو موت قاله النحاس . وقال سعيد بن جبير وقتادة والسدى : هو المطر . وقال الضحاك : الغرق . وقيل : الموت ، ومنه قول الشاعر :

أفناهم طوفان موت جارف

وجملة : ﴿ **وهم ظالمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مستمرون على الظلم ولم

ينجع فيهم ما وعظهم به نوح وذكرهم هذه المدّة بطولها . ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة** ﴾ أى أنجينا نوحا وأنجينا من معه فى السفينة من أولاده وأتباعه . واختلف فى عددهم على أقوال : ﴿**وجعلناها** ﴾ أى السفينة ﴿ **آية للعالمين** ﴾ أى عبرة عظيمة لهم. وفى كونها آية وجوه: أحدها : أنها كانت باقية على الجودىّ مدّة مديدة . وثانيها: أن اللّه سلم السفينة من الرياح المزعجة . وثالثها : أن الماء غيض قبل نفاذ الزاد . وهذا غير مناسب لوصف السفينة بأن اللّه جعلها آية . وقيل: إن الضمير راجع فى ﴿ **جعلناها** ﴾ إلى الواقعة أو إلى النجاة ، أو إلى العقوبة بالغرق .

﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه** ﴾ انتصاب ﴿ **إبراهيم** ﴾ بالعطف على ﴿ **نوحا** ﴾ وقال النسائى : هو معطوف على الهاء فى ﴿ **جعلناها** ﴾ وقيل : منصوب بمقدّر، أى واذكر إبراهيم. و﴿ **إذ قال**﴾ منصوب على الظرفية ، أى وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه اعبدوا اللّه ، أوجعلنا إبراهيم وقت قوله هذا ، أو واذكر إبراهيم وقت قوله ، على أن الظرف بدل اشتمال من إبراهيم ﴿ **اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أى أفردوه بالعبادة وخصوه بها واتقوه أن تشركوا به شيئا ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ أى عبادة اللّه وتقواه خير لكم من الشرك ، ولاخير فى الشرك أبدا ، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ شيئا من العلم ، أو تعلمون علما تميزون به بين ما هو خير وما هو شرّ . قرأ الجمهور : ﴿ **وإبراهيم** ﴾ بالنصب ، ووجهه ما قدّمنا . وقرأ النخعى وأبوجعفر وأبوحنيفة بالرفع على الابتداء والخبر مقدّر ، أى ومن المرسلين إبراهيم .

﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانا** ﴾ بين لهم إبراهيم أنهم يعبدون مالا ينفع ولا يضرّ ولا يسمع ولا يبصر ، والأثان هى الأصنام . وقال أبو عبيدة : الصنم : ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن : ما يتخذ من جصّ أو حجارة . وقال الجوهرى : الوثن : الصنم والجمع أوثان ﴿ **وتخلقون إفكا** ﴾ أى وتكذبون كذبا على أن معنى ﴿ **تخلقون** ﴾ : تكذبون ، ويجوز أن يكون معناه : تعملون وتنحتون ، أى تعملونها وتنحتونها للإفك . قال الحسن : معنى تخلقون : تنحتون ، أى إنما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها . قرأ الجمهور : ﴿ **تخلقون** ﴾ بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق وإفكا بكسر الهمزة وسكون الفاء . وقرأ علىّ بن أبى طالب وزيد بن علىّ والسلمى وقتادة بفتح الخاء واللام مشدّدة ، والأصل تتخلقون. وروى عن زيد بن علىّ أنه قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة . وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان : « أَفكا » بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى خلقا أفكا ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا** ﴾ أى لايقدرون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ أى اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى اللّه فهو الذى عنده الرزق كله فاسألوه من فضله ووحدوه دون غيره ﴿ **واشكروا له** ﴾ أى على نعمائه، فإن الشكر موجب لبقائها وسبب للمزيد عليها ، يقال : شكرته وشكرت له ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره .

﴿ **وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم** ﴾ قيل : هذا من قول إبراهيم ، أى وإن تكذبونى

فقد وقع ذلك لغيرى ممن قبلكم . وقيل : هو من قول اللّه سبحانه ، أى وإن تكذبوا محمدا فذلك عادة الكفار مع من سلف ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ لقومه الذى أرسل إليهم ، وليس عليه هدايتهم . وليس ذلك فى وسعه ﴿ **أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **أو لم يروا** ﴾ بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال أبو عبيد : كأنه قال : أو لم ير الأمم . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه. وقيل :هوخطاب من اللّه لقريش . قرأ الجمهور : ﴿ **كيف يبدئ** ﴾ بضم التحتية من أبدأ يبدئ . وقرأ الزبيرى وعيسى بن عمر وأبوعمرو بفتحها من بدأ يبدأ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يخرجه إلى الدنيا ، ثم يتوفاه بعد ذلك ؟ وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات ، فإذا رأيتم قدرة اللّه سبحانه على الابتداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم ، والواو للعطف على مقدّر ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ لأنه إذا أراد أمرا قال له : كن، فيكون . ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسير فى الأرض ليتفكروا ويعتبروا فقال: ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ على كثرتهم واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية والأمم الخالية وآثارهم لتعلموا بذلك كمال قدرة اللّه . وقيل : إن المعنى: قل لهم يا محمد سيروا ، ومعنى قوله : ﴿ **ثم الله ينشئ النشأة الآخرة** ﴾ أن اللّه الذى بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث ، والجملة عطف على جملة: ﴿ **سيروا فى الأرض** ﴾ داخلة معها فى حيز القول ، وجملة : ﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ تعليل لما قبلها . قرأ الجمهور : بـ﴿ **النشأة** ﴾ بالقصر وسكون الشين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ وفتح الشين ، وهما لغتان كالرأفة والرآفة . وهى منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد ، والأصل الإنشاءة : ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ أى هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تعذيبه وهم الكفار والعصاة ويرحم من يشاء رحمته ، وهم المؤمنون به المصدّقون لرسله العاملون بأوامره ونواهيه ﴿ **وإليه تقلبون** ﴾ أى ترجعون وتردّون لا إلى غيره ﴿**وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ قال الفراء : ولا من فى السماء بمعجزين اللّه فيها . قال : وهو كما فى قول حسان :

فمن يهجو رسول اللّه منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أى ومن يمدحه وينصره سواء. ومثله قوله تعالى:﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات: ١٦٤] أى إلا من له مقام معلوم . والمعنى : أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء إن عصوه. وقال قطرب: إن معنى الآية: ولا فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان هاهنا ولا بالبصرة ، ويعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها. وقال المبرد: المعنى : ولا من فى السماء ، على أن « من » ليست موصولة بل نكرة ، وفى السماء صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وردّ ذلك علىّ بن سليمان وقال : لا يجوز ،

ورجح ماقاله قطرب ﴿ **وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾ « من » مزيدة للتأكيد ، أى ليس لكم ولىّ يواليكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذاب اللّه ﴿ **والذين كفروا بآيات الله ولقائه** ﴾ المراد بالآيات : الآيات التنزيلية أو التكوينية أو جميعهما . وكفروا بلقاء اللّه ، أى أنكروا البعث وما بعده ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل اللّه سبحانه . والإشارة بقوله : ﴿**أولئك** ﴾ إلى الكافرين بالآية واللقاء ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **يئسوا من رحمتى** ﴾ أى إنهم فى الدنيا آيسون من رحمة اللّه لم ينجع فيهم مانزل من كتب اللّه ولا ما أخبرتهم به رسله . وقيل : المعنى : أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة اللّه وهى الجنة. والمعنى: أنهم أويسوا من الرحمة ﴿ **وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ كرّر سبحانه الإشارة للتأكيد ، ووصف العذاب بكونه أليما للدلالة على أنه فى غاية الشدّة .

﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه** ﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدّم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال : إن قوله : ﴿ **قل سيروا فى الأرض**﴾ خطاب لمحمد ﷺ . وأما على قول من قال : إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام ، فالكلام فى سياقه سابقا ولاحقا ، أى قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم : افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين ، ثم اتفقوا على تحريقه ﴿ **فأنجاه الله من النار** ﴾ وجعلها عليه بردا وسلاما ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى فى إنجاء اللّه لإبراهيم ﴿ **لآيات** ﴾ بينة ، أى دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة اللّه وبديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا أثرت فيه أثرا، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هوشأن عنصرها من الحرارة والإحراق ، وإنما خصّ المؤمنون ؛ لأنهم الذين يعتبرون بآيات اللّه سبحانه، وأما من عداهم فهم عن ذلك غافلون ، قرأ الجمهور : بنصب ﴿ **جواب قومه** ﴾ على أنه خبر كان وما بعده اسمها . وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار والحسن برفعه على أنه اسم كان وما بعده فى محل نصب على الخبر .

﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم فى الحياة الدنيا** ﴾ ، أى قال إبراهيم لقومه ، أى للتوادد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها ، وللخشية من ذهاب المودّة فيما بينكم إن تركتم عبادتها . قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « مودّة بينكم » برفع مودّة غير منوّنة ، وإضافتها إلى بينكم . وقرأ الأعمش وابن وثاب : « مودّة » برفعها منوّنة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بنصب « مودّة » منوّنة ونصب بينكم على الظرفية . وقرأ حمزة وحفص بنصب « مودّة » مضافة إلى بينكم . فأما قراءة الرفع فذكر الزجاج لها وجهين : الأوّل : أنها ارتفعت على خبر إنّ فى ﴿**إنما اتخذتم**﴾ وجعل ما موصولة ، والتقدير : إن الذى اتخذتموه من دون اللّه أوثانا مودّة بينكم . والوجه الثانى : أن تكون على إضمار مبتدأ ، أى هى مودّة أو تلك مودّة . والمعنى : أن المودّة هى التى جمعتكم على عبادة الأوثان واتخاذها . قيل : ويجوز أن تكون مودة مرتفعة بالابتداء وخبرها فى الحياة الدنيا. ومن قرأ برفع مودّة منوّنة فتوجيهه

كالقراءة الأولى، ونصب بينكم على الظرفية . ومن قرأ بنصب مودّة ولم ينوّنها جعلها مفعول اتخذتم وجعل إنما حرفا واحدا للحصر، وهكذا من نصبها ونوّنها . ويجوز أن يكون النصب فى هاتين القراءتين على أن المودّة علة فهى مفعول لأجله، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثانى محذوفا ، أى أوثانا آلهة، وعلى تقدير أن « ما » فى قوله : ﴿ **إنما اتخذتم** ﴾ موصولة يكون المفعول الأوّل ضميرها ، أى اتخذتموه، والمفعول الثانى أوثانا ﴿**ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض**﴾ أى يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم ، فيتبرأ القادة من الأتباع والأتباع من القادة ، وقيل: المعنى: يتبرأ العابدون للأوثان من الأوثان ، وتتبرأ الأوثان من العابدين لها ﴿ **ويلعن بعضكم بعضا** ﴾ أى يلعن كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿ **ومأواكم النار** ﴾ أى الكفار . وقيل : يدخل فى ذلك الأوثان ، أى هى منزلكم الذى تأوون إليه ﴿ **وما لكم من ناصرين** ﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم .

﴿ **فآمن له لوط** ﴾ أى آمن لإبراهيم لوط فصدّقه فى جميع ماجاء به . وقيل : إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه ، وكان لوط ابن أخى إبراهيم ﴿ **قال إنى مهاجر إلى ربى** ﴾ قال النخعى وقتادة : الذى قال :﴿ **إنى مهاجر إلى ربى**﴾ هو إبراهيم . قال قتادة : هاجر من كوثى وهى قرية من سواد الكوفة إلى حران ، ثم إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط وامرأته سارّة. والمعنى : إنى مهاجر عن دار قومى إلى حيث أعبد ربى ﴿ **إنه هو العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب الذى أفعاله جارية على مقتضى الحكمة . وقيل : إن القائل :﴿ **إنى مهاجر إلى ربى** ﴾ هو لوط، والأوّل أولى لرجوع الضمير فى قوله : ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب**﴾ إلى إبراهيم ، وكذا فى قوله : ﴿ **وجعلنا فى ذريته النبوّة والكتاب** ﴾ ، وكذا فى قوله : ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف، أى منّ اللّه عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولدا له ويعقوب ولدا لولده إسحاق وجعل فى ذرّيته النبوّة والكتاب، فلم يبعث اللّه نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه، ووحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب ، والمراد : التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، ومعنى ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا** ﴾ : أنه أعطى فى الدنيا الأولاد، وأخبره اللّه باستمرار النبوّة فيهم، وذلك مما تقرّ به عينه ويزداد به سروره. وقيل :أجره فى الدنيا أن أهل الملل كلها تدّعيه وتقول هو منهم. وقيل : أعطاه فى الدنيا عملا صالحا وعاقبة حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين أى الكاملين فى الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة وكثرة العطاء من الربّ سبحانه.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث اللّه نوحا وهو ابن أربعين سنة، ولبث فى قومه ألف إلا خمسين عاما يدعوهم إلى اللّه وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا (١). وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى

---

(١) الحاكم ٢ / ٥٤٦ وسكت عنه ووافقه الذهبى ، وقال ابن كثير ٥ / ٣١٣ : « وهو أقرب ».

قومه وبعد ما بعث ألفا وسبعمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن عون بن أبى شدّاد قال : إن اللّه أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة (١). وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب ذمّ الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح فقال : يا أطول النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتا له بابان، فقال فى وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**وجعلناها آية للعالمين**﴾ قال : أبقاها اللّه آية فهى على الجودىّ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتخلقون إفكا** ﴾ قال : تقولون كذبا. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **النشأة الآخرة** ﴾ قال : هى الحياة بعد الموت، وهو النشور. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فآمن له لوط** ﴾ قال : صدّق لوط إبراهيم. وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال : أوّل من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبى ﷺ : «صحبهما اللّه، إن عثمان لأوّل من هاجر إلى اللّه بأهله بعد لوط» (٢). وأخرج ابن منده وابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت : هاجر عثمان إلى الحبشة فقال النبى ﷺ : «إنه أوّل من هاجر بعد إبراهيم ولوط». وأخرج ابن عساكر والطبرانى، والحاكم فى الكنى عن زيد بن ثابت قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط مهاجر» (٣) . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : أوّل من هاجر إلى رسول اللّه ﷺ عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ قال : هما ولدا إبراهيم ، وفى قوله : ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا** ﴾ قال : إن اللّه وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به. وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وآتيناه أجره فى الدنيا** ﴾ قال: الذكر الحسن. وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الولد الصالح والثناء، وقول ابن عباس :هما ولدا إبراهيم لعله يريد ولده وولد ولده ؛ لأن ولد الولد بمنزلة الولد ،ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس فهو حبر الأمة، وهذه الرواية عنه هى من رواية العوفى، وفى الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (٤).

---

(١) ابن جرير ٢٠ / ٨٧.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٩ / ٨٤ : «رواه الطبرانى وفيه الحسن بن زياد البرجمى ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات».

(٣) الطبرانى (٤٨٨١) وقال الهيثمى فى المجمع ٩ / ٨٤ : «فيه عثمان بن خالد العثمانى وهو متروك».

(٤) أحمد ٢ / ٩٦ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٨٢).

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾.

قوله :﴿ **ولوطا** ﴾ منصوب بالعطف على ﴿ **نوحا** ﴾ أو على إبراهيم، أو بتقدير : اذكر. قال الكسائى :المعنى : وأنجينا لوطا، أو وأرسلنا لوطا ﴿ **إذ قال لقومه** ﴾ ظرف للعامل فى لوط ﴿ **إنكم لتأتون الفاحشة** ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر:«أئنكم» بالاستفهام. وقرأ الباقون بلا استفهام. والفاحشة : الخصلة المتناهية فى القبح، وجملة : ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ مقرّرة لكمال قبح هذه الخصلة، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال : ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال**﴾ أى تلوطون بهم ﴿ **وتقطعون السبيل** ﴾ قيل : إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء : كانوا يعترضون الناس فى الطرق بعملهم الخبيث. وقيل : كانوا يقطعون الطريق على المارّة بقتلهم ونهبهم. والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص، وقيل : إن معنى قطع الطريق : قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال ﴿**وتأتون فى ناديكم المنكر** ﴾ النادى والندىّ والمنتدى : مجلس القوم ومتحدّثهم.

واختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه : فقيل : كانوا يحذفون الناس بالحصباء، ويستخفون بالغريب. وقيل: كانوا يتضارطون فى مجالسهم . وقيل : كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضا. ، وقيل : كانوا يلعبون بالحمام. وقيل : كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء. وقيل كانوا يناقرون بين الديكة، ويناطحون بين الكباش. وقيل : يلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج : وفى هذا إعلام أنه لا ينبغى أن يتعاشر الناس على المنكر وألايجتمعوا على الهزؤ، والمناهى .

ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم قوله : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ أى فما أجابوا بشىء إلا بهذا القول رجوعا منهم إلى التكذيب واللجاج والعناد، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية، وقد تقدّم فى سورة النمل :﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ [النمل : ٥٦] وتقدّم فى سورة الأعراف : ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ﴾ [الأعراف : ٨٢] وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطا كان ثابتا على الإرشاد ومكرّرا للنهى لهم والوعيد عليهم، فقالوا له أولا : ﴿ **ائتنا بعذاب الله** ﴾ كما فى هذه الآية، فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: ﴿ **أخرجوهم** ﴾ كما فى الأعراف والنمل. وقيل : إنهم قالوا أوّلا : ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ ثم قالوا ثانيا : ﴿ **ائتنا بعذاب الله** ﴾ .

ثم إن لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه فقال : ﴿ **رب انصرنى على القوم المفسدين** ﴾ بإنزال عذابك عليهم، وإفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال وعمل المنكر فى ناديهم، فاستجاب الله سبحانه وبعث لعذابهم ملائكته وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، ولهذا قال : ﴿ **ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى** ﴾ أى بالبشارة بالولد وهو إسحاق ، وبولد الولد وهو يعقوب ﴿ **قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية** ﴾ أى قالوا لإبراهيم هذه المقالة. والقرية هى قرية سدوم التى كان فيها قوم لوط ، وجملة:﴿ **إن أهلها كانوا ظالمين** ﴾ تعليل للإهلاك، أى إهلاكنا لهم بهذا السبب ﴿ **قال إن فيها لوطا** ﴾ أى قال لهم إبراهيم : إن فى هذه القرية التى أنتم مهلكوها لوطا فكيف تهلكونها ؟ ﴿ **قالوا نحن أعلم بمن فيها** ﴾ من الأخيار والأشرار ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿**لننجينه وأهله**﴾ من العذاب. قرأ الأعمش وحمزة ويعقوب والكسائى: « لننجينه » بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ **إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أى الباقين فى العذاب ، وهو لفظ مشترك بين الماضى والباقى ،وقد تقدّم تحقيقه ، وقيل : المعنى : من الباقين فى القرية التى سينزل بها العذاب، فتعذب من جملتهم ولا تنجو فيمن نجا.

﴿ **ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم** ﴾ أى لما جاءت الرسل لوطا بعد مفارقتهم إبراهيم سىء بهم، أى جاءه ماساءه وخاف منه؛ لأنه ظنهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لكونهم فى أحسن صورة من الصور البشرية، و«أن» فى ﴿ **أن جاءت** ﴾ زائدة للتأكيد ﴿**وضاق بهم ذرعا**﴾

أى عجز عن تدبيرهم وحزن وضاق صدره، وضيق الذراع كناية عن العجز، كما يقال فى الكناية عن الفقر : ضاقت يده، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة هود. ولما شاهدت الملائكة ماحلّ به من الحزن والتضجر، قالوا : ﴿**لا تخف ولا تحزن**﴾ أى لا تخف علينا من قومك ولا تحزن فإنهم لايقدرون علينا ﴿ **إنا منجوك وأهلك** ﴾ من العذاب الذى أمرنا اللّه بأن ننزله بهم ﴿ **إلا امرأتك كانت من الغابرين** ﴾ أخبروا لوطا بما جاؤوا به من إهلاك قومه وتنجيته وأهله إلا امرأته كما أخبروا بذلك إبراهيم، قرأ حمزة والكسائى وشعبة ويعقوب والأعمش : «منجوك» بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد. قال المبرد: الكاف فى ﴿ **منجوك**﴾ مخفوض ولم يجز عطف الظاهر على المضمر المخفوض، فحمل الثانى على المعنى وصار التقدير: وننجى أهلك : ﴿ **إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله. والرجز : العذاب، أى عذابا من السماء، وهو الرمى بالحجارة. وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء. وقيل : هو الخسف والحصب كما فى غير هذا الموضع، ومعنى كون الخسف من السماء أن الأمر به نزل من السماء. قرأ ابن عامر :« منزّلون » بالتشديد . وبها قرأ ابن عباس . وقرأ الباقون بالتخفيف، والباء فى ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ للسببية، أى لسبب فسقهم ﴿ **ولقد تركنا منها آية بينة** ﴾ أى أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهى الآثار التى بها من الحجارة رجموا بها وخراب الديار. وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقى على وجه أرضهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ماذكر، وخص من يعقل ، لأنه الذى يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها .

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** ﴾ أى وأرسلناه إليهم، وقد تقدّم ذكره وذكر نسبه وذكر قومه فى سورة الأعراف وسورة هود ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ أى أفردوه بالعبادة وخصوه بها ﴿ **وارجوا اليوم الآخر** ﴾ أى توقعوه وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم. قال يونس النحوى : معناه : اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ العثو والعثى أشدّ الفساد. وقد تقدّم تفسيره ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى الزلزلة، وتقدّم فى سورة هود ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ [هود : ٦٧] أى صيحة جبريل وهى سبب الرجفة ﴿ **فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ أى أصبحوا فى بلدهم أو منازلهم جاثمين على الركب ميتين.

﴿ **وعادا وثمود** ﴾ قال الكسائى : قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة، أى ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود، قال : وأحبّ إلىّ أن تكون على ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى وأخذت عادا وثمود. وقال الزجاج : التقدير: وأهلكنا عادا وثمود. وقيل : المعنى واذكر عادا وثمود إذ أرسلنا إليهم هودا وصالحا ﴿ **وقد تبين لكم من مساكنهم**﴾ أى وقد ظهر لكم يامعاشر الكفار من مساكنهم بالحجر والأحقاف آيات بينات تتعظون بها وتتفكرون فيها ، ففاعل تبين محذوف ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ التى يعملونها من الكفر ومعاصى اللّه ﴿**فصدهم**﴾ بهذا التزيين ﴿**عن السبيل**﴾ أى الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿ **وكانوا مستبصرين**﴾ أى

أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل : المعنى : كانوا مستبصرين فى كفرهم وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حقّ، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ماعند أنفسهم.

﴿ **وقارون وفرعون وهامان** ﴾ قال الكسائى : إن شئت كان محمولا على ﴿ **عادا** ﴾ وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿ **فصدّهم عن السبيل** ﴾ أى وصدّ قارون وفرعون وهامان . وقيل : التقدير : وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ **فاستكبروا فى الأرض** ﴾ عن عبادة اللّه ﴿ **وما كانوا سابقين** ﴾ أى فائتين، يقال : سبق طالبه : إذا فاته . وقيل : وما كانوا سابقين فى الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة. ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه**﴾ أى عاقبنا بكفره وتكذيبه . قال الكسائى : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه** ﴾ أى فأخذنا كلا بذنبه ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا** ﴾ أى ريحا تأتى بالحصباء، وهى الحصى الصغار فترجمهم بها، وهم قوم لوط ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة** ﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿ **وما كان اللّه ليظلمهم** ﴾ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصى اللّه.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾ قال : مجلسكم. وأخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد، والترمذى وحسنه، وابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب وابن عساكر عن أمّ هانئ بنت أبى طالب قالت: سألت رسول اللّه ﷺ عن قول اللّه سبحانه : ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾ قال : «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم ». قال الترمذى : بعد إخراجه وتحسينه: ولا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك [(١)]. وأخرج ابن مردويه عن جابر أن النبى ﷺ نهى عن الحذف ، وهو قول اللّه سبحانه :﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : هو الحذف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج البخارى فى تاريخه، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عائشة فى الآية قالت : الضراط. وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله :﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ قال : الصيحة، وفى قوله : ﴿**وما كانوا مستبصرين** ﴾ قال : فى الضلالة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن

---

(١) أحمد ٦ / ٣٤١ والترمذى فى التفسير (٣١٩٠) وابن جرير ٢٠ / ٩٣ والطبرانى ٢٤ / ٤١١ (١٠٠٠) وصححه الحاكم ٢/٤٠٩ على شرط مسلم، وزاد الذهبى على شرط البخارى والبيهقى فى الشعب (٦٧٥٥) ، ط . الكتب العلمية .

عباس فى قوله : ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا** ﴾ قال : قوم لوط ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة**﴾ قال : ثمود ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ قال: قارون ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ قال: قوم نوح .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾.

قوله : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾ يوالونهم ويتكلون عليهم فى حاجاتهم من دون اللّه سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ، ومن الأحياء أو من الأموات ﴿ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا** ﴾ فإن بيتها لا يغنى عنها شيئا لا فى حرّ ولا قرّ ولا مطر، كذلك ما اتخذوه وليا من دون اللّه ، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغنى عنهم شيئا. قال الفراء: هو مثل ضربه اللّه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضرّه، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّا ولا بردا. قال : ولا يحسن الوقف على العنكبوت لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شىء شبهت الآلهة التى لاتنفع ولا تضرّ به، وقد جوّز الوقف على العنكبوت الأخفش، وغلطه ابن الأنبارى قال : لأن ﴿ **اتخذت** ﴾ صلة للعنكبوت كأنه قال : كمثل العنكبوت التى اتخذت بيتا، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول. والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وتجمع على عناكب وعنكبوتات، وهى الدّويبة الصغيرة التى تنسج نسجا رقيقا. وقد يقال لها عكنبات، ومنه قول الشاعر:

كأنما يسقط من لغامها بيت عكنبات على زمامها

﴿**وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت**﴾ لابيت أضعف منه مما يتخذه الهوامّ بيتا ولا يدانيه فى الوهى والوهن شىء من ذلك ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون اللّه كاتخاذ العنكبوت بيتا، أو لو كانوا يعلمون شيئا من العلم يعلموا بهذا. ﴿ **إن الله يعلم ماتدعون من دونه من شىء** ﴾ ما استفهامية ، أو نافية ، أو موصولة، ومن للتبعيض أو مزيدة للتوكيد. وقيل: إن هذه الجملة على إضمار القول، أى قل للكافرين : إن اللّه يعلم أىّ شىء يدعون من دونه. وجزم أبو على الفارسى بأنها استفهامية ، وعلى تقدير النفى كأنه قيل : إن اللّه يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شىء ، يعنى : ما تدعونه ليس بشىء ، وعلى تقدير الموصولة :

إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، و﴿ **من شيء** ﴾ عبارة عن المصدر. قرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : «يدعون » بالتحتية. واختار هذه القراءة أبو عبيد لذكر الأمم قبل هذه الآية . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان .

﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس** ﴾ أى هذا المثل وغيره من الأمثال التى فى القرآن نضربها للناس تنبيها لهم وتقريبا لما بعد من أفهامهم ﴿ **وما يعقلها** ﴾ أى يفهمها ويتعقل الأمر الذى ضربناها لأجله ﴿ **إلا العالمون** ﴾ بالله الراسخون فى العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم وما يشاهدونه. ﴿**خلق الله السموات والأرض بالحق**﴾ أى بالعدل والقسط مراعيا فى خلقها مصالح عباده. وقيل : المراد بالحق : كلامه وقدرته، ومحل ﴿ **بالحق** ﴾ النصب على الحال ﴿ **إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ أى لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته وتفرّده بالإلهية، وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك.

﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب** ﴾ أى القرآن ، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن والمحافظة على قراءته مع التدبر لآياته والتفكر فى معانيه ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ أى دم على إقامتها واستمرّ على أدائها كما أمرت بذلك . وجملة : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ تعليل لما قبلها ، والفحشاء : ماقبح من العمل ، والمنكر: ما لا يعرف فى الشريعة، أى تمنعه عن معاصى الله وتبعده منها، ومعنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سببا للانتهاء، والمراد هنا الصلوات المفروضة ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ أى أكبر من كل شيء، أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. قال ابن عطية : وعندى أن المعنى : ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل مالم يكن منه فى الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له. وقيل : ذكر الله أكبر من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر مع المداومة عليه. قال الفراء وابن قتيبة : المراد بالذكر فى الآية :التسبيح والتهليل ، يقول : هو أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر. وقيل : المراد بالذكر هنا الصلاة، أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وعبر عنها بالذكر كما فى قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة :٩] ؛ للدلالة على أن مافيها من الذكر هو العمدة فى تفضيلها على سائر الطاعات. وقيل : المعنى : ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم ، واختار هذا ابن جرير، ويؤيده حديث : « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» (١) ، ﴿ **والله يعلم ماتصنعون** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشرّ شرّا .

---

(١) أحمد ٢/ ٢٥١ والبخارى فى التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٥/ ٢) والترمذى فى الدعوات (٣٦٠٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الأدب (٣٨٢٢) .كلهم عن أبى هريرة .

﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ﴾ أى بالخصلة التى هى أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى اللّه عزّ وجلّ والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ بأن أفرطوا فى المجادلة ولم يتأدّبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين فى مجادلتهم ، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى . وقيل : معنى الآية : لاتجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام وسائر من آمن منهم ﴿ **إلا بالتى هى أحسن** ﴾ يعنى : بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم : الباقون على كفرهم . وقيل : هذه الآية منسوخة بآيات القتال ، وبذلك قال قتادة ومقاتل . قال النحاس : من قال : هى منسوخة، احتج بأن الآية مكية ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك. قال سعيد بن جبير ومجاهد : إن المراد بالذين ظلموا منهم : الذين نصبوا القتال للمسلمين فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿ **وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا** ﴾ من القرآن ﴿ **وأنزل إليكم** ﴾ من التوراة والإنجيل، أى آمنا بأنهما منزلان من عند اللّه وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية والبعثة المحمدية، ولا يدخل فى ذلك ما حرّفوه وبدّلوه ﴿ **وإلهنا وإلهكم واحد** ﴾ لاشريك له ولا ضدّ ولا ندّ ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ أى ونحن معاشر أمة محمد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن اللّه ولا المسيح ابن اللّه، ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أربابا من دون اللّه، ويحتمل أن يراد : ونحن جميعا منقادون له، ولا يقدح فى هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتمّ من انقياد أهل الكتاب وطاعتهم أبلغ من طاعاتهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾ الآية قال : ذاك مثل ضربه اللّه لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. وأخرج أبو داود فى مراسيله عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول اللّه ﷺ : «العنكبوت شيطان مسخها اللّه فمن وجدها فليقتلها »[(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مزيد بن ميسرة قال : العنكبوت : شيطان. وأخرج الخطيب عن علىّ قال : قال رسول اللّه ﷺ : «دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهنّ» . وروى القرطبى فى تفسيره عن علىّ أيضا أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه فى البيت يورث الفقر[(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود، والثانية على النبى ﷺ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الصلاة**

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٥٠٠) وفى سنده بقية بن الوليد قال الحافظ فى تقريب التهذيب ١/١٠٥: « صدوق كثير التدليس عن الضعفاء » ، والوضين بن بقاء قال الحافظ فى التقريب ٢/٣٣١ « صدوق سيئ الحفظ ورمى بالقدر» .

(٢) القرطبى ٧/٥٠٦٢ .

تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال : فى الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصى . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عمران بن حصين قال :سئل النبى ﷺ عن قول الله:﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** فقال :«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال :قال رسول الله ﷺ :« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا » (١). وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، والبيهقى فى الشعب عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وفى لفظ : « لم يزدد بها من الله إلا بعدا » (٢) . وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا نحوه . قال السيوطى : وسنده ضعيف (٣) وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر، والطبرانى [والبيهقى] (٤) فى الشعب عنه نحوه موقوفا (٥) . قال ابن كثير فى تفسيره : والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم (٦) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولذكر الله أكبر﴾** يقول : ولذكر الله لعباده إذا ذكروه أكبر من ذكرهم إياه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله ابن ربيعة قال : سألنى ابن عباس عن قول الله : ﴿**ولذكر الله أكبر﴾** فقلت : ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير قال: لذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، ثم قال: ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن جرير عن ابن مسعود :﴿**ولذكر الله أكبر﴾** قال: ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله. وأخرج ابن السنى وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : لها وجهان ذكر الله أكبر مما سواه ، وفى لفظ ذكر الله عندما حرمه وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه.وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدمىّ عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع، لأن الله يقول فى كتابه العزيز: ﴿**ولذكر الله أكبر﴾**. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر ،والحاكم فى الكنى، والبيهقى فى الشعب عن عنترة قال : قلت لابن عباس : أىّ العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله.

(١) الطبرانى (١١٠٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٦١ : «فيه ليث بن أبى سليم وهو ثقة ولكنه مدلس».
(٢) ابن جرير ٢٠/ ٩٩ والبيهقى فى الشعب (٢٩٩٢) وإسناده ليس بالقوى ، والحديث مرسل.
(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٦.
(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، والصحيح ما أثبتناه.
(٥) أحمد فى الزهد (٨٧١) وابن جرير ٢٠/ ٩٩ والطبرانى (٨٥٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٦١ : «ورجاله رجال الصحيح» والبيهقى فى الشعب (٢٩٩٤) ورجاله ثقات .
(٦) ابن كثير ٥/ ٣٢٧.

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن**﴾ قال: بلا إله إلا اللّه. وأخرج البخارى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول اللّه ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (١). وأخرج البيهقى فى الشعب، والديلمى، وأبو نصر السجزى فى الإبانة عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تصدّقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، واللّه لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحلّ له إلا أن يتبعنى» (٢). وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب، وذكر نحو حديث جابر، ثم قال: فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب اللّه فخذوه، وما خالف كتاب اللّه فدعوه (٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾.

قوله: ﴿ **وكذلك أنزلنا إليك الكتاب** ﴾ هذا خطاب لرسول اللّه ﷺ، والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيناه فى مواضع كثيرة، أى ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب،

(١) البخارى فى التوحيد (٧٥٤٢) والنسائى فى التفسير (٤٠٧) وابن جرير ٢١/ ٤ والبيهقى ١٠/ ١٦٣.

(٢) البيهقى فى الشعب (١٧٦) والديلمى (٧٤٦٩) وإسناده لين فيه الهيثم بن سهل ضعفه الدارقطنى. لسان الميزان ٦/ ٢٠٧.

(٣) عبد الرزاق (١٩٢١٢) وابن جرير ٢١/ ٤.

وهو القرآن. وقيل : المعنى : كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن ﴿ **فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به** ﴾ يعنى : مؤمنى أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام، وخصهم بإيتائهم الكتاب لكونهم العاملين به وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه وجحدهم لصفات رسول اللّه ﷺ المذكورة فيه ﴿ **ومن هؤلاء من يؤمن به** ﴾ الإشارة إلى أهل مكة، والمراد : أن منهم، وهومن قد أسلم من يؤمن به، أى بالقرآن. وقيل : الإشارة إلى جميع العرب ﴿ **وما يجحد بآياتنا** ﴾ أى آيات القرآن ﴿ **إلا الكافرون** ﴾ المصممون على كفرهم من المشركين وأهل الكتاب.

﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب**﴾ الضمير فى قبله راجع إلى القرآن لأنه المراد بقوله : ﴿**أنزلنا إليك الكتاب**﴾ أى ما كنت يامحمد تقرأ قبل القرآن كتابا ولا تقدر على ذلك لأنك أمىّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿ **ولا تخطه بيمينك** ﴾ أى ولا تكتبه ؛ لأنك لاتقدر على الكتابة. قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس : وذلك دليل على نبوّته؛ لأنه لايكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل كتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ﴿ **إذا لارتاب المبطلون** ﴾ أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا : لعله وجد مايتلوه علينا من كتب اللّه السابقة أو من الكتب المدوّنة فى أخبار الأمم، فلما كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبدا، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرّد عناد وجحود بلا شبهة، وسماهم مبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهورنزاهته ووضوح معجزاته.

﴿ **بل هو آيات بينات** ﴾ يعنى : القرآن ﴿ **فى صدور الذين أوتوا العلم**﴾ يعنى : المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ وحفظوه بعده ، وقال قتادة ومقاتل : إن الضمير يرجع إلى النبى ﷺ ، أى بل محمد آيات بينات، أى ذو آيات. وقرأ ابن مسعود: «بل هى آيات بينات » قال الفراء : معنى هذه القراءة : بل آيات القرآن آيات بينات. واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل ، وقد استدل لما قالاه لقراءة ابن السميفع : «بل هذا آيات بينات» ولا دليل فى هذه القراءة على ذلك؛ لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبى ﷺ ،بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير:﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ أى المجاوزون للحدّ فى الظلم ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه** ﴾ أى قال المشركون هذا القول، والمعنى : هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، وذلك كآيات موسى وناقة صالح وإحياء المسيح للموتى، ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل إنما الآيات عند الله** ﴾ ينزلها على من يشاء من عباده ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿**وإنما أنا نذير مبين**﴾ أنذركم كما أمرت وأبين لكم كما ينبغى، ليس فى قدرتى غير ذلك. قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى : «لولا أنزل عليه آية» بالإفراد. وقرأ الباقون بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله :﴿ **قل إنما الآيات** ﴾ .

﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** ﴾ هذه الجملة مستأنفة للردّ على اقتراحهم

وبيان بطلانه، أى أو لم يكف المشركين من الآيات التى اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذى قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله أوبسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذى يتلى عليهم فى كل زمان ومكان ﴿**إن فى ذلك**﴾ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما ذكر ﴿ **لرحمة** ﴾ عظيمة فى الدنيا والآخرة ﴿ **وذكرى** ﴾ فى الدنيا يتذكرون بها وترشدهم إلى الحق ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ أى لقوم يصدّقون بما جئت به من عند اللّه فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك ﴿ **قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا** ﴾ أى قل للمكذبين كفى اللّه شهيدا بما وقع بينى وبينكم ﴿ **يعلم ما فى السموات والأرض** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون**﴾ أى آمنوا بما يعبدونه من دون اللّه وكفروا بالحق وهو اللّه سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة .

﴿**ويستعجلونك بالعذاب**﴾ استهزاء وتكذيبا منهم بذلك كقولهم :﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] . ﴿ **ولولا أجل مسمى** ﴾ قد جعله اللّه لعذابهم وعينه، وهو القيامة، وقال الضحاك : الأجل : مدّة أعمارهم ؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب ﴿**لجاءهم العذاب**﴾ أى لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذى يستحقونه بذنوبهم. وقيل : المراد بالأجل المسمى : النفخة الأولى. وقيل : الوقت الذى قدّره اللّه لعذابهم فى الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر. والحاصل : أن لكل عذاب أجلا لا يتقدّم عليه ولا يتأخر عنه كما فى قوله سبحانه : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ [الأنعام : ٦٧] . وجملة: ﴿**وليأتينهم بغتة**﴾ مستأنفة مبينة لمجىء العذاب المذكور قبلها. ومعنى بغتة : فجأة، وجملة: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ فى محل نصب على الحال، أى حال كونهم لا يعلمون بإتيانه.ثم ذكرسبحانه أن موعد عذابهم النار فقال :﴿ **يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أى يطلبون منك تعجيل عذابهم والحال أن مكان العذاب محيط بهم، أى سيحيط بهم عن قرب ، فإن ماهو آت قريب والمراد بالكافرين: جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولا أوّليا، فقوله :﴿ **ويستعجلونك بالعذاب**﴾ إخبار عنهم ، وقوله ثانيا : ﴿ **يستعجلونك بالعذاب** ﴾ تعجب منهم . وقيل : التكرير للتأكيد .

ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم فقال : ﴿ **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ أى من جميع جهاتهم فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة فقد أحاطت بهم جهنم ﴿ **ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون**﴾ القائل هو اللّه سبحانه أو بعض ملائكته بأمره ، أى ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصى . قرأ أهل المدينة والكوفة : «نقول » بالنون. وقرأ الباقون بالتحتية(١)، واختارالقراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله : ﴿ **قل كفى بالله** ﴾ وقرأ ابن

(١) الصواب أن أهل المدينة والكوفة يقرؤون : « ويقول» بالتحتية والباقون بالنون . انظر : النشر فى القراءات العشر: ٢ / ٣٤٣ .

مسعود وابن أبى عبلة : «ويقال ذوقوا».

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه، والإسماعيلى فى معجمه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك** ﴾ قال : لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب كان أميا، وفى قوله : ﴿ **بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم** ﴾ قال : كان الله أنزل شأن محمد فى التوراة والإنجيل لأهل العلم وعلمه لهم وجعله لهم آية فقال لهم : إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج ولا يعلم كتابا ولا يخطه بيمينه، وهى الآيات البينات التى قال الله تعالى. وأخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب** ﴾ الآية قال : لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب .

وأخرج الفريابى والدارمى ، وأبو داود فى مراسيله وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن يحيى بن جعدة قال :جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ماسمعوه من اليهود، فقال النبى ﷺ : «كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء نبيهم إليهم إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت : ﴿ **أو لم يكفهم** ﴾ الآية(١). وأخرجه الإسماعيلى فى معجمه، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبى هريرة فذكره بمعناه. وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والبيهقى فى الشعب عن الزهرى ؛ أن حفصة جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف، فجعلت تقرؤه والنبى ﷺ يتلوّن وجهه فقال : «والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم». وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس ، والحاكم فى الكنى ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن الحارث الأنصارى قال : دخل عمر بن الخطاب على النبى ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله ﷺ ، فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، فسرّى عن رسول الله ﷺ وقال : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم » (٢). وأخرج نحوه عبد الرزاق والبيهقى من طريق أبى قلابة عن عمر. وأخرج البيهقى وصححه عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة فقال : «لا تتعلمها وآمن بها، وتعلموا ما أنزل إليكم وآمنوا به» (٣). وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ قال : جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكون فيه الشمس والقمر ثم يستوقد فيكون هو جهنم، وفى هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة .

---

(١) الدارمى ١/ ١٢٤ وأبو داود فى المراسيل (٤٥٤) وابن جرير ٢١/ ٦.

(٢) عبد الرزاق (١٩٢١٣) والبيهقى فى الشعب (١٧٤) .

(٣) البيهقى فى الشعب (٥٢٠٣) ط. الكتب العلمية .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

لما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم فى الإنذار وجعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا فى إيذاء المسلمين بكل وجه فقال الله سبحانه: ﴿ **يا عبادى الذين آمنوا** ﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفا وتكريما، والذين آمنوا صفة موضحة أو مميزة ﴿ **إنّ أرضى واسعة** ﴾ إن كنتم فى ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفى مكايدة للكفار فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتى وحدى وتتسهل عليكم. قال الزجاج : أمروا بالهجرة من الموضع الذى لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته. وقال مطرف بن الشخير : المعنى : إن رحمتى واسعة ورزقى لكم واسع فابتغوه فى الأرض. وقيل : المعنى إن أرضى التى هى أرض الجنة واسعة فاعبدون حتى أورثكموها. وانتصاب ﴿ **إياى**﴾ بفعل مضمر، أى فاعبدوا إياى. ثم خوّفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة فقال : ﴿**كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون**﴾ أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان والخلان، ثم إلى الله المرجع بالموت والبعث لا إلى غيره، فكل حىّ فى سفر إلى دار القرار وإن طال لبثه فى هذه الدار.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا ﴾ فى هذا الترغيب إلى الهجرة ، وأن جزاء من هاجر أن يكون فى غرف الجنة ، ومعنى ﴿لنبوّئنهم﴾ : لننزلنهم غرف الجنة ، وهى علاليها : فانتصاب ﴿غرفا﴾ على أنه المفعول الثانى على تضمين نبوّئنهم معنى: ننزلنهم ، أو على الظرفية مع عدم التضمين ؛ لأن نبوئنهم لا يتعدّى إلا إلى مفعول واحد. وإما منصوب بنزع الخافض اتساعا ، أى فى غرف الجنة ، وهو مأخوذ من المباءة وهى الإنزال . قرأ أبوعمرو ويعقوب والجحدرى وابن أبى إسحاق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وخلف : «ياعبادى» بإسكان الياء وفتحها الباقون. وقرأ ابن عامر :« إن أرضى» بفتح الياء، وسكنها الباقون. وقرأ السلمى وأبو بكر عن عاصم :« يرجعون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية . وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى : « لنثوينهم » بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة ، وقرأ الباقون بالباء الموحدة ، ومعنى لنثوينهم بالمثلثة : لنعطينهم غرفا يثوون فيها من الثوى وهو الإقامة. قال الزجاج ، ويقال : ثوى الرجل : إذا أقام ، وأثويته : إذا أنزلته منزلا يقيم فيه. قال الأخفش : لاتعجبنى هذه القراءة لأنك لا تقول : أثويته الدار، بل تقول : فى الدار، وليس فى الآية حرف جرّ فى المفعول الثانى. قال أبو على الفارسى: هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حذف كما تقول : أمرتك الخير، أى بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى من تحت الغرف ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى الغرف لا يموتون أبدا، أو فى الجنة، والأوّل أولى ﴿ نعم أجرالعاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أى نعم أجر العاملين أجرهم ، والمعنى : العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين فقال : ﴿ الذين صبروا ﴾ على مشاق التكليف وعلى أذية المشركين لهم، ويجوز أن يكون منصوبا على المدح ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى يفوّضون أمورهم إليه فى كل إقدام وإحجام.

ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل، وهو النظر فى حال الدوابّ فقال : ﴿وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾ قد تقدّم الكلام فى كأين ، وأن أصلها : أى، دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم ، كما صرح به الخليل وسيبويه، وتقديرها عندهما : كشىء كثيرمن العدد من دابة. وقيل : المعنى : وكم من دابة. ومعنى ﴿ لاتحمل رزقها ﴾ : لاتطيق حمل رزقها لضعفها ولا تدّخرة. وإنما يرزقها اللّه من فضله ويرزقكم؛ فكيف لا يتوكلون على اللّه مع قوّتهم وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على اللّه مع ضعفها وعجزها؟ قال الحسن: تأكل لوقتها، لاتدّخر شيئا. قال مجاهد: يعنى : الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا ﴿ وهو السميع ﴾ الذى يسمع كل مسموع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم. ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ويتركون عبادة غيره فقال : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ الله ﴾ أى خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك ، ولا يتمكنون من جحوده ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أى فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلهية؟ وأنه وحده لا شريك

له، والاستفهام للإنكار والاستبعاد . ولما قال المشركون لبعض المؤمنين : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله :﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ أى التوسيع فى الرزق والتقتير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء على حسب ماتقتضيه حكمته، وما يليق بحال عباده من القبض والبسط، ولهذا قال :﴿ **إنّ الله بكل شىء عليم** ﴾ يعلم مافيه صلاح عباده وفسادهم.

﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله** ﴾ أى نزّله وأحيا به الأرض الله، يعترفون بذلك لايجدون إلى إنكاره سبيلا. ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف فى هذه الآيات، وهو يقتضى بطلان ماهم عليه من الشرك وعدم إفراد الله سبحانه بالعبادة، أمر رسوله ﷺ أن يحمد الله على إقرارهم وعدم جحودهم مع تصلبهم فى العناد وتشدّدهم فى ردّ كل ما جاء به رسول الله من التوحيد فقال : ﴿ **قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون** ﴾ أى احمد الله على أن جعل الحق معك ، وأظهرحجتك [(١)] عليهم ، ثم ذمهم فقال : ﴿ **بل أكثرهم لايعقلون** ﴾ الأشياء التى يتعقلها العقلاء. فلذلك لايعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ماهم عليه عند كل عاقل .

ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا وأنها من جنس اللعب واللهو، وأن الدار على الحقيقة هى دار الآخرة فقال : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب** ﴾ من جنس ما يلهو به الصبيان ويلعبون به ﴿ **وإن الدار الآخرة لهى الحيوان** ﴾ قال ابن قتيبة وأبو عبيدة : إن الحيوان : الحياة. قال الواحدى : وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان ههنا : الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة لهى دار الحيوان ، أو ذات الحيوان ، أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا ينغصها موت ولا مرض ، ولا همّ ولا غمّ ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ شيئا من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة.

ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرّد تأثير الحياة فقال : ﴿ **فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أى إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لايكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه ﴿ **فلما نجاهم إلى البرّ إذا هم يشركون** ﴾ أى فاجؤوا المعاودة إلى الشرك، ودعوا غير الله سبحانه. والركوب هو : الاستعلاء، وهو متعدّ بنفسه، وإنما عدّى بكلمة فى للإشعار بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة، واللام فى: ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ وفى قوله:﴿ **وليتمتعوا** ﴾ للتعليل ، أى فاجؤوا الشرك بالله ليكفروا بنعمة الله وليتمتعوا بهما فهما فى الفعلين لام كى، وقيل : هما لاما الأمر تهديدا ووعيدا، أى اكفروا بما أعطيناكم من النعمة وتمتعوا، ويدلّ على هذه القراءة

---

(١) فى المطبوعة : «حجرك» والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قراءة أبيّ : « وتمتعوا » وهذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أبى عمرو وابن عامر وعاصم وورش بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وفى قوله: ﴿**فسوف يعلمون**﴾ تهديد عظيم لهم، أى فسيعلمون عاقبة ذلك وما فيه من الوبال عليهم.

﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا** ﴾ أى ألم ينظروا؟ يعنى : كفار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرما آمنا يأمن فيه ساكنه من الغارة والقتل والسبى والنهب فصاروا فى سلامة وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب فإنهم فى كل حين تطرقهم الغارات ، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها ، وجملة : ﴿**ويتخطف الناس من حولهم**﴾ فى محل نصب على الحال، أى يختلسون من حولهم بالقتل والسبى والنهب. والخطف : الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة القصص ﴿**أفبالباطل يؤمنون**﴾ وهو الشرك بعد ظهور حجة اللّه عليهم وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿**وبنعمة الله يكفرون**﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها، وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ مالا يقادر قدره.

﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ أى لا أحد أظلم منه، وهومن زعم أن للّه شريكا ﴿ **أو كذّب بالحق لما جاءه** ﴾ أى كذّب بالرسول الذى أرسل إليه والكتاب الذى أنزله على رسوله. وقال السدّى :كذّب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هدّد المكذبين وتوعدهم فقال: ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ أى مكان يستقرّون فيه، والاستفهام للتقرير، والمعنى : أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلو ما فعلوا ؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم اللّه أردفه بحال عباده الصالحين، فقال :﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ أى جاهدوا فى شأن اللّه لطلب مرضاته ورجاء ما عنده من الخير لنهدينهم سبلنا، أى الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هى مكية نزلت قبل فرض الجهاد (١) العرفى، وإنما هو جهاد عامّ فى دين اللّه وطلب مرضاته، وقيل : الآية هذه نزلت فى العباد. وقال إبراهيم بن أدهم : هى فى الذين يعملون بما يعلمون ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ بالنصر والعون، ومن كان معه لم يخذل، ودخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسما، أو على أنها حرف ودخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول : إن زيدا لفى الدار، والبحث مقرّر فى علم النحو.

وقد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه ﷺ :« لما نزلت هذه الآية ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] قلت : ياربّ أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء؟ فنزلت : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾ » . وينظر كيف صحة هذا، فإن النبى ﷺ بعد أن يسمع قول اللّه سبحانه :﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ يعلم أنه ميت ، وقد

(١) فى المطبوعة : « الجياد، » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة.

علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا ، وأنه خاتم الأنبياء فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه عليّ رضى اللّه عنه من قوله : أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء؟ فلعلّ هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة (١).

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر ـ قال السيوطى: بسند ضعيف ـ عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول اللّه ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط التمر ويأكل، فقال لى : «مالك لا تأكل ؟ » قلت : لا أشتهيه يا رسول اللّه ، قال : «لكنى أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعامًا ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يحبون رزق سنتهم ويضعف اليقين » . قال : فواللّه مابرحنا ولارمنا حتى نزلت :﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها**﴾ الآية ، فقال رسول اللّه ﷺ : «إن اللّه لم يأمرنى بكنز الدنيا ولاباتباع الشهوات ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما، ولا أخبأ رزقا لغد » (٢) . وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبى ﷺ ، فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك فى كتب الحديث المعتبرة. وفى إسناده أبو العطوف الجوزى وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإن الدار الآخرة لهى الحيوان**﴾ قال : باقية. وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب عن أبى جعفر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «ياعجبا كل العجب للمصدّق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور» وهو مرسل .

---

(١) هكذا أوردها الشوكانى ، ولا يخفى ما فيها من اضطراب .

(٢) السيوطى فى الدر المنثور ١٤٩/٥ ، وعنده « يخبئون » بدل « يحبون ».

تفسير سورة الروم

هى ستون آية. قال القرطبى :كلها مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة الروم بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج عبد الرزاق وأحمد، قال السيوطى : بسند حسن ، عن رجل من الصحابة ؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها سورة الروم. وأخرج البزار عن الأغر المدنى مثله . وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير ، أن النبى ﷺ قرأ فى الفجر يوم الجمعة بسورة الروم . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وأحمد وابن قانع من طريق عبد الملك بن عمير مثل حديث الرجل الذى من الصحابة، وزاد : يتردد فيها ، فلما انصرف قال : إنما يلبس علينا فى صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة فليحسن الطهور(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة فى فاتحة سورة البقرة وتقدم الكلام على محلها من الإعراب ومحل أمثالها فى غير موضع من فواتح السور. قرأ الجمهور : ﴿ **غلبت الروم** ﴾بضم الغين المعجمة وكسر اللام مبنيا للمفعول ، وقرأ على بن أبى طالب وأبو سعيد الخدرى ومعاوية

---

(١) ابن أبى شيبة ١/ ٥ و أحمد ٥/ ٣٦٣ وقال ابن كثير ٥/ ٣٧٥ : « هذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سر عجيب ، ونبأ غريب وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام » .

ابن قرة وابن عمر وأهل الشام بفتح الغين واللام مبنيا للفاعل. قال النحاس : قراءة أكثر الناس: ﴿ **غلبت** ﴾بضم الغين وكسر اللام . قال أهل التفسير: غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب، وافتخروا على المسلمين وقالوا: نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب .

ومعنى﴿ **فى أدنى الأرض** ﴾ : فى أقرب أرضهم من أرض العرب ، أو فى أقرب أرض العرب منهم . قيل : هى أرض الجزيرة. وقيل : أذرعات. وقيل : كسكر. وقيل : الأردن. وقيل: فلسطين ، وهذه المواضع هى أقرب إلى بلاد العرب من غيرها ، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود فى ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب. وقيل : إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه. والتقدير: فى أدنى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم ، ويكون المعنى : فى أقرب أرض الروم من العرب. قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهى أدنى إلى أرض الروم ﴿ **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ أى والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهل فارس ، والغلب والغلبة لغتان، والمصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور. وإلى الفاعل على قراءة غيرهم. قرأ الجمهور: ﴿**سيغلبون**﴾ مبنيا للفاعل. وقرأ على وأبو سعيد ومعاوية بن قرة وابن عمر وأهل الشام على البناء للمفعول، وسيأتى فى آخر البحث ما يقوى قراءة الجمهور فى الموضعين . وقرأ أبو حيوة الشامى وابن السميفع : «من بعد غلبهم » بسكون اللام .

﴿ **فى بضع سنين** ﴾ متعلق بما قبله ، وقد تقدم تفسير البضع واشتقاقه فى سورة يوسف ، والمراد به هنا : ما بين الثلاثة إلى العشرة﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ أى هو المنفرد بالقدرة وإنفاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم ووقت غالبيتهم ، فكل ذلك بأمر الله سبحانه وقضائه، قرأ الجمهور:﴿ **من قبل ومن بعد** ﴾بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، والتقدير: من قبل الغلب ومن بعده ، أو من قبل كل أمر ومن بعده. وحكى الكسائى « من قبلٍ ومن بعدُ » بكسر الأول منونا وضم الثانى بلا تنوين. وحكى الفراء « من قبلِ ومن بعدِ » بكسرهما من غير تنوين ، وغلطه النحاس . قال شهاب الدين : قد قرئ بكسرهما منونين . قال الزجاج : ومعنى الآية : من متقدّم ومن متأخر ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ أى يوم أن تغلب الروم على فارس فى بضع سنين يفرح المؤمنون بنصر الله للروم لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب ، بخلاف فارس فإنه لا كتاب لهم ، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم . وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، والأول أولى . قال الزجاج : وهذه الآية من الآيات التى تدل على أن القرآن من عند الله لأنه إنباء بما سيكون ، وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه ﴿ **ينصر من يشاء** ﴾ أن ينصره ﴿**وهو**

العزيز ﴾ الغالب القاهر ﴿ **الرحيم** ﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين . وقيل : المراد بالرحمة هنا: الدنيوية ، وهى شاملة للمسلم والكافر .

﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده** ﴾ أى وعد الله وعدا لا يخلفه ، وهو ظهور الروم على فارس ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أن الله لا يخلف وعده ، وهم الكفار ، وقيل : كفار مكة على الخصوص . ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا** ﴾ أى يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملاذها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع . وقيل : الظاهر : الباطل ﴿ **وهم عن الآخرة** ﴾ التى هى النعمة الدائمة ، واللذة الخالصة ﴿ **هم غافلون** ﴾ لا يلتفتون إليها ولا يعدون لها ما يحتاج إليه ، أو غافلون عن الإيمان بها والتصديق بمجيئها .

﴿ **أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما** ﴾ الهمزة للإنكار عليهم ، والواو للعطف على مقدر كما فى نظائره ، و ﴿ **فى أنفسهم** ﴾ ظرف للتفكر وليس مفعولا للتفكر والمعنى : أن أسباب التفكرحاصلة لهم، وهى أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغى لعلموا وحدانية الله وصدق أنبيائه . وقيل : إنها مفعول للتفكر . والمعنى: أو لم يتفكروا فى خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئا ؟ و « ما » فى :﴿ **ما خلق الله** ﴾ نافية، أى لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذى يحق ثبوته أو هى اسم فى محل نصب على إسقاط الخافض ،أى بما خلق الله ،والعامل فيها العلم الذى يؤدى إليه التفكر. وقال الزجاج :فى الكلام حذف ، أى فيعلموا، فجعل« ما » معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول : عليه ، والباء فى : ﴿ **إلا بالحق** ﴾ إما للسببية ، أو هى ومجرورها فى محل نصب على الحال ، أى ملتبسة بالحق . قال الفراء : معناه : إلا للحق ، أى للثواب والعقاب . وقيل : بالحق: بالعدل. وقيل: بالحكمة . وقيل : بالحق ، أى أنه هو الحق وللحق خلقها ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ معطوف على الحق ، أى وبأجل مسمى للسموات والأرض وما بينهما تنتهى إليه ، وهو يوم القيامة ، وفى هذا تنبيه على الفناء ، وأن لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه . وقيل : معنى ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ : أنه خلق ما خلق فى وقت سماه لخلق ذلك الشيء ﴿ **وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون** ﴾ أى لكافرون بالبعث بعد الموت ، واللام هى المؤكدة ، والمراد بهؤلاء : الكفار على الإطلاق ، أو كفار مكة .

﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم فى الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار ، والفاء فى: ﴿ **فينظروا** ﴾ للعطف على ﴿ **يسيروا** ﴾ داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع والتوبيخ، والمعنى : أنهم قد ساروا وشاهدوا ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ من طوائف الكفار الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم بالله وجحودهم للحق وتكذيبهم للرسل ، وجملة : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ مبينة للكيفية التى كانوا عليها ، وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية ، ومعنى ﴿ **وأثاروا الأرض** ﴾ : حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث ﴿ **وعمروها أكثر مما عمروها** ﴾ أى

عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء ؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعمارا ، وأقوى أجساما ، وأكثر تحصيلا لأسباب المعاش ، فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس ﴿ **وجاءتهم رسلهم** ﴾ بالبينات، أى المعجزات . وقيل : بالأحكام الشرعية ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ بالكفر والتكذيب .

﴿ **ثم كان عاقبة الذى أساؤوا** ﴾ أى عملوا السيئات من الشرك والمعاصى ﴿ **السوأى** ﴾ هى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ ،وهو الأقبح ، أى كان عاقبتهم العقوبة التى هى أسوأ العقوبات. وقيل: هى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدرا كالبشرى والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « عاقبة » بالرفع على أنها اسم كان ، وتذكير الفعل لكون تأنيثها مجازيا ، والخبر السوأى ، أى الفعلة أو الخصلة أو العقوبة السوأى أو الخبر﴿ **أن كذبوا** ﴾ أى كان آخر أمرهم التكذيب . وقرأ الباقون:﴿ **عاقبة** ﴾ بالنصب على خبر كان ، والاسم السوأى ، أو أن كذبوا ، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا ، والسوأى مصدر أساؤوا أو صفة لمحذوف . وقال الكسائى : إن قوله : ﴿**أن كذبوا** ﴾ فى محل نصب على العلة، أى لأن كذبوا بآيات الله التى أنزلها على رسله ، أو بأن كذبوا ، ومن القائلين بأن السوأى : جهنم : الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين ، وسميت سوأى لكونها تسوء صاحبها . قال الزجاج : المعنى :ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله واستهزائهم ، وجملة : ﴿ **وكانوا بها يستهزئون** ﴾ عطف على كذبوا ، داخلة معه فى حكم العلية على أحد القولين ، أو فى حكم الإسمية لكان ، أو الخبرية لها على القول الآخر .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ،والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله :﴿ **الم .غلبت الروم** ﴾ قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم كانوا أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال:« ألا جعلته » ـ أراه قال ـ :دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ **الم . غلبت الروم** ﴾ فغلبت ،ثم غلبت بعد بقول الله:﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**﴾ (١) . قال سفيان : سمعت أنهم

---

(١) أحمد ١/ ٢٧٦ والترمذى فى التفسير (٣١٩٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٤٠٩) والطبرانى ١٢٣٧٧/ ٢ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٣٠ .

ظهروا عليهم يوم بدر . وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء ابن عازب نحوه ، وزاد : أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارس، ساء النبى ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه وقال : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال :تصديقا لله ولرسوله فقال : « تعرض لهم وأعظم الخطة واجعله إلى بضع سنين » ، فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم فى العود فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا رومية ،فقمر أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ﷺ ، فقال: « هذا السحت تصدق به » .

وأخرج الترمذى وصححه ، والدارقطنى فى الأفراد ، والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والبيهقى فى الشعب عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت : ﴿ **الم .غلبت الروم** ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفى ذلك يقول الله : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة : ﴿ **الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين** ﴾ فقال ناس من قريش لأبى بكر : ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا ننتهى إليه ، قال: فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسميته ست سنين ، لأن الله قال : ﴿ **فى بضع سنين** ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير (١) . وأخرج الترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ قال لأبى بكر:« لا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع » (٢) . وأخرج البخارى عنه فى تاريخه نحوه . وأخرج الفريابى ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت : « الم . غلبت الروم » (٣) قرأها بالنصب ، يعنى للغين على البناء للفاعل إلى قوله : ﴿ **يفرح المؤمنون. بنصر الله** ﴾ . قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس ، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبى سعيد ومن معه .

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٩٤) وقال : « هذا حديث صحيح حسن غريب » ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله وهو متروك » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٩١) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢١/ ١٥ .

(٣) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٥) وفى التفسير (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ١٥/٢١ .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبى الدرداء قال: سيجيء أقوام يقرؤون : « الم . غَلَبت الروم» يعنى بفتح الغين، وإنما هى ﴿ **غلبت** ﴾ : يعنى بضمها [١] ، وفى الباب روايات وما ذكرناه يغنى عما سواه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا** ﴾ يعنى : معايشهم ، متى يغرسون ؟ ومتى يزرعون ؟ ومتى يحصدون ؟. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ قال : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل .

﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ**
(١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ
حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ
(١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي
بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ
بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ
كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى يخلقهم أولا ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ إلى موقف الحساب ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ،

---

(١) صحيحه الحاكم ٢/ ٤١٠ ووافقه الذهبى .

وأفرد الضمير فى : ﴿ **يعيده** ﴾ باعتبار لفظ الخلق وجمعه فى : ﴿ **ترجعون** ﴾ باعتبار معناه . قرأ أبو بكر وأبو عمرو : « يرجعون » بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة .﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يبلس** ﴾ على البناء للفاعل. وقرأ السلمى على البناء للمفعول، يقال: أبلس الرجل : إذا سكت وانقطعت حجته . قال الفراء والزجاج : المبلس : الساكت المنقطع فى حجته الذى أيس أن يهتدى إليها ، ومنه قول العجاج :

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا ... قال :نعم أعرفه وأبلسا

وقال الكلبى :أى يئس المشركون من كل خيرحين عاينوا العذاب ، وقد قدمنا تفسيرالإبلاس عند قوله:﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ [الأنعام : ٤٤] . ﴿ **ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء** ﴾ أى لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله ﴿ **وكانوا** ﴾ فى ذلك الوقت ﴿ **بشركائهم** ﴾ أى بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿ **كافرين** ﴾ أى جاحدين لكونهم آلهة ؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون ولا يضرون. وقيل : إن معنى الآية : كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتهم ، والأول أولى . ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ أى يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله : ﴿**الله يبدأ الخلق** ﴾ والمراد بالتفرق : أن كل طائفة تنفرد ، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة ، والكافرون إلى النار ، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر ، ومثله قوله تعالى : ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ [الشورى : ٧] وذلك بعد تمام الحساب فلا يجتمعون أبدا .

ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم فقال : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون** ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول معنى « أما » : دع ما كنا فيه وخذ فى غيره ، وكذا قال سيبويه : إن معناها : مهما يكن من شىء فخذ فى غير ما كنا فيه . والروضة : كل أرض ذات نبات . قال المفسرون : والمراد بها هنا : الجنة ، ومعنى ﴿ **يحبرون** ﴾ : يسرون . والحبور والحبرة : السرور ، أى فهم فى رياض الجنة ينعمون . قال أبوعبيد : الروضة : ما كان فى سفل ، فإذا كان مرتفعا فهو : ترعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى مكان مرتفع ، ومنه قول الأعشى .

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل

وقيل : معنى ﴿ **يحبرون** ﴾ : يكرمون . قال النحاس : حكى الكسائى : حبرته ، أى أكرمته ونعمته ، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربى ، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام والنعيم ، وفى السرور زيادة على ذلك . وقيل : التحبير : التحسين ، فمعنى ﴿**يحبرون** ﴾ يحسن إليهم . وقيل : هو السماع الذى يسمعونه فى الجنة . وقيل : غير ذلك ، والوجه ما ذكرناه . ﴿ **وأما الذين كفروا** ﴾ بالله ﴿ **وكذبوا بآياتنا** ﴾ وكذبوا بـ ﴿ **لقاء الآخرة** ﴾ أى البعث والجنة والنار ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات ، وهو

مبتدأ وخبره :﴿ **فى العذاب محضرون** ﴾ أى مقيمون فيه . وقيل : مجموعون . وقيل : نازلون. وقيل : معذبون ، والمعانى متقاربة ، والمراد دوام عذابهم .

ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر والخير العام فقال : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون** ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى فإذا علمتم ذلك فسبحوا الله ، أى نزهوه عما لا يليق به فى وقت الصباح والمساء وفى العشى وفى وقت الظهيرة . وقيل : المراد بالتسبيح هنا : الصلوات الخمس . فقوله : ﴿**حين تمسون** ﴾ : صلاة المغرب والعشاء ، وقوله:﴿ **وحين تصبحون** ﴾:صلاة الفجر ، وقوله : ﴿ **وعشيا** ﴾ : صلاة العصر ، وقوله : ﴿ **وحين تظهرون** ﴾ : صلاة الظهر ، وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغيرهما. قال الواحدى : قال المفسرون: إن معنى ﴿ **فسبحان الله**﴾: فصلوا لله . قال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية فى الصلوات قال : وسمعت محمد ابن يزيد يقول : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات ؛ لأن التسبيح يكون فى الصلاة . وجملة : ﴿**وله الحمد فى السموات والأرض** ﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد ، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح كما فى قوله سبحانه :﴿ فسبح بحمد ربك﴾ [الحجر: ٩٨] وقوله : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ [البقرة : ٣٠] وقيل : معنى ﴿ **وله الحمد** ﴾ أى الاختصاص له بالصلاة التى يقرأ فيها الحمد ، والأول أولى . وقرأ عكرمة : « حينا تمسون وحينا تصبحون » والمعنى :حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه . والعشى :من صلاة المغرب إلى العتمة. قاله الجوهرى ، وقال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، ومنه قول الشاعر :

غدونا غدوة سحرا بليل عشيا بعد ما انتصف النهار

وقوله :﴿ **عشيا** ﴾ معطوف على حين و ﴿ **فى السموات** ﴾ متعلق بنفس الحمد ، أى الحمد له يكون فى السموات والأرض ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة ﴿ **ويخرج الميت من الحىّ** ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان . وقد سبق بيان هذا فى سورة آل عمران . وقيل : ووجه تعلق هذه الآية بالتى قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿**ويحيى الأرض بعد موتها** ﴾ أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ، وهو شبيه بإخراج الحى من الميت ﴿ **وكذلك تخرجون** ﴾ أى ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم . قرأ الجمهور: ﴿**تخرجون** ﴾ على البناء للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى على البناء للفاعل ، فأسند الخروج إليهم كقوله :﴿ يوم يخرجون من الأجداث ﴾ [المعارج : ٤٣] ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب** ﴾ أى من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم ، أى خلق أباكم آدم من تراب وخلقكم فى ضمن خلقه ؛ لأن الفرع مستمد من الأصل ومأخوذ منه ، وقد مضى تفسير هذا فى الأنعام . و « أن » فى موضع رفع بالابتداء و ﴿ **من آياته** ﴾ خبره ﴿ **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾

« إذا » هى الفجائية ، أى ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الأرض . وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان كما حكاه الله فى مواضع : من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار ، ومعنى ﴿ **تنتشرون** ﴾ : تنصرفون فيما هو قوام معايشكم .

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ أى ومن علاماته ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، أى من جنسكم فى البشرية والإنسانية . وقيل : المراد : حواء ؛ فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿ **لتسكنوا إليها** ﴾ أى تألفوها وتميلوا إليها ، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر ولا يميل قلبه إليه ﴿ **وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ أى ودادا وتراحما بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة ، فضلا عن مودة ورحمة . وقال مجاهد : المودة : الجماع ، والرحمة : الولد ، وبه قال الحسن . وقال السدى : المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة . وقيل : المودة حب الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء . وقوله : ﴿ **أن خلق لكم** ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، و ﴿ **من آياته** ﴾ خبره ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور سابقا ﴿ **لآيات** ﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث والنشور ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له يتحصل عنه . وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام .

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض** ﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة ، التى هى أجرام السموات والأرض ، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار ، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ، ما هو عبرة للمعتبرين ، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم ﴿ **واختلاف ألسنتكم** ﴾ أى لغاتكم من عرب وعجم ، وترك ، وروم وغير ذلك من اللغات ﴿ **وألوانكم** ﴾ من البياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والخضرة ، مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة ، ويجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية، وفصل واحد وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين فى ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا ، بل فى كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، وفى هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يفهمه إلا المتفكرون ﴿ **إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين بر وفاجر ، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين وقرأ حفص وحده بكسرها . قال الفراء : وله وجه جيد لأنه قد قال : ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ ، ﴿ لآيات لأولى الألباب ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ﴿وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾. قيل: فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار وقيل : المعنى صحيح من دون

تقديم وتأخير ، أى ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل ، وتنامون بالنهار فى بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة ، وابتغاؤكم من فضله فيهما ، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك ، وإن كان ابتغاء الفضل فى النهار أكثر. والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة فى هذا المعنى ، والآخر هو المناسب للنظم القرآنى ها هنا . ووجه ذكر النوم والابتغاء ها هنا وجعلهما من جملة الأدلة على البعث : أن النوم شبيه بالموت ، والتصرف فى الحاجات والسعى فى المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ أى يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر ، فيستدلون بذلك على البعث ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ المعنى : أن يريكم ، فحذف « أن» لدلالة الكلام عليه ، كما قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

والتقدير : أن أحضر ، فلما حذف الحرف فى الآية والبيت بطل عمله ، ومنه المثل المشهور : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى ويريكم البرق من آياته ، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة إسمية، ويجوز أن يكون ﴿ **يريكم** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى ومن آياته آية يريكم بها وفيها البرق ، وقيل : التقدير : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته . قال الزجاج : فيكون من عطف جملة على جملة . قال قتادة : خوفا للمسافر ، وطمعا للمقيم . وقال الضحاك : خوفا من الصواعق ، وطمعا فى الغيث . وقال يحيى بن سلام :خوفا من البرد أن يهلك الزرع ، وطمعا فى المطر أن يحيى الزرع .وقال ابن بحر : خوفا أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر ، وطمعا أن يكون ممطرا ، وأنشد :

لا يكن برقك برقا خلبا ... إن خير البرق ما الغيث معه

وانتصاب ﴿ **خوفا** ﴾ و ﴿ **طمعا** ﴾ على العلة ﴿ **وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها** ﴾ أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة .﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ أى قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه وقدرته بلا عمد يعمدها ، ولا مستقر يستقران عليه. قال الفراء : يقول : أن تدوما قائمتين بأمره﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾أى ثم بعد موتكم ومصيركم فى القبور، إذا دعاكم دعوة واحدة فاجأتم الخروج منها بسرعة، من غير تلبث ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع. و﴿ **من الأرض** ﴾ متعلق بـ« دعا » ، أى دعاكم من الأرض التى أنتم فيها، كما يقال : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة ، أو متعلق بمحذوف يدل عليه تخرجون ، أى خرجتم من الأرض ، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿ **تخرجون** ﴾ ؛ لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها ، وهذه الدعوة هى نفخة إسرافيل الآخرة فى الصور على ما تقدم بيانه ، وقد أجمع القراء على فتح التاء فى﴿ **تخرجون** ﴾ هنا وغلط من قال إنه قرئ هنا بضمها على البناء

للمفعول ، وإنما قرئ بضمها فى الأعراف .

﴿وله من فى السموات والأرض ﴾من جميع المخلوقات ملكا وتصرفا وخلقا ، ليس لغيره فى ذلك شىء ﴿ كل له قانتون ﴾أى مطيعون طاعة انقياد . وقيل : مقرون بالعبودية . وقيل : مصلون . وقيل : قائمون يوم القيامة كقوله:﴿ يوم يقوم الناس لربّ العالمين ﴾[المطففين : ٦] أى للحساب. وقيل: بالشهادة أنهم عباده. وقيل: مخلصون﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة﴿ وهو أهون عليه ﴾أى هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم ، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلا فلا شىء فى قدرته بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله: كن، فتكون . قال أبو عبيد: من جعل أهون ؛ عبارة عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله : ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ [النساء: ٣٠] وبقوله:﴿ولا يؤوده حفظهما ﴾ [البقرة : ٢٥٥] والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا ، كما فى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعزّ وأطول

أى عزيزة طويلة ، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى لست بواحد ، ومثله قول الآخر :

لعمرك إن الزبرقان لباذل ... لمعروفه عند السنين وأفضل

أى وفاضل ، وقرأ عبد الله بن مسعود: « وهو عليه هين » . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن الإعادة أهون عليه، أى على الله من البداية ، أى أيسر وإن كان جميعه هينا. وقيل : المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، وقيل : الضمير فى:﴿ عليه ﴾للخلق، أى وهو أهون على الخلق؛ لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ، ويقال لهم : كونوا فيكونون ، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة ﴿وله المثل الأعلى ﴾ قال الخليل : المثل : الصفة ، أى وله الوصف الأعلى ﴿ فى السموات والأرض ﴾ كما قال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ [الرعد : ٣٥] أى صفتها . وقال مجاهد : المثل الأعلى قول : لا إله إلا الله ، وبه قال قتادة . وقال الزجاج : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ أى قوله :﴿ وهو أهون عليه ﴾ قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل. وقيل : المثل الأعلى : هو أنه ليس كمثله شىء . وقيل : هو أن ما أراده كان بقول : كن ، و﴿ فى السموات والأرض ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة ، والمعنى : أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى، ووصف به فى السموات والأرض ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو المثل ، أو من الضمير فى الأعلى ﴿ وهو العزيز ﴾ فى ملكه، القادر الذى لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يبلس** ﴾ قال : ييتئس . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم: ﴿ **يبلس** ﴾ قال: يكتئب ، وعنه: الإبلاس : الفضيحة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يحبرون** ﴾ قال: يكرمون. وأخرج الديلمى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ؟ ميزوهم، فيميزون فى كثب المسك والعنبر؛ ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحى وتحميدى وتهليلى ، قال : فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط ». وأخرج الدينورى فى المجالسة عن مجاهد قال : ينادى مناد يوم القيامة. . . فذكر نحوه ، ولم يسم من رواه له عن رسول الله. وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، والأصبهانى فى الترغيب عن محمد بن المنكدر نحوه. وأخرج ابن أبى الدنيا والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: فى الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ فى ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها، فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة مرفوعا نحوه.

وأخرج الفريابى وابن مردويه عن ابن عباس قال: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن أبى رزين قال : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال :هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقرأ: ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ : صلاة المغرب ﴿**وحين تصبحون** ﴾: صلاة الصبح ﴿ **وعشيا** ﴾ : صلاة العصر﴿ **وحين تظهرون** ﴾: صلاة الظهر، وقرأ:﴿ من بعد صلاة العشاء ﴾ [النور:٥٨] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة :﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ قال : المغرب والعشاء ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ : الفجر﴿ **وعشيا** ﴾ : العصر﴿ **وحين تظهرون** ﴾: الظهر . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى فى عمل يوم وليلة، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال:« ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون» (١) وفى إسناده ابن لهيعة. وأخرج أبو داود والطبرانى وابن السنى وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح:﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٩ وابن جرير ٢٧/ ٤٣ والطبرانى ٢٠/ ١٩٢ (٤٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٢٠ : «وفيه ضعفاء وثقوا » .

الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ أدرك ما فاته فى يومه، ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته»[١] وإسناده ضعيف .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كل له قانتون** ﴾ يقول : مطيعون : يعنى : الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وهو أهون عليه**﴾ قال: أيسر. وأخرج ابن الأنبارى عنه أيضا فى قوله: ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾قال: الإعادة أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة: كن، فيكون، وابتدأ الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ يقول: ليس كمثله شىء.

﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)** ﴾.

قوله: ﴿ **ضرب لكم مثلا** ﴾قد تقدم تحقيق معنى المثل ، و« من » فى : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ لابتداء الغاية وهى ومجرورها فى محل نصب صفة لمثلا، أى مثلا منتزعا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شىء منكم، وأبين من غيرها عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها فى بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا. ثم بين المثل المذكور فقال: ﴿**هل لكم مما ملكت أيمانكم من**

---

(١) أبو داود فى الأدب (٥٠٧٦) والطبرانى (١٢٩٩١) . وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلمانى وابنه وكلاهما ضعيف . عبد الرحمن البيلمانى لينه أبو حاتم وضعفه الدارقطنى وابنه ، قال البخارى وأبو حاتم: « منكر الحديث » ، وضعفه الدارقطنى وغيره .ميزان الاعتدال (٤٨٢٧) ، (٧٨٢٧) .

شركاء فيما رزقناكم ﴾. « من » فى: ﴿ **مما ملكت** ﴾للتبعيض، وفى: ﴿ **من شركاء** ﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذى ملكت أيمانكم؟ وهم العبيد والإماء ، والاستفهام للإنكار، وجملة: ﴿ **فأنتم فيه سواء** ﴾ جواب للاستفهام الذى بمعنى النفى، ومحققة لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم فى أموالهم، أى هل ترضون لأنفسكم ـ والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم فى البشرية ـ أن يساووكم فى التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ؟ ﴿ **تخافونهم كخيفتكم أنفسكم** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، أى تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم، أى كما تخافون الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود نفى الأشياء الثلاثة : الشركة بينهم وبين المملوكين ، والاستواء معهم ، وخوفهم إياهم . وليس المراد ثبوت الشركة ونفى الاستواء والخوف كما قيل فى قولهم: ما تأتينا فتحدثنا. والمراد: إقامة الحجة على المشركين فإنهم لابد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم فى البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ؛ بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الربّ وحده لا شريك له. قرأ الجمهور: ﴿**أنفسكم** ﴾ بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿**كذلك نفصل الآيات** ﴾ تفصيلا واضحا وبيانا جليا﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم فى تدبرها والتفكر فيها .

ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل فقال: ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم** ﴾ أى لم يعقلوا الآيات ، بل اتبعوا أهواءهم الزائغة. وآراءهم الفاسدة الزائفة ، ومحل ﴿**بغير علم** ﴾ النصب على الحال ، أى جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿ **فمن يهدى من أضل الله** ﴾ أى لا أحد يقدر على هدايته؛ لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أى ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم ، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه. ثم أمر رسوله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره فقال: ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا** ﴾شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه وإقباله عليه. وانتصاب﴿**حنيفا** ﴾ على الحال من فاعل أقم أو من مفعوله، أى مائلا إليه مستقيما عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة .

﴿ **فطرت الله التى فطر الناس عليها** ﴾ الفطرة فى الأصل: الخلقة، والمراد بها هنا : الملة، وهى الإسلام والتوحيد. قال الواحدى:هذا قول المفسرين فى فطرة الله، والمراد بالناس هنا : الذين فطرهم الله على الإسلام ؛ لأن المشرك لم يفطر على الإسلام، وهذا الخطاب وإن كان خاصا برسول الله فأمته داخلة معه فيه . قال القرطبى باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك لولا

عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ :« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ وفى رواية: على هذه الملة ـ ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ » ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ [1] . وفى رواية :« حتى تكونوا أنتم تجدعونها » . وسيأتى فى آخر البحث ما ورد معاضدا لحديث أبى هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفطور، أى مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا : الإسلام هو مذهب جمهور السلف . وقال آخرون: هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة. والفاطر فى كلام العرب هو المبتدئ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة وإهمال معناها شرعا. والمعنى الشرعىّ مقدم على المعنى اللغوى باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافى ذلك ورود الفطرة فى الكتاب أو السنة فى بعض المواضع مرادا بها المعنى اللغوى كقوله تعالى:﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ [فاطر :١] أى خالقهما ومبتديهما ، وكقوله : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ [يس : ٢٢] إذ لا نزاع فى أن المعنى اللغوى هو هذا، ولكن النزاع فى المعنى الشرعى للفطرة وهو ما ذكره الأولون كما بيناه، وانتصاب﴿**فطرة**﴾ على أنها مصدر مؤكد للجملة التى قبلها . وقال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى﴿ **فأقم وجهك للدين** ﴾ : اتبع الدين واتبع فطرة الله. وقال ابن جرير: هى مصدر من معنى﴿ **فأقم وجهك** ﴾ لأن معنى ذلك : فطرة الله الناس على الدين . وقيل : هى منصوبة على الإغراء ، أى الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، ورد هذا الوجه أبو حيان وقال : إن كلمة الإغراء لا تضمر إذ هى عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه وهو إجحاف . وأجيب بأن هذا رأى البصريين، وأما الكسائى وأتباعه فيجيزون ذلك .

وجملة: ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة، أى هذه الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل: هو نفى معناه النهى، أى لا تبدلوا خلق الله. قال مجاهد وإبراهيم النخعى: معناه: لا تبديل لدين الله. قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد: هذا فى المعتقدات. وقال عكرمة: إن المعنى: لا تغيير لخلق فى البهائم بأن تخصى فحولها ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو الدين القيم﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به. ﴿**منيبين إليه** ﴾أى راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له فى أوامره ونواهيه. ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

---

(١) أحمد ٢/ ٣١٥ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٥) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨/ ٢٢) .

فإن تابوا فإن بنى سليم وقومهم هوازن قد أنابوا

قال الجوهرى: أناب إلى الله: أقبل وتاب، وانتصابه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى﴿ **أقم وجهك** ﴾: أقيموا وجوهكم. قال الفراء: المعنى: فأقم وجهك ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج وقال : تقديره: فأقم وجهك وأمتك، فالحال من الجميع. . وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. وقيل: هو منصوب على القطع. وقيل: على أنه خبر لكان، محذوفة، أى وكونوا منيبين إليه لدلالة﴿**ولا تكونوا من المشركين** ﴾على ذلك. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة فقال ﴿ **واتقوه** ﴾ أى :باجتناب معاصيه وهو معطوف على الفعل المقدرناصبا لمنيبين ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ التى أمرتم بها ﴿ **ولا تكونوا من المشركين** ﴾ بالله .

وقوله : ﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا** ﴾هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع: الفرق، أى لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقا فى الدين يشايع بعضهم بعضا من أهل البدع والأهواء. وقيل: المراد بالذين فرقوا دينهم شيعا:اليهود والنصارى. وقرأ حمزة والكسائى : «فارقوا دينهم » ورويت هذه القراءة عن على بن أبى طالب، أى فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه، وهوالتوحيد. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى آخر سورة الأنعام ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ أى كل فريق بما لديهم من الدين المبنى على غير الصواب مسروررون مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شىء . وقال الفراء :يجوز أن يكون قوله:﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا** ﴾ مستأنفا كما يجوز أن يكون متصلا بما قبله﴿ **وإذا مس الناس ضر** ﴾ أى قحط وشدة﴿ **دعوا ربهم** ﴾ أن يرفع ذلك عنهم واستغاثوا به﴿ **منيبين إليه** ﴾ أى راجعين إليه ملتجئين به لا يعولون على غيره. وقيل: مقبلين عليه بكل قلوبهم﴿ **ثم إذا أذاقهم منه رحمة** ﴾ بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم﴿ **إذا فريق منهم بربهم يشركون** ﴾ « إذا » هى الفجائية وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء فى إفادة التعقيب، أى فاجأ فريق منهم الإشراك وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه. وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم، واللام فى﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ هى لام كى. وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هى لام العاقبة. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال:﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم. قرأ الجمهور:﴿ **فتمتعوا** ﴾ على الخطاب. وقرأ أبو العالية بالتحتية على البناء للمفعول، وفى مصحف ابن مسعود:«فليتمتعوا » .

﴿ **أم أنزلنا عليهم سلطانا** ﴾ أم هى المنقطعة، والاستفهام للإنكار والسلطان : الحجة الظاهرة ﴿ **فهو يتكلم** ﴾ أى يدل كما فى قوله:﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾[الجاثية: ٢٩] قال الفراء: إن العرب تؤنث السلطان يقولون: قضت به عليك السلطان ، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة. وقيل : المراد بالسلطان هنا : الملك ﴿ **بما كانوا به يشركون** ﴾ أى ينطق بإشراكهم بالله سبحانه ، ويجوز أن

تكون الباء سببية ، أى بالأمر الذى بسببه يشركون ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة** ﴾ أى خصبا ونعمة وسعة وعافية﴿ **فرحوا بها** ﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : ٥٨] . ثم قال سبحانه: ﴿**وإن تصبهم سيئة** ﴾ شدة على أى صفة﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ أى بسبب ذنوبهم﴿ **إذا هم يقنطون** ﴾ القنوط: الإياس من الرحمة،كذا قال الجمهور. وقال الحسن : القنوط: ترك فرائض الله سبحانه . قرأ الجمهور:«يقنطون » بضم النون. وقرأ أبو عمرو والكسائى ويعقوب بكسرها. ﴿ **أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾من عباده ويوسع له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يضيق على من يشاء لمصلحة فى التوسيع لمن وسع له،وفى التضييق على من ضيق عليه﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ فيستدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان يلبى أهل الشرك: لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا [(١)] هو لك ،تملكه وما ملك، فأنزل الله:﴿ **هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء** ﴾ الآية [(٢)] . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هى فى الآلهة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**لا تبديل لخلق الله** ﴾ قال : دين الله﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ قال: القضاء القيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن الأسود بن سريع؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين، فانتهى القتل إلى الذرية، فلما جاؤوا قال النبى ﷺ : « ما حملكم على قتل الذرية »؟ قالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين، قال:« وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذى نفسى بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها »[(٣)]. وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ :« كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا » [(٤)] رواه أحمد عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر. وقال الإمام أحمد فى المسند : حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ خطب يوما فقال فى خطبته حاكيا عن الله سبحانه:« وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم،وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » الحديث [(٥)] .

---

(١) فى المطبوعة : « شريك » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) الطبرانى (١٢٣٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٢٦ : « فيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .

(٣) عبد الرزاق (٩٣٨٦) وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٤٠٧٧) وأحمد ٣/ ٤٣٥ وذكر أن السرية كانت إلى حنين، والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦١٦) والحاكم ٢/ ١٢٣ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « على شرط البخارى ومسلم » والبيهقى ٩/ ٧٧.

(٤) أحمد ٣/ ٣٥٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢١ : « فيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات » .

(٥) أحمد ٤/ ١٦٢ ومسلم فى الجنة (٢٨٦٥/ ٦٣) والطبرانى ١٧/ ٣٥٨ (٩٨٧) .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾.

لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغى من مواساة القرابة وأهل الحاجات ممن بسط الله له فى رزقه فقال: ﴿ **فآت ذا القربى حقه** ﴾ والخطاب للنبى ﷺ وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها، والمراد: الإحسان إليهم بالصدقة والصلة والبر ﴿ **والمسكين وابن السبيل** ﴾ أى وآت المسكين وابن السبيل حقهما الذى يستحقانه. ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجبا لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول. وقد اختلف فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: هى منسوخة بآية المواريث. وقيل: محكمة وللقريب فى مال قريبه الغنى حق واجب، وبه قال مجاهد وقتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج. قال مقاتل: حق المسكين أن يتصدق عليه، وحق ابن السبيل الضيافة. وقيل المراد بالقربى: قرابة النبى ﷺ . قال القرطبى: والأول أصح، فإن حقهم مبين فى كتاب الله عز وجل فى قوله: ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى ﴾[الأنفال: ٤١] (١) وقال الحسن: إن الأمر فى إيتاء ذى القربى للندب ﴿ **ذلك خير للذين يريدون وجه الله** ﴾ أى ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب إلى الله سبحانه ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالا لأمره.

(١) القرطبى ٧/ ٥١١٧ .

﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **آتيتم** ﴾ بالمد بمعنى أعطيتم، وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير بالقصربمعنى ما فعلتم، وأجمعوا على القراءة بالمد فى قوله: ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ وأصل الربى: الزيادة، وقراءة القصر تؤول إلى قراءة المد؛ لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأ وأتيت صوابا؛ والمعنى فى الآية: ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض﴿ **ليربو فى أموال الناس** ﴾ أى ليزيد ويزكو فى أموالهم﴿ **فلا يربو عند الله** ﴾أى لا يبارك الله فيه. قال السدى: الربا فى هذا الموضع :الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة؛ لأن ذلك لا يربو عند الله، لا يؤجر عليه صاحبه ، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة والضحاك. قال الواحدى: وهذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعنى دفع الإنسان الشىء ليعوض أكثر منه وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه؛ لأن الذى يهبه يستدعى به ما هو أكثر منه. وقال الشعبى: معنى الآية أن ما خدم به الإنسان أحدا لينتفع به فى دنياه فإن ذلك النفع الذى يجزى به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: هذا كان حراما على النبى ﷺ على الخصوص لقوله سبحانه: ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾[المدثر: ٦] ومعناها: أن تعطى فتأخذ أكثر منه عوضا عنه. وقيل: إن هذه الآية نزلت فى هبة الثواب. قال ابن عطية: وما يجرى مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه. قال عكرمة: الربا ربوان: فربا حلال، وربا حرام. فأما الربا الحلال فهو الذى يهدى يلتمس ما هو أفضل منه: يعنى كما فى هذه الآية. وقيل: إن هذا الذى فى هذه الآية هو الربا المحرم، فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول لا يحكم به، بل هو للمأخوذ منه.

قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك، مثل هبة الفقير للغنى، وهبة الخادم للمخدوم، وهبة الرجل لأميره، وهو أحد قولى الشافعى . وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، وهو قول الشافعى الآخر. قرأ الجمهور: ﴿**ليربو**﴾ بالتحتية على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا. وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة بمعنى لتكونوا ذوى زيادات. وقرأ أبو مالك: « لتربوها » ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصا له﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله** ﴾ أى وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله﴿ **فأولئك هم المضعفون** ﴾ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن ومعطش ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. وقرأ أبى: « المضعفون » بفتح العين اسم مفعول .

﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء** ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرازق المميت المحيى، ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿ **هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء** ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئا من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿ **سبحانه**

وتعالى عما يشركون ﴾أى نزهوه تنزيها، وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك، وقوله: ﴿ **من شركائكم** ﴾خبر مقدم ومن للتبعيض، والمبتدأ هو الموصول، أعنى: من يفعل، و﴿ **من ذلكم** ﴾متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من﴿ **شيء** ﴾ المذكور بعده، ومن فى: ﴿ **من شيء** ﴾ مزيدة للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ، ويجعلون لهم نصيبا من أموالهم.

﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** ﴾بين سبحانه أن الشرك والمعاصى سبب لظهور الفساد فى العالم. واختلف فى معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك. وقال مجاهد وعكرمة: فساد البر: قتل ابن آدم أخاه، يعنى قتل قابيل لهابيل، وفى البحر: الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا. وليت شعرى أى دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ ، والتعريف فى الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع فى حيزى البر والبحر. وقال السدى: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. ويمكن أن يقال: إن الشرك وإن كان الفرد الكامل فى أنواع المعاصى، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. وقيل: الفساد: كساد الأسعار وقلة المعاش. وقيل: الفساد: قطع السبل والظلم، وقيل : غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه. والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعا إلى أفعال بنى آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أوراجعا إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار. والبر والبحر هما المعروفان المشهوران. وقيل : البر: الفيافى ، والبحر: القرى التى على ماء، قاله عكرمة، والعرب تسمى الأمصار : البحار. قال مجاهد: البر: ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر: ما كان على شط نهر. والأول أولى. ويكون معنى البر: مدن البر، ومعنى البحر: مدن البحر، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها. والباء فى﴿ **بماكسبت** ﴾ للسببية،«ما » إما موصولة أو مصدرية ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا** ﴾ اللام متعلقة بظهر، وهى لام العلة، أى ليذيقهم عقاب بعض عملهم أو جزاء بعض عملهم﴿**لعلهم يرجعون**﴾ عما هم فيه من المعاصى ويتوبون إلى الله.

﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل** ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدى المشركين والعصاة بين لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار، وجملة: ﴿ **كان أكثرهم مشركين** ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى كانوا عليها، وإيضاح السبب الذى صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له** ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ وأمته أسوته فيه، كأن المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم فأقم وجهك يا محمد إلخ. قال الزجاج:

اجعل جهتك اتباع الدين القيم، وهو الإسلام المستقيم ﴿ **من قبل أن يأتى يوم** ﴾ يعنى: يوم القيامة﴿ **لا مرد له** ﴾ لا يقدر أحد على رده، والمرد مصدر ردّ. وقيل: المعنى: أوضح الحق وبالغ فى الأعذار، و﴿ **من الله** ﴾ يتعلق بـ﴿ **يأتى** ﴾ أو بمحذوف يدل عليه المصدر، أى لا يرده من الله أحد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وفيه من الضعف وسوء الأدب مع الله مالا يخفى.﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع التفرق، يقال: تصدع القوم: إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكنا كندمانى جذيمة برهة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

والمراد بتفرقهم ها هنا : أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار.﴿ **من كفر فعليه كفره** ﴾ أى جزاء كفره، وهو النار ﴿ **ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون**﴾ أى يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة بالعمل الصالح، والمهاد: الفراش، وقد مهدت الفراش مهدا: إذا بسطته ووطأته، فجعل الأعمال الصالحة التى هى سبب لدخول الجنة كبناء المنازل فى الجنة وفرشها. وقيل: المعنى : فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم فى المشفق: أمٌّ فرشت فأنامت، وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص. وقال مجاهد: ﴿ **فلأنفسهم يمهدون**﴾ فى القبر، واللام فى﴿ **ليجزى الذين آمنوا** ﴾ متعلقة بـ﴿ **يصدعون**﴾، أو ﴿ **يمهدون**﴾، أى يتفرقون ليجزى الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿ **من فضله** ﴾ أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم. وقيل: يتعلق بمحذوف. قال ابن عطية: تقديره: ذلك ليجزى، وتكون الإشارة إلى ماتقدم من قوله:﴿ **من عمل** ﴾ و﴿ **من كفر** ﴾. وجعل أبو حيان قسيم قوله: ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ محذوفا لدلالة قوله:﴿ **إنه لا يحب الكافرين** ﴾ عليه؛ لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه، وغضبه يستتبع عقوبته.

﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات** ﴾ أى ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدمه كما فى قوله سبحانه :﴿ بشرا بين يدى رحمته ﴾[النمل : ٦٣] قرأ الجمهور:﴿ **الرياح** ﴾ وقرأ الأعمش : « الريح » بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله: ﴿**مبشرات** ﴾ واللام فى قوله:﴿ **وليذيقكم من رحمته** ﴾ متعلقة بـ﴿ **يرسل** ﴾ ، أى يرسل الرياح مبشرات ويرسلها ليذيقكم من رحمته، يعنى: الغيث والخصب. وقيل: هو متعلق بمحذوف ، أى وليذيقكم أرسلها. وقيل : الواو مزيدة على رأى من يجوز ذلك ، فتتعلق اللام بـ﴿**يرسل**﴾ ﴿ **ولتجرى الفلك بأمره** ﴾ معطوف على﴿ **ليذيقكم من رحمته** ﴾ أى يرسل الرياح لتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها، ولما أسند الجرى إلى الفلك عقبه بقوله: ﴿ **بأمره ولتبتغوا من فضله** ﴾ أى تبتغوا الرزق بالتجارة التى تحملها السفن﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به وربا لا يصلح. فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد

فضلها وأضعافها. وأخرج البيهقى عنه قال: هذا هو الربا الحلال ، أن يهدى يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر، ونهى النبى ﷺ خاصة فقال : ﴿ولا تمنن تستكثر ﴾[المدثر : ٦]. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ قال: هى الصدقة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **ظهرالفساد فى البر والبحر**﴾ قال: البر: البرية التى ليس عندها نهر، والبحر: ما كان من المدائن والقرى على شط نهر. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا: ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال : من الذنوب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ **يصدعون** ﴾ قال: يتفرقون .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾.

قوله: ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم** ﴾ كما أرسلناك إلى قومك﴿ **فجاؤوهم بالبينات**﴾ أى بالمعجزات والحجج النيرات﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ أى فكفروا فانتقمنا ﴿ **من الذين أجرموا** ﴾ أى فعلوا الإجرام، وهى الآثام ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ هذا إخبار من الله

سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو صادق الوعد لايخلف الميعاد ، وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين ، ووقف بعض القراءعلى﴿حقا﴾ وجعل اسم كان ضميرا فيها وخبرها حقا، أى وكان الانتقام حقا. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، والصحيح أن نصر المؤمنين اسمها وحقا خبرها وعلينا متعلق بـ﴿حقا﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له. ﴿ **الله الذى يرسل الرياح** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وابن كثير وابن محيصن:« يرسل الريح »بالإفراد. وقرأ الباقون: ﴿**الرياح**﴾ قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة: ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾ إلى قوله: ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ معترضة﴿ **فتثير سحابا** ﴾ أى تزعجه من حيث هو﴿ **فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾ تارة سائرا وتارة واقفا، وتارة مطبقا، وتارة غير مطبق، وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة وفى سورة النور﴿ **ويجعله كسفا** ﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعا متفرقة، والكسف جمع كسفة. والكسفة: القطعة من السحاب . وقد تقدم تفسيره واختلاف القراءة فيه﴿**فترى الودق يخرج من خلاله**﴾ الودق: المطر، و﴿**من خلاله**﴾ : من وسطه. وقرأ أبو العالية والضحاك: « يخرج من خلله » . ﴿ **فإذا أصاب به** ﴾ أى بالمطر﴿ **من يشاء من عباده** ﴾ أى بلادهم وأرضهم﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾ إذا هى الفجائية، أى فاجؤوا الاستبشار بمجيء المطر، والاستبشار: الفرح .

﴿ **وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم** ﴾ أى من قبل أن ينزل عليهم المطر، وإن هى المخففة وفيها ضمير شأن مقدر هو اسمها، أى وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، وقوله: ﴿**من قبله** ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس . وقال قطرب: إن الضميرفى: ﴿ **قبله** ﴾ راجع إلى المطر، أى وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر. وقيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب، أى من قبل رؤيته، واختار هذا النحاس. وقيل: الضمير عائد إلى الكسف. وقيل: إلى الإرسال. وقيل: إلى الاستبشار. والراجح الوجه الأول ، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففى غاية التكلف والتعسف، وخبر كان ﴿ **لمبلسين** ﴾ أى آيسين أو بائسين . وقد تقدم تحقيق الكلام فى هذا.

﴿ **فانظرإلى أثر رحمت الله** ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع التى بها يكون الخصب ورخاء العيش، أى انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب. قرأ الجمهور: « أثر » بالتوحيد. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى : ﴿ **آثار** ﴾ بالجمع ﴿ **كيف يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه. وقيل : ضمير يعود إلى الأثر، وهذه الجملة فى محل نصب بانظر، أى انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض. وقرأ الجحدرى وأبو حيوة: « تحيى » بالفوقية على أن فاعله

ضمير يعود إلى الرحمة أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلك**﴾ إلى الله سبحانه، أى إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿**لمحيى الموتى**﴾ أى لقادر على إحيائهم فى الآخرة وبعثهم ومجازاتهم، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى عظيم القدرة كثيرها.

﴿**ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا** ﴾ الضمير فى :﴿ **فرأوه** ﴾ يرجع إلى الزرع والنبات الذى كان من أثر رحمة الله، أى فرأوه مصفرا من البرد الناشئ عن الريح التى أرسلها الله بعد اخضراره. وقيل: راجع إلى الريح، وهو يجوز تذكيره وتأنيثه. وقيل : راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع إلى السحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر، والأول أولى. واللام هى الموطئة. وجواب القسم﴿ **لظلوا من بعده يكفرون** ﴾ وهو يسد مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله ويجحدون نعمه، وفى هذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال:﴿ **فإنك لا تسمع الموتى** ﴾ إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب ﴿ **ولا تسمع الصم الدعاء** ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة وما فيها، وقوله :﴿ **إذا ولوا مدبرين** ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صم الآذان، قد تقدم تفسير هذا فى سورة النمل. ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿ **وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم** ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغى. أو لفقدهم للبصائر﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أى ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر﴿ **فهم مسلمون** ﴾ أى منقادون للحق متبعون له.

﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف** ﴾ ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، ومعنى من ضعف: من نطفة. قال الواحدى: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذى ضعف. وقيل: المراد : حال الطفولية والصغر ﴿ **ثم جعل من بعد ضعف قوة** ﴾ وهى قوة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة وتشتد الخلقة إلى بلوغ النهاية ﴿ **ثم جعل من بعد قوة ضعفا** ﴾ أى عند الكبر والهرم﴿ **وشيبة** ﴾ الشيبة هى: تمام الضعف ونهاية الكبر. قرأ الجمهور: « ضعف» بضم الضاد فى هذه المواضع . وقرأ عاصم وحمزة بفتحها. وقرأ الجحدرى بالفتح فى الأولين والضم فى الثالث. قال الفراء: الضم لغة قريش والفتح لغة تميم. قال الجوهرى: الضعف والضعف خلاف القوة، وقيل: هو بالفتح فى الرأى، وبالضم فى الجسم ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ يعنى: من جميع الأشياء، ومن جملتها القوة والضعف فى بنى آدم ﴿ **وهو العليم** ﴾ بتدبيره ﴿ **القدير** ﴾ على خلق ما يريده، وأجاز الكوفيون:« من ضعف » بفتح الضاد والعين.

﴿ **ويوم تقوم الساعة** ﴾ أى القيامة، وسميت ساعة لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات

الدنيا ﴿ **يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾ أى يحلفون ما لبثوا فى الدنيا، أو فى قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقر ذلك فى أذهانهم، فحلفوا عليه وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كذبوا فى هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل، وهذا هو الظاهر؛ لأنهم إن أرادوا لبثهم فى الدنيا فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم فى القبور فقد حلفوا على جهالة إذ [1] كانوا لا يعرفون الأوقات فى البرزخ ﴿**كذلك كانوا يؤفكون** ﴾ يقال: أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. وقيل: المراد: يصرفون عن الحق. وقيل: عن الخير، والأول أولى، وهو دليل على أن حلفهم كذب.

﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث** ﴾ اختلف فى تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم ، فقيل: الملائكة. وقيل: الأنبياء. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع . ومعنى فى كتاب الله: فى علمه وقضائه. قال الزجاج: فى علم الله المثبت فى اللوح المحفوظ . قال الواحدى: والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله، وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبهوهم على طريقة التبكيت بأن﴿**هذا**﴾ الوقت الذى صاروا فيه هو﴿ **يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ أنه حق ، بل كنتم تستعجلونه تكذيبا واستهزاء. ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم** ﴾ أى لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ولا يفيدهم علمهم بالقيامة. وقيل: لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. قرأ الجمهور:﴿ **لا تنفع** ﴾ بالفوقية ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتحتية ﴿**ولاهم يستعتبون** ﴾ يقال: استعتبته فأعتبنى، أى استرضيته فأرضانى، وذلك إذا كنت جانيا عليه، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه، والمعنى : أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إلى ذلك فى الدنيا .

﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى من كل مثل من الأمثال التى تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك ﴿**ولئن جئتهم بآية**﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد ﴿ **ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون** ﴾ أى ما أنت يا محمد وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر وما هو مشاكل له فى البطلان ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾ أى مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذى يهتدون به إلى الحق وينجون به من الباطل. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللا لذلك بحقية وعد الله وعدم الخلف فيه، فقال: ﴿ **فاصبر**﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى وتنظره من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعدك بالنصر عليهم وإعلاء حجتك وإظهار دعوتك ووعده حق لا خلف فيه﴿**ولا يستخفنك الذين لا**

---

(١) فى المطبوعة : « إن » ، والأولى ما أثبتناه .

يوقنون﴾ أى لا يحملنك على الخفة ويستفزنك عن دينك وما أنت عليه، الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبى ﷺ . يقال: استخف فلان فلانا، أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى. قرأ الجمهور: ﴿ **يستخفنك** ﴾ بالخاء المعجمة والفاء، وقرأ يعقوب وابن إسحاق بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهى فى الآية من باب: لا أرينك ها هنا.

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »، ثم تلا: ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ (١). وهو من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء. وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عنه فى قوله: ﴿ **فيجعله كسفا** ﴾ قال: قطعا بعضها فوق بعض﴿ **فترى الودق** ﴾ قال: المطر﴿ **يخرج من خلاله** ﴾ قال: من بينه. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء** ﴾ فى دعاء النبى ﷺ لأهل بدر، والإسناد ضعيف. والمشهور فى الصحيحين وغيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة أن النبى ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص فقد قال النبى ﷺ لما قيل له: إنك تنادى أجسادا بالية: « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » (٢) وفى مسلم من حديث أنس؛ أن عمر بن الخطاب لما سمع النبى ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله، تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون ؟ يقول الله : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا » (٣) .

---

(١) أحمد ٦/ ٤٤٩ والترمذى فى البر والصلة (١٩٣١) وقال: « هذا حديث حسن » .

(٢) أحمد ٢/ ١٣١ والبخارى فى الجنائز (١٣٧٠) .

(٣) مسلم فى الجنة (٢٨٧٤/ ٧٧) .

تفسير سورة لقمان

آياتها أربع وثلاثون آية وهى مكية إلا ثلاث آيات، وهى قوله: ﴿**ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام**﴾ إلى تمام الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عنه: أنها مكية ولم يستثن، وحكى القرطبى عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين. وأخرج النسائى وابن ماجة عن البراء قال: كنا نصلى خلف النبى ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١١)** ﴾.

قوله : ﴿ **آلم . تلك آيات الكتاب** ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، وبيان مرجع الإشارة أيضا، و﴿ **الحكيم** ﴾ إما أن يكون بمعنى مفعل، أو بمعنى فاعل، أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله، و﴿ **هدى ورحمة** ﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى: تلك آيات الكتاب فى حال الهداية والرحمة، وقرأ حمزة:« ورحمة » بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف، أى هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكونا خبر تلك. والمحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان : فقال :« أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢) ، ثم بين عمل المحسنين فقال :﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة**

---

(١) النسائى فى الكبرى فى صفة الصلاة (١٠٤٣/١) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٣٠) .

(٢) سبق تخريجه .

وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ والموصول فى محل جر على الوصف للمحسنين، أو فى محل رفع، أو نصب على المدح أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث ؛ لأنها عمدة العبادات﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة ، والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التى هى أمهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى الدارين .

﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ : محل ﴿ **ومن الناس** ﴾ الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه فى سورة البقرة، وخبره ﴿ **من يشترى لهو الحديث** ﴾ و« من » إما موصولة أو موصوفة، و ﴿ **لهو الحديث** ﴾ : كل ما يلهى عن الخير من الغناء والملاهى والأحاديث المكذوبة وكل ماهو منكر، والإضافة بيانية. وقيل : المراد : شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: ومن يشترى أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث: المعازف والغناء. وروى عنه أنه قال: هو الكفر والشرك. قال القرطبى: إن أولى ما قيل فى هذا الباب هو: تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة والتابعين [١]، واللام فى﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ للتعليل. قرأ الجمهور بضم الياء من﴿ **ليضل** ﴾ أى ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق، وإذا أضل غيره فقد ضل فى نفسه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وحميد وورش وابن أبى إسحاق بفتح الياء. أى ليضل هو فى نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه: ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشترى الضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيد هذا سبب نزول الآية وسيأتى.

قال الطبرى : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبد الله العنبرى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته إذ ليس شىء منها عليه حرام لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها ؟ قلت : قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم فى الغناء وما استدل به المحللون له والمحرمون له، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها وتدبر معانيها إلى النظر فى غيرها، وسميتها [إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغى فليرجع إليها .

ومحل قوله :﴿ **بغير علم** ﴾ النصب على الحال، أى حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض﴿**ويتخذها هزوا** ﴾ قرأ الجمهور برفع :« يتخذها » عطفًا على ﴿ **يشترى** ﴾ فهو من جملة الصلة . وقيل : الرفع على الاستئناف والضمير المنصوب فى ﴿ **يتخذها** ﴾ يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول

---

(١) القرطبى ٧ / ٥١٣٣ .

أولى. وقرأ حمزة والكسائى والأعمش: **﴿ويتخذها﴾** بالنصب عطفا على **﴿ يضل ﴾** ، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل ، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم ، والمعنى: أنه يشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ السبيل هزواً، أى مهزوءا به، والسبيل يذكر ويؤنث ، والإشارة بقوله : **﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾** إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها ، والعذاب المهين : هو الشديد الذى يصير به من وقع عليه مهينا .

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ﴾ أى وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ **﴿ ولى مستكبرا ﴾** أى أعرض عنها حال كونه مبالغا فى التكبر، وجملة: **﴿ كأن لم يسمعها ﴾** فى محل نصب على الحال، أى كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، وجملة: **﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾** حال ثانية، أو بدل من التى قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أن تكون مستأنفة. والوقر: الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة فى إعراض ذلك المعرض **﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾** أى أخبره بأن له العذاب البليغ فى الألم. ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** أى آمنوا بالله وبآياته ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها **﴿ لهم جنات النعيم ﴾** أى نعيم الجنات فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين، وانتصاب **﴿ خالدين فيها ﴾** على الحال. وقرأ زيد بن على: « خالدون فيها » على أنه خبر ثان لأن **﴿ وعد الله حقا ﴾** هما مصدران الأول مؤكد لنفسه، أى وعد الله وعدا. والثانى مؤكد لغيره ، وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره :حق ذلك حقا . والمعنى : أن وعده كائن لا محالة ولا خلف فيه **﴿ وهو العزيز ﴾** الذى لايغلبه غالب **﴿ الحكيم ﴾** فى كل أفعاله وأقواله .

ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: **﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾** العمد :جمع عماد، وقد تقدم الكلام فيه فى سورة الرعد. و **﴿ ترونها ﴾** فى محل جر صفة لـ **﴿ عمد ﴾** فيمكن أن تكون ثم عمد، ولكن لا ترى . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال ، أى ولا عمد ألبتة. قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا، أى ولا عمد ثم **﴿ وألقى فى الأرض رواسى ﴾** أى جبالا ثوابت **﴿ أن تميد بكم ﴾** فى محل نصب على العلة، أى كراهة أن تميد بكم . والكوفيون يقدرونه : لئلا تميد ، والمعنى : أنها خلقها وجعلها مستقرة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها **﴿ وبث فيها من كل دابة﴾** أى من كل نوع من أنواع الدواب، وقد تقدم بيان معنى البث **﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾** أى أنزلنا من السماء مطرا فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كل زوج، أى من كل صنف ، ووصفه بكونه كريما ؛ لحسن لونه وكثرة منافعه. وقيل : إن المراد بذلك : الناس. فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللئيم من يصير إلى النار. قاله الشعبى وغيره،

والأول أولى . والإشارة بقوله :﴿ **هذا** ﴾ إلى ما ذكر فى خلق السموات والأرض ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **خلق الله**﴾ أى مخلوقه ﴿ **فأرونى ماذا خلق الذين من دونه** ﴾ من آلهتكم التى تعبدونها، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فأرونى أى شىء خلقوا مما يحاكى خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت. ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر فقال:﴿ **بل الظالمون فى ضلال** ﴾ فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدى إلى الحق.

وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ يعنى : باطل الحديث. وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وصنيعهم فى دهرهم. وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويكذب بالقرآن (١) . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه فى الآية قال: باطل الحديث : وهو الغناء ونحوه ﴿**ليضل عن سبيل الله** ﴾ قال : قراءة القرآن وذكر الله، نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج البخارى فى الأدب المفرد، وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال : هو الغناء وأشباهه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : الجوارى الضاريات. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عن أبى الصهباء قال : سألت عبد الله بن مسعود عن قوله :﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ قال : هو والله الغناء . ولفظ ابن جرير: هو الغناء والله الذى لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذى وابن ماجة وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال:« لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام » فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿**ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ الآية (٢) ، وفى إسناده عبيد بن زحر عن على بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن وفيهم ضعف .

وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، وابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها» ، ثم قرأ: ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ . وأخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقى فى السنن عن ابن مسعود قال:

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٨٣٠) وإسناده ضعيف جدا . محمد بن مروان السدى ضعيف وأبو صالح باذام ضعيف مدلس .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٤ والترمذى فى التفسير (٣١٩٥) وقال : « هذا حديث غريب يروى من حديث القاسم عن أبى أمامة ، والقاسم ثقة ، وعلى بن زيد يضعف فى الحديث » وابن ماجة فى التجارات (٢١٦٨) وابن جرير ٢١/ ٣٩ والطبرانى (٧٧٤٩) وفيه سويد بن عبد العزيز قال الحافظ فى تقريب التهذيب (٩٩ ٥) : « لين الحديث » . والبيهقى ٦/ ١٤ .

قال رسول الله ﷺ :« الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل »[(١)] ورروياه عنه موقوفا. وأخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن أبى أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال:« ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك»[(٢)] . وفى الباب أحاديث فى كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله:﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث﴾ قال : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهارا. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فى قوله: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ :« إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل » . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر فى طريق، فسمع زمارة فوضع أصبعيه فى أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع ، أتسمع ؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أذنيه . وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع [(٣)]. وأخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ قال:« إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن

---

(١) البيهقى فى السنن ١٠/ ٢٢٣ وفى الشعب (٤٧٤٦) وفيه محمد بن صالح . قال ابن حبان : « يخطئ ، وعبد الله بن عبد العزيز ضعيف ، وإبراهيم بن طهمان تكلم فيه » .

(٢) أخرجه الطبرانى (٧٨٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٢٢ ، ١٢٣ : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وضعفوا » .

(٣) البيهقى فى السنن ١٠/ ٢٢٢ وفى الشعب (٤٧٦٠) وأبو داود فى الأدب (٤٩٢٤) وفى إسناده من لا يعرف.

صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

اختلف فى لقمان هل هو عجمى أم عربى ؟ مشتق من اللقم . فمن قال: إنه عجمى، منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربى، منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون. واختلفوا أيضا هو نبى أم رجل صالح ؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبى . وحكى الواحدى عن عكرمة والسدى والشعبى أنه كان نبيا، والأول أرجح لما سيأتى فى آخر البحث. وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط . مع أن الراوى لذلك عنه جابر الجعفى وهو ضعيف جدا. وهو لقمان ابن باعورا بن ناحور بن تارخ ، وهو آزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن مرون، وكان نوبيا من أهل أيلة ذكره السهيلى . قال وهب : هو ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو ابن خالته، عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم، وكان يفتى قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفى إذ كفيت؟ قال الواقدى: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، والحكمة التى آتاه الله هى : الفقه والعقل والإصابة فى القول ، وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة ﴿ أن اشكر لى ﴾ :« أن » هى المفسرة؛ لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول. وقيل: التقدير: قلنا له: أن اشكر لى . وقال الزجاج: المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن اشكر لى. وقيل : بأن اشكر لى فشكر فكان حكيما بشكره. والشكر لله الثناء عليه فى مقابلة النعمة وطاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال :﴿ **ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه**﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه وفائدته حاصلة له؛ إذ به تستبقى النعمة وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى حميد**﴾ أى من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غنى عن شكره غير محتاج إليه، حميد مستحق للحمد من خلقه؛ لإنعامه عليهم بنعمه التى لايحاط بقدرها ولا يحصر عددها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال . قال يحيى بن سلام : غنى عن خلقه حميد فى فعله .

﴿ **وإذ قال لقمان لابنه**﴾ قال السهيلى : اسم ابنه ثاران فى قول ابن جرير والقتيبى. وقال الكلبى : مشكم. وقال النقاش: أنعم. وقيل: ماتان. قال القشيرى: كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدم، والتقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه، وحين جعلناه واعظا لغيره. قال الزجاج: « إذ » فى موضع نصب بـ﴿ **آتينا** ﴾ . والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: وأحسبه غلطا لأن فى الكلام واوا وهى تمنع من ذلك، ومعنى﴿ **وهو يعظه** ﴾ : يخاطبه بالمواعظ التى ترغبه فى التوحيد وتصده عن الشرك﴿ **يا بنى لا تشرك بالله** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الياء. وقرأ ابن كثير بإسكانها. وقرأ حفص بفتحها، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافرا كما تقدم، وجملة: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ تعليل لما قبلها، وبدأ فى وعظه بنهيه عن الشرك لأنه أهم من غيره. وقد اختلف فى هذه الجملة، فقيل: هى من كلام لقمان. وقيل : هى من كلام الله ، فتكون منقطعة عما قبلها ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الحديث الصحيح أنها لما نزلت : ﴿ ولم

يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : ٨٢] شق ذلك على الصحابة ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه. فأنزل الله : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [(١)] فطابت أنفسهم .

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه** ﴾ هذه التوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله: ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهى عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هى قوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ وما بينهما اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، وفى جعل الشكر لهما مقترنا بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها وأشدها وجوبا، ومعنى: ﴿ **حملته أمه وهنا على وهن** ﴾ أنها حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل . وانتصاب ﴿**وهنا** ﴾ على المصدر. وقال النحاس : على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف، أى حملته بضعف على ضعف ، وقال الزجاج : المعنى : لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرة بعد مرة . وقيل : انتصابه على الحال من أمه ، و﴿ **على وهن** ﴾ صفة لـ﴿ **وهنا** ﴾ أى: وهنا كائنا على وهن . قرأ الجمهور بسكون الهاء فى الموضعين . وقرأ عيسى الثقفى وهى رواية عن أبى عمرو بفتحهما وهما لغتان . قال قعنب:

هل للعواذل من ناه فيزجرها   إن العواذل فيها الأين والوهن

﴿ **وفصاله فى عامين** ﴾ الفصال : الفطام ، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وهو مبتدأ وخبره الظرف. وقرأ الجحدرى وقتادة وأبو رجاء والحسن ويعقوب :« وفصله » وهما لغتان، يقال : انفصل عن كذا ، أى تميز، وبه سمى الفصيل. وقد قدمنا أن أمه فى قوله : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك** ﴾ هى المفسرة . وقال الزجاج : هى مصدرية. والمعنى : بأن اشكر لى . قال النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة ، وجملة :﴿ **إلى المصير** ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر، أى الرجوع إلىّ لا إلى غيرى .

﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم** ﴾ أى ما لا علم لك بشركته﴿ **فلا تطعهما** ﴾ فى ذلك. وقد قدمنا تفسير الآية وسبب نزولها فى سورة العنكبوت ، وانتصاب ﴿**معروفا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى وصاحبهما صحابا معروفا . وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : بمعروف ﴿ **واتبع سبيل من أناب إلى** ﴾ أى اتبع سبيل من رجع إلى من عبادى الصالحين بالتوبة والإخلاص﴿ **ثم إلى مرجعكم** ﴾ جميعا لا إلى غيرى ﴿**فأنبئكم** ﴾ أى أخبركم عند رجوعكم ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ من خير وشر فأجازى كل عامل بعمله. وقد قيل : إن هذا السياق من قوله : ﴿ **ووصينا الإنسان** ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضا وفيه بعد .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٢٤ / ١٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (١٨٦) كلهم عن ابن مسعود .

ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان فى وعظه لابنه فقال :﴿ **يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل** ﴾ الضمير فى ﴿ **إنها** ﴾ عائد إلى الخطيئة ، لما روى أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لايرانى أحد هل يعلمها الله ؟ فقال: إنها، أى الخطيئة، والجملة الشرطية مفسرة للضمير ، أى إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير: إن التى سألتنى عنها إن تك مثقال حبة من خردل، وعبر بالخردلة؛ لأنها أصغر الحبوب ولا يدرك بالحس ثقلها ولا ترجح ميزانا. وقيل: إن الضمير فى:﴿ **إنها** ﴾ راجع إلى الخصلة من الإساءة والإحسان، أى إن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك مثقال حبة إلخ، ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال :﴿ **فتكن فى صخرة** ﴾ فإن كونها فى الصخرة قد صارت فى أخفى مكان وأحرزه ﴿ **أو فى السموات أو فى الأرض** ﴾ أى أو حيث كانت من بقاع السموات أو من بقاع الأرض﴿ **يأت بها الله** ﴾ أى يحضرها ويحاسب فاعلها عليها﴿ **إن الله لطيف**﴾ لا تخفى عليه خافية ، بل يصل علمه إلى كل خفى ﴿**خبير**﴾ بكل شىء لا يغيب عنه شىء. قرأ الجمهور: ﴿ **إن تك** ﴾ بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة أو المسألة أو الخصلة أوالقصة . وقرؤوا :﴿ **مثقال** ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها هو أحد تلك المقدرات . وقرأ نافع برفع : « مثقال » على أنه اسم كان وهى تامة . وأنث الفعل فى هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث . وقرأ الجمهور : ﴿ **فتكن** ﴾ بضم الكاف ، وقرأ الجحدرى بكسرها وتشديد النون . من الكن الذى هو الشىء المغطى . قال السدى: هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات ولا فى الأرض .

ثم حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة. ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات وعماد الخيركله، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى الطاعات المذكورة ، وخبر« إن » قوله : ﴿ **من عزم الأمور** ﴾ أى مما جعله اللّه عزيمة وأوجبه على عباده. وقيل: المعنى: من حق الأمور التى أمر الله بها . والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم ، أى من معزومات الأمور أو بمعنى العازم كقوله : ﴿فإذا عزم الأمر﴾ [محمد: ٢١] قال المبرد: إن العين تبدل حاء . فيقال: عزم وحزم. قال ابن جرير: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، وصوب هذا القرطبى . ﴿ **ولا تصاعرخدك للناس** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **تصعر**﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم :« تصاعر » والمعنى متقارب . والصعر: الميل ، يقال : صعر خده وصاعر خده: إذا أمال وجهه ، وأعرض تكبرا. والمعنى : لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم ، ومنه قول الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ورواه ابن جرير هكذا:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما

قال الهروى: ﴿ **ولا تصاعر خدك للناس** ﴾ أى لا تعرض عنهم تكبرا، يقال: أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوى عنقه. وقيل : المعنى : ولا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره. وقال ابن خويز منداد: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، ولعله فهم من التصعير التذلل﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ أى خيلاء وفرحا، والمعنى: النهى عن التكبر والتجبر، والمختال يمرح فى مشيه، وهو مصدر فى موضع الحال، وقد تقدم تحقيقه، وجملة: ﴿**إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ تعليل للنهى لأن الاختيال هو المرح ، والفخور هو الذى يفتخر على الناس بِمَا لَهُ من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك ، وليس منه التحدث بنعم الله، فإن الله يقول :﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [الضحى:١١] .

﴿**واقصد فى مشيك**﴾ أى توسط فيه، والقصد : ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان فى مشيته: إذا مشى مستويا لا يدب دبيب المتماوتين ، ولا يثب وثوب الشياطين . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع (١) ، فلابد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد فى السرعة. وقال مقاتل: معناه : لا تختل فى مشيتك . وقال عطاء : امش بالوقار والسكينة . كقوله :﴿ يمشون على الأرض هونا ﴾ [الفرقان:٦٣] ﴿ **واغضض من صوتك** ﴾ أى انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذى السامع، وجملة:﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ تعليل للأمر بالغض من الصوت، أى أوحشها وأقبحها. قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير؛ أوله زفير وآخره شهيق . قال المبرد: تأويله: إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل فى باب الصوت المنكر. واللام فى﴿ **لصوت** ﴾ للتأكيد، ووحد الصوت مع كونه مضافا إلى الجمع لأنه مصدر، وهو يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشياً ». وأخرج ابن أبى شيبة، وأحمد فى الزهد، وابن أبى الدنيا فى كتاب المملوكين، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدا حبشيا نجارا. وأخرج الطبرانى، وابن حبان فى الضعفاء، وابن عساكر عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، وبلال المؤذن » (٢). قال الطبرانى: أراد الحبشة. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله:﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة**﴾ يعنى: العقل والفهم والفطنة فى غير نبوة. وأخرج ابن جرير

---

(١) أحمد ٢/ ٣٥٠ والترمذى فى المناقب (٣٦٤٨) وقال: « هذا حديث غريب» . كلاهما عن أبى هريرة وأحمد ١/ ٩٦ والترمذى فى المناقب (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » كلاهما عن علىٍّ .

(٢) الطبرانى (١١٤٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٣٩: « فيه أبين بن سفيان وهو ضعيف » وابن حبان فى المجروحين ١/ ١٨٠ وقال : « هذا حديث باطل » وابن عساكر ٣/ ٢٣٢ وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات ٢/ ٢٣٢ .

وابن أبى حاتم عن عكرمة؛ أنه كان نبيا، وقد قدمنا أن الراوى عنه جابر الجعفى، وهو ضعيف جدا. وأخرج أحمد والحكيم الترمذى، والحاكم فى الكنى، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئا حفظه» [١] . وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شىء ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشىء منها حتى نقبله. وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه فى هذا الوضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس فى ذكره إلا شغلة للحيز وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما روى عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التى هى ضالة المؤمن .

وأخرج أبو يعلى والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى؛ أن سعد بن أبى وقاص قال: أنزلت فى هذه الآية: ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى** ﴾ [٢] ، وقد تقدم ذكر هذا. وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى سعد بن أبى وقاص. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وهنا على وهن**﴾ قال: شدة بعد شدة وخلقا بعد خلق . وأخرج الطبرانى وابن عدى وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿ **ولا تصعر خدك للناس** ﴾ فقال : « لى الشدق » [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تصعرخدك للناس** ﴾ قال: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم إذا كلموك. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الذى إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ

---

(١) أحمد ٢/ ٨٧ والبيهقى فى الشعب (٣٠٧٣) وإسناده مقبول والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٣٥٢) .

(٢) أبو يعلى (٧٨٢) والطبرانى (٣٣١) وأخرجه أحمد ١/ ١٨٦ ومسلم فى فضائل الصحابة (١٧٤٨/ ٤٣) كلهم عن مصعب بن سعد ولم أجده عن أبى عثمان النهدى .

(٣) الطبرانى (٤٠٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١١٧: « فيه واصل بن السائب وهو متروك » . وكذلك فيه أبو سورة قال الحافظ فى تقريب التهذيب ٢/ ٤٣٢ (٩٩) : « ضعيف » .

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم فقال: ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ قال الزجاج : معنى تسخيرها للآدميين : الانتفاع بها انتهى ، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبنى آدم ، أى التى ينتفعون بها : الشمس القمر والنجوم ونحو ذلك . ومن جملة ذلك : الملائكة فإنهم حفظة لبنى آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبنى آدم : الأحجار والتراب والزرع والشجر والثمر والحيوانات التى ينتفعون بها والعشب الذى يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له، سواء كان منقادا له وداخلا تحت تصرفه أم لا﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ أى أتم وأكمل عليكم نعمه ، يقال : سبغت النعمة إذا تمت وكملت. قرأ الجمهور:﴿ **أسبغ** ﴾ بالسين ، وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة :« أصبغ » بالصاد مكان السين. والنعم جمع نعمة على قراءة نافع وأبى عمرو وحفص ، وقرأ الباقون : « نعمة » بسكون العين على الإفراد والتنوين اسم جنس يراد به الجمع ويدل به على الكثرة ، كقوله:﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهى قراءة ابن عباس . والمراد بالنعم الظاهرة : ما يدرك بالعقل أو الحس ويعرفه من يتعرفه ،وبالباطنة : ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم . وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل. وقيل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله عن البعد من الآفات. وقيل: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة : نعم الآخرة . وقيل : الظاهرة : الإسلام والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله**﴾ أى فى شأن الله سبحانه فى توحيده وصفاته؛ مكابرة وعنادا بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه، ولهذا قال : ﴿**بغير علم**﴾ من عقل ولا نقل﴿ **ولا هدى** ﴾ يهتدى به إلى طريق الصواب﴿ **ولا كتاب منير** ﴾ أنزله الله سبحانه، بل مجرد تعنت ومحض عناد. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة .

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله** ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المجادلين . والجمع باعتبار معنى من ، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت . و﴿ **قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام ، ونمشى فى الطريق التى كانوا

يمشون بها فى دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت ﴿ **أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير**﴾ أى يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم فى دينهم ، أى يتبعونهم فى الشرك ، ولوكان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير؛ لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم ، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب ، فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم ، وجواب لو محذوف ، أى يدعوهم فيتبعونهم ، ومحل الجملة النصب على الحال . وما أقبح التقليد ، وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عاقبته ، وأشأم عائدته على من وقع فيه. فإن الداعى له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق ، فتأبى ذلك وتتهافت فى نار الحريق وعذاب السعير.

﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله** ﴾ أى يفوض إليه أمره ، ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته﴿ **وهو محسن** ﴾ فى أعماله؛ لأن العبادة من غير إحسان لها ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها، لا تقع بالموقع الذى تقع به عبادة المحسنين . وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١). ﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ أى اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرى حبل متدل منه ﴿ **وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ أى مصيرها إليه لا إلى غيره. وقرأ على بن أبى طالب والسلمى وعبد الله بن مسلم بن يسار: « ومن يسلم » بالتشديد ، قال النحاس: والتخفيف فى هذا أعرف كما قال عز وجل:﴿ فقل أسلمت وجهى لله﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿ **ومن كفر فلا يحزنك كفره**﴾ أى لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضرك، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله:﴿ **إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا** ﴾ أى نخبرهم بقبائح أعمالهم ونجازيهم عليها ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أى بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسر عنده كالعلانية.

﴿ **نمتعهم قليلا** ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب ﴿ **قليلا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف، أى تمتيعا قليلا :﴿ **ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ** ﴾ أى نلجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ أى يعترفون بالله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال :﴿ **قل الحمد لله** ﴾ أى قل يا محمد : الحمد لله على اعترافكم ، فكيف تعبدون غيره وتجعلونه شريكا له ؟ أو المعنى : فقل : الحمد لله على ما هدانا له من دينه ولا حمد لغيره ، ثم أضرب عن ذلك فقال :﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى

---

(١) سبق تخريجه .

لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذى تجب له العبادة دون غيره . ﴿ **لله ما فى السموات والأرض** ﴾ ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة غيره ﴿ **إن الله هو الغنى** ﴾ عن غيره ﴿ **الحميد** ﴾ أى المستحق للحمد أو المحمود من عباده بلسان المقال أو بلسان الحال.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما فى السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد ولايحصر بحد فقال :﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام** ﴾ أى لو أن جميع ما فى الأرض من الشجر أقلام . ووحد الشجرة لما تقرر فى علم المعانى : أن استغراق المفرد أشمل ، فكأنه قال : كل شجرة شجرة حتى لايبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاما ، وجمع الأقلام لقصد التكثير، أى لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاما. قال أبوحيان : وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله :﴿ ما ننسخ من آية﴾ [البقرة : ١٠٦] ، ثم قال سبحانه:﴿ **والبحر يمده من بعده سبعة أبحر**﴾ أى يمده من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور:﴿ **والبحر** ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ ، و﴿ **يمده** ﴾ خبره ، والجملة فى محل الحال، أى والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مدا لا ينقطع ، كذا قال سيبويه . وقال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقدر تقديره : ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر. وقيل : هو مرتفع بالعطف على أن وما فى حيزها. وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق : « والبحر » بالنصب عطفا على اسم أن ، أو بفعل مضمر يفسره ﴿ **يمده** ﴾ . وقرأ ابن هرمز والحسن : « يمده » بضم حرف المضارعة وكسرالميم، من أمد . وقرأ جعفر بن محمد : « والبحر مداده» وجواب لو: ﴿ **ما نفدت كلمات الله** ﴾ أى كلماته التى هى عبارة عن معلوماته . قال أبو على الفارسى : المراد بالكلمات والله أعلم : ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود ، ووافقه القفال فقال : المعنى : أن الأشجار لوكانت أقلاما والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القشيرى: رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى . قال النحاس : قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما فى الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخلق . وقيل : إن قريشا قالت : ما أكثر كلام محمد ، فنزلت ، قاله السدى. وقيل : إنها لما نزلت: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء: ٨٥] فى اليهود ، قالوا : كيف وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، فنزلت . قال أبو عبيدة : المراد بالبحر هنا : الماء العذب الذى ينبت الأقلام، وأما الماء المالح فلا ينبت الأقلام . قلت : ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أى غالب لايعجزه شىء ، ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته. ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ أى إلا كخلق نفس واحدة وبعثها . قال النحاس : كذا قدره النحويون كخلق نفس مثل قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] قال

الزجاج : أى قدرة الله على بعث الخلق كلهم وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لكل ما يسمع ﴿ **بصير** ﴾ بكل ما يبصر .

وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **وأسبغ عليكم** ﴾ الآية ، قال : هذه من كنوز علمى ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « أما الظاهرة: فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة : فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم » [١] . وأخرج ابن مردويه، والبيهقى فى الشعب ، والديلمى وابن النجار عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ فقال: « أما الظاهرة : فالإسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة : فما ستر من مساوى عملك » [٢]. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: النعمة الظاهرة:الإسلام ، والنعمة الباطنة: كل ما يستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه قال فى تفسير الآية هى : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن إسحاق [٣] وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض** ﴾ الآية ؛ أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، أرأيت قولك ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٨٥] إيانا تريد أم قومك ؟ فقال: « كُلا » ، فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شىء ؟ فقال : « إنها فى علم الله قليل » ، وأنزل الله : ﴿ **ولو أن ما فى الأرض** ﴾ الآية [٤] . وأخرجه ابن مردويه عنه بأطول منه . وأخرج ابن مردويه أيضا عن ابن مسعود نحوه .

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن**

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤١٨٥) وإسناده ضعيف ، فيه محمد بن عبد الرحمن بن محمد قال الدارقطنى : «متروك هو وأبوه وجده » . لسان الميزان ٥/ ٢٥٥ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٤١٨٤) وإسناده ضعيف لضعف روح بن عبد الواحد . لسان الميزان ٢/ ٤٦٦ .

(٣) فى المطبوعة : « ابن أبى إسحاق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) ابن هشام ١/ ٣٣٦ وابن جرير ٢١/ ٥٢ وقال ابن كثير ٥/ ٣٩٥ : « وهذا يقتضى أن الآية مدنية والمشهور أنها مكية والله أعلم » .

وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ **ألم تر** ﴾ لكل أحد يصلح لذلك أو للرسول ﷺ ﴿ **أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الحج والأنعام ﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ أى ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وتتميما للمنافع ، والجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما ﴿ **كل يجرى إلى أجل مسمى** ﴾ اختلف فى الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل : هو يوم القيامة . وقيل : وقت الطلوع ووقت الأفول ، والأول أولى ، وجملة : ﴿ **وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ معطوفة على ﴿ **أن الله يولج** ﴾ أى خبير بما تعملونه من الأعمال ؛ لا تخفى عليه منها خافية ؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى . قرأ الجمهور: ﴿ **تعملون** ﴾ بالفوقية، وقرأ السلمى ونصر بن عامر والدورى عن أبى عمرو بالتحتية على الخبر . والإشارة بقوله: ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره ، والباء فى ﴿ **بأن الله** ﴾ للسببية ، أى ذلك بسبب أنه سبحانه ﴿**هو الحق** ﴾ وغيره الباطل ، أو متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿ **وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ قال مجاهد : الذى يدعون من دونه هو الشيطان . وقيل : ما أشركوا به من صنم أو غيره ، وهذا أولى ﴿ **وأن الله هو العلى الكبير** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **أن الله هو الحق** ﴾ والمعنى : أن ذلك الصنع البديع الذى وصفه فى الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله ، وبطلان ما سواه ، وعلوه وكبريائه ﴿ **هو العلى** ﴾ فى مكانته ، ذو الكبرياء فى ربوبيته وسلطانه .

ثم ذكر من عجيب صنعه وبديع قدرته نوعا آخر فقال : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله** ﴾ أى بلطفه بكم ورحمته لكم ، وذلك من أعظم نعمه عليكم : لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم فى البحر لطلب الرزق ، وقرأ ابن هرمز : « بنعمات الله » جمع نعمة ﴿**ليريكم من آياته** ﴾ « من » للتبعيض ، أى ليريكم بعض آياته. قال يحيى بن سلام : وهو جرى السفن فى البحر بالريح . وقال ابن شجرة : المراد بقوله : ﴿ **من آياته** ﴾ : ما يشاهدونه من قدرة الله . وقال النقاش : ما يرزقهم الله فى البحر ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ وشكر كثير ، يصبر عن معاصى الله ويشكر نعمه .

﴿ **وإذا غشيهم موج كالظلل** ﴾ شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما ، وإنما شبه الموج وهو واحد بالظلل ، وهى جمع ، لأن الموت يأتى شيئا بعد شىء ويركب بعضه بعضا . وقيل : إن الموج فى معنى الجمع لأنه مصدر ، وأصل الموج : الحركة

والازدحام ، ومنه يقال : ماج البحر وماج الناس . وقرأ محمد بن الحنفية : « موج كالظلال » جمع ظل :﴿ **دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أى دعوا الله وحده لا يعولون على غيره فى خلاصهم ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضر ولا ينفع سواه ، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا فى مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله ، وأخلصوا دينهم له ؛ طلبا للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ﴿ **فلما نجاهم إلى البر** ﴾ صاروا على قسمين : فقسم ﴿**مقتصد** ﴾ أى موف بما عاهد عليه الله فى البحر من إخلاص الدين له ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه إلى البر سالما . قال الحسن : معنى : ﴿ **مقتصد** ﴾ مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : مقتصد فى القول مضمر للكفر ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون فى الكلام حذف ، والتقدير : فمنهم مقتصد ومنهم كافر ، ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾ الختر : أسوأ الغدر وأقبحه ، ومنه قول الأعشى :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهرى : الختر : الغدر ، يقال : ختره فهو ختار . قال الماوردى : وهذا قول الجمهور . وقال ابن عطية : إنه الجاحد ، وجحد الآيات : إنكارها ، والكفور : عظيم الكفر بنعم الله سبحانه . ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده** ﴾ أى لا يغنى الوالد عن ولده شيئا ، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه . وقد تقدم بيان معناه فى البقرة ﴿ **ولا مولود هو جاز عن والده شيئا** ﴾ ذكر سبحانه فردين من القرابات وهو الوالد والولد ، وهما الغاية فى الحنو والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزى بالأولى ، فكيف بالأجانب ؟ اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك ولا يعول على غيرك ﴿**إن وعد الله حق** ﴾ لا يتخلف فما وعد به من الخير وأوعد به من الشر فهو كائن لا محالة ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** ﴾ وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**الغرور** ﴾ بفتح الغين المعجمة . والغرور هو : الشيطان ؛ لأن من شأنه أن يغر الخلق ويمنيهم بالأمانى الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ، ويصدهم عن طريق الحق . وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السميفع بضم الغين مصدر غر يغر غرورا ، ويجوز أن يكون مصدرا واقعا وصفا للشيطان على المبالغة .

﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ أى علم وقتها الذى تقوم فيه . قال الفراء : إن معنى هذا الكلام النفى ، أى ما يعلمه أحد إلا الله عز وجل . قال النحاس : وإنما صار فيه معنى النفى لما ورد عن النبى ﷺ أنه قال فى قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ [الأنعام : ٥٩]:« إنها هذه » (١) ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ فى الأوقات التى جعلها معينة لإنزاله ولا يعلم ذلك

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٢٧) والنسائى فى الكبرى فى النعوت (٧٧٢٨/ ١) كلاهما عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « مفاتح الغيب خمس : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ » الآية .

غيره ﴿ **ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ من الذكور والإناث والصلاح والفساد ﴿ **وما تدرى نفس** ﴾ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجن والإنس ﴿ **ماذا تكسب غدا** ﴾ من كسب دين أو كسب دنيا ﴿ **وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ أى بأى مكان يقضى الله عليها بالموت . قرأ الجمهور : ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ مشددا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى مخففا . وقرأ الجمهور :﴿ **بأى أرض** ﴾ وقرأ أبى بن كعب وموسى الأهوازى: « بأية» وجوز ذلك الفراء وهى لغة ضعيفة . قال الأخفش: يجوز أن يقال : مررت بجارية أى جارية. قال الزجاج : من ادعى أنه يعلم شيئا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **ختّار** ﴾ قال :جحاد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ قال : هو الشيطان . وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت، فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه وزاد : وقد علمت ما كسبت اليوم، فماذا أكسب غدا ؟ وزاد أيضا أنه سأله عن قيام الساعة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما فى الأرحام إلا الله ، ولا متى ينزل الغيث إلا الله ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله » (٢) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة فى حديث سؤاله عن الساعة وجوابه بأشراطها ، ثم قال : « فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا هذه الآية » وفى الباب أحاديث .

---

(١) ابن جرير٢١/ ٥٥ .

(٢) أحمد ٢/ ٥٢ والبخارى فى التفسير (٤٦٩٧) .

تفسير سورة السجدة

هى ثلاثون آية . وهى مكية ، كما رواه ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس . ورواه ابن مردويه عن ابن الزبير . وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال : هى مكية سوى ثلاث آيات : ﴿ أفمن كان مؤمنا ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث ، وكذا قال الكلبى ومقاتل ، وقيل : إلا خمس آيات من قوله : ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ إلى قوله : ﴿ الذى كنتم به تكذبون ﴾ . وقد ثبت عند مسلم وأهل السنن من حديث أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة بـ ﴿ الٓمٓ . تنزيل ﴾ السجدة ، و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الإنسان:١] . وأخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديثه أيضا (١) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وأحمد وعبد بن حميد والدارمى والترمذى والنسائى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ : ﴿ الٓمٓ . تنزيل ﴾ السجدة و ﴿تبارك الذى بيده الملك ﴾ [الملك : ١] (٢) . وأخرج أبو نصر والطبرانى ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « من صلى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرة قرأ فى الركعتين الأوليين ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١] و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص:١] وفى الركعتين الأخريين : ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ و﴿ الٓمٓ . تنزيل ﴾ السجدة كتبن له كأربع ركعات من ليلة القدر » (٣). وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ و﴿ الٓمٓ . تنزيل﴾ السجدة بين المغرب والعشاء فكأنما قام ليلة القدر ».وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:قال رسول الله ﷺ: «من قرأ فى ليلة ﴿ آلم . تنزيل ﴾ السجدة و﴿ يس﴾ [يس: ١] و﴿ اقتربت الساعة﴾ [القمر:١] و﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ كن له نورا وحرزا من الشيطان ، ورفع فى الدرجات إلى يوم القيامة ».وأخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع ، أن النبى ﷺ قال: «﴿ الٓمٓ . تنزيل﴾ تجىء لها جناحات يوم القيامة تظل صاحبها وتقول : لا سبيل عليه ، لا سبيل عليه » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ

---

(١) البخارى فى الصلاة (٨٩١) ومسلم فى الجمعة (٨٨٠/ ٦٥) والنسائى فى الكبرى فى افتتاح الصلاة (١٠٢٧/١) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٢٣) والدارمى ١/ ٣٦٢ .

(٢) أحمد ٣/ ٣٤٠ والدارمى ٢/ ٤٥٥ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٢) وقال : « هذا حديث رواه غير واحد عن ليث بن أبى سليم » والنسائى فى الكبرى فى اليوم والليلة (١٠٥٤٣) وصححه الحاكم ٢/ ٤١٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٣) الطبرانى (١٢٢٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٢ / ٢٣٤ : « وفيه يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعفه أحمد وابن المدينى وابن معين وقال البخارى : مقارب الحديث . وثقه مروان بن معاوية ، وقال أبو حاتم : محله الصدق وكانت فيه غفلة » والبيهقى ٢ / ٤٧٧ وإسناده ضعيف .

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ .

قوله : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة وعلى محلها من الإعراب فى سورة البقرة وفى مواضع كثيرة من فواتح السور ، وارتفاع ﴿ **تنزيل** ﴾ على أنه خبر لمتبدأ محذوف أو خبر بعد خبر على تقدير أن ﴿ **الٓمٓ** ﴾ فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو خبر لقوله : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ على تقدير أنه اسم للسورة ، و﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون ارتفاع ﴿ **تنزيل** ﴾ على أنه مبتدأ وخبره لا ريب فيه، و﴿ **من رب العالمين** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون هذه كلها أخبارا للمبتدأ المقدر قبل ﴿**تنزيل**﴾ ، أو لقوله : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسرودة على نمط التعديد . قال مكى : وأحسن الوجوه : أن تكون ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فى موضع الحال ، و﴿ **من رب العالمين** ﴾ الخبر ، والمعنى على هذه الوجوه : أن تنزيل الكتاب المتلو لا ريب فيه ولا شك وأنه منزل من رب العالمين ، وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .

و« أم » فى : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أيقولون هو مفترى ؟ فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ ، ومعنى ﴿ **افتراه** ﴾ : افتعله واختلقه . ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق فى شأن الكتاب فقال : ﴿ **بل هو الحق من ربك** ﴾ فكذبهم سبحانه فى دعوى الافتراء ، ثم بين العلة التى كان التنزيل لأجلها فقال : ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك** ﴾ وهم العرب وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول. وقيل : قريش خاصة ، والمفعول الثانى ﴿ **لتنذر** ﴾ محذوف، أى لتنذر قوما العقاب ، وجملة : ﴿ **ما أتاهم من نذير** ﴾ فى محل نصب على الحال و﴿ **من قبلك** ﴾ صفة لنذير . وجوز أبو حيان أن تكون ما موصولة ، والتقدير : لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم من نذير من قبلك ، وهو ضعيف جدا ، فإن المراد : تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله ، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به . وقيل : المراد بالقوم : أهل

الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ﴿ **لعلهم يهتدون** ﴾ رجاء أن يهتدوا ، أو كى يهتدوا .

﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ **قد تقدم** تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف ، والمراد من ذكرها هنا :تعريفهم كمال قدرته وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى خلق :أوجد وأبدع . قال الحسن : الأيام هنا هى من أيام الدنيا . وقيل : مقدار اليوم ألف سنة من سنى الدنيا ، قاله الضحاك . فعلى هذا المراد بالأيام هنا : هى من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا ، وليست ثم للترتيب فى قوله : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ وقد تقدم تفسير هذا مستوفى ﴿ **مالكم من دونه من ولى ولا شفيع** ﴾ أى ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه من ولى يواليكم ويرد عنكم عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده ﴿**أفلا تتذكرون** ﴾ تذكر تدبر وتفكر وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم ويعقل حتى تنتفعوا بها .

﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض** ﴾ لما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما، بين تدبيره لأمرهما ، أى يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض ، والمعنى : ينزل أمره من أعلا السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ،كما قال سبحانه :﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾ [الطلاق : ١٢] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التى تحتها نزولا وطلوعا ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : المراد بالأمور: المأموربه من الأعمال ، أى ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض . وقيل : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض. وقيل :ينزل الوحى مع جبريل. وقيل : العرش موضع التدبيركما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما فى قوله : ﴿ ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات ﴾ [الرعد : ٢] وما دون السموات موضع التصرف. قال الله : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ [الفرقان : ٥٠] .

ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال : ﴿ **ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ أى ثم يرجع ذلك الأمر ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه فى يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قدمنا . وقيل : إن المراد أنه يعرج إليه فى يوم القيامة الذى مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها . وقيل : هى أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة ، والمعنى : أنه يثبت ذلك عنده ، ويكتب فى صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض فى كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها . وقيل : معنى يعرج إليه : يثبت فى علمه موجودا بالفعل فى برهة من الزمان هى مقدار ألف سنة ، والمراد : طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان . وقيل : يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ فتنزل بها الملائكة ، ثم تعرج إليه فى زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : يقضى قضاء ألف سنة فتنزل به الملائكة ، ثم تعرج بعد الألف لألف آخر . وقيل : المراد : أن

الأعمال التى هى طاعات يدبرها الله سبحانه وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليه منها إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلة المخلصين من عباده . وقيل : الضمير فى : ﴿ **يعرج** ﴾ يعود إلى الملك ، وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق ، وقد جاء صريحا فى قوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ [المعارج: ٤] والضمير فى إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذى يرجع إليه وهو الذى أقره الله فيه .وقيل : المعنى : يدبر أمر الشمس فى طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة. وقيل : المعنى: إن الملك يعرج إلى الله فى يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام ، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام ، وقد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير . وقيل : مسافة النزول ألف سنة ومسافة الطلوع ألف سنة ، روى ذلك عن الضحاك . وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة ، وليس المراد به مسمى اليوم الذى هو مدة النهار بين ليلتين ، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر :

يومان : يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأديب

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين . وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم . قرأ الجمهور : ﴿ **يعرج** ﴾ على البناء للفاعل . وقرأ ابن أبى عبلة على البناء للمفعول ، والأصل : يعرج به ثم حذف حرف الجار فاستتر الضمير . وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : ٤] فقيل فى الجواب : إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة ، والعرب تصف كثيرا يوم المكروه بالطول ، كما تصف يوم السرور بالقصر ، كما قال الشاعر :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

وقول الآخر :

ويوم كإبهام القطاة قطعته

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنها ما مقداره ألف سنة ، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل: هى أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ، ثم ينقل إلى نوع آخر ، فيعذب به خمسين ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا كل موقف ألف سنة ، فيكون معنى ﴿ **يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ : أنه يعرج إليه فى وقت من تلك الأوقات أو موقف من تلك المواقف . وحكى الثعلبى عن مجاهد وقتادة والضحاك أنه أراد سبحانه فى قوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التى هى مقام جبريل ، والمراد : أنه يسير جبريل ومن معه من

الملائكة فى ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة فى مقدار يوم واحد من أيام الدنيا ، وأراد بقوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ المسافة التى بين الأرض وبين سماء الدنيا هبوطا وصعودا فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ؛ وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة ، فقوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ يعنى يدبر الأمر فى زمان يوم منه ألف سنة . فكم يكون الشهر منه ؟ وكم تكون السنة منه ؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة وبين خمسين ألف سنة . وقيل غير ذلك . وقد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتى فى آخر البحث إن شاء الله. قرأ الجمهور : ﴿ **مما تعدون** ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن والسلمى وابن وثاب والأعمش بالتحتية على الغيبة .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم . وفى هذا معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر ، فهو مجاز لكل عامل بعمله . أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿ **العزيز** ﴾ القاهر الغالب ﴿ **الرحيم** ﴾ بعباده ، وهذه أخبار لذلك المبتدأ ، وكذلك قوله :﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه** ﴾ هوخبر آخر . قرأ الجمهور : ﴿**خلقه** ﴾ بفتح اللام . وقرا ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بإسكانها ، فعلى القراءة الأولى هو فعل ماض نعتا لشىء ، فهو فى محل جر . وقد اختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم ، ويجوز أن تكون صفة للمضاف فيكون فى محل نصب . وأما على القراءة الثانية ففى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلا من كل شىء بدل اشتمال والضمير عائد إلى كل شىء ، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة. الثانى: أنه بدل كل من كل ، والضمير راجع إلى الله سبحانه ، ومعنى ﴿ **أحسن** ﴾ : حسن ، لأنه ما من شىء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة. الثالث : أن يكون ﴿ **كل شىء** ﴾ هو المفعول الأول ، و﴿ **خلقه** ﴾ هو المفعول الثانى على تضمين أحسن معنى : أعطى ، والمعنى : أعطى كل شىء خلقه الذى خصه به . وقيل : على تضمينه معنى: ألهم . قال الفراء : ألهم خلقه كل شىء مما يحتاجون إليه . الرابع : أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة، أى خلقه خلقا كقوله :﴿ صنع الله ﴾ [النمل : ٨٨] وهذا قول سيبويه . والضمير يعود إلى الله سبحانه . والخامس : أنه منصوب بنزع الخافض ، والمعنى : أحسن كل شىء فى خلقه ، ومعنى الآية : أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته ، فبعض المخلوقات وإن لم تكن حسنة فى نفسها ، فهى متقنة محكمة ، فتكون هذه الآية معناها معنى ﴿ أعطى كل شىء خلقه ﴾ [طه : ٥٠] أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق [١] البهيمة على خلق الإنسان . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ، أى أحسن خلق كل شىء حسن .

---

(١) فى المطبوعة : « وخلق لا البهيمة » ولعله سبق قلم ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ يعنى : آدم :خلقه من طين فصار على صورة بديعة وشكل حسن ﴿ وجعل نسله ﴾ أى ذريته ﴿ من سلالة ﴾ سميت الذرية سلالة لأنها تسل من الأصل وتنفصل عنه ، وقد تقدم تفسيرها فى سورة « المؤمنون» ؛ ومعنى ﴿ من ماء مهين ﴾: من ماء ممتهن لا خطر له عند الناس وهو المنى . وقال الزجاج: من ماء ضعيف . ﴿ ثم سواه ﴾ أى الإنسان الذى بدأ خلقه من طين ، وهو آدم ، أو جميع النوع . والمراد : أنه عدل خلقه وسوى شكله وناسب بين أعضائه ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، وهذه الإضافة تقوى أن الكلام فى آدم لا فى ذريته وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع . ثم خاطب جميع النوع فقال: ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أى خلق لكم هذه الأشياء تكميلا لنعمته عليكم وتتميما لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم ، فتسمعون كل مسموع وتبصرون كل مبصر ، وتتعقلون كل متعقل ، وتفهمون كل ما يفهم . وأفرد السمع لكونه مصدرا يشمل القليل والكثير ، وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم ولهذا جمعا ؛ لأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد ، وهو الأذن ولا اختيار لها فيه ، فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على رده ، ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض ؛ بخلاف الأبصار فمحلها العين وله فيه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب المرئى دون غيره ، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشىء ؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار فى إدراكه ، فيتعقل هذا دون هذا ، ويفهم هذا دون هذا . قرأ الجمهور : ﴿وبدأ ﴾ بالهمز ، والزهرى بألف خالصة بدون همز ، وانتصاب ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف ، أى شكرا قليلا ، أو صفة زمان محذوف ، أى زمانا قليلا . وفى هذا بيان لكفرهم لنعم الله وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال .

﴿ وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ قد تقدم اختلاف القراء فى هذه الهمزة وفى الهمزة التى بعدها . والضلال : الغيبوبة ، يقال : ضل الميت فى التراب : إذا غاب وبطل ، والعرب تقول للشىء إذا غلب عليه غيره حتى خفى أثره : قد ضل . ومنه قول الأخطل :

كنت القذى فى موج أكدر مزبد قذف الأتى بها فضل ضلالا

قال قطرب : معنى ﴿ ضللنا فى الأرض ﴾ : غبنا فى الأرض . قرأ الجمهور ﴿ ضللنا ﴾ بفتح ضاد معجمة ولام مفتوحة بمعنى : ذهبنا وضعنا وصرنا ترابا وغبنا عن الأعين ، وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء : « ضللنا » بكسر اللام ، وهى لغة العالية من نجد . قال الجوهرى : وأهل العالية يقولون : ضللت بالكسر . قال : وأضله ، أى أضاعه وأهلكه ، يقال : ضل الميت : إذا دفن . وقرأ على بن أبى طالب والحسن والأعمش وأبان بن سعيد : «صللنا » بصاد مهملة ولام مفتوحة ، أى أنتنا . قال النحاس : ولا يعرف فى اللغة : صللنا ، ولكن يقال: صل اللحم : إذا أنتن . قال الجوهرى : صل اللحم يصل بالكسر صلولا : إذا أنتن ، مطبوخا كان أونيئا ، ومنه قول الحطيئة :

ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه الصلول

﴿ **أإنا لفى خلق جديد** ﴾ أى نبعث ونصير أحياء ، والاستفهام للاستنكار . وهذا قول منكرى البعث من الكفار ، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه ، وهو كفرهم بلقاء الله ، فقال : ﴿ **بل هم بلقاء ربهم كافرون** ﴾ أى جاحدون له مكابرة وعنادا ، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة .

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يبين لهم الحق ويرد عليهم ما زعموه من الباطل ، فقال : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾ يقال :توفاه الله واستوفى روحه إذا قبضه إليه ، وملك الموت هو : عزرائيل ، ومعنى ﴿ **وكل بكم** ﴾ : وكل بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ أى تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يدبر الأمر** ﴾ الآية قال : هذا فى الدنيا ، تعرج الملائكة فى يوم مقداره ألف سنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ قال : من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف ، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبى مليكة قال: دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان ، فقال له ابن فيروز : يا أبا عباس ، قوله : ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة** ﴾ فكأن ابن عباس اتهمه فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ قال : إنما سألتك لتخبرنى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول فى كتاب الله مالا أعلم ، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب ، فسأله عنها إنسان فلم يخبره ولم يدر . فقلت : ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس ؟ قال : بلى ، فأخبرته فقال للسائل : هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها ، وهو أعلم منى. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كان مقداره ألف سنة** ﴾ قال : لا ينتصف النهار فى مقدار يوم من أيام الدنيا فى ذلك اليوم حتى يقضى بين العباد ، فينزل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ولو كان إلى غيره لم يفرغ من ذلك خمسين ألف سنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ثم يعرج إليه فى يوم** ﴾ من أيامكم هذه ، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

وأخرج ابن أبى شيبة ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ **الذى أحسن كلّ شىء خلقه** ﴾ قال : أما رأيت القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية أنه قال : أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها ، وقال ﴿ **خلقه** ﴾ صورته. وقال ﴿ **أحسن كلّ شىء** ﴾

القبيح والحسن والعقارب والحيات وكلّ شيء مما خلق ، وغيره لا يحسن شيئا من ذلك .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل ، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه ، فقال : يا رسول الله ، إني أحمش الساقين ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عمرو بن زرارة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء خلقه ، يا عمرو بن زرارة إن الله لا يحب المسبلين » . وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبي ﷺ رجلا قد أسبل إزاره . فقال:« ارفع إزارك » ، فقال : يا رسول الله ، إني أحنف تصطك ركبتاي ، فقال : « ارفع إزارك كل خلق الله حسن » [(١)] .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم** ﴾ المراد بالمجرمين هم : القائلون :﴿ **أئذا ضللنا** ﴾ ، والخطاب هنا لكل من يصلح له ، أو لرسول الله ﷺ . ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم ، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولا أوليا ، ومعنى ﴿ **ناكسو رؤوسهم** ﴾: مطأطئوها حياء وندما على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله والعصيان له ، ومعنى عند ربهم : عند محاسبته لهم . قال الزجاج : والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته ، فالمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا** ﴾ أي يقولون : ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به وسمعنا ما كنا ننكره . وقيل : أبصرنا صدق

---

(١) أحمد ٤ / ٣٩٠ والطبراني (٧٢٤٠) قال الهيثمي في المجمع ٥ / ١٢٧ : « ورجال أحمد رجال الصحيح » .

وعيدك وسمعنا تصديق رسلك ، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿ **فارجعنا** ﴾ إلى الدنيا ﴿ **نعمل** ﴾ عملا ﴿ **صالحا** ﴾ كما أمرتنا ﴿ **إنا موقنون** ﴾ أى مصدقون . وقيل : مصدقون بالذى جاء به محمد ﷺ ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعا فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا ، وأنى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿ لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقيل : معنى ﴿ **إنا موقنون**﴾ أنها قد زالت عنهم الشكوك التى كانت تخالطهم فى الدنيا لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ **أبصرنا وسمعنا** ﴾ : صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول ، ويجوز أن يكون صالحا مفعولا لـ ﴿ **نعمل** ﴾ كما يجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف، وجواب لو محذوف ، أى لرأيت أمرا فظيعا وهولا هائلا .

﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾ هذا رد عليهم لما طلبوا الرجعة ، أى لو شئنا لآتينا كل نفس هداها فهدينا الناس جميعا فلم يكفر منهم أحد . قال النحاس : فى معنى هذا قولان : أحدهما : أنه فى الدنيا ، والآخر : أنه فى الآخرة ، أى ولوشئنا لرددناهم إلى الدنيا ﴿ **ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ وجملة:﴿ **ولو شئنا** ﴾ مقدرة بقول معطوف على المقدر قبل قوله : ﴿ **أبصرنا** ﴾ أى ونقول : لو شئنا ، ومعنى ﴿ **ولكن حق القول منى** ﴾ : أى نفذ قضائى وقدرى وسبقت كلمتى ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ هذا هو القول الذى وجب من الله وحق على عباده ونفذ فيه قضاؤه ، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كل نفس هداها ، وإنما قضى عليهم بهذا ؛ لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة ، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى .

والفاء فى قوله :﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله ، والباء فى ﴿ **بما نسيتم** ﴾ للسببية ، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدم ، بل بذاك وهذا واختلف فى النسيان المذكور هنا ، فقيل : هو النسيان الحقيقى ، وهو الذى يزول عنده الذكر . وقيل : هو الترك . والمعنى على الأول : أنهم لم يعملوا لذلك اليوم ، فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه . وعلى الثانى : لابد من تقدير مضاف قبل لقاء ، أى ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا ، ورجح الثانى المبرد وأنشد :

كأنه خارج من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد

أى تركوه ، وكذا قال الضحاك ويحيى بن سلام : إن النسيان هنا بمعنى : الترك . قال يحيى بن سلام : والمعنى : بما تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم تركناكم من الخير ، وكذا قال السدى ، وقال مجاهد :تركناكم فى العذاب. وقال مقاتل : إذا دخلوا النار . قالت لهم الخزنة : ذوقوا العذاب بما نسيتم ، واستعار الذوق للإحساس ، ومنه قول طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجة من الغيظ فى أكبادنا والتحوب

وقوله : ﴿ **وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾ تكرير لقصد التأكيد ، أى ذوقوا العذاب الدائم الذى لا ينقطع أبدا بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . قال الرازى فى تفسيره : إن اسم الإشارة فى قوله : ﴿ **بما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب .

وجملة : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا** ﴾ مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان ، ومن لا يستحقها . والمعنى : إنما يصدق بآياتنا وينتفع بها ﴿ **الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا** ﴾ لا غيرهم ممن يذكر بها ، أى يوعظ بها ولا يتذكر ولا يؤمن بها ، ومعنى ﴿ **خروا سجدا** ﴾ : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات الله وخوفا من سطوته وعذابه ﴿ **وسبحوا بحمد ربهم** ﴾ أى نزهوه عن كل مالا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه ، التى أجلها وأكملها الهداية إلى الإيمان ، والمعنى : قالوا فى سجودهم : سبحان الله وبحمده ، أو سبحان ربى الأعلى وبحمده . وقال سفيان : المعنى : صلوا حمدا لربهم ، وجملة : ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم خاضعين لله ، متذللين له غير مستكبرين عليه .

﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ أى ترتفع وتنبو ، يقال : جفى الشىء عن الشىء وتجافى عنه : إذا لم يلزمه ونبا عنه ، والمضاجع جمع: المضجع ، وهو الموضع الذى يضطجع فيه . قال الزجاج والرمانى : التجافى والتجفى إلى جهة فوق، وكذلك هو فى الصفح عن المخطئ فى سب ونحوه . والجنوب :جمع جنب ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى متجافية جنوبهم عن مضاجعهم ، وهم المتهجدون فى الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش ، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور . والمراد بالصلاة: صلاة التنفل بالليل من غير تقييد . وقال قتادة وعكرمة : هو التنفل ما بين المغرب والعشاء . وقيل : صلاة العشاء فقط . وهو رواية عن الحسن وعطاء . وقال الضحاك : صلاة العشاء والصبح فى جماعة . وقيل : هم الذين يقومون لذكر الله سواء كان فى صلاة أو غيرها ﴿ **يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ : هذه الجملة فى محل نصب على الحال أيضا من الضمير الذى فى جنوبهم ، فهى حال بعد حال ، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعاتهم ، والمعنى : تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى من الذى رزقناهم أو من رزقهم ، وذلك الصدقة الواجبة . وقيل : صدقة النفل ، والأولى الحمل على العموم . وانتصاب ﴿ **خوفا** ﴾ و﴿ **طمعا** ﴾ على العلة ، ويجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقدر .

﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، أى لا تعلم نفس من النفوس ، أى نفس كانت ، ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم ، مما تقر به أعينهم ، قرأ الجمهور ﴿ **من قرة** ﴾ بالإفراد . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة وأبو الدرداء : « من قرات » بالجمع ، وقرأ حمزة « ما أخفى » بسكون الياء على أنه فعل مضارع

مسند إلى الله سبحانه . وقرأ الباقون بفتحها فعلا ماضيا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود : «ما نخفى » بالنون مضمومة ،. وقرأ الأعمش :« يخفى » بالتحتية مضمومة . قال الزجاج فى معنى قراءة حمزة : أى منه ما أخفى الله لهم ، وهى قراءة محمد بن كعب ، و« ما » فى موضع نصب . ثم بين سبحانه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة فقال : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ أى لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا أو جوزوا جزاء بذلك .

﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت ، ولهذا قال : ﴿ **لا يستوون** ﴾ ففيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذى أفاده الاستفهام . قال الزجاج : جعل الاثنين جماعة حيث قال : ﴿ **لا يستوون** ﴾ لأجل معنى من . وقيل : لكون الاثنين أقل الجمع ، وسيأتى بيان سبب نزولها آخر البحث . ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين فقال : ﴿ **أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **جنات** ﴾ بالجمع . وقرأ طلحة بن مصرف : « جنة المأوى » بالإفراد ، والمأوى هو الذى يأوون إليه ، وأضاف الجنات إليه ، لكونه المأوى الحقيقى. وقيل : المأوى : جنة من الجنات ، وقد تقدم الكلام على هذا ، ومعنى ﴿ **نزلا** ﴾ : أنها معدة لهم عند نزولهم ، وهو فى الأصل : ما يعد للنازل من الطعام والشراب كما بيناه فى آل عمران ، وانتصابه على الحال . وقرأ أبو حيوة : « نزلا » بسكون الزاى . والباء فى ﴿ **بما كانوا يعملون**﴾ للسببية ، أى بسبب ما كانوا يعملونه ، أو بسبب عملهم .

ثم ذكر الفريق الآخر فقال : ﴿ **وأما الذين فسقوا** ﴾ أى خرجوا عن طاعة الله وتمردوا عليه وعلى رسله ﴿ **فمأواهم النار** ﴾ أى منزلهم الذى يصيرون إليه ويستقرون فيه هو النار ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ أى إذا أرادوا الخروج منها، ردوا إليها راغمين مكرهين . وقيل : إذ دفعهم اللهب إلى أعلاها ردوا إلى مواضعهم ﴿ **وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾ والقائل لهم هذه المقالة هو خزنة جهنم من الملائكة ، أو القائل لهم هو الله عز وجل . وفى هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا فى النار من الإغاظة لهم مالا يخفى . ﴿**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى** ﴾ وهو عذاب الدنيا . قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعى : هو مصائب الدنيا وأسقامها .وقيل : الحدود . وقيل : القتل بالسيف يوم بدر. وقيل :سنين الجوع بمكة . وقيل :عذاب القبر ، ولا مانع من الحمل على الجميع ﴿ **دون العذاب الأكبر** ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ مما هم فيه من الشرك والمعاصى بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه . وفى هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال : إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر .

﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها** ﴾ أى لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة ، فجعل الإعراض مكان ذلك ، والمجىء بثم للدلالة على استبعاد ذلك . وأنه مما ينبغى أن لا يكون ﴿ **إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ أى من

أهل الإجرام على العموم فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولا أوليا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنا نسيناكم** ﴾ قال : تركناكم . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه قال : نزلت هذه الآية فى شأن الصلوات الخمس : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا** ﴾ أى أتوها ﴿ **وسبحوا** ﴾ أى صلوا بأمر ربهم ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾ عن إتيان الصلاة فى الجماعات . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة عن أنس بن مالك ؛ أن هذه الآية ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة (١). وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن مردويه عنه قال : نزلت فى صلاة العشاء. وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء . وأخرج ابن أبى شيبة عنه قال : كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن مردويه عنه أيضا قال : ما رأيت رسول الله ﷺ راقدا قط قبل العشاء ، ولا متحدثا بعدها ، فإن هذه الآية نزلت فى ذلك : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ قال: « هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم » . فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير.

وأخرج ابن مردويه عن بلال قال : كنا نجلس فى المسجد وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن عدى وابن مردويه عن أنس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود ومحمد ابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس فى قوله : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ قال : كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون(٣) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿**تتجافى جنوبهم** ﴾ قال : قيام العبد من الليل (٤) . وأخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجة وابن نصر فى كتاب الصلاة وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ ، وذكرحديثا وأرشد فيه إلى أنواع من الطاعات وقال فيه :« وصلاة الرجل فى جوف الليل » ، ثم قرأ : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن**

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٩٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » وابن جرير ٢١/ ٦٤ . قال ابن كثير ٥/ ٤٠٩ : « وإسناده جيد » .

(٢) عبد الرزاق (٢١٣٨) وأخرجه عن عائشة أيضا (٢١٣٧) وفى إسناد الأخير قال الهيثمى ١/ ٣١٦ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) ابن أبى شيبة ٢/ ١٩٨ وأبو داود فى الصلاة (١٣٢١) وابن جرير ٢١/ ٦٣ والبيهقى ٣/ ١٩ .

(٤) أحمد ٥/ ٢٣٧ وابن جرير ٢١/ ٦٥ .

المضاجع ﴾ (١) وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا فى حديث قال فيه : « وصلاة المرء فى جوف الليل » ، ثم تلا هذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن أنس فى الآية قال : كان لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد من طريق أبى عبد الله الجدلى عن عبادة بن الصامت عن كعب قال : إذا حشر الناس نادى مناد : «هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الحديث . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية يقول : تتجافى لذكر الله كلما استيقظوا ذكروا الله ، إما فى الصلاة ، وإما فى القيام أو القعود . أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : كان عرش الله على الماء فاتخذ جنة لنفسه . ثم اتخذ دونها أخرى ، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة ، ثم قال ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [الرحمن : ٦٢] لم يعلم الخلق ما فيهما . وهى التى قال الله: ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ (٢) تأتيهم منها كل يوم تحفة . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب فى التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرب ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ (٤). وفى الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة ، وهى معروفة فلا نطول بذكرها .

وأخرج أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى ، والواحدى وابن عدى وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعلى بن أبى طالب : أنا أحد منك سنانا ، وأنشط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت: ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون** ﴾ (٥) يعنى بالمؤمن: عليا ،

---

(١) أحمد ٥ / ٢٣٧ والترمذى فى الإيمان (٢٦١٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤١٤) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٣) وابن جرير ٢١/ ٦٤ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٣ وقال : « على شرط الشيخين » ووافقه الذهبى والبيهقى ٩/ ٢٠ .

(٢) ابن جرير ٢١/ ٦٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٣) ابن أبى شيبة فى الجنة (١٥٨٥٠) وابن جرير ٢١/ ٦٥ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٤ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٣ : « رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم وهو ضعيف » .

(٤) أحمد ٢/ ٤٣٨ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤/ ٢) والترمذى (٣١٩٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) الأغانى ٤/ ١٨٢ والواحدى فى أسباب النزول (٥٠٠) .

وبالفاسق : الوليد بن عقبة بن أبى معيط . وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه فى الآية نحوه . وروى نحو هذا عن عطاء بن يسار والسدى وعبد الرحمن بن أبى ليلى .

وأخرج الفريابى وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى** ﴾ قال :يوم بدر ﴿ **دون العذاب الأكبر** ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال : لعل من بقى منهم أن يتوب فيرجع . وأخرج ابن أبى شيبة والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود فى الآية قال : العذاب الأدنى : سنون أصابتهم ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال : يتوبون . وأخرج مسلم وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبو عوانة فى صحيحه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى** ﴾ قال : مصائب الدنيا والروم ، والبطشة والدخان . وأخرج ابن جرير عنه قال : يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **من العذاب الأدنى** ﴾ قال : الحدود ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ قال: يتوبون. وأخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن معاذ بن جبل :سمعت رسول الله ﷺ يقول :« ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم ، يقول الله : ﴿ **إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ »(١) . قال ابن كثير بعد إخراجه : هذا حديث غريب (٢) .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)** ﴾ .

قوله: ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أى التوراة ﴿ **فلا تكن** ﴾ يا محمد ﴿ **فى مرية** ﴾ أى شك وريبة ﴿ **من لقائه** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقى موسى

(١) ابن جرير ٢١/ ٧٠ والطبرانى ٢٠/ ٦١ (١١٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٣ : « فيه عبد العزيز بن عبيد الله ابن حمزة وهو ضعيف » .

(٢) ابن كثير ٥/ ٤١٥ .

قبل أن يموت ، ثم لقيه فى السماء أو فى بيت المقدس حين أسرى به . وهذا قول مجاهد والكلبى والسدى . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى للكتاب . قاله الزجاج . وقال الحسن : إن معناه : ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذى ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى فيكون الضمير فى لقائه على هذا عائدا على محذوف ، والمعنى : من لقاء ما لاقى موسى . قال النحاس : وهذا قول غريب . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم، فلا تكن فى مرية من لقائه ، فجاء معترضا بين ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ وبين ﴿ **وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى الكتاب الذى هو الفرقان كقوله : ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ [النمل : ٦] والمعنى : أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وما أبعد هذا ، ولعل الحامل لقائله عليه قوله : ﴿ **وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ فإن الضمير راجع إلى الكتاب . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **لقائه** ﴾ عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله : ﴿**ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ أى لا تكن فى مرية من لقاء الرجوع ، وهذا بعيد أيضا . واختلف فى الضمير فى قوله : ﴿ **وجعلناه** ﴾ فقيل : هو راجع إلى الكتاب ، أى جعلنا التوراة هدى لبنى إسرائيل ، قاله الحسن وغيره . وقال قتادة : إنه راجع إلى موسى ، أى وجعلنا موسى هدى لبنى إسرائيل .

﴿ **وجعلنا منهم أئمة** ﴾ أى قادة يقتدون به فى دينهم ، وقرأ الكوفيون : « أئمة » قال النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ، لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة ، ومعنى ﴿**يهدون بأمرنا** ﴾: أى يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليهم من أحكام التوراة ومواعظها بأمرنا، أى بأمرنا لهم بذلك ، أو لأجل أمرنا . وقال قتادة : المراد بالأئمة : الأنبياء منهم . وقيل: العلماء ﴿ **لما صبروا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لما** ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم ، أى حين صبروا ، والضمير للأئمة، وفى «لما» معنى الجزاء ، والتقدير : لما صبروا جعلناهم أئمة . وقرأ حمزة والكسائى وخلف وورش عن يعقوب ويحيى بن وثاب بكسر اللام وتخفيف الميم ، أى جعلناهم أئمة لصبرهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلا بقراءة ابن مسعود : « بما صبروا » بالباء ، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس ، وقيل : صبروا عن الدنيا ﴿**وكانوا بآياتنا** ﴾ التنزيلية ﴿ **يوقنون** ﴾ أى يصدقونها ويعلمون أنها حق وأنها من عند الله ؛ لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم .

﴿**إن ربك هو يفصل بينهم**﴾ أى يقضى بينهم ويحكم بين المؤمنين والكفار﴿ **يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ وقيل : يقضى بين الأنبياء وأممهم ، حكاه النقاش . ﴿ **أو لم يهد لهم** ﴾ أى أو لم يبين لهم ، والهمزة للإنكار ، والفاعل ما دل عليه ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من القرون**﴾ أى أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم . قال الفراء : ﴿ **كم** ﴾ فى موضع رفع

بـ﴿ **يهد** ﴾ . وقال المبرد : إن الفاعل : الهدى المدلول عليه بـ ﴿ **يهد** ﴾ ، أى أو لم يهد لهم الهدى . وقال الزجاج : ﴿ **كم** ﴾ فى موضع نصب بـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ ، قرأ الجمهور : ﴿**أو لم يهد** ﴾ بالتحتية ، وقرأ السلمى وقتادة وأبو زيد عن يعقوب بالنون ، وهذه القراءة واضحة . قال النحاس : والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل فأين الفاعل لـ﴿ **يهد** ﴾ ؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ماقدمنا ذكره، والمراد بالقرون : عاد وثمود ونحوهم ، وجملة : ﴿ **يمشون في مساكنهم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير لهم ، أى والحال أنهم يمشون فى مساكن المهلكين ويشاهدونها ، وينظرون ما فيها من العبر ، وآثار العذاب . ولا يعتبرون بذلك . وقيل : يعود إلى المهلكين ، والمعنى : أهلكناهم حال كونهم ماشين فى مساكنهم ، والأول أولى ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور ﴿ **لآيات** ﴾ عظيمات ، أفلا يسمعونها ويتعظون بها .

﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز** ﴾ أى أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التى لا تنبت إلا بسوق الماء إليها . وقيل : هى اليابسة ، وأصله من الجرز وهو: القطع أى التى قطع نباتها لعدم الماء ، ولا يقال للتى لا تنبت أصلا كالسباخ جرز لقوله : ﴿ **فنخرج به زرعا** ﴾ قيل : هى أرض اليمن . وقيل : أرض عدن . وقال الضحاك : هى الأرض العطشى . وقال الفراء : هى الأرض التى لا نبات فيها . وقال الأصمعى : هى الأرض التى لا تنبت شيئا. قال المبرد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام . وقيل : هى مشتقة من قولهم : رجل جروز : إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله ، ومنه قول الراجز :

خب جروز وإذا جاع بكى ويأكل التمر ولا يلقى النوى

وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وقال مجاهد : إنها أرض النيل ؛ لأن الماء إنما يأتيها فى كل عام ﴿ **فنخرج به** ﴾ ، أى بالماء ﴿ **زرعا تأكل منه أنعامهم** ﴾ أى من الزرع كالتبن والورق ونحوهما مما لا يأكله الناس ﴿ **وأنفسهم** ﴾ أى يأكلون الحبوب الخارجة فى الزرع مما يقتاتونه ، وجملة : ﴿ **تأكل منه أنعامهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **أفلا يبصرون** ﴾ هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحدونه ، لكونه المنفرد بإيجاد ذلك . ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين** ﴾ القائلون هم الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص، أى متى الفتح الذى تعدونا به ، يعنون بالفتح: القضاء والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذى يقضى الله فيه بين عباده، قاله مجاهد وغيره . وقال الفراء والقتيبى: هو فتح مكة . قال قتادة : قال أصحاب النبى ﷺ للكفار : إن لنا يوما ننعم فيه ونستريح ويحكم الله بيننا وبينكم ، يعنون يوم القيامة ، فقال الكفار : متى هذا الفتح ؟ وقال السدى : هو يوم بدر، لأن أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون للكفار : إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم ، « ومتى » فى قوله :﴿ **متى هذا الفتح** ﴾ فى موضع رفع ، أو فى موضع نصب على الظرفية.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم فقال :﴿ **قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ وفى هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة ؛ لأن يوم فتح مكة ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان. وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح ، وقبل ذلك منهم النبى ﷺ، ومعنى ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ : لا يمهلون ولا يؤخرون ، « ويوم » فى ﴿ **يوم الفتح** ﴾ منصوب على الظرفية ، وأجاز الفراء الرفع ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ أى عن سفههم وتكذيبهم ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ **وانتظر إنهم منتظرون** ﴾ أى وانتظر يوم الفتح ، وهو يوم القيامة ، أو يوم إهلاكهم بالقتل ، إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت أو قتل أو غلبة كقوله : ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ [التوبة : ٥٢] ويجوز أن يراد : **إنهم منتظرون لإهلاكهم** ، والآية منسوخة بآية السيف . وقيل : غير منسوخة ، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال . وقرأ ابن السميفع : « إنهم منتظرون » بفتح الظاء مبنيا للمفعول ، ورويت هذه القراءة عن مجاهد وابن محيصن . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، أى إنهم منتظر بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ، أى انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلا طويلا جعدا كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكا خازن جهنم والدجال فى آيات أراهن الله إياه »(١) قال : ﴿ **فلا تكن فى مرية من لقائه** ﴾ فكان قتادة يفسرها : أن النبى ﷺ قد لقى موسى ﴿ **وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبنى إسرائيل. وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء فى المختارة بسند ، قال السيوطى : صحيح ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ :﴿ **فلا تكن فى مرية من لقائه** ﴾ قال :« من لقاء موسى » ، قيل : أو لقى موسى ؟ قال :نعم ، ألا ترى إلى قوله :﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ [الزخرف : ٤٥] . وأخرج الفريابى، وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز** ﴾ قال : الجرز التى لا تمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا إلا ما يأتيها من السيول . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله :﴿ **إلى الأرض الجرز** ﴾ قال : أرض باليمن . قال القرطبى فى تفسيره : والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه (٢) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين** ﴾ قال : يوم بدر فتح للنبى ﷺ فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت.

---

(١) أحمد ١ / ٢٤٥ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٣٩) ومسلم فى الإيمان (١٦٥ / ٢٦٧) .
(٢) القرطبى ٨ / ٥١٩٣ .